علم النفس الإنساني

تحرير

فرانك سيفيرين

ترجمة

طلعت منصور
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية جامعة عين شمس

عادل عز الدين
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية جامعة عين شمس

فيولا الببلاوي
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية جامعتي بنها والكويت

الطبعة الثانية

طبعة جديدة ومنقحة



مكتبة الأنجلو المصرية

هذه ترجمة لكتاب:

Frank T. Severin: Humanistic Viewpoints in Psychology: A book of readings.

New York, St, Louis, San Francisco, Toronto, London, Sydney: Mc Graw-Hill Book Company.

Library of Congress Catalog Card Number: 65-17395.

الطبعة الأولى

١٩٧٨

الطبعة الثانية

طبعة جديدة ومنقحة

٢٠١٩

تقديم الترجمة

لقد خرج علم النفس إلى الإنســانية بحشــد هائل من النظريات والتصورات، والتقنيــات والفنيــات، والبيانــات والحقائــق.. كان مــن نتيجتهــا طــرح «نمــاذج» للإنســان، متعــددة، متناقضة فــي بعض الحالات أو فــي كثيرها.

الإنســان، كمــا تبــدى مــن منجــزات علــم النفــس، نعرفــه بصور وبأشــكال مختلفــة ومتباينــة أو حتــى متضادة.. وفقــاً للمنظور الذي ارتأه منــه عالم النفس بخلفيتــه وبثقافــة عصــره.. فمن يقــرأ كتاباً فــي التحليــل النفســي، وينتقل إلى كتــاب آخــر مــن وجهــة النظــر الســلوكية، أو مــن منطلــق مجالــي أو ظاهري أو وجــودي، ليجــد نفســه يتنقل أمــام نمــاذج مختلفــة للإنســان.. إنســان التحليل النفســي يختلــف، بــل ويتناقض، بدرجــة أو بأخرى، عن إنســان الســلوكية، وعن إنســان المجاليــة والوجوديــة وغيــر ذلك من التعــدد والتناقض الــذي يصعب معه جمــع أشــتات وأضــداد الإنســان، كمــا تناولتها مــدارس علــم النفــس ونظرياته بالتفتيــت وبالتحليــل.. الأمــر الــذي قــد يصعب معه الخــروج بصورة كليــة كتلية عــن ماهية الإنســان وجوهــره الحقيقي..

وارتباطــا بهــذه النماذج وبفروعها المتعددة، ارتســم الإنســان بصــور مختلفة فــي عقول الناس وفــي مختلف مجالات الحياة.. بل ولقد ســيطرت هذه الصور على فهم طبيعة الإنســان فــي أماكن وفترات مختلفة.. فهو الإنســان «المضطرب» فــي التحليل النفسي، وهو الانسان «الآلي» فــي السلوكية، وهو الإنسان «الموقفي» فــي المجالية، الخ، إن صــح هذا التجريد.

«إنســانات» متباينــة للإنســان.. وما لهذا من مــردود ناقــص الإيجابية على الحياة الإنســانية ذاتها، لأن فهم الإنســان بتصور معين يحدد ويفرض «التوقعات» المنتظــرة من الانســان، والتــي بناء عليها تتحدد المســالك والإجــراءات ، وتخطط الجهود والمناشط..

وهــل يغيب عن أذهاننا التشــنج الــذي قد يبديه بعض أصحــاب علم النفس ممــن ينتمــون إلى مدرســة دون الأخــرى، إذا خرج أحــد عن «عرينهــم» أو خالف «طقوســهم» أو لــم يلــف لهــم؛ فهو ليــس منهم، خــارج عليهم، يســتحق أن يقذف بحجــارة اللافهم والــلا عملية!!

وتبقى التساؤلات: أين الإنسان من كل هذا؟ أين الإنسان الحقيقي الذي ينبغي أن يكون بحق موضوعاً لعلم النفس؟ إلى أين نحن سائرون في دراساتنا للإنسان؟

أين الجوهر الأصيل للإنسان في دراسات علم النفس.. إنسان الخير.. إنسان الحرية.. إنسان الإرادة.. إنسان المسئولية.. إنسان الايجابية والفاعلية والإنتاجية والعقلانية والإبداعية.. الإنسان المتوازن البناء.. الإنسان الكلي .. النامي .. المتسامي..؟!

وهل يعكس أصحاب علم النفس أنفسهم في دراستهم للنفس هذا الجوهر؟ أغلب الظن أن الكثير من الشوائب التي علقت بصورة الإنسان وشوهت وجهه المشرق؛ كانت تتضح من داخل نفس علماء النفس ومن طبيعة عصرهم الذي عاشوه!

ضيق البصيرة بحقيقة النفس هى الحاجز.. والتجزئية هي الفاصل.. حاجز وفاصل يفضيان دائماً إلى إقامة الحدود والجدران، وتشييد الجبهات، والتشبث بها والعمل على تقويتها.. علامة الفكر الواعي المميزة هي أنه يعبر الحدود ويجتاز الفواصل.. يصل بين الناس، ويحفظ الأمل حياً أبداً في الصدور.

***

لقد غير العلم، بالميادين التي تطرق لها وبحثها، وجه العالم جذرياً، وسيحدد العلم أيضاً كل تطور قادم . ولذلك فالناس لا ينتظرون من العلماء أن يقدموا لهم الإجابة فقط عنى السؤال الوجودي: كيف ستجرى الأمور بعد؟ وذلك إذا ما كان تطور الأرض والبشر يسير إلى تحقيق الخير لا اجتلاب الضرر.

إننا نعيش بحق عصر العلم.. ومع ذلك سيتساءل المرء عن مستقبل الإنسان، ما الذي ينتظره، وما الذي سيحدث له إذا ما أمكن التدخل في العوامل الوراثية، وأمكن قبول ذلك أخلاقياً؟ ما الذي سيحدث إذا ما أصبح من الممكن تغيير سلوكه الاجتماعي بإحداث تغيرات وظيفية في المخ؟.. وإذا ما أصبح من الممكن توجيه إرادته وعقله ومسئوليته، باستخدام العقاقير

الســيكولوجية؟ وباختصــار، إذا مــا أصبــح مــن الممكــن التحكــم فــي شــخصية الإنســان وتوجيههــا؟ تلــك إمكانيات للعلم تطرح تســاؤلات جادة بشــأن إنســانية الإنســان وإيجابيته ومســتقبله!

ويكافــح الإنســان بالفعــل الآن ضــد عــدد كبيــر مــن الأضــرار الحضاريــة المرتبطــة بالتقــدم التكنولوجي، فالمجال الحيوى للإنســان مهــدد: الأرض منهكة، والميــاه ملوثــة، والطاقــة تتناقــص.. ويقف الإنســان مــن الطبيعة موقفــاً يكاد أن يصبــح بديهياً فــي عصــر التكنولوجيا المتطورة. لقد نظر الإنســان إلــى الطبيعة حتــى الآن على أنها مخزن هائل للمواد الخام التي يســتخدمها الإنســان لمصلحته وفائدتــه فقط.. واســتغلت الطبيعة اســتغلالاً ســيئاً. لقد ظن المــرء أن ما بها من مخــزون طبيعــي سيكفــي إلى الأبد. وهــا نحن اليــوم نواجه نتيجــة عملنا، لنرى أننــا قــد خلقنا بيئة تنافــي الإنســان ويزداد عداؤها له باســتمرار.. الإنســان لن يســتطيع أن يضمــن لأبنائــه وأحفــاده الحيــاة إلا إذا نجح فــي أن يعيــد – بالعلم وتقنياتــه – إلــى الــدورة الطبيعية توازنها الســليم.. لابــد من إعادة التــوازن إلى الــدورة البيعيــة للتربة والهواء والمــاء وعالمي النبات والحيــوان. ولكن، مع وقبل كل ذلك، توازن الإنســان نفســه.

ومــن ثــم، إذا كان الإنســان الآن يعيــش عصر علــم فريد، فلابد وأن يتســق ويتناغــم معه اتجاه إنســانى يؤكد على الإنســان بالدرجة الأولــى، وعلى ما يكتنزه مــن طاقات إيجابيــة وابداعيــة متنامية.. وعلى تقدمــه ورفاهتــه ورفعته.. الأمر الــذي يجعلنــا نقرر أن هــذا العصر ينبغــي أن يكون عصر العلم الانســاني.

***

إن «علــم النفــس الإنســاني» توجه جديد فــي الفكر الســيكولوجى المعاصر .. وقفة لإعادة النظر فــي منجزات علم النفس وفــي مناحِي ومســارات دراســته. وهو لا يمثل نظرية أو مدرســة مستقلة فــي علم النفس، ولكنه فلســفة جديدة .. أسلوب جديد.. منحى جديد.. غايته ترشــيد التناول العلمى للإنســان كموضوع لعلم النفس مــن منظــور أصالة انســانيته. لذا يذخر هــذا الاتجاه بمفاهيم جديــدة طالما أغفلها علــم النفــس واعتبرها خــارج نطاق اهتماماتــه.. وهى مفاهيم تنحــو صوب الجانب الايجابي الخلاق فــي الإنســان.. وهو الجوهل الأصيل لطبيعته البشــرية.

***

هـذا الاتجاه الجديد، فلسـفةً وأسـلوباً، ينبغـي أن يأخذ طريقـه إلى بحوثنا ودراسـاتنا النفسـية وممارسـاتنا المهنية المدروسـة والمحسـوبة، لكى يجد صداه ومـردوده فـي حياة «انسـانية» أفضـل لنا ولأبنائنا مـن بعدنا. ألسـنا بحاجة إلى علـم نفـس جديد .. علم نفس الإنسـانية بكل قسـماتها المميزة لهـا من الإيجابية والإنتاجيـة والإبداعيـة والقيميـة .. وعلمـاء نفـس إنسـانيين يتصفـون بالصدق النفسـي مع الذات والآخر.. وفـي أدائهم الأكاديمي والمهني.. وفـي حضور فعال فـي كافة مجالات حياتهم الشـخصية والعلمية والعمليـة .. وليكونوا عاملاً مؤثراً فـي كل الجبهـات التـي يعملـون فيهـا .. ومـا أكثر تلـك الجبهات بطـول الحياة وعـرض الحياة.

***

مـن أجـل ذلـك كلـه، كان الهـدف من نقـل هـذا المجلد إلـى العربيـة، رغم الجهـد والوقـت الذي اسـتغرقته الترجمـة. ونجد فيما سيسـديه لدارسـي علم النفـس، مـن عـون وبصيرة فـي مجـالات وميادين متعددة مـن العلوم النفسـية، خيـر جزاء.

وفقنا الله جميعاً لما فيه خير الانسان العربي.

الترجمـة

القاهرة: مصر الجديدة

محتويـــات الكتـــاب

محتويات الكتاب

الجـــزء الثالـــث ٣١٥

علـم النفـس والقيـم الإنسانيـة

تقديـــم المحـــرر

لقد اعتبر الإنســان نفســه ســيد هــذه الأرض منذ وجــوده عليهــا. وبعد أن طفـق يواجه أســرار الطبيعــة «بالمزيد» من الصبــر والعبقرية إبتــداءً من التركيب الجزئــي الــذري Subatomic للمــادة إلى ديناميــات المجرات الفلكيــة galaxies؛ وبعــد تحليــل تكوين النجــوم كلهــا واللامتناهية فــي بعدها؛ وبعد خلــق عالم من الراحــة والدعــة لم يحلم به فــي القصــص الخيالية: يبدو مــن المتناقض مع ذلك أن الإنســان لا يــزال يتســاءل: «من أنا؟».

ومشــاعر عــدم الأمن، المقلقة للإنســان العادي غير المتخصص، تمثل ســبب الاهتمــام غيــر المحــدود مــن جانب العالــم السـلوكي. ويبــدي الكثير مــن علماء النفــس، الذيــن يســألون أنفســهم «من هو الإنســان؟»، بعضــاً من عــدم الارتياح حيــال الصــورة الإنســانية التي خلقهــا علمهم. فهي تبــدو جزئية للغايــة، جامدة للغايــة، وتعوزهــا الوحدة والفردية لكــي تعكس بدرجة كافية الاســتقلالية الذاتية والتلقائيــة والإبداعيــة للإنســان الحقيقي الــذي يتناولونه. ويعتقــدون، على وجه الخصــوص، أننــا محتاجــون إلــى أن نولــي اهتمامــاً أكبــر بالجوانب غيــر الآلية nonmechanical للشــخصية، وإلــى أن نعيــد الخبــرة الواعيــة conscious experience إلــى مكانة الشــرف فــي علــم النفس.

فثمة اتجاه إنســاني جديد وجاد، إيجابي وإبداعي، يفرض نفســه فــي اتجاه تقــدم علم النفس، يهدف إلى اســتكمال النظريات الموجــودة وفقاً لهذه الخطوط. ويحــاول المجلــد الحالــي أن يجمــع معــاً وجهــات النظــر المختلفة كما عبــر عنها أصحابهــا. ويتضمــن أيضــاً مقتبســات عــن مؤلفين فــي مجالات أخــري حينما وجدنــا أنهــا تطــور الفكــرة العامــة ولم يكن لــدى المحرر، عنــد انتقاء مــادة هذا المجلــد، موجهــات واضحــة يمكــن أن يتبعهــا طالما أن مــدى ونطاق هــذه الحركة الجديــدة قــد صــارت تجد ســبيلها فــي حركة تقــدم علــم النفس وفــي الأفاق المرجــوة منها. ويمكــن القول بأن هذه الطائفة من القــراءات تمثل المفهوم الجديد لبــزوغ التوجه الإنســاني Humanistic orientation فــي علم النفس.

ونوصــي بهــذه القراءات للطلاب والدارســين فــي أساســيات علــم النفس، والشــخصية، وعلم النفس التربــوي، وعلم النفس الاجتماعي، والصحة النفســية،

وعلم النفس الفلسفي، وعلم النفس التجريبي. وإذ لا تتوفر مصادر علمية كافية عن هذا الميدان سريع التقدم في علم النفس الإنساني Humanistic psychology، يعتبر المجلد الحالي نقطة إنطلاق هائلة في هذا الصدد، وفي تقدم علم النفس صوب الإيجابية والإنتاجية والإبداعية.

وقد عمدنا، في بداية كل دراسة، إلى التعريف بالمؤلف وبالمصدر العلمي. واكتفينا فقط بالمراجع والحواشي الأساسية، ووضعنا المراجع في الحواشي بالرغم من أنها كانت في المصدر الأصلي مثبتة كقائمة في نهاية الدراسة.

والمحرر مدين بالشكر للمؤلفين الذين أسهموا بأعمالهم الأصيلة في توفير مادة هذا المجلد، ولزملائه «تيودور بورسل» Theodore V. Purcell الذي قام بقراءة النص الأصلي، و «يوجين جيرارد» Eugene O. Gerard، و«ريتشارد نيكسون» Richard C. Nickeson على مقترحاتهما السديدة.

فرانك ت. سيفيرين

مقدمـــة

عادة ما يتوقع الدارســون لعلم النفس أن يدرســوا النـاس كما يدركونهم فـــي اتصالاتهـم اليوميـة العاديـة. وحينما يمضون فـــي برنامج الدراســة يصير بعض الطــلاب فــي حالة من الحيرة والارتباك إزاء الموضوعــات التي يتناولها البرنامج. فهم يدرســون، بتفصيل هائل، الإحســاس والإدراك والتعلـم والدوافع والانفعالات وغيــر ذلك من الأنشـطة الإنســانية، ولكــن لا يحدث أن تتكامل هــذه الموضوعات فــي صورة تمثل الإنسان.

تبــدو «الــذات» (self)، التي يدركهــا أي فرد كنقطة بؤريــة، مُجزَّأة إلى عدد مــن العمليــات. ويتعرض وجود الـ «أنا» الحقيقيــة (real "I")، بالرغم من عدم إنكارهــا، للإغفــال والغياب. ومن الأفضــل أن نتجنب الكلام عن «الذات» خشــية أن نخطــىء ونعتبرهــا «إنســاناً صغيــراً داخلنــا». بـل إن تنـاول الشـخصية يهتم بالســمات وبقياســها أكثر من اهتمامه بنظرية تولي اعتبــاراً كافياً لخصائص مثل الإبــداع، والاســتقلال الذاتي، والمعنــى، والتســامي، والمرونة، وتنــوع من الجوانب الأخرى غير الآلية للســلوك.

ويقــدم العلمــاء- المعلمون إيضاحات مختلفة لتحييد المشــاعر الســلبية لدى طلابهم. يقولون، على ســبيل المثال، أن البرنامج الأول فــي أي علم يعمل فحســب علــى مجرد مســح الميــدان ولا يراعــي أنه يحيـط به ويســتوعبه. ويوعــزون إلى الطالــب بــأن يتذكــر أن الإنســان أعظـم كيــان معقــد فــي الطبيعة، وبأنــه قبل محاولــة تقــديم بنيــة مركبــة كليــة عنــه، علينــا أن نتحقق مــن ملايــين الحقائق الصغيــرة وأن نوائمهــا معــاً. وربما يتمكن علماء النفس فــي المســتقبل من التنبؤ بالســلوك بدقة، إلا أنه فــي الوقت الحاضر ينبغي أن يتعلـم الطالب جيد التوافق أن يتحمــل قــدراً معيناً من الغمــوض. وعلى أية حال، إذا كان ينشــد أن يجعل من علــم النفس عمله فــي الحيــاة، فإنه ينبغــي أن يهتم بغرس اتجاهــات علمية أكثر مــن اهتمامه بمشــاعر غامضــة عن «الاهتمــام بالناس».

وبالرغــم مــن أن إيضاحات كهذه تكــون مفيدة داخل قاعــات الفصل، لكن لا يقتنع كل الســيكولوجيين بدرجة متســاوية بأنهــم هكذا يقدمون حلولاً للمشــكلة. لقــد تصاعــدت صيحات تؤكد الحاجة إلى إعادة النظر فــي الفروض الأســاســية التي تقوم عليها الســلوكية والتحليل النفســي – القوتان الهائلتان فــي علم النفس

الأمريكي، اللتان قدمتا لعلم الإنسان إسهامات هائلة: أحدهما بتطويره لطرق موضوعية دقيقة للبحث، والآخر باقتراح نظرية كلية عن الديناميات الإنسانية. ولكنهما لم يحققا كلية ما ننشده من علم النفس. فالمدرسة السلوكية تعزل، على نحو سطحي، الأنشطة العقلية كسلوك مشروط بالتواصل اللفظي، أو تتجاهلها كأنشطة غير قابلة للمعرفة بأي طريقة دقيقة بالرغم من أن الحياة بدون خبرة واعية تفقد كل معنى.

أما مدرسة التحليل النفسي التقليدية برغم ما تبدو عليه من أنها تتناول جوانب معينة من التوظيف العُصابي، تخفق في أن تفيد الشخصية السوية وتكشف عنها. فالدور المبالغ فيه لـ «الهو» (ID) بوساوسها القهرية العمياء المتمركزة حول الذات حيال اللذة الجسمية - يبدو غير ملائم لتفسير الاجتهاد أو السعي المتصل الموجه إلى الخارج، خارج الذات، لدى الشخص السوي.

إن علم النفس الإنساني هو حركة جديدة، أشاروا إليها في بعض الأحيان على أنها «القوة الثالثة» (Third Force) بين السلوكية والتحليل النفسي، وهو يهدف إلى تقديم «توجه جديد» لعلم النفس أكثر من أن يهدف إلى تقديم علم نفسي جديد. وينشد، من خلال النقد البناء والبحوث الرصينة، أن يصل بعلم النفس باختلاف نظرياته إلى ارتباط أوثق بإدراكاتنا اليومية للإنسان. وتحدد دراسات «الجمعية الأمريكية لعلم النفس الإنساني»[1] دوره على النحو التالي:

«يمثل علم النفس الإنساني بالدرجة الأولى اتجاها نحو «كلية أو وحدة علم النفس» (whole of psychology) أكثر من أن يمثل ميدانا أو مدرسة محددة. وهو يناصر احترام القيمة الذاتية للأشخاص، واحترام الاختلافات في الاتجاهات، وتفتح العقل للأساليب العقلانية، والميل إلى الكشف عن الجوانب الجديدة للسلوك الإنساني. ويهتم «كقوة ثالثة» في علم النفس المعاصر، بالموضوعات التي تحتل مكانة ضئيلة في النظريات والنظم القائمة، مثل: **الحب، والإبداع، والذات، والنمو، والكيان العضوي (الأورجانزم)، وإشباع الحاجات الأساسية، وتحقيق الذات، والقيم العليا، والوجود، والصيرورة، والتلقائية، واللعب، والمرح، والبهجة، والسجية الطبيعية، والدفء، والتسامي، والموضوعية،**

(1) A J. Sutich: American Association for humanistic psychology. Articles of Associations. Palo Alto, California, August 28, 1963.

والاستقلال الذاتي، والمسئولية، وبناء المعنى ومعنى الحياة، والعقلانية وتفتح العقل، والتجلي والاستنارة، والعدالة في اللعب، والخبرة المتسامية، وقمة الخبرة، والشجاعة، والسعادة، والرفاهة، وما يرتبط بهذه الموضوعات من مفاهيم وآفاق للبحث والعمل والتطبيق.

(يتضح هذا المنحى في كتابات ألبورت، أنجوال، آخ، بوهلر، فروم، جولدشتين، هورني، ماسلو، موستا كاس، روجرز، فرتيمر، وإلى حد ما في كتابات يونج، وآدلر، وعلماء النفس التحليليين المهتمين بالأنا psychoanalytic ego-psychologists وعلماء النفس الوجوديين والفينومينولوجيين).

وتتمثل المجالات الثلاث الأساسية في علم النفس الإنساني في الأقسام المتضمنة في المجلد الحالي: يتناول الجزء الأول تطور مفهوم عن الطبيعة البشرية يضع في الاعتبار وحدة الشخصية unity of personality، والعزم الذاتي self determination، وأولية الذات primacy of self.. ويقدم الجزء الثاني إعادة نظر نقدية للافتراضات الأساسية للمنهج السيكولوجي في محاولة لاكتشاف الطرائق المناسبة لتناول الخبرة المباشرة؛ وتعتبر العمليات الواعية بيانات صادقة للبحث السيكولوجي. أما الجزء الثالث، فيهتم بالقيم والاجتهادات أو المساعي الداخلية inner strivings، وبالإبداع، وتحقيق الذات، وغير ذلك من النشاطات الإنسانية المميزة.

ومما تجدر ملاحظته منذ البداية أن مؤلفي هذه الكتابات لا يتكلمون بصوت واحد. وإذ يواصل علم النفس الإنساني تقدمه، يبدي بعض العلماء إهتماماً بجانب معين من هذه الحركة أكثر من الجوانب الأخرى. وقد يكون مصطلح «علم النفس الإنساني» كذلك مصطلحاً مُضللاً. فعادة ما يعيد «المذهب الإنساني» (Humanism) إلى ذاكرتنا العلماء الكلاسيكيين القدامي أو الكتابات الأدبية بصفة عامة. ولكن ينطوي هذا المجلد على اتجاه نحو علم النفس يؤكد على الصفة أكثر من الإسم في الحيوان الإنساني، كما يحدده تقريباً «جوزيف وود كروتش» في دراسته عن «معنى المذهب الإنساني»[1]

(1) Joseph Wood Krutch. Human Nature and the Human Condition. Random House, Inc., 1959.

«لقد جرى استخدام «المذهب الإنساني» ليعني أشياء كثيرة جداً لكي يؤلف مصطلحاً يلقى قبولاً. ومع ذلك، ومع عدم توفر كلمة أفضل، سوف أستخدمه هنا لكي أقف على مجموعة الاتجاهات التي تتولى هذه المناقشة الدفاع عنها».

«وبهذا المعنى يكون العالم الإنساني Humanist هو أي شخص يرفض محاولة وصف الإنسان أو تناوله على أساس علم الطبيعة والكيمياء والسلوك الحيواني. هو أي شخص يعتقد أن الإرادة والعقل والهدف والمعنى حقيقية وهامة؛ وأن القيمة والعدالة جوانب للواقع معروفة بالخير والشر وتقوم على أساس معين أكثر من أن تقوم على العرف أو العادة؛ وأن الوعي أبعد من أن يكون مجرد ظاهرة مضافة epiphenomenon وإنما يمثل أعظم الحقائق الواقعية؛ وأن ما هو غير قابل للقياس قد يكون ذات قيمة؛ أو باختصار، تعتبر تلك الحقائق الإنسانية التي تبدو في بعض الأحيان متوفرة فحسب في العقل الإنساني هي من إدراكات ذلك العقل، أكثر من أن تكون من مجرد خلق ذلك العقل. وبقول آخر، العالم الإنساني هو أي شخص يقرر أن هناك أشياء في السماء والأرض أكثر مما يُحلم به في الفلسفة الوضعية».

خلافاً للإنسان البدائي الذي التفت إلى كل شيء متحرك، أو الإغريق الأوائل الذين مجدوا كل جوانب وقوى الطبيعة، يبدي الإنسان المعاصر قلقه إزاء إغفال شخصيته depersonalization (أو الإقلال من تضمينها impersonalization) في كل ما يعجب به ويقدره للغاية. ويرجع هذا الميل إلى سببين: الأول هو التحليل، تلك الأداة العجيبة للبحث العلمي التي بفضلها يدين بكل تقدم ولكنها - بإسقاطها لتركيب synthesis بعد الآخر - تدفع بعقل وراء الآخر إلى الهرب، تاركة إيانا نواجه كومة من الماكينات المفككة والذرات المتحللة. أما السبب الثاني، فيكمن في اكتشاف دنيا الفلك التي باتساعها تبدو وكأنها تعمل بعيداً بكل تناسق بين وجودنا وأبعاد الفضاء المحيط بنا»[1].

(1) Pierre Teilhard de Chardin: The Phenomenon of man. Harper & Brothers, New York, 1959, pp. 257-258.

الجـــزء الأول

طبيعـــة الإنســـان

الفصل الأول

الكل أعظم من مجموع الأجزاء (١)

نعتقد، فـي بعض الأحيان، كقضية للاقتناع والموافقة، أن الشـخصية تتألف مـن عدد هائل من السـمات المنتظمـة والعمليات الجزئية. لكن المحور الأساسـي للشـخصية يتمركـز فـي وحدتهـا وتفردهـا. فمن الصعـب أن نقارن مـا يتصف بـه النـاس من شـخصيات غنيـة غير متشـابهة. ومـن المنظور التجريـدي، يمكن اختـزال الصـور الفردية، بصـرف النظر عـن اختلافها، إلى خط متموج بسـيط على مبيان نفسـي. لكن هذا الاتجاه، برغم فائدته، يخفق فـي أن يعكس الطبيعة الخاصـة الأصيلة idiosyncratic للشـخصية. ويسـتطيع أي فـرد أن يقول بحق: «ليس هناك أبداً من شـخص آخر يشـبهني. فسـماتي هي سـمات متمشـخصة personalized traits، منسـوجة على نسـق لا يتكرر». فالكائنات الحية الإنسانية لا تتألـف مـن أجزاء متبادلة مثل المنقـاء أو الصمام الثنائي فـي (أجهزة التنقية) diodes والمُكَثِّفات eapacitors (فـي بعض الأجهزة الآلية). ويبدو من المسـتحيل، حتـى فـي الخيال، أن نجمع مـن «لنكولن» أو «غاندي» سـمات مقننة جاهزة على الـرف لأن «النمـاذج الكلية» وكذلـك «الأجزاء الفردية» تكـون متفردة وهامة.

وإذا تجاهـل عالـم النفـس هـذا الجانب، الباعـث على القلـق والإزعاج، من الحقيقـة الواقعيـة، تكـون مهمته متناهية فـي البسـاطة. فما قد يسـتخدمه من طـرق علميـة، فـي هذه الحالة، يوجه إلى اكتشـاف ما فـي الطبيعـة من تجانس وتـلازم. ويكـون هدفهـا الأول هـو تحليل ما هـو عام بالنسـبة للنـاس، وليس ما هـو فريد بالنسـبة للأفراد.

ويبـدو أن الإلحـاح علـى «التفـرد الإنسـاني» (human uniqueness)، إلى الحـد الـذي تختلف معه العِشْـرة أو الأُلفـة sociability لدى شـخص عن الآخر، يفـرض حمـلاً صعباً بطريقة متعسـفة علـى عالم النفس، ومن ثم قـد يبدي ميلا إلـى تقبـل ذلك الحد. ولكن تظـل الحقيقة بأن طرق الدراسـة ينبغـي أن تخضع

(1) The Whole is Greater than the Parts

للانتقاء لأنها ملائمة للموضوع، وليس لأنها موافِقة ومُقنعة. ففي الشخصية الإنسانية، كما في أي شيء آخر، لا تتبع الطبيعة الخطة الأبسط. ويواجه علماء الفلك مشكلة مشابهة في دراسة المجرات الفلكية.

وحتى حينما تعتبر سمات الشخصية نسقاً متسقاً تقريباً في سائر النوع الإنسانى، يبقى قياس الشخصية أمراً بالغ الصعوبة. وتكون المعرفة بأية عملية جزئية منعزلة أقل فاعلية في فهم السلوك والتنبؤ به من المعرفة بالنموذج الكلي الذي تتحد فيه. فسمة القهرية Compulsiveness، على سبيل المثال، قد تدفع شخصاً إلى أعلى مستويات التقدم الدراسي، في حين أن أخيه الذي يتصف بنفس السمة وبدرجة متساوية تتبدد طاقاته في أفعال قسرية طقوسية غير ذات معنى. ومن الواضح أن «النموذج الكلي» يحدد الفصل بينهما، وهنا تكمن دلالته وأهميته.

إن سمات الشخصية أشبه بخيوط ملونة في طنفسة. ويفقد النسيج، إذا حِيك بطريقة عشوائية، الخاصية المميزة. أما إذا جُمع بطريقة ذات معنى، فإن الخيوط تكتسب تحديداً كجزء من نموذج. وعلى العالم الذي ينشد دراسة هذه الطنفسة، وربما لكي يفهم خصائصها الجمالية، أن يبدأ بفرز الخيوط وفقاً للون لكي يحدد طولها وعددها وسمكها. ومثل هذه المقاييس تكون مفيدة بالنسبة لمقارنات معينة. لكن من المشكوك فيه ما إذا كان الانتباه الانتقائي لهذه العناصر التركيبية سوف يسهم بطريقة ذات معنى في فهم الطنفسة كعمل فني.

وإذا كنا نفصل بين الطرق الجزئية للعملية part-process methods والطرق الأكثر كلية لأغراض المناقشة، فإنها لحسن الحظ لا تناقض بعضها الآخر. فكل من هذين النوعين يضيف شيئاً إلى دراسة الفرد، كما أن لكل منهما مزالقه الخاصة. ومن المحتمل أن محاولة قياس الشخصية على أساس واسع للغاية، وبدون ما اهتمام كاف بالعناصر الأساسية، يتمخض عن عموميات غامضة. ومن ناحية أخرى، لا تلصق الصورة التخطيطية للسمات (بروفيل السمات trait profile) بشخص، وتضاف إليه أو تُفَصّل عليه. فهي تهيء أساساً معيناً، مثل اللقطات التصويرية لشخص في حالة العمل والنشاط، للتبصر

بالسلوك والبنية النفسية بدون الكشف عما وراءهما من نظام الدوافع.

وحتى في طبيعة الجوامد، لا يوجد شيء في عزلة: كل جزء يعتمد على أي جزء آخر. ووفقاً لأحد نظريات الفضاء، يتأثر وزن الأشياء على سطح الأرض بدرجة هائلة بتلاشي مجموعة صغيرة من النجوم البعيدة. وإذا كان هذا يصدق على القوى اللاشخصية للجاذبية والجاذبية الكهربية الاستاتيكية، فإنه نادراً ما نستطيع تبرئة عالم النفس إذا تجاهل «القوى الشخصية» (personal strengths) مثل الاجتهادات أو المساعي القصدية Intententional Strivings المتعلقة بالإبداع وتحقيق الذات. ويعتبر التعريف الإجرائى الخالص لـ «الشخص ككل» غير واقعي، لا يعفي العالم من الحاجة إلى البحث عن تعريف عامل working definition يبعث على الارتياح والإقتناع.

فجوانب الشخصية التي يستطيع الباحث دراستها بدقة في المختبرات ليست بالضرورة هي أكثرها تكشفاً، أو أكثرها ملاءمة بالنسبة لذلك البحث. كذلك يبدو من الصعب للغاية أن نكتب وصفاً مقنعاً للإنسان بدون إضافة تكوينات أخرى مما نجده في كتب علم النفس.

فعلم النفس، وفقاً للعالم «أ. ماسلو»، ينبغي أن يكون أكثر جرأة وإقداماً. وحتى إذا كان الاتجاه الجزئي في البحث في الشخصية هو الاتجاه العملي الوحيد، لكن هذا التحديد أو التقييد ينبغي ألا يكون فضيلة. ففي سعينا إلى فهم طبيعية الجزء والكل، وطبيعة ما بينهما من علاقات متبادلة، ينبغي ألا تصير الحيطة والحرص وجلاً وهلعاً. فبعض من البصيرة القائمة على الحدس، أو حتى بعض الغموض، ينبغي تحمله في كل ما يتعلق بما هو غير معروف لكي نسمح بتكوين فروض جديدة باستمرار.

يثير وصف «بوجينتال» للتطورات الإنسانية الجديدة في علم النفس الإكلينيكى عددا من القضايا الهامة. هل من غير المجدي أن يحاول علماء النفس دراسة الفرد ككل؟ وإذا كانت النتائج المشتقة من الإحصاء صادقة فحسب بالنسبة للناس في جماعات وليس بالنسبة للأفراد، فكيف يختلف علم النفس إذن عن علم الاجتماع؟ الإنسان أكبر وأعظم من مجرد المجموع

الكلي لملاحظاتنا الإمبيريقية. ما الذي ينبغي أن يضاف إليها لكي نجعل منه إنساناً بصورة محددة؟ هل من الضروري أن يجيب عالم النفس التجريبي وعالم النفس الإكلينيكي على هذا السؤال بطرق مختلفة؟ ما هي جوانب الـ «أنا» الحقيقية (real "I") التي تخضع «للضبط من الخارج» في التجريب الموضوعي؟ وطالما أن أي فرد يكون متفرداً، فهل يحق لنا أن نعتبر المفحوصين البشر في تجربة كوحدات متبادلة؟.

أما علاقة علم الفيزياء بعلم النفس التي يشير إليها «بوجينتال»، فتعالَج بتفصيل أكبر في الفصل السادس.

(١) علم النفس الإنساني: آفاق جديدة متفتحة (*)

ج. ف. بوجينتال

(رابطة الخدمة النفسية، لوس انجليس)

أود أن أقدم مبحثا عن مدخل آخذ في التطور والتقدم في علم النفس. فهو، كغيره من التغيرات الأخرى والتي تتناول الإنسان، يكون من الصعب على أولئك الذين ينغمرون بعمق في الاهتمامات اليومية أن يتعرفوا على وضعه وإمكاناته، ولكن قناعاتي بأن ما أقتبسه من متشابهات ومقارنات لا يصدر عن مبالغة أو زهو. وأعتقد أننا مقبلون على حقبة جديدة في اهتمام الانسان بالإنسان قد تُفْضي - إذا قدر لها أن تمضي في مسارها - إلى تغيرات عميقة في الموقف الانساني أشبه بالتغيرات التي شهدتها العلوم الطبيعية. وفحوى هذا التغير، كما أعتقد، هو تلاشي بعض التوجهات المعروفة في العلوم النفسية، وبزوغ ثقل جديد للقيمة الأساسية للخبرة الإنسانية.

إن علم النفس، كأي نظام اجتماعي، هو مجموعة متشعبة من الافتراضات والمعلومات والتأملات. وكما يحدث مع أي نظام، تتأتى له فترات من الثبات وأخرى من التغير السريع. وقد نؤرخ للتغير بوضوح في بعض الأحيان إرتباطاً بحدث معين، مثل الإنطلاقة السلوكية بعد أعمال واطسون. وفي بعض الأحيان، قد تكون القوى المؤدية إلى التغير أكثر تشعباً، مثلما حدث في ظهور موجة الاختبارات العقلية. وفي كلتا الحالتين، تكشف خلفيتهما عن عديد من الجهود قبل أن تصبح عملية التغير واضحة بجلاء. وهذا ما ينطبق بلا شك على الاتجاه الحالي. فقد هيأت كتابات الكثيرين من العلماء الاجتماعيين الطريق إلى ذلك الاتجاه الآخذ في التطور (وخاصة، جيمس، أولبورت، وكانتريل، وماي، وماسلو، وفروم، وروجرز، وآخرين كثيرين). وقد نتناول بالمناقشة ما الذي دفع بهذا التطور إلى مكانة الصدارة، لكن لا شك أن ثمة مؤثرات معينة قد أدت إلى ذلك، مما يمكن تحديده فيما يلي: اهتمام عدد هائل من السيكولوجيين

(*) J. F. Bugental: Humanistic Psychology: A new break - through.

بممارسة العلاج النفسي، واخفاق الكثير من الاتجاهات في التوصل إلى نظرية ملائمة شاملة بحق عن الشخصية الإنسانية انطلاقاً من اتجاهاتنا القائمة، وتزايد الاهتمام العام بالعلوم والخدمات النفسية والحاجة إليها. وقد نتمعن النظر أيضاً أنه حينما يتعرض الكائن الحي إلى تهديد يعترض بقاءه في الحياة، فإنه يستدعي قوى مضادة (أي أجساماً مضادة)، ولذا قد يكون هذا التطور جانبا من استجابة تطورية للقوى البيولوجية المهددة المرتبطة بالتدمير النووي.

البارامترات النفسية:

ولنتناول ثماني بارامترات (وحدات متغيرة) كانت تلقى قبولا بشكل تقليدي كما قدمت في علم النفس ولكنها موضع تساؤل بشكل متزايد كنتيجة لموجة التطور الحادث في علم النفس. وهذه البارامترات النفسية هي:

١. نموذج الإنسان كبناء مركب من وظائف جزئية.

٢. نموذج العلم، مأخوذ عن علم الفيزياء.

٣. نموذج الممارس، مأخوذ عن الطب.

٤. نموذج التقسيم الفرعي لمؤسسات وبرامج دراسي علم النفس كوسيلة ملائمة لإعداد الطلاب للمهن النفسية.

٥. محك التردد الإحصائي كمؤشر للحقيقة.

٦. الوهم بأن البحث يسبق الممارسة.

٧. خرافة «الفريق الإكلينيكي».

٨. المغالطة بأن التشخيص أساسي للعلاج.

وما أود طرحه الآن هو تفحص كل نموذج من هذه النماذج بنظرة تهدف إلى التعرف على ماهية التغيرات التي تتعلق بها.

(١) نموذج الإنسان كبناء مركب من وظائف جزئية

يوضح ما سبق في فهم وجهة نظرنا بأن هذا التطور الأساسي لطبيعة الانسان يكمن في عملية التغير وآفاق التقدم. فما دمنا نبحث عن عناصر عقلية، في أي شكل تبدو وبأي سفسطة من التسمية تأخذه، فإننا بذلك نستند إلى أن الكيان الانساني الكلي يمكن فهمه تماما إذا كان لدينا فحسب قائمة شاملة بأجزائه. يمثل هذا في الأصل تصوراً «بنيوياً» (structuralistic) بالضرورة. والآن نقر بأننا في حاجة إلى تصور للعملية التي يتشكل بها ذلك الكيان الانساني. وأشعر بأن هذا الاختلاف أساسي للغاية بحيث يمكننا أن نذهب إلى أن دراسة «الوظائف الجزئية» part functions للسلوك الانساني تمثل في الحقيقة علماً مختلفاً عن دراسة الكائن الإنساني «الكلي». ويبدو ذلك الاختلاف أيضاً في هذا النوع من التقسيم بين علم النفس وعلم الفسيولوجيا. ولعل الوظائف الجزئية لما درجنا بالتقليد على اعتباره علم النفس- هي تلك الشذرات مثل السلوك والعادات والاتجاهات، ودرجات الاختبار، والمدركات المستقلة، والبنود المتعلمة- إنما تختلف عن «التوظيف الكلي للشخص» (fully functioning person).

وأعتقد أن المفهوم المحدد للإنسان وفقاً لهذه الحركة الإنسانية الجديدة في علم النفس، هو أن الإنسان عملية بنائية وظيفية وليس مجرد المجموع الكلي لوظائفه الجزئية.

(٢) نموذج العلم مأخوذ عن علم الفيزياء

وما دمنا تقبلنا نموذج الإنسان كبناء مركب من وظائفه الجزئية، يكون من الملائم البحث عن الوحدات القصوى ultimate units للسلوك. وقد تبدو المحاولات في ذلك بتتبع الخطين الأساسيين للبحث عن العناصر العقلية في هذا البناء أو عن الوثاق البسيط للمثير- الاستجابة في ضوء السلوكيين، أو من جانب آخر البحث عن الغرائز الأساسية أو الحوافز الأولية تحت راية التحليل النفسي التقليدي. لقد كشف علم الفيزياء عن تعددية هائلة في زيادة معرفتنا بالعالم الفيزيقي بواسطة الطرق التحليلية. ولكن علم الفيزياء

قد بنى سجله على أساس القابلية لتبادل الوحدات التي يدرسها. اما علم النفس الحقيقي للإنسان فهو علم نفس الوحدات غير القابلة للتغيير البيني noninterchangeable units.

فإذا كان علم النفس هو علم دراسة الكائن الإنسانى الكلي، وهذا كما أعتقد هو رسالته الأولى، فإن النتائج التي تصدق فقط على الناس في جماعات لا تكون في الحقيقة سيكولوجية وإنما اجتماعية بدرجة أكبر. وبقدر ما يَبْرز علم النفس كعلم محدد يُعْنَى بدراسة الوظائف الجزئية، فإنه يميز نفسه عن دراسة الظاهرات الجماعية.

وقبل أن نترك التعليق على نموذج للعلم مأخوذ عن علم الفيزياء، تجدر الاشارة إلى أن علم الفيزياء ذاته قد وجد أنه ينبغي أن يتحرك إلى ما هو أبعد من الوضعية المنطقية والعملية الآلية اللتين طالما كانت دلائله التي تهديه على الطريق. وما جرى من الاهتمام بالعمليات الوظيفية وبارتباط المجرب الوثيق بالتجربة قد اعتبر شروطاً أساسية لاضطراد تطور علم الفيزياء. وكم يكون ذلك أكثر صلاحية وملاءمة لعلم النفس!

(٣) نموذج الممارس مأخوذ عن الطب

للنموذج الطبي الخاص بالممارس تاريخ طويل يرجع، بالطبع، إلى الكاهن «الشاماني»، ورجل الطب، والكاهن الساحر. وقد أخذ الممارسون النفسيون هذا النموذج كقضية مسلمة بأنهم ينبغي أن يضطلعوا بمهمتهم بطرقة مشابهة. ولكنه قد تبين على نحو متزايد بأن هذا الافتراض زائف. ويجد الكثير من الممارسين للعلاج النفسي، في الحقيقة، أن هذا النموذج قد يلقى قبولاً بالفعل من المرضى ويُستَخدم كمقاومة لتحمل المسئولية في حياتهم الذاتية. ثمة مفهوم جديد للممارس قد يصعب معه أن نعطيه تسمية ملائمة. يقترح «لوويل كيلي» Lowell Kelley (١٩٦١)، على سبيل المثال، مصطلح «الاستشاريون في الحياة» (Consultants in living) الذي يتميز بالكثير مما يجعلنا نوحي بقبوله، بالرغم مما قد يبدو به المصطلح في بعض الأحيان من ادعائية. القضية بلا شك أننا لا نستطيع أن نتبع نموذجاً للتشخيص بطريقة سرية للصعوبات

التــي تواجــه مرضانا ولكتابة الوصفــات باللغة الخاصة والتدويــن الغامض، الذي يحملــه المريــض عــن طاعة وإذعان إلــى الصيدلي لكــي يعطيه الدواء ثــم يتناوله بجهــل تــام عــن ماهيتــه أو عــن تأثيراتــه المقصــودة. ولكننــا نعترف أكثــر وأكثر بأن الشــرط الأساســي الــلازم للعمليــة العلاجية النفســية هو مشــاركة المريض بمسئولية فــي عملية التغير.

(٤) نمــوذج التقســيم الفرعي لمؤسســات وبرامج دراســي علم النفس كوســيلة ملائمة لإعــداد الطلاب للمهن النفســية

يواجــه علــم النفــس مــن داخلــه نوعــاً مــن عــدم اســتقرار فــي معاهــد وكليــات إعــداد الســيكولوجيين، يتعلــق بتجزئتــه إلــى تخصصات مختلفــة. وقد يصــل الأمــر فــي بعض الأحيــان إلى عدد هائــل من «العلــوم النفســية الفرعية» (Subpsychologies)، والنتيجــة شــيوع اتجاه جزئي فــي ميداننا يخلق نوعا من الارتبــاك لطــلاب علم النفس. ومــع ذلك، ثمة دلائــل كثيرة للتغير الإيجابي فــي هــذا الميدان وكذلك فــي بعــض الميادين الأخــرى ذات العلاقة؛ ومــع ذلك، هناك تيــارات تعترف بــأن نموذجنا الخاص بالكثير من التخصصات - فــي ميادين علم النفــس الاكلينيكــي، والارشــادي، والصناعــي، والنمو - يتطلب العمــل على مزيد مــن التطويــر. ويتحــدد شــعوري الذاتي بأننــا ينبغــي أن نتحرك نحــو الاعتراف بثلاثــة أقســام فرعيــة أساســية لعلــم النفس: قســم خــاص بالوظائــف الجزئية part functions، وقســم خــاص بالوظائف الجماعية group functions، وقســم خــاص بالشــخص الكلــي total person كوحدة. ومن المحتمل تماماً بالنســبة لكل مــن هذه الأقســام الثلاثــة أنها تشــمل جانب البحــث، وجانب التجريــب، وجانب الممارســة. وتســتخدم هــذه الأقســام الثلاثــة بشــكل متزايد فــي حل مشــكلات عمليــة، بقــدر ما تؤدى أيضــاً إلى تزايد عدد الممارســين. ويأخــذ الكثير من نقد واســتياء التجريبيين من الممارســين هكذا فــي التلاشــي كلما توغــل التجريبيون أنفســهم فــي الوظاف الإرشــادية. لقــد تنبأ «تريــون Tryon (١٩٦٣) بــأن البرج العاجــي الأكاديمي هو شــيء مــن الماضــي، وأن التجريبيين ســوف يتوغلون بعمق فــي أدوار الممارســين. ومممــا لا شــك فيه أن هذا التوجه ســوف يكــون له تأثير عميــق على فلســفاتنا التربوية الخاصــة بإعداد الســيكولوجيين.

(٥) محك التردد الإحصائي كمؤشر للحقيقة

يبـدو محـك التردد الإحصائي، إذا تكلمنا بشـكل مجرد، محـكاً ممتازاً. فلا شـك أن تلك الأشـياء التي تقع بشـكل منظم ومتسـق تبدو كعينات واضحة بذاتها لطبيعـة الواقـع. لكـن الواقع العملي ليـس كذلـك. فبالرغم من الإتقـان المتزايد للمناهـج الإحصائيـة، وبالرغم من التزايد المضطرد فـي بلورة الإجراءات المعملية وتشـذيبها، فـإن نتـاج سـنوات الجهـد الواعي لـم توفر مع ذلـك الثقـة الكافية بأننا سـوف نصل فـي النهاية إلى فهم أصيل للسـلوك الإنسـاني عن طريق هذا التوجـه. وهـذا ممـا لا يثيـر الدهشـة إذا رجعنا إلى النمـوذج الـذي قامت عليه هذه الجهود.

عبثاً كان الجهد الذي ينشـد التوصل إلى الوحدة الأساسـية للسلوك المتعلقة بالشـخص المجتـزأ subperson unit؛ فالإنسـان الكلـي هـو الوحدة الأساسـية. وفقـط حينما نجد طرقاً لفهم الإنسـان فى سـياق السـلوك (behaving man)، فإننا نسـتطيع فهم سـلوكه. وقد يبدو من المسـتحيل مع الطرق الفنية الحالية أن نضبط كل العوامل المتضمنة فـي أي تتابع سـلوكي ينخرط فيه الانسـان بطريقة عاديـة. كذلـك لا يبدو هذا ببسـاطة كقضية تتعلق بتطوير المزيـد من الاختبارات وباسـتخدام العديـد من الحاسـبات الآليـة. فتعريفنـا للكائن الإنسـاني على أنه العمليـة التـي تفوق المجمـوع الكلي لعواملهـا، يوضح أنه لازال هنـاك جانب غير قابـل للقياس.. فـلا يزال «يبقى الشـخص» ذاته!

وثمـة طريقة أخرى لتصور المشـكلة قـد تلقي ضوءاً عليهـا: علينا أن نعترف بـأن اتجاهنـا العلمـي التقليـدي، كما يتمثل فـي الدراسـات والبحوث المنشـورة فـي المجلات المختلفة ورسـائل الماجسـتير والدكتوراه، يقوم علـى تصورات عامة متناهيـة. ويعنـي ذلك التسـليم ضمناً بأن الكـون نظام مغلق يوجد فيـه كم ثابت مـن المعرفـة المتاحـة. ويميـل العلـم بصفـة عامـة - سـواء العلـوم الفيزيائية أو البيولوجيـة أو الاجتماعيـة - إلى الإقرار بأن المعرفة غيـر متناهية، كما أن الكون غير متناه. وإذ نقوم بدراسـة أي ارتباط منعزل بين متغيرين نفسـيين على أمل أن ذلك الارتباط فـي النهاية سـوف يتصـل بغيره، فإن مثل هذه الدراسـات المنعزلة ومـا يتعلـق بها من تنظيم معين سـوف تطرح بطريقة اسـتدلالية. علينا أن نعترف

بأن الأمر ليس كذلك. ففــي داخل الكون اللامتناهي التنوع، نسـتطيع أن نسـتمر بطريقـة لا متناهية فــي جمع بنود منعزلة من البيانـات، ومن الارتباطات والتنوع، وبالتالــي سـوف لا تكون هناك ضرورة لمثل هــذا الترابط. ولا يسـتطيع الباحثون الذيـن يجـرون التجارب التي اضطلع بهـا باحثون آخرون أن يؤكـدوا نتائجهم من الناحية الشـكلية بسـبب التنوع اللا متناهي للمتغيرات، وبسـبب لا نهائية المعرفة الكامنة.

(٦) الوهم بأن البحث يسبق الممارسة

طالمـا شـاعت بيننـا الخرافـة التـي تذهـب إلـى أن العالِـم يطـور المعرفـة والمهنـدس يطبقها. بقـول آخر، الباحث يطـور المعرفة والممـارس يطبقها. والأمر ليس كذلك فــي علم النفس. كما أنه ليس كذلك سواءً فــي الفيزياء أو الهندسة. ويعتـرف الكثيـر مـن المبرزين فــي العلوم الفيزيائيـة أن الفيزياء قـد تلقت المزيد مـن الإسـهامات من الهندسـة أكثـر مما أعطتـه للهندسـة. ونجد نفس الشـيء بالنسـبة لعلم النفس الإكلينيكي الذي حقق إسـهامات لنظام المعرفة السيكولوجية بواسـطة الممـارس الإكلينيكي أكثر ممـا يتلقاه من الباحثين. ونحتـاج بصعوبة إلى إيضـاح هـذه النقطـة أبعد مـن مجرد اقتبـاس أعمال فرويـد كمثل بـارز. وربما يكـون المثل الآخر الهام للغاية هو إعادة تقديم التوجه الإنسـاني فــي علم النفس. وترجـع إعـادة التقـديم هـذه – وهى إعـادة إحياء لعلـم النفس – بدرجـة كبيرة إلى إسـهامات الممارسـة الاكلينيكية. ويعزى ذلك فــي جانبه الأكبر وبصفة أخص إلــى خبرة السـيكولوجيين الذين ينخرطون فــي ممارسـات العلاج النفســي. وما يتـردد فــي هذا الميدان من أسـماء القـادة الذين يتصـدرون طليعة هـذا التطور هو أسـماء العلماء الذين انغمسـوا بعمق فــي أعمال العلاج النفســي، مثل: كارل روجـرز، وأبراهام ماسـلو، وروللوماى، وايريك فـروم، وغيرهم.

ومـرة أخرى، يمكن أن نشـير إلــى تأثير نمـوذج الكون المتناهــي الذي يمكن أن تتجمـع فيـه المعرفـة بطريقة عشـوائية وتتكامل فــي النهاية وتصبح ميسـورة للممــارس. وإذ ننفــي هــذا النمـوذج، ونعترف بأنه غير متسـق مع الكـون، ينبغي أن نعترف إذن بحاجتنا إلى اسـهامات الممارسـين فــي تلك المجالات ذات الأهمية القصـوى مـن الناحيـة الاجتماعية: نحـن بحاجة إلــى اختبار الممارسـين للنتائج

لإقـرار صلاحيتهـا وإمكانيـة تطبيقهـا؛ إننا محتاجون إلى إسـهامات الممارسـين لاقتراح أسـئلة وقضايا للبحـث العلمي.

(٧) خرافة الفريق الإكلينيكي

وهنـا نكون واضحـين منذ البداية بأن الفريق الاكلينيكي فـي بعض الحالات قـد أثبـت أنه مفهـوم نافع وفعـال للغاية، ولكنـي مقتنع بنفس الدرجـة بأنه ليس كذلـك فـي معظـم الحـالات، حيث أنه فـي الكثير مـن الأمثلة هـو غطاء لأجل سـيطرة الفريق بواسـطة واحد أو آخر مـن المتخصصين.

لكـن مـا هو أهـم، أن الفريـق الإكلينيكي يقوم مـرة ثانية على نظـرة جزئية للإنسـان. وتكـون الهيئـة الرئاسـية الثلاثيـة للفريـق الإكلينيكـي غيـر قـادرة، بطبيعتهـا، علـى مواجهـة المريض فـي علاقـة بينشـخصية صادقة. وقـد يكون الفريـق الإكلينيكـي وسـيلة ممتازة لجمـع المعلومات عـن الناس، وهـي المعلومات التـي تتناول الناس أساسـاً كممثلـين لطبقات مختلفة أو تجمعـات للمجتمع. وقد يكـون أداة إداريـة نافعة للقيـام بتحويل الحالة أو تحديد اسـتعدادها، ولكنه ليس أداة نافعـة علاجيـاً. ويقينـي أن العلاج النفسـي، الذي هو بحق العلاج النفسـي المتعمـق، يتطلـب مواجهة قائمة على الثقة بين شـخصين، ولكن المسـئولية المُجزَّأة والعلاقـات التي يفترضهـا الفريـق الإكلينيكي تخالف تلـك المواجهة.

وقـد يلاحـظ أيضـاً أن الفريـق الإكلينيكي يتسـم بحيوية اجتماعيـة، وهذا موضـع شـك. فحينمـا يفـوق عـدد الأشـخاص الذيـن يتطلبـون علاجـاً عـدد الممارسـين بدرجـة زائـدة لمواجهـة هـذه الحاجـة، تكـون مضاعفـة الأشـخاص العاملـين مـع مريـض بعينه ذات فائدة مشـكوك فيهـا. وإن بعض مـا يجرى الآن من اسـتخدام اشـخاص عاديـين قادرين على العلاقـات البينشـخصية الصادقة قـد يفتـرض أن هناك طرقاً أفضل لمواجهة هذه المشـكلة. يتمثل ذلك فـي أعمال «مارجريـت ريـوش» (M. Rioch) بالمعهـد القومـى للصحة النفسـية فـي تدريب بعـض السـيدات الناضجـات ليعملن كمرشـدين نفسـيين بـدون أن يُتطلب منهن التوغـل فـي المنهـج المهني العـادي. حقيقة، يحتاج هـؤلاء الناس إشـرافاً وعوناً، ولكنهـم يذهبـون إلى أنهـم يسـتطيعون القيام بإسـهامة خلاقة.

وما قام به «فيلمور سانفورد» Fillmore Sanford يعتبر دراسات ذات قيمة في هذا الصدد. فهو يقرر أنه قد أرسل فريقاً من الباحثين إلى مجتمع من المجتمعات وسأل مواطنيه بطريقة عشوائية: «مع من تتحدث إذا كانت لديك مشكلة شخصية هامة؟» بهذه الطريقة كانوا قادرين على تعيين مجموعة صغيرة من أشخاص ناضجين يستطيعون تقديم مساعدة ذات بال إلى زملائهم. وإذا قدمت لهؤلاء الأشخاص مساعدة من مصادر متخصصة ولا يتعرض ما يقومون به لأي خلل أو تحريف، فإنهم يستطيعون أيضاً أن يشبعوا الحاجة الإنسانية إلى التغير والنمو.

(٨) المغالطة بأن التشخيص أساس العلاج

لقد درجنا بالتقليد على الاعتقاد بأننا نستطيع مساعدة الشخص حينما نعمد إلى تجميع قدر هائل من المعلومات عنه. في فترة ما أجرينا دراسات تشخيصية متقنة لكل ملتمس للعلاج النفسي. واليوم نعلم أن تجميع معلومات تشخيصية بالنسبة لمعظم الأشخاص تُسهم قليلاً في العمل العلاجي الحقيقي، حينما يكون ذلك العمل العلاجي من خارج المريض، أقرب إلى نمط المقابلة. فالمعرفة التشخيصية ذات وظيفة جزئية بالضرورة، في حين أن العلاج النفسي الأكثر فاعلية هو الشخص - الكل (whole - person)، والمتمركز على العلاقة معه (relationship centered). فالمعرفة التشخيصية هى «**معرفة عن المريض**»، في حين يتطلب العلاج النفسي الأكثر فاعلية «**معرفة بالمريض**». هذا الاختلاف أكثر من مجرد كونه لعباً بالكلمات. فالمعرفة عن المريض تتناوله كموضوع أو كشيء يُتناول بالدراسة. أما المعرفة بالمريض فتقر بالإنسانية والفردية الجوهريتين له. وهى تتضمن بذلك تعرفاً بالمريض وإقامة علاقة مهنية معه، وأن نكون معه، كما يختلف ذلك عن التناول للمريض. والمعرفة التشخيصية مفيدة حينما تكون الحاجة إلى تناول الناس كموضوعات، كممثلين لطبقات أو فئات، أكثر من أن يكونوا كأشخاص. وبالنسبة للوظائف الإدارية، غالباً ما تكون ضرورية. أما النسبة لأغراض البحث قد تكون حاسمة وحيوية، ولكن بالنسبة لأغراض العلاج النفسي ذاته لا يكون التشخيص مهماً في تلك الحالات التي تستحكم فيها الاضطرابات بصورة قاسية.

الخلاصـة:

لقـد حاولنا أن نمعن النظر فـي ذلـك التطور المثير للاهتمـام بدرجة هائلة فـي ميداننـا، علم النفـس. وإذا كنـت أراه صحيحاً، فإننـا نُخَلِّـف وراءنا مرحلة الاهتمـام بالوظائـف الجزئيـة ونعود إلى ما قد بـدى به علم النفـس لمعظمنا من معنـى حينمـا دخلنا الميدان منـذ البداية. **إننا نعود إلى ما يزال علم النفس يعنيه بالنسبة لمعظمنا، وهو الوظيفية والخِبْريَة والإيجابية للكائن الإنساني «الكلي».**

إن علـم النفس يجتـاز مرحلة للمراهقة. فهو، كالمراهـق، يُقَيِّم بصورة ضئيلة مـا يقدمـه الوالدان، بينما يرتب نفسـه علـى ما هو خارجي فاتـن، على الفيزياء. والآن يحدونـي الأمل أن علم النفس سـوف ينضج وفـي النهايـة يصل إلى مرحلة الرشـد. وكمـا هـو الحـال بالنسـبة لمعظم المراهقـين الذيـن حينما يصلـون إلى النضـج، يعودون بنظرهم إلى الوراء ليتأملوا فـي النـاس القدامى ببعض التقدير.

ربمـا يكـون الأمر كذلك بالنسـبة لعلم النفس، وأن علم النفـس قد يعود مرة ثانيـة إلـى والديـه، الإنسـانيات والفلسـفة، ومنهما يسـتمد قوة جديـدة لمواجهة تحديات عالمنا.

ثمـة تقـارب يحـدث بـين تقليديـن إنسـانيين هائلـين، ومـن تقاربهمـا قد نتوقـع تدفقـا هائلا لوعي جديد عن أنفسـنا فـي عالمنا: أحدهمـا العلم، والآخر الإنسـانيات. وهـذا كمـا لو أننا قد أصبحنـا فجأة ورثة لمخـزون هائل من المعرفة لم تسـتخدم من قبل إلا اسـتخداماً ضئيلاً، أو - بتشـبيه آخر - كما لو أن نصفاً جديـداً تمامـاً من الكـرة الأرضية قد اكتشـفه كولومبـس جديد آخر.

لا شـك أن الكثيـر مـن الاستكشـاف والتطـور ينبغي تحقيقه، ولكننا سـوف نصل إلى شـواطئه.

(٢) فلسفة علم النفس

الحاجة إلى علم ناضج عن الطبيعة البشرية

أبراهام ماسلو

(جامعة برانديس)

أود أن أبـدأ ملاحظاتـي بتبنـي عقيـدة شـخصية، يتـردد صداهـا بخيلاء، ولكـن بضـرورة ملحة.

أعتقـد أن علمـاء النفـس يحتلـون الموقـع الأكثر أهميـة ومركزية فـي عالم اليـوم. أقـول ذلـك لأن كل المشـكلات الملحـة للإنسـانية - الحـرب والسـلام، الاسـتغلال والتآخـي، الكراهيـة والحـب، المرض والصحة، سـوء الفهـم والفهم، السـعادة والشـقاء - سـوف تؤول إلى فهم أفضل للطبيعة البشـرية؛ وهنا فحسب يلقـي علـم النفس بثقله كليةً. لـذا أعتقد أن الطب والفيزيـاء، القانون والحكومة، والتربيـة، والاقتصـاد، والهندسـة، والتجـارة، والأعمـال والصناعة - ليسـت إلا أدوات فقـط برغـم مـا لها من قـوة معترف بهـا. **إنها وسـائل وليست غايات؛ أما الغايـة فهـي «الترقـي أو التقـدم الإنسـاني»** (Human Betterment).

إن الغايـة القصوى التـي ينبغـي أن تتبناهـا كل هذه العلـوم، إذن، هي التحقيق الكامـل للإنسـان ونموه وسـعادته؛ لكن هـذه الوسـائل أو الأدوات تأتي بتلـك النتائج الطيبـة والمرغوبـة فحسـب حينمـا يسـتخدمها أنـاس طيبـون علـى نحو سـليم. أما اسـتخدامها بجهالة وحماقة بواسـطة أناس أشرار، لا يـأتي بشـيء إلا بالكوارث والخطـوب. فمـا هو خاطئ وشـرير إنما يكمن فـي الناس، وليس فـي الأدوات. والوسـيلة الوحيـة لمغالبة المـرض الذي يبدو بذاته كشـر من الشـرور، هي إعداد أنـاس طيبـين بواسـطة فهم أسـباب المـرض والبحث عن الشـفاء. ومـن ثم، فإن اكتشـاف طبيعة الإنسان الطيبة والشـريرة، أي الصحة النفسية والمرض النفسي، هـي المهمة التـي يحاول عالـم النفس أن يؤهل نفسـه لها.

لـذا يتملكنـي شـعور، كعالـم نفـس، بالأهمية والحَظّية لإسـهامي فـي مثل هـذا العمل. فعلمـاء النفس ينبغي اعتبارهم أناسـاً محظوظين لأسـباب متعددة.

فهـم يتعاملـون مع أكثر المواد سـحراً وفتنة فـي العالم - الإنسـان. فهي تمثل ما يقومـون بـه من دراسـات، ومـا يضطلعون بـه من عمـل علمي؛ ولذا يسـتطيعون حـل مشـكلاتهم الشـخصية الخاصة بطريقة أكثـر فاعلية وكفايـة. ولكن لا يزال مـا هـو أكثـر أهمية، فأي شـيء قد نكتشـفه خلال البحث السـيكولوجي سـوف يُعَظّـم ويُمَجَّـد لمليـون مرة. فبقدر مـا نعلم أكثر عـن الطبيعة البشـرية، بقدر ما نكتشـف بطريقة آلية فـي العلوم الأخرى، وكذلك فـي القانون والتاريخ والفلسفة والفـن والصناعـة، طالما أن هـذه العلوم كلها هي بالضرورة نواتج إنسـانية. ينبغي أن يكون من أساسـيات الدراسـة فـي القانـون أو التربية أو الاقتصـاد أو التاريخ دراسـات متقدمـة عـن الكائنات الحيـة الإنسـانية التي تصنـع القانـون وتصنع التاريـخ. ويعبـر «بـول فاليـرى» (Paul Valery) عـن ذلـك بحـق: «**حينما يكون العقل موضع البحث، يكون كل شيء موضع البحث كذلك**».

وينبغـي أن يكـون واضحـاً تمامـاً من الآن أنـي أعبر عن تصـور خاص لمهنة عالـم النفـس. يبـدو لي أن علـم النفس يفرض قواعـد ومسـئوليات محددة على ممارسـيه. وتتبـع المشـكلات، الأكثـر ضغطـاً وإلحاحاً التـي تواجهنا اليـوم، من **النقائص الإنسانية أو الضعف الإنساني** Human weakness : الكآبـة والغـم، الطمـع والجشـع، الاسـتغلال، التعصـب، الازدراء، الكراهيـة، الجـبن، الغبـاء، الحقـد، والأنانية. ونعلـم، مع ذلك، أن هذه أمراض يمكن علاجها بشـكل جذري. فالتحليـل النفسـي، علـى سـبيل المثـال، عمليـة للعـلاج المتعمق الـذي يمكن أن يتنـاول تلـك المشـكلات إذا توفر الوقـت والمهـارة الكافيتان.

وسـوف يسـتمر المـوت والدمـار مـن كل بد فـي حـروب ضارية أخـرى، أو الوجود القلق العصابي المتوتر فـي حروب باردة ممتدة إذا كان للكائنات الإنسانية أن تسـتمر فـي سـوء فهم نفسـها وبعضها البعض. وإذا كنا نسـعى إلى تحسـين الطبيعة البشـرية وحسـن توظيفها، إنما نسـعى هكذا إلى تحسـين كل شيء فـي الوجـود، لأننا بذلك نزيل الأسـباب الرئيسـية للاضطـراب العالمي.

لكـن الإصـلاح والتقـدم الإنسـاني يتوقـف علـى فهـم الطبيعـة البشـرية؛ فالحقيقـة البسـيطة التـي لا يمكـن إغفالهـا هـي أننـا لازلنـا لا نعـرف الناس بدرجـة كافيـة. لهذا السـبب يحتـاج العالم إلى بصيـرة بأن علم النفس يسـتطيع

مـع الوقـت أن يحقـق الكثير فـي هذا الصـدد. إننا نحتـاج، أكثر مـن القنابل أو التيـارات الدينيـة الجديـدة أو السياسـة أو المصانـع، وأكثر من الصحـة البدنية والعقاقيـر الجديـدة التـي توفرهـا- نحتاج أكثـر إلى «طبيعة إنسـانية مُحَسّـنة» (Improved human nature).

لهـذه الأسـباب أشـعر بإحسـاس الضمير التاريخـي، وكذلك بوعـي متزايد لمسـئولية عالـم النفـس. فهي مسـئولية حيال الجنس البشـري، ينبغـي أن تعطي عالـم النفـس إحساسـاً بأنـه صاحـب رسـالة وثقـل بالواجـب أعظم ممـا لدى العلمـاء الآخرين.

ثمـة نقطـة هامـة أود أن أؤكـد عليها، مـع ذلك، أن تعريفـي لعالِـم النفس هـو تعريف واسـع ولكـن محدد. أعنى بذلك ليس فحسـب أسـاتذة علـم النفس ولكـن أكثـر مـن كل أولئـك – وفقط أولئـك – الذين يهتمـون ببنـاء وإزكاء تصور للطبيعـة البشـرية أكثـر صدقاً ووضوحـاً وإمبيريقية. وقد يسـتبعد ذلـك الكثير مـن أسـاتذة علم النفـس والكثير من الأطباء النفسـيين، ولكن قـد يتضمن بعض علمـاء الاجتمـاع والأنثروبولوجيـا والتربيـة والفلسـفة والديـن والإعـلام واللغة والعمل وغيـر ذلك.

وهنـاك جانـب آخر أكثـر خطورة، فـإذا كان علم النفس لايزال فـي طفولته كعلـم، وأن مـا نعرفه لذلـك بالمقارنـة إلى ما نحتـاج معرفته يعـد ضئيلا بدرجة تبعـث على الشـفقة، فإن عالـم النفس الناجح ينبغـي أن يكون إنسـاناً متواضعاً. فبشـعوره بمسـئوليته، ينبغـي أن يكـون واعيـاً جداً بمقـدار ما ينبغـي أن يعرفه، وكيـف أنـه لا يعـرف إلا القليل فـي حقيقة الأمـر. **ولسـوء الحـظ، أن الكثير من علمـاء النفـس ليسـوا بمتواضعـين، ولكنهـم، بـدلاً مـن ذلـك، منتفخـون بمعرفـة ضئيلـة. ولا يوجـد، فـي الواقـع، مـا هو أعظـم خطراً مـن عالِم النفـس المتعجرف أو الطبيـب النفسـي المتعالي.**

بهـذه المقدمـة، سـوف أسـتعرض عـدداً مـن «الينبغيـات» (musts) التـي أشـعر بضروتهـا إذا كان لعلـم النفـس أن ينضـج كعلـم وينهـض بمسـئوليته الكاملـة، الإنسـانية والإيجابيـة والإرتقائيـة:

(١)

علم النفس ينبغي أن يكون أكثر إنسانية بأن يهتم أكثر بمشكلات الإنسان، وأقل بمشكلات المهنة

قــد يبدو من المحــزن أن معظم الطــلاب يُقْبلون على علم النفــس باهتمامات إنســانية؛ فهم يودون أن يكتشــفوا الإنســان؛ ويريدون فهم الحب والكراهية والأمل والخــوف والوجدان والســعادة ومعنى الحيــاة. لكن ما الذي يتحقــق غالباً من أجل هــذه الآمال والتشــوقات العظــام؟ فمعظم ما يتلقاه الطلاب يتحــول جانباً عن هذه الموضوعــات التي توصف بالســطحية واللاعلمية والســذاجة والســحرية. (لا أجد كثيــراً كلمــة «حب» يفرد لهــا جزء خاص فــي أي من كتب علم النفــس على رفوف مكتبتــي، حتــى تلك الكتب المتعلقة بالــزواج). وبدلا من ذلك، يقُــدم للطالب العظام الجافــة والطــرق الفنية والدقة والضبط، وجبالاً شــاهقة مــن الحقائق التي ترتبط ارتباطــاً ضئيــلاً باهتمامــات الطالب التي وجهته للإقبــال على علم النفس.

وأســوأ من ذلك، أنهم يحاولون، وغالباً بنجاح ، أن يجعلوا الطالب فــي خجل من اهتماماته بأنها غير علمية بشــكل معين. لــذا غالبا ما تتبدد الحوافز الرفيعة لــدى الشــباب، ومعها تضيــع الإبداعية والجــرأة والإقدام والتحررية والإحســاس برســالة مقدســة وبالتكريس الإنساني. ويتملك الطالب شــعور بالاستخفاف أشبه بالمزاج الساخر والمتشائم (كالفلاسفة المتشككين) cynicism، ويستقر كعضو فــي مهنــة بــكل تعصباتها وتزمتهــا. ويتملكني تخوف بــأن أقرر أن طلاب الدراســات العليــا فــي علــم النفــس يتكلمون بحذر عــن درجة الدكتــوراه على أنهــا «بطاقة الاتحــاد» union card أو بطاقــة الهويــة، ويميلــون إلى اعتبار رســائلهم العلمية ليســت كميــزة أو كفرصــة، ولكــن كجانــب غيــر ســار ينبغــي عمله يؤهلهــم إلى الحصــول على مهنة.

مــا الــذي زرعــه الإنســان فــي عقلــه الســديد لكــي يؤهلــه لقراءة رســالة للدكتــوراه أو كتابــاً أولياً فــي علم النفــس؟ إن ما توفر من كتب علــم النفس التي يستحســنها علمــاء النفــس المقتدرون بما يجعلنــا نوصى بها، يعتبــر قليلا ؛ وكتب علم النفس الوحيدة التي تســاعدك على فهم الإنســان بصــورة أفضل غير دقيقة

وغيـر علميـة، فهـي تأتي من تقليـد العلاج النفسـي أكثر من أن يكـون مصدرها «علـم النفس العلمي». فمثـلا، أوصيك بقراءة أعمال فرويـد والفرويديين الجدد، لكنـي أشـك أن فرويـد يمكنه اليـوم الحصـول على درجـة الدكتوراه. فـي كلمة افتتاحيـة لأحـد المجـلات المرموقـة فـي علـم النفس قـورن فرويد بعلم فراسـة الدمـاغ والقـوى العقلية phrenology. وهذا التقرير بالنسـبة لعالم نفسـي قد لا يصـدر فـي خاتمة المطـاف إلا من وجهة نظر أشـخاص غير أعضاء فـي المهنة.

بعـد فرويـد، قـدم آدلر ويونج وفـروم وهورني تجارب فذة ودقيقـة، لم تفعل شـيئا - على الأقل فـي نصف الحالات - بالنسـبة للمشكلات الإنسـانية المُزْمنة؛ فهي قد كتبت أساسـاً لأعضاء آخرين فـي المهنة. ويذكرنا كل ذلك بتلك السـيدة التـي كانت فـي حديقة الحيوان وسـألت الحـارس بما إذا كان فـرس البحر ذكراً أم أنثـى. فأجـاب «يـا سـيدتي، يبـدو لي أن هـذا يبعـث على الاهتمام فحسـب بالنسـبة لفرس بحر آخر».

إن علمـاء النفـس هـم سـلاح للجنـس البشـري، ومناصـرون للإنسـان وللإنسـانية أو ينبغـي أن يكونـوا كذلـك؛ بقدر مـا يحمل علماء النفـس التزامات ومسـئوليات بالنسـبة لكل فرد يعيش الآن، وبالنسـبة للمسـتقبل؛ لكنهم لا يوفون بها كمـا ينبغي.

(٢)

علم النفس مطالب بأن يتحول أكثر إلى دراسة الفلسفة والعلم والجمال، وخاصة الأخلاق والقيم

تعني الحقيقة بأن علم النفس قد قطع نفسـه رسـمياً عن الفلسـفة ليس أكثر من أنه يتخلى عن الفلسـفة الجيدة لتحل أخرى رديئة. فلكل شـخص فلسـفة، حتى ولـو كانـت غير ممحصـة وغير واعيـة وغير سـليمة. وإذا كان لهـا أن تصبح أكثر واقعيـة وأكثـر فائدة وأكثر جـدوى، ينبغي أن يعمل صاحبها بوعي على تحسـينها.

تتضمـن فلسـفة علـم النفس، بالمعنـى الذي أسـتخدم به المصطلح، دراسـة القيـم. ينبغـي أن تبحث فلسـفة العلم فـي المعنـى والهدف من العلـم: كيف يعمل

علـم النفـس علـى إثرائنـا؟ ينبغـي أن تتضمن فلسـفة علم النفس كذلك فلسـفة الجمـال والإبداعيـة والإيجابيـة والخبـرات الأرقـى والأعمـق التي يقـدر عليها الإنسـان، وهـو مـا أطلـق عليه «قمـة الخبـرات» أو الخبـرات الذروية (peak-experience). ذلـك هـو الطريق الذي نتجنب به السـطحية، ونقر فيه بمسـتوى عـال من الطمـوح بطريقة مناسـبة.

لقـد بحـث الكثيـرون مـن علمـاء النفـس عن فلسـفتهم فـي مفاهيـم علم الفيزيـاء لمجـرد أن هـذه العلـوم كانـت ناجحة بشـكل واضـح. لكن علـم النفس وهـو فـي مرحلة طفولتـه كعلم، ينبغي أن يسـعى لبناء فلسـفته الخاصة ومنهجه الخـاص فـي البحـث، بما يتـلاءم مع طبيعتـه ومشـكلاته وأهدافه.

ولا أقصـد بذلـك إيعـازاً بـأن أسـاتذة الفلسـفة أفضـل أو أردأ مـن علماء النفس أو الفيزياء أو الكيمياء. فهناك مجالات عقيمة كثيرة سـواء فـي الفلسـفة أو فـي اي ميـدان آخـر. ولكن الفلسـفة تذخر كذلـك بنقاط كثيرة مـن الفراهة والنظرة الواعية الثاقبة والتقدم فـي الفكر الإنسـاني. وإذا لم يقف علماء النفس علـى قمـم الفكر الفلسـفي، فهـم بذلك ينزعون إلـى أن يظلـوا متكبرين بدلا من أن يكونـوا متواضعين، وسـطحيين بدلا مـن أن يكونوا عميقـين، مرددين بدلاً من ان يكونـوا مبتكرين.

ويقنـع كثيـر مـن علماء النفـس بالعمل مـع الكائن الحي الإنسـاني ولكن مع جانـب منـه – جانب مُجتَـزأ، وإن كانـوا قد حققوا فـي الواقع مأثـرة خارج تلك الحـدود. لقـد نسـوا أن غاية مهمتهـم أن يقدموا لنـا مفهوما موحـداً قائماً على أسـاس إمبيريقي «للإنسـان الكلي»، أي فلسـفة لطبيعة الإنسـان. وهذا يسـتلزم شـجاعة، ويتطلـب إرادة وتصحيحـاً للخـروج مـن الحلبـة الضيقة لليقـين. ذلك اليقـين بالضـرورة ضيـق، للسـبب الـذى ذكرناه بـأن معرفتنـا غيـر كافية حتى تسـمح لنـا بـأن نكـون متأكدين من أي شـيء ولكن فحسـب من شـذرات ضئيلة للمشكلة الإنسـانية المركبة.

لـكل فـرد، حتـى للطفـل الـذي يبلـغ عامـاً واحـداً مـن العمر، تصـور عن الطبيعـة البشـرية، لأنـه يسـتحيل العيش بـدون نظرية عـن الكيفية التي سـوف

يسلك بها الناس. وتتملك كل عالم نفس، سواء كان وضعياً أو معادياً للنظرية، فلسفة معينة عن الطبيعة البشرية تكمن في أعماقه؛ فهو كما لو كان يُوَجِّه نفسه بخريطة معروفة جزئياً، ينكرها ويتشكك فيها، وتكون لذلك مستبعدة من التعرض للخبرة المتجددة والتصحيح بواسطة معرفة مكتسبة حديثاً. هذه الخريطة أو النظرية اللاواعية توجه استجاباته إلى ما هو أكثر من معرفته التجريبية المكتسبة بمثابرة واجتهاد.

القضية إذا ليست في أن نأخذ أم لا نأخذ بفلسفة لعلم النفس، ولكن أن نأخذ بفلسفة واعية أو غير واعية.

وثمة حقيقة أخرى يمكن أن نتعلمها من الفلسفة، وهي أنه ينبغي أن تكون لدينا خريطة إذا كنا ننشد ألا نضل الطريق أو يضيع الوقت سدى. وقد يكون من الأجدى أن نقرر أنه كلما قامت المعرفة على حقائق، وإذا قمنا بتجميع حقائق من كل الأنواع لمجرد التحقق من صدقها، يعني ذلك أننا سوف نقترب ببطء من اللامعلوم. ليس ثمة حاجة حقيقة إلى نظريات. لكننا نعلم الآن أن معظم الحقائق - وربما كلها - هي تعبير عن نظرية. لقد أثبت علماء الانثروبولوجيا، وخاصة علماء اللغة، أن ما نطلقه من تسمية على شيء من الأشياء بأنه «كرسي» أو «طاولة» مثلا، هو تعبير عن منظور عالمي ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار إذا كان لنا أن نفهم هذا التقرير على نحو صحيح.

ويعتبر هذا احتجاجاً مطلقاً ضد العمل بشكل تفصيلي. ويؤدي أي اصطدام للقضايا في النهاية إلى تجارب حاسمة صغيرة ينبغي أن تُجرى بدقة وعناية بقدر الإمكان، حيث أن المجرب في النهاية يمثل المحكمة العليا التي تُختَبر أمامها كل النظريات.

لكن، لأننا نعرف القليل عن الإنسان والحدس والخبرة والحكمة والبصيرة، فإنها تصبح كلها مهمة للغاية. وحتى الشخص الأحمق يمكن أن يفهم فكرة متجسدة بدرجة كافية في حقائق، ولكن حينما توجد حقائق قليلة مترابطة إنما يستطيع الشخص الفطن أن يعرفها فحسب. لقد قدم علماء الدين والشعراء والكتاب والفنانون والسياسيون ورجال الصناعة وغيرهم فلسفات

عن الطبيعة البشرية. وعلينا أن نحترم هذه النظريات، شأنها في ذلك شأن نظريات عالم النفس غالبا، ونستخدمها كأطر مرجعية بهدف النقد واستثارة البحث والتجريب. ويتمثل انتصار العلم في أنه يستطيع أن يأخذ الحكمة الفطرية التي قال بها الحكماء العظام، ويصححها، ويختبرها، ويقيّمها، ليصل إلى معرفة أكثر يقيناً وثباتاً. **وحينما يصل العلماء، بعد سنوات من التنظير والجدل والتجريب، إلى نفس النتائج التي وصل إليها «روسو» أو «شكسبير» على سبيل المثال، لا تكون في الحقيقة هي ذاتها. لقد كانت إذن نظرية؛ والآن هي معرفة جديدة.** وأذكركم بأننا في حاجة إلى مبدأ نختار على أساسه النظرية السليمة من بين النظريات المتناقضة المختلفة. ومن يقوم باختبارها والتحقق منها إلا العالم، وعلى أي أساس إن لم يكن على أساس البحث الإمبيريقي؟

لذا ينبغي أن نولي إهتماماً خاصاً إلى المفكرين المتقاربين أصحاب النظريات المتمركزة على «**الإنسان الكلي**» (whole man) **في العالم الكلي** (whole world). من السهل تماماً تطوير نظرية سليمة عن تعلم المقاطع غير ذات المعنى، أو عن الفيران التي تجرى في متاهات، أو عن الفعل المنعكس الشرطي الخاص بسيلان اللعاب لدى الكلب. أما العمل على توحيد هذه النظريات المصغرة في النسيج الكلي لعلم النفس، فتعبر أمراً آخر. فربطها بالحب والكراهية، النمو والنكوص، السعادة والألم، الشجاعة والقلق، يكشف عن مدى التباعد عن شواطىء الحقيقة، بدلاً من جعل الارتياد يحلق عليها كلها.

(٣)

علم النفس الأمريكي ينبغي أن يكون أكثر شجاعة، وأكثر إبداعاً؛ وأن يحاول أن يكتشف، وليس فحسب أن يكون حذراً ودقيقاً في تجنب الأخطاء

لماذا لم يكن هناك أبداً عالم نفس أمريكي مبدع وعظيم؟ لقد كان أفضل علماؤنا مدرسيين scholars ومنظمين أو متمذهبين systematizers ومجربين experimenters، لكنهم لم يكونوا مكتشفين عظام. لقد أتت الاكتشافات العظيمة من أوربا؛ كل أنواع التحليل النفسي – فرويد، آدلر، يونج، رانك، فروم، هورنى؛ وكل علماء النفس الجشطلت – فرتيمر، كوفكا، كيولر، وليفين؛ وعلم النفس الحيوي Organismic Psychology عند جولدشتين؛ وحتى السلوكية، بالرغم من

أنهـا أمريكيـة بصفة خاصة فقد بدأت مع بافلوف فـي روسـيا.

وربمـا حدث نفس الشـيء بالنسـبة للعلوم الأخرى. ففـي الفيزيـاء النووية، علـى سـبيل المثال، كان أينشـتين وبوهـر وفيرمى وزيلارد كلهـم أوربيين.

لمـاذا يعتبـر العلـم الأمريكـي هكـذا فـي الأسـاس علمـاً تقليديـاً، معادياً للإبـداع وللإختـراع، وللاتقليديـة، وللأفكار الجديـدة؟ لماذا يعتبـر علماء النفس الأمريكيـون بصفـة مميـزة مطبقين لأفكار غيرهم من الشـعوب؟ لماذا يسـتخفون بالمخترع ويهاجمونه لسـنوات، ثم يتمسـكون بآرائه فـي النهاية حينما تصبح أكثر ألفة، ويجعلونها آراءً اصطلاحية، ويسـتخدمونها فـي مئات التجارب. وكما يقول «بيكاسـو»: «فـي البداية أنت تخترع شـيئاً، ليجعلوا منها بعد ذلك شـيئاً جميلاً».

لعلـي أتذكـر كيـف تملكنـي الحزن والغضـب من تقرير رسـمى للجنـة عليا «بالجمعيـة الأمريكيـة لعلـم النفس» (APA) عن مسـتقبل العلوم النفسـية. لقد كانـت التوصيـات منهجية أساسـاً: كيف تكون حـذراً، كيف تراجـع وتتأكد، كيف تكتشـف الأخطـاء، كيـف تتحقق من صـدق البيانات، كيـف تكون دقيقـاً ومتقناً. ومـن الصعـب أن تجـد كلمة عن الحاجة إلـى الإبداع، وإنتاج أفـكار جديدة، وإلى الارتيـاد وأخذ المبادرة والمخاطرة؛ وإلى تشـجيع الشـك والاستشـكاف.

لقـد كانت هذه التوصيات أشـبه بدرجة كبيرة من خرائـط الطريق الموجودة بمحطـة للبنزين، تخبرنا كيـف نتخذ طريقنا من مكان معروف إلى آخر، وليسـت هنـاك كلمـة عـن الأراضي التـي لم يرتادهـا الشـخص حيث لا توجـد علامات للشـوارع والطرق الممهدة؛ ليسـت هنـاك كلمة عن الارتياد والاجتيـاز للدروب بما يمثـل ضرورة قبل إعـداد الخرائط.

وقـد يتملكنـا الخوف من أنه حينمـا نعترف بالإبداع، إنما ندخل أنفسـنا مع كل أنواع الشـعراء والفنانين والموسـيقيين وغيرهم من الأشـخاص المشـكوك فيهم ممـن لـم يحصلـوا على دكتوراه الفلسـفة فـي علم النفـس؛ ولذلك قـد نعتبرهم متسـلقين اجتماعيـين بـدون أي حـق أو أهليـة ولا يعرفـون شـيئاً عـن الطبيعة البشرية.

(٤)

ينبغي أن يكون علم النفس متمركزاً أكثر على المشكلات، ومسْتغرَقاً أقل في الطرائق أو الفنيات

في الفصل الثاني من كتابي «الدافعية والشخصية» (Motivation & Personality)، تناولت هذه المشكلة باستفاضة. لذا سوف أكتفي فقط بالإشارة إلى الفكرة العامة: إذا كنت تهتم بصفة أولية بالاضطلاع بما تستطيع القيام به حيال المشكلات الهامة، تصبح الطرق الفنية ثانوية. فمثلا، إذا أردت تناول المشكلة «ما هو الحب؟»، فإنك سوف تصطدم بالمشكلة بالرغم من أنك مضطر للإرتجال. في المراحل الأولى من الاستكشاف، عليك أن ترضى بعدم الاكتمال وباللايقين. وإذا كنت تنشد الاتقان والكمال والاتساق والثبات، فإن هذه المشكلة تكون غير قابلة للتناول لأن الطرق الفنية الميسورة الآن ذات قيمة ضئيلة. وأولئك الذين يصرون على الدقة والاتقان منذ البداية، لا يستطيعون لذلك أن يبدأوا أبداً. وكل ما يستطيعون عمله يأتي في المراحل الأخيرة من تطور المشكلة:

لذا، إذا كان العلم يتحدد بالدقة وبالوصف الكمي وبالمتغيرات المحددة بإحكام بما يحقق ضبطاً جيداً، فإن المراحل الأولى من العمل مع المشكلة، حيث يسود الإلهام والملاحظات الطبيعية والتأملات والنظريات، ينبغي رفضها كمراحل «لا علمية». وإذا حددنا العلم بشكل أولي على أنه طريقة، فإن هذا ما يجعله لعبةً أو طقوساً غير ذات معنى. لأجل ماذا تكون الطريقة؟ فإذا كان الصواب والهدف والقيمة موضع اهتمام، والهدف المقابل هو الصدق والثبات، يكون هذا أقرب إلى الزهو: «لا أعلم بما أعمل ولا أهتم به، ولكن أنظر إلى الكيفية التي أعمل بها بدقة».

إن الموقف في علم النفس الأمريكي، حيث يركز معظم الباحثين على عمل ما يستطيعونه على نحو جيد بدلا من البحث عما يحتاجون إلى عمله، يرجع بدرجة كبيرة- كما أعتقد - لهذه النظرة الخاطئة إلى العلم.

(٥)

ينبغي أن يكون علم النفس أكثر إيجابية وأقل سلبية؛ وعلم النفس مطالب بأن تكون لديه مستويات أعلى، وألا يكون وجِلاً أو متردداً إزاء الإمكانات الأسمى للكائن الحي الإنساني

فأحد نقائص البحث في علم النفس وكذلك في الطب النفسي، تتمثل في تصوره المتشائم والسلبي والمحدود للمستوى الأقصى الذي يمكن أن يصل الإنسان إليه وأن يحققه. وبسبب هذه القصور القبلي، فإن علم النفس قد كشف عن الكثير من نقائص الإنسان وضعفه وآلامه، وعن القليل من مآثره أو إمكاناته أو مطامحه الأعلى. وقد قدمت في الكتاب المشار إليه عدداً من المقترحات الإيجابية لما نحتاجه من بحوث.

وهذا ليس دعوة للتفاؤل، وإنما هو مطلب للواقعية في أفضل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. فمن السخرية ان نُوَحِّد الواقعية بالظلمة والشر والكراهية والتعاسة والمرض والانهيار، كما يفعل الكثير من الروائيين المعاصرين. فالسعادة حقيقة واقعة كالتعاسة، والإشباع حقيقة واقعة كالإحباط، والحب حقيقة واقعة كالكراهية.

ومع ذلك، أود أن أؤكد على المثال الوحيد الأكثر أهمية لهذا الخطأ، ألا وهو التناقض بين معرفتنا عن المرض النفسي واهتمامنا غير الكافي تماماً بالصحة النفسية. وأستطيع فهم هذا التباين، لأن جهودي لدراسة الأشخاص الأصحاء قد علمتني مدى صعوبة المهمة التي تختلط مع المنعطفات الفلسفية المتعددة، وخاصة في مجال نظرية القيم.

أضف إلى ذلك، توجد مشكلات ثقافية ومنهجية وإكلينيكية، ولكنها تدعو بوضوح إلى العمل. فينبغي أن نعرف من هم الأشخاص الذين يحققون غاية ما يستطيعون الوصول إليه؛ ليس فحسب ما هم عليه، ولكن أيضا ما يمكن أن يصبحوا عليه. إن التوصل إلى مثل هذه المعرفة ينطوي على قيمة بالغة الأهمية. واعتقادي أن علم نفس الصحة أو علم السواء النفسي health psychology سوف يغير حتما من تصوراتنا الأعمق عن الطبيعة البشرية؛

سوف يجعلنا نكف عن عادتنا الشائعة غالبا في اعتبار «السوية» (normality) كحالة خاصة من اللاسوية؛ وتعلمنا بدلا من ذلك بأن اللاسوية حالة خاصة من السوية، وأن المرض النفسي مكابدة حيال الصحة النفسية.

وثمة جانب آخر لنفس هذا التورط الخاطئ فيما هو سلبي، يتمثل في مقدار الوقت الذي يستغرق في العمليات الدفاعية ، وفي حماية الذات self protectiveness، وفي السلام والأمان، وفي عمليات استعادة الاتزان homeostatic processes. والتطبيق السهل في هذا التوجه، هو أن الحياة عملية تجنب للألم ومحاربة للتعاسة. **وفي المقابل، ثمة مجموعة أخرى من الدافعيات، وهي «الدافعيات الإيجابية». فالكائن الحي الإنساني ينزع أيضاً إلى أن ينمو بدرجة أقوى، وعلى نحو أكثر حكمة وصحة، وإلى أن يحقق إمكاناته، وإلى أن يكون متطلعاً وباحثاً ومستكشفاً، وأن يبدى الميل والاهتمام، والدهشة، وأن يتعجب ويتفلسف، وأن يكون مبدعاً، وأن يستمتع. وهو لا يتكيف فحسب، ولكن يتمرد أيضا.**

وفي الحقيقة تماما، أننا نغوص وننكمش في أعماق أنفسنا حينما يهددنا شيء، نحاول تجنب الألم؛ وهناك الكثير من الألم في حياة معظم الناس. ولكن إذا كانت الحياة ببساطة مجرد تجنب للألم؛ فلماذا لا نجني على أنفسنا وبالتالي نتجنب الألم إلى الأبد؟ ومن الواضح أن الحياة تذخر بالمزيد مما تقدمه، وعلينا أن ندرس هذا «الشيء الأكثر».

(٦)

وإذا كان الأمر كذلك، ينبغي أن يخرج العلاج من الحجرات، وينتشر في المجالات الأخرى الكثيرة من الحياة.وأكثر من ذلك، ينبغي ألا يتسع نطاق استخدامه بدرجة أكبر فحسب، ولكن أن يتوجه أيضا بطريقة أكثر طموحاً ليتضمن أساليب وفنيات النمو والإنماء (Growht fostering techniques)

فبعض طرق العلاج النفسي الأكثر أولية يمكن تعليمها في شكل مبسط للمعلمين والآباء والوزراء والأطباء وغيرهم من الأشخاص العاديين غير المتخصصين. فالسند والدعم وإعادة التأكيد والتقبل والمحبة والاحترام – كل هذه طرق علاجية.

ونعلـم أيضـاً أن الكثير مـن الخبرات الحياتيـة الطيبة تكون ذاتها خبـرات علاجية، مثل الزواج الناجح، والتربية السـليمة، والنجاح فـي العمل، والأصدقاء، والقدرة على مسـاعدة الآخرين، والعمل المبـدع، وغير ذلك. تمثل كل هذه توجهاً إيجابياً أساسـياً ينبغي دراسته بعناية، كما ينبغي التوسع فـي تعليم المعرفة المُحْرَزة فـي هذا المجال.

ومـن ثم، يعتبر تصـور العلاج على أنه محو للأعراض والمـرض تصوراً محدوداً للغايـة. ينبغـي أن نتعلـم أن نعتبـره أكثـر كطريقة فنية (تكنيـك) لدفع النمـو العام، ولتشـجيع تحقيـق الـذات. يعني ذلـك أن الكثير من الطـرق الفنية الأخـرى التي لا تنضـوي الآن تحت العلاج النفسـي، سـوف يتبـين أنها تنتمـي إليه. **فمعنـى العلاج ينبغـي أن يتسـع ليتضمـن كل طرق النمو والتنميـة، وخاصة الطـرق التربوية، وبصفة أخص التربية الإبداعية في الفن واللعب، وفي كل أشكال التعبير التي تشجع الإبداعية والتلقائية والإقـدام والتكامل.**

(٧)

وعلم النفس مطالب بدراسة أعماق الطبيعة البشرية وكذلك السلوك السطحي؛ ودراسة اللاشعور وكذلك الوعي

وإنـي لعلـى بينـة بـأن هذا قـد يبـدو خيالياً، لكـن الحقيقـة أن علـم النفس التجريبـي الأكاديمـي لا يدرس الأعماق كما ينبغي أن يكون، ويركز فيما يسـتطيع أن يراه ويلمسـه ويسـمعه. ولعل الاكتشـاف السـيكولوجي الوحيد الأعظم هو اكتشاف الدافعيـات اللاشـعورية، ولكن ما هو لاشـعوري لا يزال فـي غير متنـاول الكثير من الباحثـين فـي علم النفس. فدراسـته حتـى الآن مهمـة أصحاب التحليل النفسـي والمعالجين والأطباء النفسـيين.

والعاقبـة، كمـا تتبـدى من النصوص التقليدية فـي علم النفـس العام، هي نوع مـن «نصـف علم نفس» أو «علم نفس جزئـي» (half - psychology)، حيث ينطلقون فـي تنـاول الطبيعـة البشـرية «مـن وسـط الطريـق». وهـذا أشـبه بتعريـف جبـل الجليـد بأنـه فقط ذاك الجـزء الذى يمكن رؤيته فقط على سـطح الماء. والنتيجة «علم نفس رسـمي» (official psychology) يتنـاول العقلانية rationality وليس اللاعقلانيـة؛ ويتنـاول العمليـة المعرفية بدرجة أكبـر بكثير من العمليـة النزوعية

والوجدانية؛ ويتناول التوافق للواقع الخارجي بدرجة أكبر بكثير من التوافق مع الواقع الداخلي؛ ويتناول العمليات اللفظية والرياضية والمنطقية والفيزيقية بدرجة أكبر بكثير من العمليات التاريخية والعمليات المتعلقة بالأمثال المأثورة والعمليات الرمزية واللامنطقية والحدسية والشعرية الخيالية – وكل هذا ما يعرف بـ «العملية الأولية» لدى أصحاب التحليل النفسي.ولا يؤدي فحسب النفاذ إلى أعماق الظاهرة النفسية إلى إحداث صعوبات أو مشكلات لنا؛ بل من هذا أيضاً تتأتى متعتنا وبهجتنا. أما إذا كنا ننطلق في هذا العالم بدون معرفة لما يجرى في داخل أنفسنا، بدون بصيرة بما نبحث عنه، بدون وعي بالقوى التي تحدد سلوكنا بدرجة كبيرة، إنما نغفل بذلك مصادر عللنا ومسراتنا على حد سواء.

ويعنى هذا النقص في الفهم نقصاً في التحكم في مصيرنا.

(٨)

علم النفس الأكاديمي علم غربي بصورة احتكارية للغاية، لذا يحتاج إلى أن يتجه كذلك نحو المصادر الشرقية

وإذا كان علم النفس قد تحول بدرجة هائلة إلى ما هو موضوعي وعام وخارجي وسلوكي، لكنه ينبغي أن يعرف أكثر عما هو ذاتي وخاص وداخلي وتأملي. والحقيقة أن الاستبطان، الذي رُفض كطريقة، ينبغى أن يعود مرة أخرى إلى البحث السيكولوجي.

علم النفس الأمريكي علم سلوكي بصفة خاصة، يهتم بالأفعال والأداءات الظاهرية. ويتولد عن هذا جهد، يستحق الثناء والتقدير، لكي يكون «علمياً». ومن الطبيعي أن يكون أمل وهدف العلماء أن يوضحوا، وأن يثبتوا، وأن يكرروا التجربة في مختبرات أخرى. إلا أننا ينبغي أن نواجه الحقيقة الصعبة بأن هذا هو الغاية القصوى أكثر من يكون هو الغاية المباشرة.

وإذا كان لنا أن نقصر أنفسنا على ملاحظة السلوك الخارجي، إنما نغفل كل انواع النشاطات الانسانية التي لا تكشف عن نفسها خارجيا في شكل بسيط .

لقـد تمخص عن السـلوكية رد فعل واع ضد التشـبه بعلـم النفس الحيواني، لكـن البنـدول قـد تأرجـح بعيـداً للغاية،وعمد بـدلا من ذلك إلـى «حَيْونَـة» علم النفـس الانسـاني، إلـى دراسـة الشـخص كما لـو أنه مجـرد فأر أبيـض معقد. حقيقة، إنه لخطأ مبين أن نستكشـف الدوافع الانسـانية مـن الحيوانات المعملية؛ ولكـن هـل من الخطـأ أن نعزو الدوافع الإنسـانية إلى الإنسـان؟

وأود لـو نسـتعيد الاسـتبطان لسـبب آخر. إننا نكتشـف أكثر وأكثـر، حينما نـدرس الشـخصية فـي «العمـق» مقابـل «السـطح»، بأنه بقـدر ما ننفـذ أعمق، بقـدر مـا نجد عمومية أكثر. ففـي المسـتويات الأعمق لدى النـاس، فإنهم يبدون متشـابهين أكثـر مما هـم مختلفين. ولـذا، إذا اسـتطاع الفرد أن يصـل إلى هذه الأعمـاق داخل نفسـه، وقد يكون ذلك بمسـاعدة المعالج، فإنه يكتشـف ليس ذاته فحسـب ولكـن يكتشـف أيضاً الـروح الإنسـانية الكاملة. وهـذا ما يعرفـه غالباً علمـاء النفس غير الأكاديميين فـي الشـرق؛ ونحن فـي الغرب ينبغـي أن نتعلمه كذلك.

(٩)

وينبغي أن يسعى علماء النفس إلى دراسة «الخبرات الغائية» (end experiences)، وكذلك الوسائل إلى الغايات - العملية والنفعية والغرضية

ما الذي يعيش الإنسـان من أجله؟ ما الذى يجعل المعيشـة مسـتحقة وجديرة بالقيمـة؟ أي الخبـرات فـي الحياة تُزكـي آلام الوجود، ونعلم أننا نصل إلى أسـمى مسـتويات العيش فـي لحظـات الخلق والإبـداع والبصيرة والابتهـاج وخبرة الحب والخبرة الجماليـة والخبرة الباطنية mystical - أي «قمة الخبرات» أو «الخبرات الذُرْوِيَـة» (peak experiences). وبـدون هذه الخبـرات لا يكون للحياة معنى.

وينبغـي أن نتذكـر كذلـك، أن الخبـرات الغائيـة تسـتلزم ألا تكون فحسـب قمـة الخبرات فـي الحيـاة. فنحـن نحقق أيضـاً إثابـات أرق وألطف فـي اللذة البسـيطة للمعشـية، فـي الدعابة والمرح، فـي كل الأنشـطة التي نؤديها من أجل ذلك. فالكيان الإنسـاني الحيوي يسـتمتع بالوجود. إلا أن علم النفس المبالغ فـي اتجاهـه العملي يغفـل كل ذلك.

(١٠)

وينبغي أن يسعى علم النفس إلى دراسة الكائن الحي الانساني، ليس كمجرد طينة طيعة سلبية تحدده القوى الخارجية وهو في حالة من العجز وقلة الحيلة. فالإنسان يعتبر، أو ينبغي أن يكون، نشطاً وفعالاً ومستقلاً، ومتحركاً بالتحكم الذاتي، ويحسن الاختيار، والتركيز على حياته ذاتها

لقد أوجد ما يعرف بعلم نفس المثير– الاستجابة stimulus - response psychology، عن غير قصد، ما يمكن أن نطلق عليه إنسان المثير – الاستجابة stimulus - response man، وهو إنسان سلبي مستسلم، متشكل، متوافق، متعلم. ويتناقض معه الإنسان المبدع، النشط، الذي يخترع ويبتكر، ويتخذ القرارات، ويتقبل بعض المثيرات ويرفض الأخرى، والذى يُوَلِّد – في الحقيقة – مثيراته الذاتية. وقد يساعد إقرار هذا النقيض في فهم السبب الذي يؤدي إلى تزايد قلق علماء النفس أكثر وأكثر حيال مفهوم «التوافق». فالتوافق، سواء للثقافة أو للأشخاص الآخرين أو للطبيعة، قد يعني أن يكون الإنسان سلبياً، يدع نفسه تتشكل من الخارج. فهو مشروع محاولة لأن يكون ما يبتغيه الآخرون، بدلا من بحث الفرد عن ذاته الحقيقية. ومن وجهة النظر هذه أيضاً، يبدي علماء النفس نقدهم بشكل متزايد لتصور التعلم كعملية سلبية.

(١١)

يميل أصحاب الاتجاه العقلاني (intellectualism) إلى أن يصيروا مغمورين أو متورطين داخل عالم من التجريدات والكلمات والمفاهيم، وإلى أن يُغفلوا الخبرة الحقيقية الأصيلة التي هي البداية لكل العلم.

ويمثل هذا في علم النفس خطورة بالغة

يتضمن تصحيح هذا الاتجاه جانبين: الأول، الوعي بإسهامات علماء دلالات اللغة (السيمانطيقيين) الذين يكرسون أنفسهم بصفة خاصة لهذه المشكلة؛ والثاني، النظر إلى أصحاب الفن الذين تتحدد مهمتهم الخاصة بأن يَخْبُروا بحداثة وجدة، وبأن يروا– وأن يساعدونا على أن نرى – العالم كما هو حقيقة، وليس متواريا وراء نسيج من المفاهيم واللفظيات والتجريدات والفئات والنظريات.

(١٢)

لم تندمج تماما دروس علم النفس الجشطالتي Gestalt Psychology والنظرية الحيوية Organismic theory في علم النفس. فالكائن الحي الانساني وحدة متكاملة لا تنفصم، على الأقل بقدر ما يهتم به البحث السيكولوجي؛ فأي شيء في الانسان يرتبط، بدرجة أكبر أو أقل، بأي شيء آخر

ليس لهذا نتيجة مهمة. فليس هناك فرد في جوهره الأساسي يمكن مقارنته بأي شخص آخر. ولذا فإن مُثله الخاصة وطابعه الخاص، ومسار نموه ينبغي أن يكون فريداً كذلك. هدفه ينبغي أن ينشأ من طبيعته الخاصة، ولا يختار بالمقارنة أو المنافسة مع الآخرين. ومهمة كل إنسان أن يصير على أفضل صورة تؤهله لها ذاته. فينبغي ألا يحاول «شخص» أن يكون مثل «أبراهام لنكولن» أو «توماس جيفرسون» أو أي نموذج أو بطل آخر. وإنما ينبغى أن يكون هذا الشخص أفضل ما عليه في العالم. وذلك ما أن يفعله، وبقدر ما هو ضروري وممكن، هنا لا يوجد منافسون له.

(١٣)

ينبغى أن يركز علماء النفس أكثر على الدراسة المتعمقة للشخص الفريد الواحد (علم نفس الشخص الواحد one person psychology)، حتى يتوازن فهمهم للإنسان مع انغمار تصوراتهم في الإنسان المعُمَمّ والقدرات المعُمَمّةَ والمجردة

ثمة فارق عظيم واحد بين الدراسات النفسية والدراسات التي تجري في العلوم الأخري. ففي الواقع أن العلوم الأخرى تدرس المتشابهات، وهي تعني التجريد: ففأر أبيض يصلح كفأر آخر، وذَرَّة تشبه الأخرى، وعنصر كيميائي يشبه الآخر. فالفروق ليست ذات دلالة. وعلم النفس كذلك ينبغي أن يسعى إلى التجريد في فهم الظاهرات؛ ولكن له مهمته الخاصة التي لا تنتسب إلى أي علم آخر عدا علم الأجناس- وهي دراسة «التفردية».

(١٤)

وأخيراً، كلما بدأنا نعرف أكثر عن المطالب والحاجات الحقيقة اللازمة للنمو الشخصي وتحقيق الذات، أي الحاجات اللازمة للصحة النفسية، إنما نحدد بذلك لأنفسنا مهمة خلق «الثقافة الصحية الإنمائية» (Health fostering culture).

وهــذا، كمــا أعتقــد، ليــس بمهمة أصعــب من حيث المبــدأ من عمــل القنبلة الذريــة الأولــى. ومن الطبيعي أننا قــد لا نعرف بدرجة كافيــة أن نحقق الآن تلك المهمــة. ولكــن ينبغــي أن يكــون جانبــاً من المهمــة القصــوى هو اكتســاب المعرفة اللازمــة، وليس فــي هــذا اعتراضات من الناحيــة النظرية.

ومشــروع هــذا شــأنه، حينمــا يبدأ، ســوف يكــون هنــاك الإثبات بــأن علم النفــس قــد نضج بدرجــة كافية ليكــون علمــاً مفيداً، ليــس من المنظــور الفردي وحــده، ولكــن أيضــاً من منظــور التقــدم الاجتماعي.

يشــير «جــوردون ألبــورت» إلــى أن كل الكتــب الخاصــة بســيكولوجية الشــخصية هي أيضا كتب عن «فلســفة الشــخص» Philosophy of person. والســبب فــي هذا واضح؛ فلا توجد نظرية فــي علم النفس تتســع للبيانات المتجمعة فــي المختبرات؛ فالنظريات هي تكوينات ينبغي اســتخلاصها خطوة بخطوة بطريقة تأملية. وفــي هذه العملية، ســوف يعتمد عالم النفس، ســواء يقصــد ذلــك أم لا، علــى تصوراته عن الطبيعة البشــرية.

وقــد يرغــب طالب علم النفــس، حينما يقرأ النظريات التي تســتعرضها الدراســة الحاليــة، أنــه يمكــن ترتيبها وفقــاً لمقــدار الحرية التي تســمح بها هــذه النظريــات للفرد فــي أن يصير نوع الشــخص كما يرغب فــي أن يكون عليه.

(٣)

الشخص في علم النفس

جوردون أولبورت

(جامعــة هارفــارد)

يتسـاءل النـاس اليوم بدرجـة أكثر إلحاحاً مـن أي وقت مضـى: أي نوع من المخلوقـات يكون الإنسـان؟ هـل لديـه الإمكانية للتطـور والنمو المسـتمرين حتى يسـتطيع السـيطرة على المشـكلات المفجعة التي تواجهه - الصراع الأيديولوجي، وكثـرة السـكان، والكـوارث الذرية، وعـدم الاحترام الشـائع من دولـة لدولة ومن جنـس لجنس؟

وبالرغـم من أن المشـكلة تخـص غالباً الفلاسـفة ورجال الديـن، والمؤرخين والشـعراء، إلا أن الباحـث يتحول، وهو يحدوه أمل خالـص، إلى العلوم البيولوجية والنفسـية والاجتماعيـة. ففـي عصـر العلـم والمعرفـة يريد أن يسـمع مـا الذي تقرره نتائج الدراسـات فـي تلـك العلوم عن هذه المشـكلات.

وكلمـا يهتـم علم النفس، يكـون هناك إتفاق أقـل مما ننشـده. ويقدم علماء النفـس، مثـل غيرهـم من العلمـاء والفلاسـفة، أنواعـا مختلفة مـن الإجابات - غالباً ما تكون مجرد تلميحات مكشـوفة للإجابات، وشـبه متوارية فـي شبكة من الافتراضـات غيـر المُعَبِّـر عنهـا. ومهمتنا لذلك هي أن نسـتبين بعـض الإجابات السـيكولوجية الأساسية:

التصور الوضعي:

نسـتخدم مصطلح «الوضعية» للإشـارة إلـى التيار الأساسـي التقليدي لعلم النفـس كما يوجد فـي الـدول الغربية اعتبـاراً من «لوك» و «كانـت». ويتمثل ذلك فـي التقليد الإمبيريقي، التجريبي، الترابطي أساسـاً، والكمي بشـكل متزايد.

ربمـا تكـون أبسـط طريقة لتوصيـف النظـرة الوضعيـة للإنسـان أن نقرر أن الإنسـان هـو «كيان رد فعلـي» (reactive being)، يسـتجيب بـردود الأفعال.

فمـا يقـوم به تحكمه القـوى الخارجية أو الحفـزات الداخلية. ويـرى علم النفس الوضعـي، كالعلـم الطبيعي التقليدي، الحركـة على أنها نتـاج الضغوط ومحتومة بها. ويشـبه الإنسـان هـذه الموضوعات غير الحيـة (متضمنـة الآلات) والكائنات الحيـة الأولية.

ونـادراً مـا تتقرر وجهة النظر الوضعية عن الإنسـان بشـكل واضح وصريح. فعلمـاء النفس مشـغولون بدرجة كبيرة فـي دراسـة هـذا أو ذاك مـن رد الفعل، لـدى الإنسـان أو الفيران، لكـي يتوصلوا إلـى تضمينات نهائية مـن عملهم. وهم فـي ذلك يفترضون فحسـب، فـي خط واحد مع إجرائاتهم، أن الشخص الإنسان كائـن رد فعلـي بشـكل خالص. وحتـى النظرة السـطحية للمصطلحـات اللفظية التـي يسـتخدمها علماء النفس، تبـين أن مصطلحات مثل الفعـل المنعكس reflex ورد الفعـل reaction والاسـتجابة response والاسـتدعاء retention، هـي أكثر عموميـة للغاية مـن المصطلحات التي تتضمن البادئـة «pro» (وتفيد معنى التقدم أو السبق) مثل propriate, proceeding, promise, proactive, programming. وتشـير هكـذا المصطلحـات التي تبـدأ بـ «re» إلـى المعـاودة والتكرار والسـلبية، والخضـوع للدفـع والضغـط، أو للمنـاورة والمداورة. أمـا المصطلحـات التي تبدأ بـ «pro»، فتفتـرض المسـتقبلية والقصد والدفـع إلى الأمام. وينظـر علم النفس غالبا إلى الإنسـان ليس فـي ضوء الفعـل الإيجابي proaction، ولكن فـي ضوء رد الفعل reaction.

ولا تدعـي المدرسـة الوضعيـة أنها تنظر إلى الإنسـان نظـرة إجمالية، بقدر مـا تركـز مهمتهـا فـي أن تجد حقائـق صغيرة تحت شـروط مضبوطـة. وتتقيد «الحقيقـة» بـأن تكون صغيرة، طالمـا أن الثبات يمكن الحصـول عليه فقط حينما يتنـاول الفـرد قطاعاً جزئياً محدوداً من السـلوك. فكليات السـلوك غير حقيقية بحيـث أن العالِـم الوضعي يعمد إلـى إغفالها.

أمـا الجزئيـة أو الشـذرية fragmentation، فتـؤدى إلـى نتائـج أكثـر ثباتاً ورسـوخاً. ولـذا يوجَّـه الاهتمام إلـى الجوانب الجزئيـة والفيزيقية وشـبه الآلية والمنظمـة والمنطقيـة لأن هذه الجوانب يمكن ضبطها. ويتقلـص الاهتمام، ارتباطا

بذلـك، بعيـداً عن الجوانب الرمزية وغيـر المنطقية وغير المقننـة أو غير المصنفة لأنـه لا يمكن ضبطهـا بثبات.

ومـن ثـم تعلمنا المدرسـة الوضعيـة كيف نكـون حذرين ومحافظـين، وكيف نختبـر ونراجـع ونتحقـق من صـدق موضوعات الدراسـة والبحـث؛ وكيف نكون مدققـين ومنضبطـين. والكثيـر مـن المعلومـات العامـة المفصلة التي تدخل فـي سـيكولوجية الشـخصية تتأتى وتتجمع بواسـطة تتبـع قوانين البحـث التجريبي. وهـذا الإجـراء مـن شـأنه أن يسـتهوينا لأنه يقـدم أفضـل الوسـائل للتحقق من اكتشـافاتنا. والثمـن الـذي ندفعه هـو تقييد اهتمامنا وشـغفنا بجانـب فقط من الكائـن الحـي الإنسـاني؛ ومن ثم، قمـع الاهتمـام بالنمط الكلي للإنسـان.

وإذ تبحـث الوضعيـة عن التعميمات الناموسـية nomothetic (أي الكشـف عن القواعد والقوانين العامة) للسـلوك الإنسـاني، فإنها تعتبر الاهتمام والشـغف بالنظـام الداخلـي لعمل العقـل بصفة خاصة على أنه اتجاه ذاتـي و «غير علمي». وفـي المقابـل، قد يبـدو أكثر علمية أن نطلق شـرذمة من الفيـران البيضاء خلال متاهـة مـن أن ننشـغل بالتنظيـم والبنـاء المركـب لشـخصية معينـة. وقـد يبدو أكثـر مدعـاة للاحتـرام أن نوجد المتوسـطات والاحتمـالات للعينة مـن أن ندرس أسـلوب حياة شـخص معين. وتفضيل هذا شـأنه لا يصعب تفسـيره فـي حضارة تكنولوجيـة ومتمركـزة حول الآلة.

ومـا يثيـر الاهتمـام أن نسـتعيد إلـى الأذهـان أن مؤسسـي علـم النفـس التجريبـي - فونـت ، جيمس، وتيتشـنـر - قد اعترفوا بالشـخص الفـرد على أنه المحـور الرئيسـي فـي تعريفاتهم لعلـم النفس. كتـب الأول (فونـت): يبحث (علم النفس) فـي المضمـون الكلي للخبرة فـي علاقاتهـا بالفرد. والثانـي (جيمس): علـم النفس هو ذلـك العلم الخاص بالعقول الفردية المتناهيـة finite individual minds. أمـا الثالث (تيتشـنر): علم النفس هو علم دراسـة الخبرة المتمركزة على شـخص معين.

لكـن ليـس أحـداً مـن هـؤلاء العلماء الأفـذاذ قـد طـور اهتمامـه بالحياة العقليـة حتـى يتفـق مع تعريفـه. فكلهم كانـوا منهمكـين بالجوانـب المنتظمة من العقـل. لقـد منعهـم التقليد الذي عملـوا به من تتبـع تعريفاتهم بطريقة متسـقة

حتى النهاية. وقد عمدوا، كخلفائهم، إلى تجريد الشخص من كل تفصيلاته الدقيقة المزعجة، وسعوا إلى إقرار «علم المتوسطات» بالنسبة للجانب الأعظم.

وتتمثل المشكلة الحقيقية الوحيدة مع تصور العالِم الوضعي في أنه لا يعرف (أو نادراً ما يعرف) أنه حبيس نظرة فلسفية معينة، وكذلك حبيس فترة حضارية معينة، وحبيس تعريف ضيق «للعلم». ونادراً ما تدافع الوضعية عن نظريتها الحتمية وشبه الميكانيكية للشخص الإنساني، وإنما تأخذها كمجرد قضية مسلم بها. أي أن غيبياتها لم تخضع للاختبار والتمحيص، «ولا يوجد علم - كما يقول الفيلسوف هوايتهد - يمكن أن يكون أكثر أماناً من الغيبيات اللاواعية التي يفترضها تكتيكيا».

ولا شك أنه من غير الإنصاف توجيه اللوم إلى النظرة الوضعية للعلوم النفسية والاجتماعية على الورطة الحالية للإنسانية، بالرغم من أن الكثير من النقد يتخذ ذلك الموقف. فالوضعية إنعكاس أكثر من أن تكون سبباً للنظرة الجزئية الذرية للشخصية. وأسوأ ما يمكن أن يقال أن الوضعية، لكونها تقصر نفسها على «التمركز حول الطريقة» (method - centered) أكثر من «التمركز حول المشكلة» (problem - centered)، قد أوجدت حشداً من الحقائق المتفرقة الجزئية على حساب النظرة المترابطة للشخص ككل. ومن الإنصاف، مع ذلك، أن نشكر الوضعية على الضمانات السليمة التي تضعها على التأمل غير المنظم، ونقدرها على الكثير من النتائج الطيبة وإن كانت غير مترابطة.

تصور التحليل النفسي:

هناك الكثير مما كتب عن صورة الإنسان في التلحيل النفسي. وهذه الصورة معروفة جيداً.

تشبه الصورة، في بعض الجوانب، ما ذهبت إليه المدرسة الوضعية. فالإنسان كائن شبه - آلي رد فعلي quasi - mechenical reactor، محكوم بثلاث قوى طاغية: البيئة، والهي، والأنا العليا. ويتوافق الإنسان بقدر ما يستطيع داخل هذا المثلث من القوى. وفيه يكون لتعقله المتعاظم اعتبار ضيل. وطالما أنه منغمر بالدفاعات وينزع إلى التبرير، يكون مآل سعيه إلى الحقيقة

القصوى منوطاً بالفشل. وإذا أراد أن يجد الحقيقة في الدين، فإنه قد يعتبر هذا الكشف وهماً حتى يصل به إلى العُصاب.

ثمة تشاؤم كبير في النظرية التقليدية للتحليل النفسي (النهج الفرويدي). فالانسان محكوم بكل عنف بالقوى اللاشعورية للأنا بحيث أنه لا يستطيع أن يتخلص أبداً كلية من الاستيحاش والقساوة والشهوة في طبيعته. وفي ذلك يكون الإعلاء هو أفضل ما يمكن أن نأمله. فليس ثمة تصريف إيجابي للدوافع.

ولا تستطيع أي نظرية عن الإنسان، ارتباطاً بهذه الصورة المتجهمة عن الإنسان، أن تتخطى بسلام عناصرها الخاصة بالحقيقة: كيف يمكن أن نأمل أن نرى الإنسان الكلي بدون أن نضع في الاعتبار ذلك الجانب المظلم لطبيعته؟ ومع ذلك، فإن الكثير من علماء التحليل النفسي يشعرون أن الصورة أعظم من دور القوى اللاشعورية والليبيدية في الشخصية.

وتعمد الفرويدية الجديدة المعروفة بـ «علم نفس الأنا» (Ego - psychology) إلى توسيع آفاق تلك الصورة، وتتفق في كثير من النواحى مع المدارس الفكرية التي سوف نتناولها فيما يلي.

التصور الشخصاني:

الفكر الشخصاني personalistic هو فكر متعدد الأشكال. وهذه الأشكال تتفق جميعها على أن الشخص الفرد ككيان أنموذجي نمطي ينبغي أن يكون مركز الجاذبية لعلم النفس. وغاية المراد عند المدرسة الشخصانية (Personalism) إعادة كتابة علم الحياة النفسية كليةً حول هذه البؤرة.

لماذا فُرضت هذه الحاجة إلى إعادة البناء الجذري لعلم النفس على المدرسة الشخصانية؟ والأسباب التي يقدمونها متعددة للغاية. ويكفي أن نقدم مناقشة موجزة لها:

من المستحيل، بدون مفهوم تنسيقي عن **الشخص** (أو مفاهيم مكافئة مثل **الذات** أو **الأنا**) أن نتناول التفاعل بين العمليات النفسية: الذاكرة تؤثر

في الإدراك، والرغبة في المعنى، والمعنى يحدد الأداء، والأداء يشكل الذاكرة؛ وهكذا بلا حدود. ويقع هذا التفاعل المستمر داخل إطار معين، وهو الشخص، ويحدث لغرض معين، والغرض يمكن تحديده على أساس ما يَخْبُره الشخص.

ولا يكون لتنظيم التفكير أو السلوك أية دلالة إلا إذا نُظر إليه على أنه يقع داخل إطار محدد. فالحالات النفسية لا تنظم نفسها أو يكون لها وجود مستقل؛ فنظامها يؤلف فقط جانبا من نظام أكبر – وهو **الحياة الشخصية**.

إن مفاهيم مثل **الوظيفة والمواءمة والفائدة**، تكون غير ذات دلالة بدون الرجوع إلى الشخص. وإذا كان ثمة توافق يحدث، ينبغي أن يكون توافقاً **«خاصاً» بشيء ما**، **«لـ» شيء ما**، **«من أجل» شيء ما**. والشخص، مرة أخرى، هو المركز لهذا التوافق.

ويرتبط بهذا كل البيانات – الاستبطانية أو غيرها – التي تفرض على علم النفس أن يضع **«الذات»** موضع الاعتبار، على الرغم مما تتصف به من التملصية الزائدة. يقرر «وليم جيمس» أنه لكي ندرك الذات كلية في الوعي، فإن ذلك أشبه بمحاولة الفرد الخطو على ظله. ومع ذلك، فالذات هي أساس الخبرة كلها. وبالرغم من أنها نادراً ما تكون بارزة بذاتها، فإنها تهيء القاعدة لكل الخبرات الأخرى، ولا نستطيع أن نتكلم عن «طبقات الشخصية» (personality strata) بدون الإشارة إلى الوحدة الأسمى التي تجمعها وهي الذات.

إننا نفترض وجود الشخص المبدع فيما يبتكره. وحتى العالم ذو الاتجاه الوضعي يحدد اهتمامه عن قصد، ويصمم تجاربه، ويفسر النتائج. ولا نستطيع أن نخرج بأي معنى من كل هذا بدون الافتراض بأن **الإنسان العالِم ذاته هو الوحدة المبدعة الأولى**.

ذلك بعض من الجدل الفلسفي حيث يقرر علماء النفس الشخصانيون (وعلماء نفس الذات) وجهات نظرهم بغية إعادة بناء علم النفس، ويسلمون عن قناعة إلى العلوم اللاشخصية impersonal sciences (الطبيعية والبيولوجية) مهمة استكشاف إطار معين للمشكلات. إلا أنهم يصرون على أن علم النفس، الذي تكون مهمته تناول كلية السلوك، لا يستطيع أن يفي بواجبه بدون أن

يربط الحالات والعمليات التي يدرسها بالشخص الذي هو صاحبها ومُوجدها ومُنظمها. فليس ثمة توافق بدون أن يكون هناك شخص يتوافق، ولا تنظيم بدون منظم، ولا إدراك بدون مدرك، ولا ذاكرة بدون استمرار وتواصل ذاتيِ self - continuity، ولا تعلم بدون تغير في الشخص، ولا تقييم أو تقدير بدون شخص يتمتع برغبات ومقدرة على التقييم. علم النفس مطالب بأن يأخذ بجدية القول المأثور لجيمس: أن **كل عملية عقلية تحدث في «شكل شخصي»** (personal form)؛ وينبغي أن يأخذ علم النفس بهذا التوجه على نحو أكثر جدية مما فعل جيمس نفسه.

ليس من غير الشائع في كتب علم النفس العام أن نجد في الفصل الأخير معالجة منفصلة ومقتضبة للشخصية، كما لو أننا نثيب القارئ الذي توغل خلال أكوام من التجريدات المتعلقة بالعقل الإنساني المعمم. ويسعى علم النفس الشخصاني إلى أن يقلب الإجراء؛ فالشخص ينبغي أن يؤلف نقطة الانطلاق في كل ما ندرسه ونفهمه عن الإنسان.

يوضح هذه النقطة تناول «شترن» للإدراك المكاني. يتكلم علم النفس التقليدي عن «المجال البصري» أو «المجال السمعي» ويعالجهما على أنهما منفصلان كلية. وإجراء كهذا كما يقرر شترن، ينطوي على تضليل، فهو تجريد معملي فقط. هناك فحسب مجال واحد: مجالي أنا. فالأصوت والأشياء واللمسات كلها «مرتبطة بي وتعزى إليَّ».

ولا يستطيع علم نفس لا شخصي أن يضع في الاعتبار الحقيقة بأن جليسي في القطار أو الطائرة بعيد عني بينما يكون صديقي الذي أسافر إليه (بالرغم من أنه يبعد عني آلاف الأميال) «قريب إليَّ بالفعل». فمعنى المكان، سيكولوجيا، هو ارتباطه أو تعلقه الشخصي. فالأحداث تكون بعيدة حينما يعوزها ذلك الارتباط أو التعلق، بينما تكون قريبة حينما يتوفر لها ذلك.

الزمان، أيضاً مسألة شخصية وليست زمنية. فشريحة من الحياة تستغرق عشر سنوات منصرمة قد تكون أقرب «إليَّ ذاتياً» من فترة عامين ماضيين؛ وقد يبدو عمل معين قد زاولته بالأمس على أنه غير معقول بالنسبة لي،

كعنصر غريب تماماً في ماضيَ.

المكان والزمان، من الناحية الذاتية، مختلطان. فنحن ندرك الخبرات على أنها «هنا والآن»، أو على أنها «بعيدة وآنذاك». هذا الخلط الشخصي لا يشبه تماما التجريدات العادية التي يقوم بها عالم النفس في تصنيف كل من الإدراك المكاني والإدراك الزماني على حدة.

والخلاصة، تقوم وجهة النظر الشخصانية من جانب على الجدل الفلسفي، ومن جانب آخر على الاستناد إلى الخبرة الشخصية (الظاهرية phenomenology)، وهي في جوهرها ثورة ضد العلم الوضعي الذي يميل إلى اعتبار الفرد كحدث عارض. وتقدم الاتجاهات المختلفة في المدرسة الشخصانية إجابات مختلفة إلى حد ما على السؤال: أي نوع من المخلوقات يكون الإنسان؟ لكن يتفقون جميعا بأن الإجابة النهائية سوف تكشف عن وحدة مبدعة، عن الشخص الغرضي النامي- وليس ككيان منعزل رد فعلي كما تصوره المدرسة الوضعية. وسوف لا يتكشف سر الإنسان بواسطة التحليل المختزل لوجوده، لكن فحسب بواسطة التتبع لمسار صيرورته بطريقة متكاملة.

التصور الوجودي:

لا تقدم «الوجودية» (Existentialism)، مثل الشخصانية، إجابة واحدة لسؤالنا الخاص بطبيعة الإنسان. حقيقة، نستطيع أن نجد في هذه الحركة إجابات تكون في بعض الحالات متعارضة مع بعضها البعض. يقر أحد الوجوديين أن «الإنسان شغف باطل» useless passion، وآخر بأن «الإنسان كيان يوجد في علاقة مع الله». فالوجودية دينية وإلحادية، مُيَئِّسة ومُؤَمِّلة، إمبيريقية وباطنية- كل منها يعتمد على التصور الذي يتشيعون له.

لكن ثمة معالم معينة تشترك فيها التصورات الوجودية المختلفة. أحد هذه المعالم هو الاقتناع بأن العلم الوضعي وحده لا يستطيع أن يكتشف طبيعة الإنسان ككيان متميز في العالم. فأي عالم خاص يكون ضيقا للغاية. ولا يوجد واحد من العلوم تتوفر فيه النظرة الإجمالية إلى الكون. وتميل طرق العلم الوضعي إلى إستبعاد أكثر أدوات البحث ملاءمة، وهي: **الفينومينولوجية**

(**الظاهرياتية**). فلا يكفي أن نعرف كيف يستجيب الإنسان: ينبغي أن نعرف كيف يشعر، كيف يرى عالمه، ما هو الزمان والمكان بالنسبة له (وليس بالنسبة للعالِم الفيزيائي)، لماذا يعيش، وما الذي يخافه، ما الذي يدفعه إلى التضحية والموت عن إرادة. ومثل هذه الاسئلة الخاصة بالوجود ينبغي ربطها بالإنسان مباشرة، وليس بشخص ملاحظ خارجي.

ومن المعالم العامة أيضاً للوجودية الألم والمعاناة اللذان لا ينبغي إغفالهما بحماقة في طبيعة الإنسان. فإذا كانت الصورة الفيكتورية للإنسان وردية للغاية، فإن الصورة الفرويدية قد تكون قاتمة للغاية. ولكن سواء كانت الصورة وردية أم قائمة، ينبغي مواجهة كل المعرفة المتعلقة بالإنسان، واستيعابها وتوظيفها. إن نتائج البحث في البيولوجيا وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا مهمة، ولكن أيضاً نتائج علم التاريخ والفن والفلسفة تتمتع بنفس الأهمية. إننا نسعى إلى معرفة الإنسان بجملته وكليته. وتتطلب الحياة أن نعرف ما هو أسوأ وأن نحقق ما هو أفضل في الإنسان.

وقد يحق لنا أن نقرر أن كل أشكال الوجودية تأمل في إقامة نوع جديد من علم النفس - «**علم نفس الانسانية**» (Psychology of mankind). ويتمركز محور هذا العلم السيكولوجي في الموضوعات والأزمات المستمرة في الحياة الإنسانية. ويميل مجرد معرفتنا بتتابعات المثير - الاستجابة والحوافز والعادات والتكرار إلى إغفال تأثير المأساة في الحياة. علم النفس مطالب بإلحاح بأن يكون أكثر إنسانية مما هو عليه.

ماذا عن بعض الموضوعات والأزمات المستمرة؟ يولد الإنسان على شريطة أن يعتمد على الآخرين ويُعَوّل عليهم؛ ويتربى بطريقة عادية في الحب وينمي قاعدة للثقة في الآخرين أو الاعتماد على الآخرين. وبالتدريج يتواتر الإحساس المؤلم بالذاتية الشخصية self-hood والتفردية اللتين لا يستطيع أن يتخلي عنهما أبداً؛ ويربط نفسه بالحياة من خلال إهتماماته، ويسعى دائماً إلى ترقية «خبرات القيم» (value - experiences) التي يتمتع بها عبر مدى الحياة؛ ويقع في الحب، ويتزوج، ويربي ذريته، ويعاني من القلق الأساسي (الخوف من الموت، مشاعر الذنب، والفزع من اللامعنى meaninglessness)؛ ويبحث دائما

عـن «لمـاذا» الوجـود؛ ويمـوت وحـده. وإذا لم ينتظم علـم النفس كعلـم حول هذه الموضوعـات الأساسـية ويقدِّرهـا، فإن هذا يعنـي أنه لم يتناول بعـد كلية الوجود الإنساني.

وللوجوديـة أشـكال عديـدة للغايـة توضـع فـي الاعتبـار من مؤلـف لآخر. لقـد قـدم الكثيـر مـن الكتـاب- مثـل كييـر كيجـارد Kierkegaard، هييدجـر Heidegger، جاسـبر Jaspar، سـارتر Sartre، بيرديايـف Berdyaev، مارسـيل Marcel، بشـفانجر Binswanger، فرانـكل Frankl، تيليـش Tillich، وآخرين – إسـهامات هامة. ولكن سـوف نوجـه اهتمامنا لهـذا الفيض من الفكـر الوجودي وفقـا لأسـئلة معينة تنتسـب إلـى هذه الحركـة ككل:

* **هـل الوجوديـة تأخذ بالمنحى الإكلينيكي الفردي (Idiographic) أو بالمنحى الناموسـي أو المعيـاري (Nomothetic)؟** كل فـرد مشـغول ببنـاء صورة خاصة عن علاقات الأنا – العالم؛ دوافعه تنتسـب إليه ذاته، تأخذ دائما شـكل «المشـروعات الشـخصية»؛ وراثيتـه فريـدة، بيئتـه كمـا يخبرها فريـدة؛ كل علاقاتـه بين الأنا والعالم فريدة. الوجود لا يسـتقر فـي أي مكان إلا فـي وجهـة نظر الفرد.

ولا شـك أن المرشـد النفسـي أو المعالج لا ينجح إلا إذا اسـتطاع فهم معضلة المريض من وجهة نظر المريض. وسـوف يخبر ملايين البشـر معضلاتهم الخاصة بعلاقات الأنـا – العالم بمليون طريقة.

ومـن ثـم، يعتبـر الاتجـاه الوجودي للإنسـان فـي جوهـره إتجاهـاً متفرداً إكلينيكيـاً بالضـرورة. إلا أنـه، مـع ذلـك، لا يقـدم أية طـرق خاصة تمثـل البنية الفريـدة للأشـخاص. وتمثـل الظاهريـة (الفينومينولوجيـة)، بالطبـع، الطريقـة المقبولـة، ولكـن مـن الصعـب أن نحـدد كيـف يمكـن اسـتخدامها من أجـل فهم تشـكلي كلـي (جشـطلتي) ملائـم. وفـي ذلـك تسـتخدم الأسـطورة والدرامـا (كاموس، سـارتر) ودراسـات الحالة (مينكوفسكي، بنشـفانجر). لكن هذه الحركة للوجوديـة صـوب علـم النفس لم تطـور بعد طرقاً مسـتحدثة بأصالـة لكي تمثل تلـك الفردية.

* **مـا هـو الهـدف الأساسـي عنـد الإنسـان؟** يتفـق كل العلمـاء الوجوديـين أن

الوجود بالضرورة مشوب بالقلق والاضطراب والضجر restlessness. ولكن هل هي حالة قلق باطلة، متصدعة، عمياء؟

وإذ يقرر ذلك حفنة ضئيلة فقط من الوجوديين، يجد معظم الكتاب مشروعاً أكثر ثباتاً في محور الحياة. وقد تختلف الصياغات، لكنها تتفق جميعاً في أن هناك تجاوزاً مقلقا، وجوعاً ضاغطاً في الوجود يتعدى الحوافز الحيوانية والاستجابية الخالصة. يؤكد العالم النيورولوجي «جولدشتين» Goldstein أن المرضى من الناس فقط في المستشفيات العقلية هم الذين ينحدرون كلية إلى مستوى الضغوط البيولوجية المتعلقة بالجنس والعطش والجوع، والحاجة إلى الطعام والأكسجين والنوم وغير ذلك. أما غالبية البشر، كما يلاحظ جولدشتين، فينخرطون في أنشطة أبعد من هذه الحوافز الأولية. وتصل هذه الأنشطة إلى حد السعي من أجل تحقيق الذات. ويصيغ مؤلفون آخرون محور الدافع بطريقة مختلفة، ولكنهم يتفقون جميعاً على أن النظرة شبه الآلية للدافعية غير كافية بالنسبة لديناميات الحياة الإنسانية.

ربما تكون مصطلحات، مثل القلق anxiety والفزع dread والاغتراب alienation، أكثر استخداماً وشيوعاً لدى الوجوديين. ويجد الإنسان نفسه منكفئاً في عالم غير مفهوم. ونادراً ما يستطيع أن يتجنب التيارات التحتية للخوف مع دوامات الهلع الحاد. فهو يعيش في دوامة اللا إستقرار والعزلة والاستياء والمعاناة، ويتملكه شبح الموت والعدم. وقد يرغب في الهرب من وطأة القلق، لكنه يود أيضاً أن يعرف معناه. ويعتبر اللامعنى meaninglessness أكثر إيلاماً من القلق، لأنه حينما يوجد هدف واضح في الحياة يتلاشى القلق والفزع. ولقد كان «نيتشه» هو الذى قال «أن من لديه سبباً ليعيش من أجله يرتقي غالبا كيفما كان».

الإنسان، إذن ليس مخلوقا متوازناً homeostatic، فهو لا ينشد التوازن داخل نفسه ومع البيئة. ويعتبر قلقه واضطرابه متأصلين، ويضربان بشدة في أعماق نفسه بحيث لا يستطيع التخفف منهما بالإرضاءات الوقتية. فهو ينشد معادلة أكثر ملاءمة للحياة والمعيشة، وهو شيء سوف يمكّنه من أن يرقى على الاغتراب والمعاناة. وينطوي «الإتزان» (homeostasis) لذلك على فقدان الحيوية، فهو يساعد

علــى التراخــي والكســل وينكر ما يميزنا من مقدرة إنســانية تتجلي بهــا ذواتنا.

ومــن حســن الحظ أن لدينــا المقدرة على التســليم والمخاطرة. نســتطيع، إذا رغبنــا، أن نغامــر بحياتنا فــي ســبيل «مشــروع شــخصي»، حتى ولو لم نســتطع أن نثبــت جــدواه أو نتأكــد من نجاحــه. وربما يكون إيماننا بالمشــروع يســتند إلى بعــض اليقــين، ولكن ذلك لا يعني أننــا نحتاج إلى أن نكون ضعيفــي الهمة. فذروة القــدرة لــدى الإنســان أن يتمكن من جعــل الحياة مُجزية ومُســتحقة. لقد شــعر أعضــاء حركة المقاومة الســرية من الفرنســيين والنرويجيين ضــد النازية وأوروبا الهتلريــة أن أمامهــم فرصة ضئيلة للنجاح. لكن الهدف كان شــيئاً يســتحق الحياة مــن أجله، ويســتحق الموت مــن أجله. فالمعانــاة والفزع يخبــوان إذا كان لدينا مثل أعلى لهــذا التعاظم.

حينمــا يســأل النــاس عمــا إذا كان لديهم مشــروعات أو خطــط يموتون من أجلهــا عــن إرادة وعزم، يجيــب معظمهم بالإيجــاب. قد يحددون صالــح الوطن، أو مســتقبل أبنائهــم، أو العمــل من أجل الســلم والاســتقرار، أو الإيمــان بالدين. فالأســباب قــد تختلف، لكنهــا موجودة لــدى الغالبية من البشــر.

حتــى أولئــك الذيــن يعانون مــن التثبيط والاكتئــاب يمكن دفعهــم غالباً إلى تجديد أهدافهم بواســطة توجيه ذلك الســؤال الأحمق والاســتفزازي إليهم: «لماذا لــم تنتحــر؟» بالإجابــة على هذا الســؤال يكشــف المريــض عن قيمه وآثامه شــبه المنســية، والتــي فيها يكمن الأســاس الوطيد للعلاج والشــفاء.

وفــي ضوء ذلك تكــون أحد الإجابات لســؤالنا الخاص بطبيعة الإنســان أنه مخلــوق ينطــوي على ترقيــة وتعظيــم للخصائص القيميــة لخبراته. فــي كل يوم يبنــي كل فــرد منــا الكثير من علاقات الأنــا- العالم. بعض هــذه العلاقات يصير أكثــر معنــى، أكثر ملاءمــةً، وأكثر إلحاحاً. وذلــك ما يجعل الحياة مســتحقة.

ويشــعر بعــض العلمــاء، ومنهــم فرويــد، أن قلقيــة واضطرابية الإنســان قد تــؤول بــه إلى أن يطلــب الســلام الأقصــى درءً لنزعات الإبــادة والإفنــاء. وتميل أديــان الشــرق إلــى هذه النظــرة، كمــا يعبر عنهــا شــاعر ياباني غيــر معروف:

نفور من بحار الحياة والموت سواءً
كيف أتشوق بعمق
إلى ربوة النيرفانا
ألتي لم يمسها مد التغير

وفي الغرب يتضح الفكر الديني. يقول «القديس أوغسطين»: «قلبي مضطرب حتى أجد راحته في الله».

يؤكد كتاب كثيرون، إنطلاقاً من هذا الهدف الغائي وتركيزاً على المسار الحالي للحياة، على الإبداعية المتأصلة في الإنسان، مثلما يقرر «بوبر»: كل شخص يولد في هذا العالم يمثل شيئاً جديداً، شيئا لم يوجد أبداً من قبل، شيئاً أصيلا وفريداً. ومن واجب كل شخص أن يعرف.. أنه لم يوجد أبداً شخص يشبهه في العالم، لأنه إذا كان هناك شخص يشبهه، فلن تكون هناك حاجة له ليكون في العالم. فكل إنسان بمفرده شيء جديد في العالم ووُجد ليحقق خاصيته - إنسانيته في هذا العالم[1].

وهنا يتحول الاهتمام إلى مسئولية الإنسان، فلا يكفي للانسان أن يتساءل عن الحياة من حيث معناها وهدفها. والأهم هو الأسئلة التي تضعها الحياة أمام كل شخص منا. ما الأفعال المبدعة التي سوف تمارسها؟ ما المسئولية التي سوف تضطلع بها من أجل وجودك الآن؟ أى حاجات العالم (وليس حاجاتك فقط) سوف تحققها؟

هذا الجانب من الفكر الوجودي يذهب إلى ما هو أبعد من هدف «تحقيق الذات». وسبب ذلك أنه يسأل بحق: أي إمكانات سوف تختارها مما لديك من إمكانات كثيرة لكى تقوم بتحقيقها؟ فالإنسان ينبغي أن يسمو بذاته، وأن يتخذ نظرة خارجية إلى قدراته ورغباته داخل سياق للمعنى يكون موضوعياً بل وكَوْنياً. ومن وجهة النظر هذه تصير وتتعاظم المقدرة على «التسامي بالذات» (self - transcendence) و«المسئولية» على أنهما المحور الهام بحق للطبيعة البشرية.

(1) Puber, Martin. Hasidism and Modern Man. Horizon Press, Inc., New Yourk, 1958.

والخلاصة، ثمة ميل بين العلماء الوجوديين للبحث عن فكرة قصدية أساسية واحدة في الحياة الإنسانية. والنتيجة حشد هائل من المقترحات - بل وتبدو المقترحات المتنوعة في معظمها متنامة ومؤتلفة، وليست متعارضة في الحقيقة. الإنسان بالفطرة مضطرب وقلق، ينشد الأمن والحرية على حد السواء. وهو يسعى إلى مغالبة ظروف الاغتراب عن طريق البحث عن معنى للوجود يغطي المثلث المفجع: المعاناة، الذنب، الموت. ويجد أن الحياة تصبح مستحقة عندما يعمد إلى التسليم والإذعان. وعلى طول طريق الحياة يسعى إلى ترقية خبراته القيمية الخاصة. وإذا كان من الضروري أن يضحي بحياته، إنما يتم ذلك بهدف استمرار قيمة أولية معينة. وهو قادر على تحمل المسئولية، وعلى أن يجيب بأفعاله على الأسئلة التي تفرضها الحياة عليه. وعلى هذا النحو، يرقى فوق ما يلح عليه من حفزات عضوية وروحية ذاتية، ويصل إلى التسامي الحقيقي بالذات. وبالرغم من تركيز العلماء المختلفين على جوانب مختلفة من هذه المعادلة، إلا أن الصورة متسقة.

فــي أى مجــال مــن مجــالات المعرفــة يمكن أن نرجــع عــادة بالتطورات الجديــدة، التــي قــد تبــدو أنها تنشــأ من لا شــىء، إلــى المناخ الفكــرى الذي أبدعــه قلــة من الأفراد. مــن بين العلماء الذيــن قدموا الكثيــر لتهيئة الطريق إلــى علــم النفس الإنســاني - جوردون أولبــورت وهنرى موراي. ومــا اخترناه فيما يلي من كتاب موراي عن «استكاشــافات فــي الشــخصية»، يبين أن هذا الكتــاب يحتــاج إلــى تعديل قليــل لكى يقــدم مرجعاً حديثاً فــي علــم النفس الإنساني.

(٤)

استكاشافات في الشخصية

هنري موراي

(جامعة هارفارد)

الإنسان مشكلة كبيرة. ما الذي يمكن أن نعرفه عنه؟ وكيف يمكن أن نصوغه في كلمات تكون واضحة المعنى؟ ما الذي يدفعه ويُسيِّره؟ مع أي الموضوعات والمؤسسات يتفاعل وكيف؟ وما هي أكثر الأحداث التي تُحدث في جسده أثراً؟ أي عمليات تابعة بالتبادل تسهم في تمايزه ونموه؟ أي الأحداث تحدد مسراته وآلامه؟ وأخيراً، بأية وسيلة يمكنه أن يتغير بقصد؟ تلك أسئلة تقليدية تبعث على الاهتمام في كل العصور، لكنها تتطلب حلاً بشكل أكثر إلحاحاً وتلقى اهتماماً لدى أكثر الناس. فهناك تحمس أكبر وبشائر أعظم على طريق الوصول إلى الحل.

وجهة النظر التي نتبناها أن الشخصية تؤلف موضوع علم النفس؛ وهذا النظام من المعرفة عليه أن يتناول تاريخ الحياة لإنسان بعينه كوحدة. وليس في الإمكان دراسة كل الكائنات الإنسانية أو كل خبرات كائن إنساني بعينه. وأفضل ما يمكن عمله، هو انتقاء أحداث أو وقائع ممثلة أو ذات دلالة بصفة خاصة بهدف التحليل والتفسير. وقد يفضل بعض علماء النفس تحديد أنفسهم بدراسة نوع واحد من الأحداث أو الوقائع. فقد يدرسون، على سبيل المثال، استجابات عدد كبير من الأفراد لموقف معين. وقد يحاولون اكتشاف أي التغيرات في الموقف تحدث تغيرات هامة في الاستجابة. ولكن، طالما أن أي استجابة محكومة جزئياً بالتأثيرات اللاحقة للخبرات الماضية، فإن علم النفس سوف لا يفهم كلية الحدث إذا كان يجرده من التاريخ التطوري للفرد (ontogeny) . بل وقد يوضع في الاعتبار أيضاً التاريخ التطوري البشري (philogeny).

فما يسمود في علم النفس هو دراسة وظيفة واحدة أو جانب واحد لحدث معين في وقت معين - الإدراك، أو الانفعال، أو النشاط العقلي، أو السلوك- وهذا كما ينبغي أن يكون. وحدود هذا المجال من الاهتمام تمليه

الحاجة إلى معلومات مفصلة. لكن عالم النفس الذي يفعل ذلك عليه أن يعترف أنه يلاحظ فحسب جزءاً من كلية إجرائية operating totality، وأن هذه الكلية بدروها ليست إلا شريحة وقتية صغيرة من الشخصية.

وعلم النفس مطالب لذلك ببناء نظام من المفاهيم لتصوير المسار الكلي للنمو الفردي، وبالتالي يقدم إطاراً قد يتلاءم فيه أي حدث مفرد - طبيعي أو تجريبي.

ويمكن أن نطلق على ذلك الفرع من علم النفس الذى يكرس ذاته لدراسة الحياة الإنسانية بكل أشكالها والعوامل التي تؤثر في مسارها، والذى يبحث في الفروق الفردية وأنماط الشخصية، مصطلح «علم الشخصية» (Personolgy) بدلا من «علم نفس الشخصية»، الذي هو تعبير فج يستند إلى تكرارية المعاني.

علم الشخصية، إذن، هو علم البشر كوحدات كبيرة للإستكشاف والفهم؛ وهو بهذا التحديد يطوق التحليل النفسي (فرويد)، وعلم النفس التحليلي (يونج)، وعلم النفس الفردي (آدلر) وغير ذلك من المصطلحات التي تتصدى لطرق البحث أو النظريات أكثر من مجرد المعرفة.

ولقد كان سعينا في مقاصده طموحاً للغاية. ومن أجل ذلك لم نقترح شيئاً أقل من (١) أن نبني نظرية للشخصية تستند إلى الطرق المستخدمة؛ و(٢) أن نبتدع طرقا فنية (تقنيات) للوقوف على الخصائص الأكثر أهمية في الشخصية؛ و(٣) أن نتكشف الحقائق الأساسية للشخصية بواسطة دراسة حياة الكثير من الأفراد. فما يوجه فكرنا أن «الشخصية كل زمني» (Temporal Whole)، وأنه لكي نفهم جانباً منها ينبغي أن يكون لدينا إحساس، حتى ولو كان غامضا، بالكلية- كلية الشخصية. ومن أجل هذا كان سعينا إلى الشمولية، بالرغم من الخطر المتمثل في أنه بمحاولة فهم كل شيء قد نخرج منها بلا شيء يستحق الاعتبار.

لقد حان الوقت للقيام بدراسات منظمة، مستفيضة عن الأفراد نخرج منها بنتائج طيبة. وأكثر من هذا، حقيقة، يبدو القيام بذلك شيئاً ضرورياً. وإذا كانت العمليات المُكَوِّنة للشخصية تعتمد على بعضها البعض بطريقة متغيرة، فإنه ينبغي علينا إذن أن نعرف قدراً لكي نفهم القليل؛ وأنه لكي

نعـرف قدراً قد يسـتخدم للفهم، ينبغي أن نسـخدم طرقا جيـدة بطريقة منظمة. وفـي محاولتنا لتصوير ورسـم المسـار العام لحياة الشـخص، قد اخترنا للتحليل أحداثا معينة على الطريق والتي باسـتخدامها كمعالم قمنا بعمل رسـوم مسـتقلة للمسـالك الموصلـة. فبـدون وجـود فكـرة معينة عن الـكل لا يمكـن أن يكون ثمة ضمـان بـأن العمليات المنتقاة للدراسـة المتعمقـة تكون مكونـات ذات دلالة.

وفـي الواقع، لم يكن نظام المفاهيم الذي اسـتخدمناه يتصف بالاسـتيعابية؛ ومـن أسـباب ذلـك عدم قدرة العقـل على تمثل الكثيـر من التعميمات المسـتجدة بسـرعة. وقـد أدى مقـدار الزمـان والمـكان والعـدد المتيسـر مـن المختبرين إلى تحديـد عدد المفحوصين التجريبيين وعدد الطرق الفنية التي يمكن اسـتخدامها.

ولـذا، لـم تكـن ممارسـاتنا ونظرياتنا، فـي النهاية، شـمولية كمـا أردنا أن تكـون عليه.

وإذ نمضى فـي تنفيذ خطتنا من النظرية إلى الحقيقة، ثم عوداً إلى النظرية ورجوعاً مرة أخرى إلى الحقيقة، فإن الكتاب (استكشـافات فـي الشـخصية) قد يعتبـر إمـا كخطة لتكوينـات أولية لتفسـير الطرق التي ينتهجهـا مختلف الأفراد، أو كحشـد لبيانات عن سـيرة الحياة منظمة وفقـاً لإطار مرجعي معين.

الفصــل الثانــي

الحياة إختيار أم إجبار.. حياة مُعَاشة أم معيشة (*)

عـادة مـا يفتـرض مؤلفو كتـب علم النفـس أن السـلوك الإنسـاني محتوم. وبالرغم من غلبة وَهْم الحرية، يسـتنتجون ضمنا أن الإنسـان عاجز عن الاختيار بين الطرق البديلة للفعل والأداء. وبلغة فرويد، الإنسـان «حياته معيشـة» (being lived). فالقـوى التـي لا يملـك أي ضبـط حيالها تمامـاً تحكم أي شـيء يفعله. ولهذا الافتراض سـبب مثير للاهتمام: الأفعال الانسـانية هي نتاج قوانين طبيعية جامـدة أشـبه بتلك القوانين التي تحكم سـلوك الـذرات؛ وإذا لم تكـن كذلك، لن يتوفر علم دقيق عن الإنسـان. وإذا كان الإنسـان قادرا على أن يباشـر حتى تأثيراً ضئيـلاً علـى الأحداث فـي حياته، يكون التنبؤ الدقيق بالسـلوك مسـتحيلاً حتى فـي نظريـة من النظريات. فعلـم النفس كعلم، وفقاً لوجهة النظـر هذه، ينبغي أن يتخـذ موضوعه الإنسـان الذي يكون «مقننـاً» (lawful) كالموضوعات غير الحية.

أمـا وجهـة النظـر المضادة التـي يأخذ بهـا علم النفـس الإنسـاني، فتتمثل فيما يستحسـنه معظم العلماء الوضعيين فـي ظروف أخرى. العلم ينبغي أن يبدأ بالحقيقـة؛ مكوناتـه وطـرق البحـث ينبغي أن تمليها، ليس السياسـات الرسـمية المقـررة قبـلاً، ولكـن طبيعـة موضوعـات البحـث. وإذا افترضنا أن الإنسـان قد يعـوزه العـزم الذاتـي أو التحديـد الذاتـي (self - determination) وبالتالي لا يقـدر علـى ضبـط كل البيانـات المتناقضـة من حيث أنهـا بيانات غيـر متعلقة ، كمـا يذهـب معظم الوضعيين، فـإن هذا يمكن أن يؤول إلى نتيجة واحدة فحسـب بـدون ما اعتبـار لما تسـتحقه الحالة من أهليـة وأهمية.

ومـن بـين الاختبـارات لأي افتـراض أن نـرى إلى أيـن يؤول الافتـراض إذا لقـي قبـولاً كحقيقـة. وعلى هـذا الخط تثيـر الحتميـة صعوبة مسـتحكمة أمام العلمـاء. كيـف يكـون العمـل فـي ميـدان البحـث العلمي ممكنـا إذا لم يسـتطع المجـرب اختيار ما يفعله مهما كان ما يسـتدعيه الموقف؟ تعتبـر القرارات المتعلقة بتصميـم البحـوث، والمتغيـرات اللازم ضبطهـا وغير ذلك مـن الاحتياطات، ذات

(*) Living or Being Lived

أهميـة بالغة فـي وضع صمام للأمان على الاندفاعات غيـر المتعلقة أو التأثيرات العميـاء للاقتـران السـابق. ويكون للذكاء فائـدة ضئيلة بالنسـبة للعالم بدون قوة التنفيـذ، فـلا يكفـي معرفة الفرد لما يفعله: إنـه ينبغى أن يكون قـادراً أيضاً على أن يفعلـه، وينبغـي أن يكون قـادراً على اختيـار ما يفعله بوعـي وبذكاء.

مـن الصعـب أن نتصـور كيـف يوجـد المجتمـع كمـا نعرفـه فـي عالـم من الكائنـات الإنسـانية المحتومـة تماماً، وثمة تشـبيه للحياة الجماعيـة بقرية النمل حيـث يباشـر كل فرد مهامـه المعينة سـلفاً، وليس لأنه يفهم الخطة الأساسـية أو لديـه اختيار فـي الموضوع، ولكن لأنه مسـوق بالدفع والإجبـار. يلاحظ «كولمان»، أنـه بينما تأتي معظم الحيوانات مزودة فـي بنائها الداخلـي بآليات توافقية، فإنه ليـس لـدى الإنسـان إلا القليل من هـذه الآليـات أو حتى من أي نمـاذج غريزية. فهـو ينبغـي أن يركن إلى الذكاء والعقل فـي مواءمة سـلوكه مـع مطالب اللحظة، وتخلق مواهبه العقلية الفريدة مشـكلة فريدة- مشـكلة الاختيار والتوجيه الذاتي، وحتـى فـي الروايـات الخياليـة، مثـل (Walden 11) عند «سـكنر»، كانت هناك ضـرورة لبعـض القـرارات الإرادية القائمـة على وزن الأدلة لتنظيم السـلوك.

إن مفهـوم القانـون الوضعـي يكون ذات معنى فحسـب فـي حالة أن يباشـر الإنسـان بعض أسـاليب الضبط على أفعاله. والمسـئولية الشـخصية هي الرباط لحريـة الاختيـار. فليس هناك من إنسـان قد يختار أن ينمو طويلاً، ولا يحاسـب علـى نتائـج نمـوه؛ ولكن لأنه يسـتطيع اختيار عـدم إيقـاع الأذى بالآخرين، يكون مـن المتوقـع أن يفعل ذلك.

إن عالـم النفـس الذي يتقبل الحتميـة كافتراض منهجي فـي المختبر يعيش بالضرورة وفقا لمجموعة متعارضة من الافتراضات فـي الشـئون اليومية العملية، ولا يعطـي علـى الأقل إيضاحـاً لتوغله خلال طقـوس غير ذات معنى فـي اتخاذ قـرار بشـأن شـراء منزل، أو إقـدام على زواج. وهو يبـدو، كالمعالـج، مهتماً بوهم اللاحريـة أكثـر مـن الحريـة. إن المريـض القهـري الذي يأتـي طلبـاً للعلاج من السـلوك القهرى يشـكو من كونه مشـاهداً عاجزاً لسـلوكه ذاته، ويتملكه من وقت لآخـر حفـزات قهرية للقيـام بأفعال معينة غير سـديدة بدون ما اعتبـار لرغباته

في هـذا الصدد. وهـذا الإجبار على وجـه الدقة هو لأنه «محتـوم الحياة»، ومن ثم يعتبر نفســه مريضاً.

ولا يجـد «مايلوكـس»(1) ثمـة أسـباب للاهتمـام بالسـلوك المحتـوم ذاتياً أو السـلوك ذاتـي الحتميـة Self- determined. فأي فرد يختـار خطة معينة للأداء بـدلاً مـن غيرها لأنهـا تبدو ملائمة، من المحتمل أن يسـلك بطريقـة «مقننة» كما لـو كان يخضع لإجبـار الحاجات والحوافز وغير ذلك من الدوافع غير السـديدة. ولكنـه فقـط حينما يكـون حراً، يكون قـادراً على الأداء بطريقة رشـيدة.

(1) J. Maillaux: Psychic determinsm and personality J. Psychol, 1955, p. 9, 133-143.

لا يكـون لبعـض النتائـج التـي يتوصـل إليها علمـاء النفـس إلا ارتباط ضئيـل بالحيـاة اليوميـة. «مفهـوم الذات» لـدى قلة مـن الناس يتأثـر بعمق بالأفضلية النسـبية لأحد طـرق التعلم على الأخرى، ولا يكون كذلك بالنسـبة للإجابـة علـى السـؤال: «هل أنا قادر علـى اتخاذ اختيـارات مقصودة، أو هل تعتبـر الحريـة وَهْماً ؟» يسـتند اتجاه الفرد نحو المسـئولية الشـخصية ونمو الأنـا والمجتمـع بصفة عامـة على إجابته. وتسـاؤل كهذا ينبغـي أن يوجه إلى الفيلسـوف منـذ البداية، ولكـن كل عالم نفس — إن آجـلا أو عاجلاً — مجبر علـى أن يتخذ وقفـة حياله.

(٥)

الآراء المتعارضـــة

فـي طبيعـــة الإنســـان الأساسيـــة(*)

جيمـس كولمـان

(جامعة كاليفورنيا)

فعالية أم رد فعلية Active or Reactive :

يعمل الإنسان فـــي حياته اليومية على افتراض أنه حر فـــي اتخاذ القرارات واختيـــار خطتــه فـــي الأداء، علـــى الأقـــل داخل حـــدود معينـــة. ولكـــن الكثير من الفلاســـفة واللاهوتيـــين والعلمـــاء يثيـــر الســـؤال حول مـــا إذا كانت حريـــة الأداء حقيقـــةً أم مجـــرد وهـــم: ما إذا كان الإنســـان فـــي الواقـــع فعالاً ونشـــطاً وعضواً مســـئولاً يتمتـــع «بإرادة حـــرة»، أم أنه لعبة ســـلوكها محكوم بقـــوى أبعد من تحكمه الذاتي.

الحتمية في الفلسفة والدين والعلم :

لقـــد خضعت الأنواع والمســـتويات المختلفة من الحتميـــة للجدل منذ العصور القديمة. فقد ســـادت المأســـاة الدراميـــة الهائلة لأيخيليوس وســـوفوكليس، مثلاً، اســـتناداً إلـــى الاعتقـــاد الأغريقـــى القـــديم بأن الإنســـان بـــكل خصاله هو فـــي نهايـــة التحليـــل رهـــن للقدر. ثمة محتومية فـــي أدائـــه، نهاية لا يســـتطيع الهرب منهـــا. تتضـــح هـــذه القدريـــة بجلاء فـــي أســـطورة أوديـــب المعروفة، الذى فـــي محاولتـــه لتجنـــب تحقيـــق النبـــوءة بـــأن عليـــه أن يقتـــل أبيـــه ويتـــزوج أمه تحول رأســـاً إلى شـــرك القـــدر وفعل بلا شـــعور بما جـــاءت به النبـــوؤة. ويعتبـــر المبدأ الكالفينـــي الخـــاص بالمصيـــر المحتـــوم predestination ، الـــذي يذهـــب إلى أن أي فـــرد عنـــد لحظة الميـــلاد بالفعـــل يُخْتار للخلاص أو يســـتحق الهـــلاك، مثالاً للحتميـــة الدينية أو الفلســـفية.

(1) J. C. Coleman: Personality dynamics and effective behavior. Chicago: Scott Foresman, 1990, pp. 32-35.

يهتم العلم الحديث أيضاً بمشكلة الحتمية، ففي ميدان الفيزياء النووية توصل بعض الباحثين إلى نتيجة بأن التشغيلات الداخلية للذرات تخضع لقوانين بسيطة ومضبوطة، ويذهبون إلى أنه إذا استطعنا عمل مقاييس غاية في الدقة، نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل بكل تفاصيله. ويشعر آخرون بأن هناك قدّر معين من اللاحتمية أو «الحرية»، في التشغيلات الداخلية للذرات التي تجعل في الإمكان التنبؤ فقط داخل درجات معينة من الاحتمالية وبالتالي تجعل من الحتمية الصارمة مبدأً واهياً.

في ميدان علم النفس، اتخذ الحتميون المحدثون منطلقهم من «جون لوك»، فيلسوف القرن السابع عشر الإنجليزى، الذي استخلص أن العقل الإنساني منذ الميلاد صفحة بيضاء tabula rasa ينطبع عليها التعلم والخبرة مما يعطي للعقل مضمونه وبنيته.

وتتمثل هذه النظرة إلى الإنسان على أنه كائن حي (أورجانزم) سلبي رد فعلي- في المدرسة السلوكية. تعتبر السلوكية، في شكلها الأكثر تطرفاً، الفرد كنوع من الكيان الآلي العقلي (الربوط العقلي mental robot)، كرهينة عاجزة حيال ما يقع من تأثيرات تؤدي إلى تشكيله. ولذا، تعتبر المفاهيم ذاتها الخاصة بالتحديد الذاتي أو العزم الذاتي وحرية الاختيار مفاهيم وهمية؛ بينما يعتبر الوعى ذاته كناتج تلقائي للأحداث «الحقيقية» — العمليات العصبية، ومن ثم فقد افترض أن الوعي لا يتضمن أية قوة لكي يؤثر في السلوك.

وبالرغم من أن السلوكيين اليوم لا يتمسكون ضرورة بالحتمية الصارمة، يفضل علماء النفس الأمريكيون بدرجة كبيرة اعتبار الإنسان ككائن حى رد فعلي. وللتدليل على ذلك يشيرون إلى ما تتصف به الشعوب في أنحاء العالم من عادات متباينة تشكلها الشروط الحضارية، ويؤكدون النتائج التجريبية بأن معتقدات الناس وقيمهم يمكن تناولها بواسطة المجتمع من خلال الثواب والعقاب، وبأن الإيحاء والمحاكاة قوى هامة تشكل قيم الإنسان وآرائه. ويعولون بشكل خاص على أهمية الاقتران الشرطي المبكر على أنه الأساس الذي تُبنى عليه ردود الأفعال الشرطية اللاحقة. وقد يبدو أن النتائج الخاصة بآثار الاستثارة دون الشعورية subliminal stimulation – أو «الإعلان الخفي»

– hidden advertising – في استدعاء الرغبات والأداء، يقدم مزيداً من التأييد للنظرة الحتمية للسلوك الإنساني.

النظرة إلى الإنسان ككيان نشط وغرضي :

ثمة مدرسة هامة أخرى في الفكر السيكولوجي تنظر إلى الإنسان على أنه مخلوق فعّال وغرضي، يشترك بشكل مستمر في نشاطات ذات معنى للاختيار والحكم والتنظيم. وبينما تعترف بأن السلوك الإنساني يتأثر بثقافة الفرد، تؤكد هذه المدرسة أن ثمة عاملاً شخصياً يباشر أثره أيضا – وهو الجانب الذاتي للثقافة. ولذا دائماً ما يتحدد جزئياً تأثير المثيرات الخارجية على السلوك الفردي بالطريقة التي يرى بها الفرد جماعته، وبقدرته على تقبل بعض المثل ورفض الأخرى، وبميله إلى أن يسلك بطرق تكون متسقة مع مفهومه عن ذاته، وبقدرته على تنمية خبرته وعلى نقده لذاته – أي بقدرته على أن يكون واعياً بذاته، وعلى أن يسعى إلى الارتقاء بالذات والتسامي بالذات.

وجهة النظر هذه، بالطبع، هي أكثر اتساقاً مع خبرتنا الذاتية في ارتياد الحرية والاختيار، من نظرة العالم السلوكي للإنسان على أنه مجرد كائن عضوى رد فعلي. يرى «فوسديك»، [1] وهو رجل دين، القضية على أنها موضوع استجابة كما تتعارض مع رد الفعل: الأشياء تعمل بتأثير المثيرات وحتى إذا كان يمكن أن يقال أنها تأتي برد الفعل للمثيرات، لكن الأشخاص يمكنهم أن يأتوا بالاستجابة. أما رد الفعل فهو آلي، والاستجابة شخصية؛ لذا فإن سعى الماديين إلى اختزال الاستجابة إلى رد الفعل لا يبعث على الإقناع لأنهما (الاستجابة ورد الفعل) في الخبرة الواقعية مختلفان اختلافاً جذرياً. كرات (البلياردو) تعمل برد الفعل، أما الأشخاص فيستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك. العُطاس رد فعل، لكن الشخص المنتصر تنطوى استجابته على الوعى والتقدير والاختيار. ولم تكن إجابة سقراط على محاكميه عُطاساً، وإنما استجابةً.

ترتبط أيضا النظرة إلى الإنسان على أنه يتمتع بإمكانية هائلة للحرية

(1) H. F. Fosdik: On being a real person. New York: Harper & Row, 1943 p. 7.

بنظرتنا إلى الحكومة – الحكم الديمقراطي، بأن الإنسان المتوسط، بمواجهته «بالحقائق»، يستطيع تقييم القضايا العامة بدرجة معينة من الموضوعية والعقلانية وليس ككائن آلي مفروض عليه أن يفكر ويسلك بطرق معينة. ونفترض أن الحرية، المضمونة بتوفير الديمقراطية للفرد لكى يتخذ القرارات، ليست وهماً.

وتعتبر النظرة إلى الإنسان على أنه كائن حر ونشط، توجهات أساسية بالنسبة لفلسفتنا في التربية، التي تؤكد على تنمية النشئ حتى يتسموا بالقدرة على الحل السديد للمشكلات، والإبداع، والتقويم النقدي؛ وأنه بقدر ما يتوفر للفرد من معلومات، يحتمل أكثر أن يختار ويسلك بحكمة.

يشير «جوردون أولبورت» [1]، عالم النفس الأمريكي، إلى الحاجة إلى علم النفس والعلوم السلوكية الأخرى لكي تتناول مشكلة حرية الإنسان في التوجيه الذاتي:

يمكن أن ننظر في مائة من الكتب الأمريكية المتتابعة في علم النفس ولا نجد إشارة لـ «الإرادة» أو «الحرية». ومن المعتاد بالنسبة لعالِم النفس، كما هو الحال بالنسبة للعلماء الآخرين، أن يمضي داخل إطار من الحتمية الصارمة، وأن يبني حواجز بين نفسه والإحساس العام خشية أن يصيب الإحساس العام علم النفس بإيمانه بالحرية . ولنفس السبب تنشأ الحواجز ضد علم اللاهوت. ولكن مما يبعث على عدم الارتياح أن الأحداث المعاصرة تثير القضية مرة أخرى. تؤكد الوجودية على الحرية، ويهتم بذلك الكثير من العلاج النفسي، والاهتمام الجديد لعلم النفس بالقيم هو في أعماقه اهتمام بالاختيارات، وبالتالي يبعث مشكلة الحرية إلى مكانة الصدارة (ص ٨٢ – ٨٣).

يناقش «أولبورت» (ص، ١٠٠) مشكلة حرية الإرادة في مقابل الحتمية كما ترتبط بمشكلة الديمقراطية:

لم تزودنا «العلوم السلوكية»، بما فيها علم النفس، بصورة عن الإنسان

(1) G. W. Allport: Becoming: Basic considerations for a philosphy of personality. New Haven, Conn.: Yale, 1955, pp. 82-83, 100, 101.

القادر على خلق الديمقراطية أو العيش فيها. لقد اتجهت هذه العلوم بدرجة كبيرة إلى تقليد نموذج كرة البلياردو في الفيزياء، وهو ما يغفله العلم الآن. ووضعت في أيدينا علم نفس يركز على «كائن حي فارغ» (empty organism)، يتحرك بالحوافز ويتعدل بالظروف البيئية. فلم يجذب انتباه بناة النظام السيكولوجى أساساً إلا كل ما هو صغير وجزئي، ما هو خارجى وآلي، ما هو مبكر، ما هو طرفي وقائم على تحين الفرص. لكن نظرية الديمقراطية تتطلب أيضا أن يتمتع الإنسان بمعيار للعقلانية، وبقدر من الحرية، وضمير حي، ومُثل (شخصية)، وقيم فريدة. إننا لا نستطيع الدفاع عن صندوق الانتخابات أو التربية الليبرالية، ولا أن ندعو إلى النقاش الحر والمؤسسات الديمقراطية، إذا لم يكن لدى الإنسان هنا المقدرة الكامنة على إثرائها...

ومما يبعث على العجب، أن الكثير من المتحمسين لنظرية «الكائن الحي الفارغ» في الطبيعة البشرية هم من بين أكثر المناضلين بشدة من أجل الديمقراطية. وليس ثمة تناقض صارخ أكبر من أن يأتى العالم كمواطن بمجموعة من الافتراضات النفسية، بينما في معمله وكتاباته بافتراضات مغايرة عن طبيعة الإنسان.

لا يدعي «أولبورت»، بطبيعة الحال، أن مُثلنا الديمقراطية ينبغي أن تُمْلي نتائجنا العلمية. وإنما يشير إلى أن علماء النفس، في جهودهم ليكونوا علميين بصورة محكمة، غالباً ما كانوا يميلون إلى الاهتمام بالظاهرات الجزئية والطرفية نسبياً التي يتكفل بها البحث العلمي والذى يتصف بالضبط والموضوعية. والنتيجة تركيز الاهتمام العلمي على تلك الجوانب من السلوك التي يمكن تفسيرها في ضوء الاستجابات الشرطية. وهذا ما قد خلق بدوره نظرة حتمية للإنسان، وميلاً إلى إعاقة الحقيقة بأن الناس، في الحياة الواقعية، لا يبدو أنهم يقومون بوظيفتهم كلية ككيانات عضوية تعمل برد الفعل. ولا شك أن الكثير من السلوك الإنساني محتوم بالاقتران الشرطي: فآراؤنا وقيمنا وطرائق سلوكنا تعكس جميعها الخبرات التي توافرت لنا وبالتالى الثقافة التي نعيش فيها. **لكن هذا لا يبدو أنه يروي القصة كلها: الإنسان أيضا مُبدع وغَرَضي.**

إذا تمسكنا بالنظرة إلى الإنسان ككائن يستجيب بفاعلية ورد فعلية كذلك، إنما نتكلم مرة أخرى عن الطريقة التي تميل بها الطبيعة الداخلية للإنسان على العمل تحت الشروط «العادية» – تلك الشروط التى تسمح للفرد بالحرية الملائمة لإنماء واستخدام إمكاناته الداخلية. وفقا لوجهة النظر هذه، قد تعتبر الثقافة الاستبدادية (الأوتوقراطية)، التي تسعى إلى فرض توجيه نحو قيم معينة واتجاهات سياسية بعينها، شرطاً أو حالة «مَرَضية» تؤدى إلى إحباط الميول الداخلية لدى الإنسان نحو التوجيه الذاتي. ومثل هذه المعاناة التي لم تنجح كلية أو باستمرار قد تعتبر دليلا على أنها مضادة للخاصية الفطرية «لمنظومة الجهد الإنساني» (human energy system)، وهو أن الإنسان يُقَيّم استجاباته أكثر من مجرد استجابته آليا برد الفعل.

ويسعى علم النفس الحديث، لحسن الحظ، بالتدريج إلى تطوير الأدوات العلمية من أجل معالجة المشكلات المعقدة المتعلقة بالقيم، و«حرية الإرادة»، والغرض. والنتيجة المترتبة على اتساع هذه البحوث تؤول بالتدريج إلى بزوغ صورة أكثر واقعية عن الإنسان من حيث أنه «مزود بإمكانات كافية للتعقل، والاستقلال، والاختيار لكي يستفيد من الحياة ويفيد الحياة في مجتمع حر» (أولبورت، ١٩٥٥ : ١٠١).

يبدو وجود الدافعية اللاشعورية، التي تستطيع أن تؤثر في السلوك بدون أن يُعترف بها كنتاج للحوافز البعيدة، على أنها حقيقة مستقرة بحيث تتطلب المزيد من التعقيب. ومع ذلك، ثمة مفارقة تبعث على الدهشة حينما نسأل أنفسنا كيف يمكن أن يستجيب الشخص بحرية بدون أن يفهم دوافعه كلية.

يبين «نوتان» أن المصدر اللاشعورى لحافز على الأداء لا يقدم مشكلة خاصة طالما أنه لا يمتص انتباه الشخص إلى النقطة التي تجعله يعمل بطريقة آلية بدون ما اعتبار للحلول البديلة. فما هو هام في اتخاذ القرار هو «القيمة المُدْرَكة» للدافع والطريقة التي تؤثر بها في السلوك، وليس من أين يأتي الدافع.

وفي الحالات المتطرفة قد يقوض دافع لا شعوري عملاً للحرية؛ وفي أوقات أخرى قد يسبب فحسب شيئاً يبدو جذاباً أو منفراً بطريقة غير عادية.

(٦)

اللاشعور والحرية (*)

جوزيف نوتان

(جامعة لوفان)

بالرغم من تقديم مبدأ اللاشعور وبيان ما يباشره من تأثير على النظرة السيكولوجية للإنسان، يبقى بالنسبة لنا أن نضع في الاعتبار المشكلة الرئيسية: إلى أي حد يكون تأثير العوامل اللاشعورية على السلوك بما يتفق مع الاعتقاد في حرية الأفعال الإنسانية؟.

١- إيحاء ما بعد التنويم المغنطيسي:

لنضع أمامنا منذ البداية، ظاهرة التنويم المغنطيسي، انطلاقاً من الاعتبار الذي بدأت منه آراء فرويد المتعلقة بتأثير اللاشعور على السلوك.

فالأفعال الممارَسة خلال التنويم المغنطيسي لا تتعلق خاصة بمشكلتنا، حيث أن هذه الأفعال لا تؤلف جانباً من السلوك العادي. لكن من المعروف أن الشخص المنومَّ مغناطيسياً، بعد خروجه من غشية التنوم — وبالتالي العودة إلى الحالة العادية للوعي — قد يزاول أفعالاً وهو خاضع للأوامر التي أوعزت إليه أثناء الغشية، ويقوم بذلك بدون أن يعرف أنه يطيع أمراً من الأوامر.

تلك حالات من إيحاء ما بعد التنويم المغنطيسي post-hypnotic suggestion، وهي ظاهرة قد دُرست بصفة خاصة، ونورد هنا حالة كما يصفها «دكتور برنهايم»:

لقد سمع المريض ما قلته له حينما كان في غشية التنويم، ولكنه لا يتذكر شيئاً عنه، ولا حتى أني قد تحدثت إليه. وتعود الفكرة الموحَى بها إلى ذهنه حينما يفيق، وبنسيانه المصدر الذي أتت منه، ليعتقد أنها فكرة أصلية. وحقائق من هذا النوع قد أيدها علماء آخرون، وقد حاولت مراراً التحقق

(*) Joseph Nuttin: Psychoanalysis and Personality. Sheed & Ward Ivc, New York, 1992.

منها بنجاح، وأكاد أن أقتنع بأن الأشخاص الذين يهتمون بذلك إنما يقرون بتلك الحقيقة.

ففي الساعة الحادية عشر أوحيت إلى «س» بأنه في الساعة الواحدة بعد الظهر سوف تتملكه رغبة لا تقاوم في أن يجتاز «شارع» جيئة وذهاباً، مرتين. وفي الساعة الواحدة رأيته يخرج إلى الشارع، ويسير من نهاية الشارع إلى الأخرى، ثم يعود ثانية، ويتوقف في مواجهة نوافذ أحد المحلات كما لو كان قد أخذ جولة لتوه[1].

ظاهرة كهذه يمكن أن تؤخذ كما يقرها دارسوها. لقد درسوها تجريبياً وتحققوا منها. فالأمر الذى يُعْطَى أثناء التنويم المغنطيسي قد لا يُطاع فحسب فوراً بعد أن يستيقظ الشخص الخاضع له، وإنما قد يظل فعالاً لعدة أيام وحتى لعدة أسابيع بعد ذلك.

وهنا نفترض أن الأمر المُعْطَى يبقى موجوداً لا شعورياً داخل الفرد. وينشأ تصور الأداء والحاجة إلى ممارسته – في الشعور في لحظة معينة، لكن مصدر الصورة والحاجة يظل لا شعورياً. فالأداء يُمارس كما لو كان إنجازاً تلقائياً للشخص ذاته.

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كان هذا الأداء، النابع من اللاشعور، يمكن اعتباره أداءاً حراً. وإذا كان كذلك، هل يكون أي شكل من اللاشعور يؤثر على الأداء مطابقاً لحرية السلوك.

وتتبدى الحقيقة الهامة الأولى التي ينبغي التحقق منها حينما نواجه بهذه المشكلة، وهي أن الإيحاءات التي تتم «أثناء» التنويم المغنطيسي تتحقق بطريقة ثابتة، ويؤكد العكس بعض المؤلفين ويقولون أن إيحاء «ما بعد التنويم» يتحقق ضرورة، وبطريقة ثابتة.

لذا يعلن «ليبول» Liebault ، ومن بعده «بيونيس» Beaunis، أن «أحد خصائص الأداءات التي تمارس لفترة طويلة بعد عمل الإيحاء هي أن ما يحفز

(1) Bernheim, e. la suggestion, 2nd ed. Paris, pp. 40-47.

الفـرد للقيـام بهـذه الأداءات يبـدو لـه على أنه صادر عـن مبادأة منه، فـي حين أنـه فـي الواقع يمضـي نحو هدفه تحـت تأثير القـرار الذي اتخـذه ليمضي مع قدرية حجر سـاقط، وليـس كنتيجة للجهد المضبوط والقصـدي الذي هو مصدر كل أداءاتنـا السـديدة». «وباختصـار – يضيف بيونيس – يعتقد الفرد نفسـه حراً ولكنـه ليـس حراً. وهـذه ضربة مباشـرة بالحجة لحريـة الإرادة التـي تتأتى من شعورنا بالحرية.

وإذا كان الأمـر كذلـك، تقـدم ظاهـرات مـا بعـد التنـويم إيضاحـاً لقانون سـبينوزا . فشـعورنا بالحرية، بالنسـبة لسـبينوزا، هو ببسـاطة تجاهل للأسباب التـي تجعلنا نسـتجيب.

ويبدو من المؤكد تماماً أنه فـي الحالات اللاسـوية كالهسـتيريا، يخلق إيحاء مـا بعد التنـويم تأثيره بطريقة آلية تماماً، بالرغم من الشـعور العَرَضي بالتلقائية والحريـة. ويلتـزم بيونيـس نفســه بشـرط واحد ليؤكد علـى تحقيـق الإيحاء: أن الفـرد ينبغـي أن يخضـع للتنـويم بطريقة متكررة بواسـطة نفس الشـخص. لكن هـذا، كما هـو معروف جيداً، يعني إضعافاً فـي قـوة المقاومة.

ومـن المؤكـد أن الفـرد فـي بعض الحـالات يناضـل بصعوبة ضد ممارسـة الأداء حينمـا يتعـارض الأداء مـع الميول القويـة، لذا يعترف برنهـايم، كما اعترف شـاركو، أن: تأثيـر إيحـاء ما بعـد التنـويم ليس موضوعـاً للقدر علـى الإطلاق، فهنـاك البعـض الـذي يجاهد ضـده.. وهنـا توجد أمثلـة قليلة.... فقـد أوحيت إلـى الصغيـر «ج» أنـه حينمـا يسـتيقظ ينبغـي أن يقف علـى المنضـدة، وحينما اسـتيقظ صـار ينظـر إلى المنضدة ولكنه لـم يصعد عليها. فالرغبة فـي أن يفعل ذلـك ليسـت موضع شـك، ولكن الاحتـرام لوجود أنـاس يعطيه القـوة لكي يتغلب علـى الرغبة.

٢- المصدر اللاشعورى للحاجات السوية:

تبرز إذن ثلاث نقاط أساسية تقرها دراسة ظاهرات ما بعد التنويم:

١. يخبر الفرد ميلا شعورياً لممارسة الأداء.

٢. يتولد هذا الميل في الحقيقة الواقعية من المضامين النفسية التي هي ليست بمضامين شعورية (مثلا، أمر قد أُعطى فيما سبق)، وينشأ الأداء الذي يمارس من هذه المضامين اللاشعورية.

٣. قد يسمح الفرد، أو ربما لا يسمح، لميله بأن يأخذ مساره.

وتبدو النقطة الحاسمة في أن الميل – وبالتالي السلوك – يكمن وراءه مصدر لاشعوري، أي يشتق من نظام لا شعوري.

وهنا يكشف تحليل السلوك الإنساني في الحال من أنه ليس من غير العادي على الإطلاق بالنسبة للميل أن ينشأ أو يبدأ من الطبقات اللاشعورية للشخصية. فمعظم ميولنا وحاجاتنا الطبيعية – الجوع، العطش، الجنس – لها أصلها في الحالات البيولوجية اللاشعورية للكيان الحيوي (الأورجانزم).

ومن هذه الديناميات يبزغ شيء واحد في الشعور: في لحظة معينة، ولحاقاً بإشباع الحاجة، نشعر بأننا منجذبون أو مسوقون لممارسة فعل تنشأ صورته في ذهننا. ولا ينتقل تواً مصدر أو أساس هذه الرغبة إلى الشعور أو قد نخطئ للمرة الثانية، بشأن مصدر رغباتنا. فما نأخذه ليكون دوافعنا الحقيقية حتى ننجذب إلى موضوع معين قد يكون مجرد ذرائع لتبرير سلوكنا. وغالباً ما يمكن الكشف عن المصدر الحقيقي للميل بواسطة البحث العلمي في مقدماته والعوامل التي أدت إلى وجوده.

من هذه المقارنة بعملية الحاجات الطبيعية ينبغي أن يكون واضحاً أن مشكلة اللاشعور واحدة في كلتا الحالتين. ومع ذلك، يوجد فارق يبعث على الاهتمام بين العمليتين: في إيحاء ما بعد التنويم يكون الميل مضموناً نفسياً في طي النسيان – التوجيه أو الأمر الذي تلقاه الفرد – هو المصدر اللاشعوري

للصورة والحاجة اللتين تظهرا في الفرد، بينما في الحاجات الطبيعية ينشأ الميل أساساً من الحالات الفسيولوجية للكيان الحيوي نفسه.

ومع ذلك، فليس أحدهما في حد ذاته شعورياً بطريقة مباشرة أو أساسية. ونلاحظ، في النهاية، أن المشكلة واحدة سواء بالنسبة للشعور الدينامي لدى فرويد أو بالنسبة لإيحاء ما بعد التنويم. في كلتا الحالتين تكون المضامين النفسية اللاشعورية نقطة الانطلاق للصور وللنزعات التي تنشأ في الشعور. وقد وجد فرويد، كما بينا، في ظاهرات ما بعد التنويم نموذج «اللاشعور النشط» الذي ذهب إليه.

٣- الحرية والميول الناشئة من اللاشعور:

علينا أن نتفحص الآن ما إذا كانت حقائق كهذه يمكن أن تتفق مع النشاط الذي نستطيع أن نسميه بحق نشاطاً حراً. لكن ما هي بالضبط العملية المعروفة «بالأداء أو الفعل الحر» (free act)؟

لا تعني الحقيقة بأننا مسوقون بحاجة معينة، لها مصدرها، نحو شكل معين من السلوك أن الأداء أو الفعل ليس حراً. لا يهمنا كثيراً مصدر الحاجة، شعورياً أو لا شعورياً — بقدر ما يهمنا الحاجة المُدْرَكة ذاتها والطريقة التي تؤثر بها في السلوك.

حينما نسلك بحرية، في الواقع، يتخذ الفرد اتجاهاً نحو العناصر المختلفة «للقيمة» value المتعلقة بالدوافع التي يخبرها بالفعل في الموقف المعين، أي العناصر المتواترة في خبرة الفرد. وتتوقف «القوة الجاذبة» أو «قيمة» كل دافع على قوة المطامح والحفزات المتواترة في الخبرة في لحظة معينة. ولا يدخل المصدر الأصلي لهذه المطامح والحفزات في القوة الجاذبة أو القيمة لكل دافع، سواء في أي استقصاء للدوافع أو في الاتجاه الذي قد يتبناه الفرد نحوها. بقول آخر، نعتبر «الدوافع» كقوى تؤثر في حرية الأداء إلى الحد الذي تكون فيه «مدركة» بالفعل، أي في بؤرة الوعي. ولا يؤدى إغفال مصدرها إلى التغيير من هذه الحالة على الإطلاق.

فالأداء، سواء كان حراً أو محتوماً، سوف يعتمد إذن على الطريقة التي بها تؤدي العوامل الدينامية، التي يخبرها الفرد داخل نفسه، إلى تحرير النشاط. وسوف لا يكون الأداء حراً حينما تسبب «الدوافع» أو القوى الدافعية رد فعل أشبه بحلقة واصلة في سلسلة محتومة مادياً بالعمليات الطبيعية.

ومن ناحية أخرى، سوف يكون هناك أداء حر حينما يواجه الفرد الدوافع كعناصر قيمية يعترف بها ذهنياً بدون أن يكون مستوعباً بها كلية؛ فهو في هذه الحالة (في أداء كامل التملك الذاتي) يسمو بالانطباع والميل الذي يخبره في لحظة معينة ويرضخ للدوافع التي يعطيها قيمة، وفقاً للنسق القيمي المحدد الذي يؤلف شخصيته ذاتها.

لذا، ينبغي أن يكون واضحاً، وارتباطاً بأن الأداء المعين ينشأ من مصدر دينامي لا شعوري، فإن هذا من شأنه ألا يثير أية مشكلة خاصة تتعلق بحريته. وتتوقف الحرية أو الإجبار، كما هو الحال بالنسبة لكل الأداءات الأخرى، على ما إذا كانت الدينامية الكامنة وراء الأداء تنمو وتعمل على المستوى الإرادي. ويتوقف هذا على ما إذا كان الفرد يسمو بالانطباع الواقعي الذي يخبره أو يكون ببساطة متأثراً به. أما السؤال عما إذا كان هذا المستوى الإرادي للنشاط يوجد في الإنسان، وما إذا كان هناك عنصر معين للحرية – أي الإرادة – متضمناً في السلوك الإنساني، فهو غير وارد هنا. فتلك قضية تتعلق بعلم النفس الفلسفي، وخارج نطاق هذا البحث. يكفي أن نبين أنه ليست هناك من مشكلة جديدة تبرزها الحقيقة بأن ثمة ميول معينة تشتق من اللاشعور.

وكما ذكرنا، يبدو أنه يوجد عدد هائل من الأداءات الناشئة من الميول أو الإيحاءات اللاشعورية، التي لم تمارس بطريقة آلية. قد يحدث أن شخصاً يخفق في ممارسة الأداء الذي كُلّف بممارسته بسبب الميل إلى احترام ما هو متفق عليه من آداب وعرف. ومع ذلك فقد يحدث، بين الفينة والأخرى، تصالح ويصافح المريض ببساطة يدي شخص معين طلب منه أن يصافحه. ولكنه قد يبدو في بعض الحالات كحقيقة كما لو أن أداءات معينة – خاصة تلك التي مورست كنتيجة لإيحاء ما بعد التنويم – يمكن أن تمارس بالفعل شأنها في ذلك شأن الكثير من ردود الأفعال الآلية. ويصدق هذا خاصة على

حالات هستيرية معينة وصفها «بيير جانيه» وصفا شيقاً.

يدلل «جانيه» أن ممارسة الفعل أو الأداء الإرادي، بالنسبة لبعض المرضى، يتطلب جهداً كبر بكثير من الفعل أو الأداء المرتبط بإطاعة إيحاء ما بعد التنويم. فمثلاً، يدلل على أن إحدى المريضات اللائي يعانين من فقدان الإرادة (abulia) في ممارسة عمل معين طلب منها القيام به، قد مارست نفس العمل بدون أي مجهود كنتيجة للإيحاء اللاشعوري. وبعد تنويم هذه المريضة قال لها «جانيه»: «حينما أدق على المنضدة، خذي هذه القبعة وعلقيها على شماعة» ويقرر:

وأيقظتها. وبعد فترة وجيزة استدعيتها، كما لو أريد منها أن تفعل شيئاً لي: «هل تتذكري أن عليك أخذ هذه القبعة؟ إنها تقف في طريقي حينما أكتب. علقيها على الشماعة، هل لك أن تقومي بذلك؟» . وأجابت: «طبعاً سوف أفعل ذلك». وحاولت أن تنهض، وحركت نفسها ومدت ذراعيها، لكن حركاتها لم تكن متسقة، ولذا جلست، ثم وقفت مرة أخرى. استغرق هذا زهاء عشرين دقيقة، ثم قَرَعتُ على المنضدة، فنهضت للتو، وأمسكت بالقبعة، وعلقتها ومضت وجلست مرة أخرى. لقد تم الأداء بواسطة الإيحاء في لحظة معينة، فلم تكن قادرة على القيام به بواسطة جهد الإرادة في غضون عشرين دقيقة.

في حالات من هذا النوع يعمل الإيحاء بطريقة أشبه بقوة الحفز ويؤدى مباشرة إلى الأداء بدون أي تدخل من جانب الفرد.

ولا يرتبط بهذا النوع من السلوك اللاشعورى بأية مشكلات خاصة: فتلك الأمثلة يمكن تصنيفها مع الأفعال الآلية العادية.

والخلاصة، بالنسبة لهذه القضية، يتوقف كل شيء على «التوازن النفسي» (psychic equilibrium) للشخص المَعْني. وحينما تعوزه الإرادة تماماً — أي حينما لا تظهر «القوى» النفسية على المستوى الإرادي — فإن الدينامية الناشئة من النظام اللاشعوري تنساب بطريقة آلية أو اندفاعية في السلوك. ولكن،

حينما يكون الفرد متوازنا على نحو سوي ويتمتع بالقوى النفسية السوية، لا يكون للميل الناشئ من الإيحاء أي تأثير على السلوك مغاير عن ميول الإنسان الأخرى التي تنشأ سواء من العوامل البيوكيميائية أو الفسيولوجية أو حتى في النهاية من القوى الكونية.

إن نمو الشـخصية كشـكل من أشـكال التعلم هو نتاج للنشـاط الذاتي. وقـد يخلق الأشـخاص الآخرون المعنيون فـي الحيز الحياتي للفرد شـروطاً ملائمـة أو غيـر ملائمـة للتعلـم، ولكـن الفرد وحـده هو الذي يسـتطيع أن يشـكل الصـورة والتعبير عن «**أغوار الذات**» (innermost self) التي نسـميها بالشـخصية. وهو، فـي عملية اتخاذ الاختيارات الهامة، إما أن يغير نفسـه إلـى نـوع الشـخص الذي ينشـد أن يكون عليـه أو يمهد الطريـق إلى نماذج أقل وعياً للسـلوك. ويتضمن كلا البديلين بعض «المسـئولية النفسـية» لما هو عليـه الآن، ولمـا قد يصيـر عليه بتأثيـر الجهد الشـخصي وفاعلية الذات.

(٧) الاختيار والمسئولية في العلاج النفسي الإنساني (*)

موريس تيمرلين

(جامعة أوكلاهوما)

في الممارسة الإكلينيكية يستخدم معظم المعالجين النفسيين مفهوم الاختيار الحر والمسئولية الشخصية؛ ومن المتوقع لذلك أن يقوم المريض، ما لم يكن ذهانياً وتحت العلاج في مؤسسة ما، باختياراته وقراراته، وأن يكون مسئولاً عن سلوكه الظاهري. بل إن فرويد (١٩٤٩)، بالرغم من كونه مناصراً جامداً للحتمية في النظرية، يتكلم عن الممارسة العلاجية كمحاولة «لإعطاء المريض حرية الأنا لاختيار طريق معين أو آخر». ولذا، فقد استخدم فرويد ضمناً مفهوم المسئولية الشخصية لأن الفرد يعتبر مسئولاً عن نتائج اختياراته. وبالرغم من هذا الاستخدام لمفهوم المسئولية الشخصية في الممارسة العلاجية، فإن النظريات العلمية في الشخصية والعلاج النفسي تستند إلى الحتمية النفسية.

فالتحليل النفسي، على سبيل المثال، نظرية حتمية بشكل صارم من حيث أنها تفترض أن السلوك خاضع لقوانين وأسباب محددة. وهنا يُفترض أن الأداءات والخبرات المحددة، وكذلك السلوك بصفة عامة، ترتبط عِلّيا بالشروط السابقة، وبالتالي تكون النظرة إلى الإنسان التي تنشأ من تلك النظرية آلية بالضرورة، لأنه يعتبر كمخلوق يستجيب باستمرار إلى الحاضر والمستقبل في ضوء المحددات التاريخية، وتسوقه بطريقة جامدة كثرة من الحوافز والدوافع والبواعث من الداخل، وارتباطاً بالمتطلبات الضاغطة للواقع من الخارج. وتعد الخبرة والسلوك الانسانيان توافقات ونواتج لأسباب متضاربة ومرتبطة ببعضها بطريقة مركبة. ولكن هذه الصورة للإنسان تقترب من النموذج العلمي لأن السلوك سببي ويمكن التنبؤ به إلى الحد الذي يمكن معه معرفة كل المحددات وأهميتها النسبية. وفي نظام كهذا لا توجد حرية، ولا تلقائية، ولا جدة، ولا

(1) M. K. Temerlin: On choice and responsibility in a humanistitic psychotherapy. J. humanistic psychol., 1963, 3 (1) 35-48.

تفرداً ناشئاً، عدا «الظواهر اللاحقة» (Epiphenomena) – أي كنواتج لمحددات السلوك.

ولنتناول، على سبيل المثال، ما يقرره «نايت» (Knight) عن الحرية والحتمية: في تفحصه للتناقض بين الخبرة الإنسانية العامة للحرية في الاختيار ومفهوم الحتمية النفسية، يعتبر الحتمية وحرية الإرادة مناقضتين أحدهما للآخر. وهو يبدو بذلك غير قادر على تجنب المنهج التصورى للعلوم الطبيعية أو على تطويع تلك الطرق لكي يتوصل إلى المعنى وحتى إلى الطبيعة المتناقضة للبيانات الظاهرية (الفينومينولوجية)، ويصل بإخلاص إلى نتيجة لصالح الحتمية كمبدأ مسيطر يحكم السلوك الإنساني. فالحرية التي يخبرها الإنسان للقيام باختيارات – كما يقول نايت – «ليس لها ما تفعله حيال حرية الإرادة كمبدأ يحكم السلوك الإنسانى، لكنها خبرة ذاتية هي نفسها محتومة علِّيا». وهذه النتيجة، بأن خبرة حرية الاختيار وَهْم محتوم عِلِّيا، قد لقيت تقريبا قبولاً بين علماء التحليل النفسي، كما تعتبر هي الفكرة السائدة لدى كل المعالجين النفسيين الذين تدربوا وفقا للتقليد السلوكي أو الوضعي. لكن هذا الموقف متناقض مع بيانات وطرق وأهداف العلاج النفسي الإنساني: فهو غير متسق مع بيانات ذلك العلاج النفسي لأن معظم الناس تفصح باللفظ عن خبرة الاختيار الحر على الأقل بمعان كثيرة؛ ومتناقض مع طرق العلاج النفسي الإنساني لأن الممارسة العلاجية تفترض ضمناً أن المريض يعتبر، أو يمكن أن يصير، الطرف الفعال في إنتقاء وضبط- أي في «اختيار» – سلوكه الظاهري، كما أنه غير متسق مع أهداف ذلك العلاج النفسي لأن هذه الأهداف غالباً ما تتحدد على أنها الحرية في اختيار وإنتقاء وضبط سلوكه ذاته بفاعلية وكفاية، في ضوء نتائجه.

هدفنا، إذن، هو تفحص الخبرة كما يجري التعبير عنها في العلاج النفسي الإنساني بدون ما تسليم قبلي إلى الحتمية أو إلى حرية الإرادة؛ والتحقق من الحد الذي تكون معه الحتمية وحرية الإرادة مفاهيم وصفية للخبرة كما يعبر عنها لفظاً في العلاج النفسي؛ وملاحظة الظروف التي تحدث فيها خبرة الحتمية والاختيار بالنسبة للأنواع المختلفة من الناس، بدون ما اعتبار لما إذا كانت هذه الخبرات، في الواقع، حرة أو محتومة. وحينما نستكمل تناولنا

في هذا الشأن عن حرية الإرادة والحتمية في العلاج النفسي، نناقش ثلاث مفاهيم أساسية بالنسبة للعلاج النفسي، وهي: التداعي والإزاحة وكراهية الذات – في ضوء الاختيار والمسئولية الشخصيتين. لكن من الضروري، أولاً أن نحدد **ما هو «العلاج النفسي الإنساني»** (Humanistic psychotherapy).

العلاج النفسي الإنساني هو ذلك النوع من العلاج النفسي الذي يتبدى في كتابات ما سلو، وماي، وروجز، وفروم، وهوايت ومالون، وكولم، وآخرين كثيرين. وبالرغم مما يوجد من اختلافات في النظريات العلاجية لهؤلاء العلماء، فإن تصوراتهم تحمل ميلاً عاماً نحو الإقلال من تأكيد تلك التشبيهات الطبية مثل اختزال الأعراض أو الشفاء أو «التوافق». **يتمثل الهدف الأولي للعلاج النفسي الإنساني أساساً في مساعد الفرد أن يصير «أفضل صورة ممكنة لذاته»** (best possible version of himself) **ككائن حي إنساني، كما تتحدد أساساً بقيمه ومطامحه وحدوده. إن جُل الاهتمام إذن هو بالفردية المتزايدة، أي بأن يكون الفرد كذاته**. يعني ذلك أن الإطار المرجعي ليس معيارياً normative ولا إحصائياً، لأن «الإنسان المتوسط» average man يبدو ليس في حالة من الرضا أو الكمال أو الإنتاجية، ولا في سلام مع نفسه، وإنما تتحدد الأهداف بما ينبغي أن يصير عليه إنسان معين في ظل الظروف الأمثل بالنسبة له.

تقدم التوجهات الرئيسة للعلاج النفسي الإنساني قيماً عليا تركز على أن الإنسان، من الناحية المثالية، « ينبغي» أن يكون حراً في تنظيم وضبط سلوكه الذاتي، وأن الإنسان «ينبغي» أن يكون في سلام مع نفسه ومع أخيه الإنسان بقدر الإمكان، وأنه «ينبغي» أن يسعد بحياته ، وأن سروره ورضاه أفضل من المعاناة، وأن تفرديته وفرديته وتلقائيته أفضل من التقنين standardization **أو المكننة أو الآلية** mechanization **الإنسانيتين.**

هذه الآفاق الإنسانية الإيجابية للعلاج النفسي تكون موجهة بالطريقة الظاهرية (فينومينولوجيا)، لأنه يتقبل الخبرة المباشرة للمريض كبيانات أساسية، وبنظرة عابرة فقط إلى تطابق الخبرة مع الأحداث الخارجية. ويعتبر الخبرة ذاتها حقيقية على أساس ما لها من آثار على السلوك، سواء تتفق الخبرة أم لا تتفق مع الواقع الخارجي. وفي النهاية، يولي هذا العلاج

قيمة «للمقدرة على الخبرة» (Capacity for experience)، ويسعى إلى تمكين الشخص من تحمل وتنمية الخبرة.

بتقديم هذا الإطار، ولكي نرى كيف أن الشعور بحرية الاختيار وَهْمٌ محتوم عليًّا، فإننا مطالبون بأن نطرح بشأن البيانات المجتمعة افتراضاً وهو وإن كان ضرورياً في العلوم الطبيعية، إلا أنه ببساطة لا يصف غالبية الخبرة المتواترة في عملية العلاج النفسي. فلا المريض ولا المعالج، على سبيل المثال، يشعر أنه مقيد بصرامة بالقوى الحتمية التي تتجاوز رغبته أو ضبطه. وإذا كان الأمر كذلك لن يكون هناك موضعاً للجهد العلاجي. فالحتمية لا تسهم بشيء في فهم خبرة الحرية أو حتى الخبرة، وإنما تصفها ببساطة على أنها وَهْم. ولا تعترف الحتمية الجامدة كذلك بأن خبرة الاختيار غالباً ما يتبعها تغيرات في السلوك. وما قد يذهب إليه البعض من إقلال لقيمتها بأنها «وَهْم الاختيار»، قد يكون أحد الخبرات الأكثر أهمية في العلاج النفسي من حيث التغيرات الهامة السابقة في السلوك الظاهري. وقد يؤدى أيضاً التمسك الصارم بالحتمية من جانب المعالج إلى وضع حد قَبْلي لتقدم الشخص طالب العلاج تقيداً بإصدار الأحكام القبلية، وبالتالي الإقلال من مقدرته على تنظيم وضبط وانتقاء استجابته ذاتها.

وإذا تقبل المعالج إمكانية الاختيار الحر والمسئولية الذاتية على الأقل بمعان معينة، فإنه يظل متسقاً مع بيانات الخبرة كما يتم التعبير عنها في العلاج، وكذلك مع مقتضيات الممارسة العلاجية في معظمها. وبالرغم من أن الاعتبارات النظرية قليلة، فإن المعالجين يقومون بالممارسة كما لو أنهم يقومون بتطبيق حتمية مطلقة. فالحتمية ترى المريض كضحية عاجزة لقضاء الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وفي المقابل يؤكد المعالج النفسي الفعال بطريقة برنامجية على إمكانات المريض في تنظيم وضبط سلوكه الذاتي في الحاضر والمستقبل، بغير اكتراث بالماضي. حقيقة، قد تعتبر الحرية والمسئولية في العلاج الإنساني إفتراضاً برنامجياً programmatic assumption يتشابه مع الافتراض البرنامجي للحتمية المتعلقة بالعلم. فالعلاج النفسي القائم على الحتمية بطريقة صارمة يؤول إلى المخاطرة بتوريط كل من المعالج والمريض في البحث عن الأسباب العاملة في ماضي الشخص؛ ولذلك فمن المحتمل

تماماً أن المبالغة في التأكيد على المحددات الماضية قد تكون لها نتيجتان متضادتان للعلاج: أولاً، قد يُفْسد العلاج النفسي خبرة انفعالية دينامية في الحاضر ويحولها إلى تأمل ذهني سلبي للماضي؛ ثانياً، قد تؤدي المبالغة في التأكيد على الأسباب العاملة في الماضي إلى تبديد مقدرات المريض على تنظيم وضبط سلوكه الذاتي في الحاضر (مازر Mazer ، ١٩٦٠).

ثمة شك ضئيل هكذا بأن الحتمية مفيدة في العلم. فبدونها تكون إمكانية التنبؤ محدودة، وبدون إمكانية التنبؤ لا يتوفر الضبط. حقيقة، توجد مجالات في العلاج النفسي تكون فيها الحتمية فكرة مفيدة لنفس السبب. فرويد، على سبيل المثال، كان مسوقاً بالحتمية لكي يتناول الأحداث البينشخصية وزلات اللسان ورمزية الأحلام على أنها مدفوعة إجباراً (محتومة)، ولذا تكون ذات معنى من خلال التفسير العلِّي. فالإشكالية هنا لا تتعلق بالحتمية كافتراض برنامجي للعلم، ولكن بالتسليم الكلي للحتمية من جانب المعالج. فأهداف العلاج النفسي الإنساني، خلافاً للأهداف العلمية، لا تتمثل في إمكانية التنبؤ ولا في الضبط. ففي الحقيقة، بقدر ما يكون العلاج النفسي أكثر نجاحاً، يكون أقل تنبوأً بما يصير عليه الفرد، لأن جموده يتضاءل، وتلقائيته وإبداعيته تتزايدان.

وعلى هذا النحو، بقدر ما يكون العلاج النفسي الفعال موجهاً نحو التغير الإنساني، يصير الفرد أكثر استقلالية عن الضبط الخارجي والبيىء (ماسلو، ١٩٦١). كذلك، قد يفشل المعالج الذي يسلم تماماً بالحتمية في ملاحظة الشروط التي تحدث في ضوئها خبرة الاختيار، والتغيرات في السلوك التي تتبع هذه الخبرة. وقد يخفق أيضاً في أن يرى التطلع الإيجابي لاتخاذ المسئولية الذي يحدث في الكثير من التفاعل الإنساني، وخاصة في الفترة العلاجية.

المسئولية الشخصية كخبرة ذاتية:

تشير المسئولية الشخصية، كخبرة ذاتية أكثر منها كمفهوم قانوني أو معنوي، إلى حالة من الوعي يعتبر فيها الفرد نفسه مسئولاً عن أفعاله. وعادة ما يَخْبُر الفرد السلوك، الذي يعتبر نفسه مسئولاً عنه، كتعبير عن ذاته ورغباته؛

وهــو يرى نفســه علــى أنه العضو الفعال فــي ســلوكه. وخلافاً للحتميــة التي قد يَخْبُرهــا الفــرد على أنها قســر وإجبار على الســلوك بطريقة معينــة، تعني خبرة المســئولية الشــخصية أن الفرد، فــي الماضي، قد شــعر بنفسه حراً فــي أن يفعل ما يعتبر نفســه الآن مســئولاً عنه. وعلى العكس، حينما يَخْبُر الفرد ســلوكه على أنــه نتيجــة محتومة عِلِّيا بقوى أبعد من رغبته أو ســيطرته الشــخصية، فإنه عادة ما لا يعتبر نفســه مســئولاً. لهذا تعتبر العلاقة بين المســئولية الشــخصية وخبرة الاختيــار الحــر علاقة وثيقــة : فبدون ما شــعور قبلي بالحرية فــي الاختيار بين البديــلات، لا يرى الفرد نفســه على أنه مســئول.

يبـدو الإحسـاس بالمسـئولية الشـخصية، إذن، أنـه يتبـع خبـرة الاختيـار الحر. والنتيجة تطرح الســؤال التالي: أي الخبرات تســبق الشــعور بالاختيار الحر؟ على مســتوى الخبرة، يتوقــف الاختيار على خبــرة الفرد بذاته، أو بهويته الشــخصية. فالاختيــار يتضمــن هوية، إحساســاً بالذات أو بـ «أنا»- شــخصاً يختار فــي ضوء أفــكاره أو رغباتــه ذاتهــا. فالاختيار يســتلزم الشــخص المختار. ويتدعــم الوجود الحقيقي للذات فــي الخبرة أساساً بواسطة اختياراتها. وعادة ما يتحدد الإنسان، مــن الناحيــة التشــخيصية، إما بواســطة اختياراتــه أو بالطرق التي يســتخدمها لتجنــب اتخاذ اختيارات. فمثلاً، الإنســان الذي يختار أن يكتنــز الفائض من ماله بــدلا مــن إنفاقــه، أن يتزوج امــرأة عاملة بــدلاً من ربة بيــت، أن يــدرس القانون بدلاً من الهندســة، أن يمكث فــي المنزل فــي صبــاح يوم العطلة الأســبوعية بدلاً مــن الذهــاب إلى نزهة مع أســرته؛ إنما يتحدد ذلــك بطريقة مختلفــة تماماً عن جاره الذى يختار المســار العكســي من الاختيار. وإذا وضعنا فــي الاعتبار الحالة المضــادة، يفقد الإنســان الــذي تعوزه الخبرة بكونــه قادراً على الاختيــار، كما هو الحــال فــي الذهــان، جانباً كبيراً مــن إمكانيته علــى التفرد. فالقضيــة هكذا أن **خبـرة الاختيـار تتطلـب إحساسـاً بالـذات؛ وأن ممارسـة الاختيار، بطريقـة متناوبة، توكيـد للذاتيـة والتفرديـة.** «فالإنســان – كما يقرر «تيلليــش» (Tillich) – لا يكون أبداً أكثر إنســانية فــي أية لحظة مما هو فــي لحظــة القرار».

أمــا الاختيار الذي لا يكــون تعبيراً عن قيم الذات ورغباتهــا، مثل «الاختيار» المفــروض علــى الفرد مــن الظــروف الخارجية، فهــو ليس فــي الواقــع اختياراً، طالمــا أنــه لا يَخْبُــر الاختيــار والقــرار كتفضيل حر للــذات. فقد يكون، فــي تلك

الحالة، قراراً أو «اختياراً مفروضاً»، ولكنه لا يُتْبَعُ بخبرة المسئولية الشخصية. وعادة ما يتجنب الفرد المسئولية عن سلوكه في هذه السياقات عن طريق مناورات وآليات دفاعية، مثل: «كان عليَّ أن أفعل ذلك؛ ولا أستطيع القيام بذلك الاختيار أو السلوك إلا على هذا النحو»؛ «لقد كنت أحاول فحسب أن أفعل الشيء السديد»؛ «أي شخص آخر كان يفعل ذلك»؛ أو «لقد جعلوني أفعل ذلك».

قلق المسئولية:

تعتبر حرية الاختيار الدليل المباشر للمسئولية، لأن الحياة البينشخصية تجعل الفرد مسئولاً عن اختياراته، وليس عادة عما هو مسوق أن يفعله بالإجبار. لذا، إذا كان ينزع إلى تجنب المسئولية، فإنه في الحقيقة قد يقرر: «ليس لي اختيار».

وتخلق حرية الاختيار، بالنسبة للمرضى الذين ليس لديهم إحساس واضح وثابت بالذات أو الذين يعانون مما يطلق عليه «إيريك إريكسون» (Erickson) «تشتت الهوية» (Identity-diffusion)، قلقاً لأن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون انتقاء نماذج بديلة للسلوك في ضوء التفضيلات الشخصية. فمثلاً، حينما يواجه شخص، يتصف بإحساس بالذات غير مستقر وغير محدد، بمهمة اتخاذ قرار، فإنه عادة ما يتساءل: «ما الذي يمكن أن أفعله؟» وإذا سأله صديق أو والد أو معالج: «لماذا لا تفعل ما تريد أن تفعله؟» تكون الإجابة عادة: «لكني لا أعرف ما أريد».

إن هوية المريض المندمج بعمق في علاج نفسي تكون دائماً في حالة من التفكك والتميع، وتكشف جيداً ملاحظات بحثه عن هويته عن القلق المرتبط باتخاذ الاختيار. وفي كل مرة يتخذ العميل إختياراً أساسياً، تتأتى له إمكانية إثبات أو توكيد الذات self-affirmation، ونموه، وارتقائه؛ ولكنه في كل مناسبة يكون من المحتمل أيضا أن تحكمه نتائج اختياراته بطريقة سلبية. لذا يتولد القلق لأن القلق هو خبرة الاحتمالية الحقيقية أو الظاهرية (الفينومينولوجية) لتدمير الذات self-destruction (ماي، آنجل، ايلينبرجر،

May, Angel, Ellenberger، ١٩٨٥). هـذا القلـق، المميـز لخبـرة معظم الناس، يكـون أكبر كثيراً حينما يصير الفرد ذو الإحسـاس غير المسـتقر بالـذات مُطالَباً باتخـاذ اختيارات شـخصية، لأنه يتوقع أن الإدراك السـلبي لذاته سـوف ينعكس علـى اختياراتـه. حقيقـة، قـد يشـعر أن المسـئولية عـن سـلوكه، مـن الناحيـة الظاهريـة (فينومينولوجيـا) أي كما يدركها، قد تحطمه فـي الواقع. ويتضح ذلك مـن المثالـين: «إذا عرفوا حقيقة ما كنت أنشـده (بمعرفة اختياراتي الشـخصية)، فإنهـم سـوف ينظرون إليَّ بـازدراء»، أو «إذا كان عليَّ أن أفعل مـا أريد حقيقة أن أفعله، فمـا الذي يظنونـه بي؟».

لهذه الأسـباب تعتبر الدفاعات الأكثر شـيوعاً ضد القلق فـي ثقافتنا سلوكاً يختـزل اختيـارات الفـرد ومسـئولياته الشـخصية. ويتضـح مـن الأمثلـة التالية تلـك الأنماط السـلوكية: العيش فـي ارتباط قسـري مع الأخلاقيـات والمعنويات الخارجية؛ المسـايرة العميـاء؛ اعتبار كل الاحتمالات عقلانيـاً ولكن من دون تعبير عـن تفضيل شـخصي؛ الاحتـرام غير الناقد للسـلطة؛ السـلبية، وغير ذلك.

ومـن وجهـة النظـر الفينومينولوجيـة هـذه، يمكـن أن نعتبر نمـاذج الدفاع والآليـات الدفاعيـة فـي النظريـة الفرويديـة أسـاليب لتجنـب قلـق الاختيـار والمسـئولية الشـخصية، فإذا كان الفـرد خلال الكبت، على سـبيل المثال، غير واع برغباتـه، فإنه لا يكون فـي نظره مسـئولا عـن نتائج «الاختيـارات» التي يتخذها كمسـايرة لتلـك الرغبـات. وعلـى هـذا النحـو، إذا خَبـر الفرد خلال الإسـقاط رغباتـه كمـا لـو أنها رغبـات الآخريـن، فإنه لا يكون فـي نظره مسـئولاً، لأنه لم يتخيـر وجهـة أفعالـه (لقـد كانـت غلطته، وليسـت بغلطتـي). وإذا وضـع الفرد فـي الاعتبـار، إجبـاراً بالتبرير، عقلانيـة كل البديلات الممكنة، أو إذا كان يشـك بطريقة وسواسـية فـي كل شـئ، فإنـه لا يكون مسـئولاً، لأنه ليـس لديه تفضيل شـخصي. أو، إذا كان شـخص يبـدى السـلبية بطريقـة دفاعيـة، فإنه فـي غير حاجـة إلـى أن يَخبُر قلـق الاختيـار لأن الآخرون أو القَـدَر أو الوقـت وغير ذلك مـن الدفاعية، سـوف يجعـل القرارات فـي صالحه.

وعلـى المسـتوى الوصفـي للخبـرات الفجة، لا تقـي الدفاعات مـن المحتوى اللاشـعوري كمـا هو، ولكـن من الرصيد الشـخصي لخبـرات معينـة. إن اعتبار

الدفاعات كوسيلة لتجنب المسئولية بهذه الطريقة، يكون متسقاً مع الناتج اللفظي لكثير من المرضى، وخاصة المرضى الوسواسيين أو الأقرب إلى الدهانية، الذين يعبرون باللفظ عن مضمون الوعي في نفس الوقت الذي يتجنبون فيه المسئولية لما قد قيل. يوضح هذه العملية مريض وسواسي، محاولاً أن يندمج في عملية تداعي حر من أول مرة، بقوله: «إن الأفكار قد تواترت في عقلي للتو، لكنها لم تكن أفكاري- هل يمكن أن أفصح عنها بأية طريقة؟». إن أي دفاع، بصرف النظر عما يتضمنه من محتوى لفظي، إنما يحمل إشارة ضمنية إلى المسئولية الشخصية التي نادراً ما تتبدى صراحة في نظام حتمي. وحتى في حالة الكبت، حيث يكون دفاع الأنا أكثر تأثيراً وأقل لفظية، يُفْتَرَض قبلاً وجود خبرة متضمنة عن المسئولية الشخصية كدافع للكبت. فليس ثمة حاجة لكبت أو لتجنب الخبرات التي لا تحدد أو تعكس الخبرات أو تؤثر فيها. **ليس الكبت قوة مجردة، لكنه قرار: «إني أرفض أن أفكر فيه !».**

وباختصار، يمكن أن نعتبر الدفاعات الفرويدية ضد القلق هي حيل للدفاع عن الذات عن طريق خفض عدد الاختيارات الشخصية، لأنه، إذا كانت الاختيارات تحدد الذات، فإن الذات المُهَدَّدَة قد تقوم بالتغطية أو التهرب عن طريق التعبير عن اللا إختيار. وهذا يعني أنه **في العلاج النفسي الإنساني الموجه نحو كلية الشخصية تتطلب وظيفة الدفاع في تجنب المسئولية أن تحلل بعمق، لأنه حينما تختزل الدفاعات من المسئولية والقلق، يدفع الشخص ثمنا باهظاً، وهو: اختزال الذاتية والتفردية. فتجنب المسئولية يختزل الذاتية والتفردية لأن خبرة المسئولية الشخصية تؤكد الوجود الحقيقي للذات. بدون مسئولية لا توجد ذات كهوية متكاملة وتلقائية تستطيع أن تَخْبُر نفسها على أساس ما تباشره من تأثيرات.** وعلى العكس من ذلك، حينما لا يستطيع الفرد أن يخبرُ روابط الاختيار والمسئولية، فإنه يشعر بنفسه (ومن المحتمل أن يسلك) على أنه كائن آلي (robot) أو آلة ذاتية الحركة (automation) يتحتم سلوكها سببياً ليس بواسطته هو نفسه، ولكن بالمقتضيات الموقفية. **فليس للإرتهان للقدر مسئوليةً وقلقاً، ولا ذاتيةً وتفرديةً.**

الحتمية والاختيار توصيف للخبرة:

وحيث أن مفاهيم الحتمية والاختيار الحر منطقياً تنقض إحداها الأخرى،

فمن الممكن أن نلاحظ في الممارسة العلاجية النفسية أن هذه المفاهيم هي مفاهيم وصفية بدرجات مختلفة للخبرة المميزة للأنواع المختلفة من الناس. وتفيد هذه المفاهيم بصفة خاصة في استخدامها كمفاهيم وصفية تفاضلية للخبرة المميزة للذهانيين والعصابيين، وللأشخاص الذين أتموا علاجاً نفسياً ناجحاً، أو بشكل متسع كذلك للأشخاص جيدي التوظيف.

ربما يلاحظ أن الذهاني نادراً ما يتكلم كما لو كان يَخْبُر اختيار حراً، وإنما تصف الحتمية خبرته تماماً، لأنه عادة ما يتكلم عن سلوكه كما لو كان يشعر أنه مفروض من أشخاص أو قوى خارج رغبته أو تحكمه. وقد تكون هذه المحددات، التى يعزي إليها الذهاني المسئولية عن سلوكه، إما داخلية أو خارجية، ولكنها تمثل في كلتا الحالتين قوى يصفها كمحددات لا يستطيع أن يباشر حيالها ثمة ضبط شخصي.

فإذا سُئل الذهاني، على سبيل المثال، لماذا سلك بطريقة معينة، فإنه سوف يوضح عادةً، صراحةً أو ضمناً، أن أشخاصاً أو قوى أخرى تفرض عليه أن يسلك على النحو الذي فعله. ونادراً، إن لم يكن أبداً، ما يقرر: «لقد سلكت على هذا النحو لأني قد أردت أن أفعل ذلك!». وحتى حينما يوضح الذهاني سلوكه بالإشارة إلى دوافع داخلية، إنما يشير إلى دوافعه كما لو كانت «أجساماً غريبة» داخله، ولكن ليست بجوانب لذاته كهوية شخصية. وعلى هذا النحو يتجنب المسئولية بالإحالة إلى محددات داخلية، وليست باختياراته ذاتها. والمثال الكلاسيكى هو التقرير التالي: «يوجد شيء ما بداخلي، ولا أعرف ما هو، يجعلنى أسلك على النحو الذي فعلته». وقد يشير هذا «الشيء المعين»، بطبيعة الحال، إلى أصوات أو مواقف من الهوس أو الهذاء أو روح شريرة، أو تقمص هذائي، أو صورة والدية كامنة ولكن ليست بمتكاملة — وباختصار، تشير إلى أي متغير داخلي عدا الاختيار.

والأمر كما لو أن العوامل ذاتها التي تجعل الفرد ذهانياً في المحل الأول تعطل أيضا قدراته على اتخاذ الاختيار، أو العكس. هذا الاختزال لقدرته على أن يخبر الاختيار وأن يتخذ القرار يتضح فينومينولوجياً (ظاهرياً)، حينما يُنظر إلى العوامل العِلّية في العصاب الوظيفي على أنه «قلق جسيم» massive

anxiety (أريبتي Arieti، ١٩٥٥)، أو «لا كيانية مشوشة» (chaotic non – entity)، ومستنقع للذوات الكاذبة morass of false selves (لانج Laing، ١٩٦٠)، أو نتيجة لموقف مزدوج مظلم double – blind situation (باتيسون وآخرين Bsteson, et al ١٩٥٦). في كل هذه الحالات، يبدو من المميز للذهاني أنه يتجنب خبرة الاختيار؛ ومن المحتمل أن تكون مسئوليات الاختيار الشخصي، وهو بهذه الذاتية المتصدعة، عبئاً ينوء به كاهله.

وعلى النقيض من حالات الاضطرابات النفسية، فإن «الإنسان جيد التوظيف» (well – functioning) أو المتكامل أو المتمتع بالصحة النفسية (على سبيل المثال، الأشخاص المحققون لذواتهم self – actualizing Persons الذين وصفهم «ماسلو») يخبر تماماً سلوكه الذاتي بدرجة فائقة كانعكاس لرغباته الذاتية.هؤلاء الأشخاص يتخذون القرارات ويخبرون ما يريدون أن يفعلوه عن وعي وإرادة. وبطبيعة الحال، يكون لخبرة الاختيار، حتى مع أولئك الأشخاص فائقي التوظيف الجيد لإمكاناتهم وخبراتهم، حدود وجودية معينة مثل الزمن أو الفنائية أو طبيعة الواقع الفيزيقي، حيث يتواتر الشعور في سياقها بالحتمية. ويبدو أن الإحساس بالهوية أو الذاتية لدى أولئك الأشخاص كامل وواضح بدرجة كافية بحيث يسمح لهم باتخاذ الاختيارات والقرارات في ضوء التفضيلات الشخصية، وبأن يدركوا بوضوح مغزى الحياة وحيث يبدو من الوهم الشعور بالاختيار الحر.

لهذه الأسباب، يبدو أن الحتمية أكثر ملائمة لوصف خبرة الذهاني من الشخص المتمتع بالصحة النفسية، لأن مثل هؤلاء الأشخاص الأسوياء يميلون إلى يَخْبُروا أنفسهم كعوامل فعالة في اختيار وانتقاء سلوكهم الذاتي، فيما عدا – بطبيعة الحال- تلك الحالات التي يحد فيها الواقع من خبرة الاختيار الشخصي؛ في هذه الحالات، تُخْبَر الحتمية. ويقع العصابيون بين هذين النقيضين. ومع أكثر العصابيين تصدعاً، فإن أولئك الأشخاص «الأقرب» إلى الذهانية borderline (الحالات الحدية) يخبرون سلوكهم إلى حد كبير على أنه نتيجة محتومة عِلِّيا بالمحددات ذات المصدر الخارجي.

وعلى مستوى الظاهرية (الفينومينولوجيا)، قد يكون من المغرى أن نعمم بأن

خبرة الاختيار الحر مرتبطة تماماً بدرجة تكامل الشخصية. فيبدو أن الشخص المتكامل أو السليم نفسياً والشخص الذهاني يحتلان قضبين متضادين من نطاق متصل، يقع في وسطه الشخص العصابي، على أساس الحد الذي يخبر الفرد به الاختيار الحر بطريقة متسقة. ويكشف التحقق من هذه الملاحظات أن المشكلة الأساسية لعلم النفس المرضي هي العجز عن اتخاذ القرارات والاختيارات الشخصية. وسواء تقبل معظم المعالجين الحتمية النظرية أم لا، فمن المحتمل أنه في غياب هذا التحقق يستجيبون بالفعل في حالة الممارسة كما لو أن كل اختيار شخصي محسوس يقوم به العصابي أو الذهاني يمثل على الأقل تحركاً في اتجاه التكامل والكلية والصحة النفسية. وعلى العكس من ذلك، لعله من الصواب أن معظم المعالجين النفسيين الإنسانيين يعتبرون بديهياً أن أي قرار أو اختيار شخصي يتخذه المعالج من أجل المريض هو خطأ فني ومهني نتيجة للنزعات التسلطية أو النرجسية في شخصية المعالج، لأنها تحد من إمكانات المريض الكامنة على اتخاذ الاختيار.

العصاب كمشكلة للمسئولية:

وإذ يميل الأشخاص العصابيون والذهانيون على السواء إلى أن يَخْبُروا الحتمية أكثر من الاختيار، يصير إدراكهم للظروف التي يخبرون فيها الاختيار مضطرباً. فلا يستطيع العصابي ولا الذهاني أن يميز بوضوح بين هذه السياقات التي يمكن فيها أن يخبر الاختيار أو يفترض المسئولية وتلك التي توصف فيها الخبرة والسلوك بالحتمية الصارمة.

ولعل هذا يدعونا إلى أن نعتبر أن جوهر العصاب لدى فرد يكمن في العجز عن التمييز بين الحرية الشخصية والحدود الحتمية، لأنه من السهل التحقق من الإثبات الإكلينيكي لهذه الملاحظة: فحتى الشخص العصابي الأكثر بصيرة، بالرغم مما قد يبدو به من عقلانية على المستوى اللفظي، فإنه من حيث السلوك الحقيقي لحياته يكون غير قادر على وضع تحديد واضح بين اختياراته ومسئولياته وتلك الجوانب من حياته البينشخصية التي لا يلتزم نحوها بأية مسئولية ولا يستطيع أن يبدي إزاءها أي تحكم شخصي.

وتبين النظرة الفاحصة إلى الصراعات الأكثر تمييزاً للعصابية أنها، على المستوى الفينومينولوجي، تتألف من محاولات – عن طريق تدريب الإرادة والاختيار – لتغيير مواقف، عادة ما تكون في الماضي، محكومة بحتمية صارمة، بينما تغفل في نفس الوقت تلك السياقات من الحياة، التي هي عادة ما تكون في الحاضر أو المستقبل، والتي يمكن بذلك أن تتأتى فيها خبرة الاختيار الحر.

والأمثلة الكلاسيكية العديدة على مثل تلك المَشَقَّات أو المكابدات العصابية، هي: كراهية الذات والحط من قدرها «بسبب» النبذ الوالدي؛ والعيش في الماضي؛ والاستمرار في كراهية الوالدين «اللذين جعلاني بهذه الطريقة»؛ والتمرد ضد التطابق الجنسي؛ والتسليم بطريقة وسواسية للموت؛ ومحاولة التحكم في أفكار وتصرفات الأشخاص الآخرين؛ وإنكار الذات في محاولة لأن يكون «حسنا» لكي يغتصب ثواباً ، أو يتزلف إليه الآخرون؛ وأن يكون «رديئاً» كمحاولة لعقاب الآخرين؛ أو لإنكار الرقة والحنان، وهي الجوانب الأكثر إنسانية من الذات؛ ومحاولة تغيير الماضي؛ أو الركون إلى مطامح غير واقعية لضبط المستقبل؛ والخوف بطريقة وسواسية من الفيضانات والزوابع وغير ذلك من الظاهرات الطبيعية؛ والعزوف عن التفطن لنواحي الغموض الفطرية في الحياة؛ وتقييد الذات قهراً للذات على أساس «ما الذي يريده الناس؟» أو «كيف أبدو لهم؟».

وبصرف النظر عن الفروق في المحتوى، تمثل كل هذه المَشَقَّات العصابية محاولات لضبط تلك الجوانب من الوجود التي ليس للفرد حيالها أية مسئولية شخصية، ولا يستطيع أن يبدى حيالها إختياراً أو ضبطاً. وعلاوة على ذلك، يقضي العصابي حياته تماماً منغمراً في هذه المشكلات أو في مشكلات مشابهة ومطموراً بها، في نفس الوقت الذي يتخذ فيه مسئولية أقل كثيراً حيال ذلك الجانب الوحيد من الحياة الذي يقع بالفطرة في نطاق ضبطه والذى يقدم له خبرة الاختيار الحر – ألا وهو، سلوكه الذاتي في الحاضر أو المستقبل. وهنا يُطرح السؤال التالي: لماذا لا يتقبل العصابي عن طيب خاطر تلك الأشياء التي لا يستطيع أن يغيرها، ويكرس نفسه في المقابل لتغيير تلك الجوانب المؤلمة من حياته والتي يمكن أن تتغير؛ ولماذا لا يسعى إلى تنمية

الحكمة – من خلال الخبرة- لمعرفة الاختلاف ؟ والجواب غالباً: أن الاستمرار في السلوك بأساليب عصابية وسيئة التوافق هو أقل تهديداً من خبرة قلق المسئولية الذى سبق أن وصنفناه. فأن يخبر الفرد ذاته فحسب – كعضو فعال في سلوكه، إنما يفرض عبء المسئولية والتفرد، وذلك مما يجده العصابي عبئاً غامراً ثقيلاً.

التداعي الحر:

يُعتبر عجز العصابي عن تمييز حدوده الحتمية عن المواقف التي يمكن أن تتأتى فيها خبرة الاختيار هو أحد الأسباب المسئولة عن عدم قدرته على التداعي الحر في بداية العلاج النفسي. ولقد كان فرويد أول من لاحظ أنه لا يوجد مريض يستطيع أن يتداعى في بداية العلاج، حتى ولو توفرت له دافعية مرتفعة لأن يقوم بذلك وكان على معرفة بأن نجاح علاجه النفسي يتوقف على هذا التداعى الحر. وهذه الملاحظة قد أقرها الكثير من المعالجين بعد فرويد، ولقيت تأييداً بالَبيِّنَةَ التجريبية، فهي تُعزَى إلى رضوخ الفرد لخبرته الذاتية. فالعصابى غير قادر على التداعي الحر في بداية العلاج لأنه يفترض أنه مسئول عما يفكر فيه، ويشعر به، ويتذكره. وحينما يحاول أن يتداعى لا يستطيع تمييز سلوكه الظاهري، الذي يتطلب القانون والمجتمع والمقتضيات العملية للحياة منه أن يكون مسئولاً حياله، عن خبرته الداخلية والتعبير اللفظي عنها، والتى لا يكون صراحة مسئولاً عنها. وحتى حينما لا يكون مسئولاً صراحةً عن خبرته أو التعبير عنها لفظاً في وقت العلاج، إلا أن المريض يفترض أنه مسئول، كما يتضح من هذه العينات من المحاولات المبدئية للتداعي الحر: «ما أفكر فيه حقير للغاية (أو محير، مربك، إلى غير ذلك) بحيث لا أستطيع أن أفصح عنه»، «أنا خائف من أن أفقد السيطرة على أفكاري»، «لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك، فقد تظن أني أحمق»، «إذا تُركت وشأني وأفصحت عن كل شيء، ماذا عساي أن أفعل ؟؛ أو المريض الذي يستطيع أن يتداعى فحسب بعد التوكيد الصريح: «أنت تضع هذه الأفكار في عقلي». بقول آخر، ليس ثمة حاجة لتجنب التداعي الحر بواسطة التحكم في أفكار الفرد ومشاعره ما لم يشعر أنه مسئول عنها، أو عن عواقبها.

وطالما أن العصابى يعتبر نفســه مســئولاً عن حياته الداخلية، فإنه لا يستطيع أن يتداعــى حتــى ولو لــم يحتاج، من وجهة نظــر المعالج، إلى أن يتخذ مســئولية- أيــاً كانــت – نحو خبرتــه الذاتيــة. إن الخبرة داخليــة وخاصة، أمــا الخِبْرية (أن نعيــش الخبــرة) experiencing فهي عطــاء فطرى كجزء من إنســانيتنا. وعلاوة علــى ذلــك، ينطــوي التعبيــر الحر عن الخبــرة على قيمــة علاجيــة إيجابية ذات أهميــة خاصــة. ومع ذلك، فإن ما يميز العصابي أنه يرى نفســه على أنه مســئول ضمنــاً عن خبرتــه بينما ينهض بمســئولية أقل بكثيــر إزاء ســلوكه. حقيقة، وكما ذكرنــا مــن قبــل، كثيراً ما يَخْبُــر العصابى ســلوكه كما لو كان «محتومــاً» بظروف خارجية أو بســلوك والديــه أو بمقتضيات موقفية.

فالتداعــي الحــر يتأتى فحســب بعدمــا يقوم الشــخص باختبار واســتكمال المعرفــة بأنه ليس بمســئول عــن خبرته أو عن تعبيــره اللفظي عنها فــي اللحظة العلاجيــة، أي يكون ممكناً فقط بعدما يكتشــف أنه، من خــلال علاقته بمعالجه، قــد يخفف مــن دفاعاتــه (وهذا يعنــى توقفه عــن توقع المســئولية الشــخصية). وبهــذا، يكــون التداعــي الحــر ممكنا فحســب حينما يستســلم الفرد إلــى حتمية تســمح لأفــكاره ومشــاعره وذكرياتــه بأن تنســاب بحريــة وبلا حواجــز إلى وعي وإفصــاح لفظــي، أي حينمــا يكون الفرد غير مســئول. وحالماً يصل الشــخص إلى هــذه النقطة، لا يســتطيع أن يبــدأ بعزل خبرته الداخلية، التي يكون بغير مســئول عنها، وســلوكه الظاهر الذى يكون مســئولاً عنه؛ ويعترف بأنه كشــخص يتوســط بــين الخبرة والســلوك الظاهري، وبأنه قد ينتقــي أي الأفكار ينصــاع لها وأيها لا يعمــل بوحيهــا. وتمثل هذه نقطــة حرجة فــي العملية العلاجيــة لأن الفرد ينبغي أن يَخْبُــر عمليــات من التنظيم والضبط مما يكون مســئولاً عن ســلوكه الظاهري مــن أجــل حيــاة بينشــخصية فعالة. لكنــه لا يحتاج إلــى ضبط أفكاره ومشــاعره الخاصــة، أو تقبــل أيــة مســئولية نحــو خبرته بــدون أن يدفــع ثمناً فــي الطاقة المفقــودة والدفاعيــة المتزايدة. وحينما يســتطيع الشــخص موضــوع العلاج تقدير هــذه التمييــزات، فقــد يتعلــم إذن أن يختــار بــين مســارات بديلة لــلأداء واضعاً فــي الاعتبــار كلاً مــن رغباتــه الشــخصية ونتائج ســلوكه الظاهري فــي الواقع. وهكــذا ينمــو الأنا، ســواء وفقا للتصور الفرويــدي عن المقدرة علــى تنظيم العالم الداخلــي فــي ضــوء الحقائق الخارجيــة، أو وفقــا للتصور الوجودي عــن الذاتية

والتفردية – لأن الذات، كما ذكرنا، تتدعم وتقوى بواسطة اختياراتها.

الإزاحة:

غالباً ما تكون الإزاحة Transference محاولة لخفض المسئوليات الشخصية حينما يواجه الفرد بقلق وغموض العلاج. وتنطوي الإزاحة، سواء إيجابياً أم سلبياً، على انتقالة ضمنية للمسئولية من الشخص طالب العلاج إلى المعالج. وإذا عَرَّفنا المعالج بأنه كشخص والد عليم وقدير، والمريض كطفل، فإن المريض ينقل المسئولية ولسان حاله يقول: «أنت هكذا قوي وحكيم، بينما أنا ضعيف وطفلي وعاجز» . وغالباً ما يُتبع هذا الاتجاه دائماً بالتواصل الضمني: «لذا، أخبرني بماذا أفعل، أو إفعل هذا من أجلي». مثال آخر لهذا الاتجاه الانتقالة الضمنية للمسئولية التي تنطوي عليها الإزاحة أو النقل: «أنت تبعث على العجب، وأنا أحبك»، وهو اتجاه عادة ما يكون قناعاً للشعور: «طالما أني أحبك، فلا أحتاج إلى أن أكشف عن نفسي أكثر، أو أتخذ قرارات، أو أن أكون مستقلاً، أو أن أقف على قدمي، لأنك سوف تُعْنَى بيَ». وعلى العكس من ذلك، عادة ما يكون للإزاحة السلبية أصلها في التقرير الضمني: «إنها غلطتك كلها»، الذي يختزل حرفياً المسئولية الشخصية بواسطة تعيين الأسباب المسئولة عن سلوك المريض في المعالج.

وقد يكون الاتجاه العام لدى بعض المرضى كالتالي: «إنك لا تحبني»، أو «ليس هناك من شخص يجبني». وقد يكون لهذه الاتجاهات المتضمنة في الإزاحة وظيفة مشابهة، لأنها تنطوي على المعنى: «ما أفعله (أو لا أفعله) قد تحقق لأنك لا تحبني». لذا، تمثل الإزاحة انتقالة من خبرة الاختيار وافتراض المسئولية إلى وضع حتمي يخبر فيه الفرد سلوكه على أنه «مُتسبب» عن شخصية أو سلوك المعالج. وهناك مئات المقالات التي تصف السلوك السلبي أو الإتكالي أو الإذعاني في العلاج النفسي، وهي تتفق عامة على أن هذه النماذج السلوكية تمثل محاولة للهرب من قلق الاختيار والمسئولية، لأنه إذا كان الفرد سلبياً أو اتكالياً أو إذعانياً، تتزايد احتمالية أن يضطلع المعالج أو شخص مهم آخر (أو على الأقل يشارك) عن المريض بمسئولية اتخاذ القرارات الحاسمة.

وقد تكون الحتمية فخاً، لكنها يمكن أن تكون إعادة تأكيد حينما يواجه الفرد بشكوك القرار والاختيار والمسئولية. إلا أن المعالج إذا «خُدع» باتخاذ تلك المسئولية، فإن ذلك يعد خطأ مهنياً جسيماً، لأنه يدعم النموذج الطفلي ويعطل التقدم في اتجاه اضطلاع المريض بقدر متزايد باستمرار من المسئولية حيال نفسه.

وقد يفيد العلاج النفسي الإنساني، الذي يُكَرس للذاتية أو التفردية المنبثقة لدى الشخص، من التفاعل الذى يتعرف فيه المعالج والمريض بطريقة متبادلة على هذه الانتقالات في المسئولية. وينبغي أن يتجنب المعالج، من خلال التصور الحاذق لحدود الأنا لديه، اتخاذ المسئولية المتضمنة عن المريض. ولكن بدلاً من ذلك، ينبغي أن يحدد البديلات التي أمام المريض، لكي يزيد من مقدرته على اتخاذ قراراته واختياراته. وبالرغم من أن هذا قد يخلق قلقاً، فمن المحتمل ألا يستطيع الفرد في العلاج النفسي أن ينمو بدون تدريب لمقدرته على اتخاذ الاختيار؛ ولا يستطيع الأنا أن يتقوى بدون القرار والاختيار. وكحقيقة مقررة، إذا لم يتخذ المريض الاختيار الأساسي بأنه يريد علاجاً نفسياً ويقرر بأن يكرس كل إمكاناته للجهد العلاجي، يكون التغير الشخصي محدوداً. ومن المحتمل أن تنبع الصعوبة الأكبر في علاج الشخص الذهاني من الحقيقة بأن ذاته متشعبة ومتجزئة للغاية بحيث لا يستطيع الاضطلاع بهذا الاختيار الأساسي.

ففي العلاج، يمكن أن تنمو الشخصية مع ممارسة الاختيار وخبرة المسئولية لأن هذه الخبرات تسمح للفرد بأن يلاحظ نتائج اختياراته، وبهذا، يمكن أن يفيد المريض من فشله وأخطائه، وكذلك من نجاحاته، إذا كان في نظره مسئولاً عن السلوك الذي كان «خطأ». لكن الفرد يمكن أن يجني الشك فحسب من أخطائه إذا «كانت كلها غلطتك». فالأنا يتقوى، ليس بالإذعان للحتمية والسلبية أو بالاستعباد «لسيديها العاتيين»؛ ولكن من خلال ممارسة الاختيار، ومن خلال ملاحظات تأثيرات اختياراتها وقراراتها في الواقع.

كراهية الذات:

يرتبط ميل الشخص العصابي إلى الإقلال من ذاته أو حتى إلى كراهيتها

إرتباطاً وثيقاً بعجزه عن تمييز حرياته واختياراته ومسئولياته عن مجالات حياته التي تكون محكومة بحتمية صارمة. وتظل كراهية العصابي لذاته لفترة طويلة بعد أن يكون قد ترك السياق الأسري الذى وَّلد هذه الكراهية. وربما يمكن فهم التأثيرات الوظيفية لكراهية الذات المستمرة عن طريق ملاحظة اختزال المسئولية التي تصحبها. وإذ يتخذ العصابي اتجاهات سلبية نحو نفسه، فإن لسان حاله يقول ضمناً: «أنا لست طيباً، إني أكره نفسي — لذلك، لا تتوقع مني أن أنجز، أو أن أكون منتجاً، أو مستقلاً، أو أن أسلك على نحو ناضج أو مسئول». بقول آخر، قد تستمر الهوية سلبية التقدير كدفاع ضد المسئولية الشخصية في الحاضر.

وبالنسبة لكثير من العصابيين في سياق خبرة العلاج النفسي، يمكن خفض كراهية الذات على نحو أفضل عن طريق المواجهة المتكررة بأن لديه «الآن» مسئولية فعلية عن كراهيته لذاته. ويبدو أنه حينما يستطيع العصابي أن يرى أنه في الوقت الحاضر يسلك بطريقة تجعل من الصعب عليه أن يحب نفسه، فإنه يستطيع بالتالي أن يقلل من كراهيته لذاته، وذلك باختياره أن يسلك بطرق تسمح له أن يحب نفسه، حيث تتحدد بالطبع الأفعال المتعلقة بقيمه الذاتية. وعلى هذا النحو، يمكن تصور كراهية الذات لدى الشخص الراشد العصابي كنوع من «الاختيار» الضمني، القائم بذاته. وطالما يكون قادراً على تقبل قدر أكبر من المسئولية نحو سلوكه الذاتي، أي على اعتباره لنفسه كعامل فعال في سلوكه الذاتي، يكون العصابي حراً في أن يسلك بطريقة تسمح له بأن يحب نفسه في الوقت الحاضر، بالرغم من ماضيه الصادم. وفي هذه الحالة عندما يخبر العصابي مشاعره نحو ذاته على أنها جزء من تنظيمه الذاتي لعالمه الإدراكي، أكثر من كونها نتيجة حتمية للنبذ من جانب الوالدين أو غيرهم، فعند هذا المستوى من التقدم يمكن أن يتطور السلوك بما ينطوي عليه من اعتبار إيجابي متزايد للذات. ومن ناحية أخرى، طالما يحاول المريض أن يضع المسئولية عن كراهيته لذاته (أو عن عصابه بصفة عامة) على أي مصدر أو شخص آخر — ماضيه، والديه، أو معالجه — يكون التغير العلاجي ضئيلاً. وعلى نحو متشابه، حيثما تقوم مسئولية الفرد عن كراهيته لذاته أو احترامه لذاته على محكات خارجية بطريقة تستأثره — المكانة، النجاح، الثروة،

المركــز، الجاذبيــة الجســمية، أو الافتقار إلــى أي من هذه العوامــل – يكون الفرد الراشد فــي فخ وورطة: فتحديده لنفسه فــي تلك الحالة محتوم بعوامل خارجية بالنســبة لــه وأبعد بكثير عــن إمكانات الضبط والتوجيه لديــه. وبهذا تكون هويته بعيدة عن نفســه كذات subject، لأن «ذاته كموضــوع» (self – as objeet) تتحدد فــي ضوء هــذه العوامل المســتدخلة وتصير كموضوع.

تلــك حقيقــة لا تدعــو للشــك، أن كراهيــة الذات لــدى الشــخص العصابي تكمــن فــي طفولة صادمة وصعبــة ترتبط عِلّيا بتشــكل طابعه الحالــي. وكقضية برنامجيــة فــي العلاج الإنســاني، الماضي هو ماضي، وأن الشــخص فــي الوقت الحالــي هــو مســئول عــن التغيير؛ وهو لا يســتطيع واقعيــاً أن يتوقع مــن المعالج أن ينهــض بالمســئولية عــن ســلوكه أو عــن تغيره الشــخصي. فالخبــرة العلاجية هــي فرصــة فقط، فرصة تتحقــق على نحو أفضــل عن طريق التخلــي عن خبرة حتميــة بطريقــة جامــدة، واضطلاع المريض بالمســئولية نحو ســلوكه، وممارســة الاختيــار فــي مواقف حياته. ومــن المحتمل تماماً أن الكثير مــن الفوائد العلاجية التــي غالبــاً مــا تعزى إلى تقبل المعالج، تتحقق فــي الواقــع لأن المعالج قد اعترف وكشــف مــراراً عن إمكانات العميل علــى «إتخاذ الاختيــار» (choice – making) و«الاضطــلاع بالمســئولية» (responsibility assuming). وإذ يفعــل المعالج ذلك، إنمــا يؤيــد ذاتية وتفردية العميل والتي تكمن فــي عصابــه، والتي لا يعترف بها أو يتقبلهــا. وفــي الواقع، أن ذلك التأييــد لذاتية أو تفردية المريض قــد تكون المعنى الحقيقي للحــب العلاجي.

والخلاصــة :

يعتبر العلاج النفســي الإنســاني فرصة فريدة للدراســة الفينومينولوجية لأن الخبــرة الإنســانية يتــم التعبير عنهــا لفظياً بطريقــة أكثر حرية ودقة ومودة فــي هــذا النــوع من العلاج النفســي مما هو فــي أي موقف بينشــخصي آخــر. ولقد أجريــت ثمــة محاولــة لتفحص الخبــرة كما يتــم التعبير عنها فــي العــلاج بدون تســليم قبلــي إما إلــى الحتمية أو إلى حريــة الإرادة، لكي نرى إلــى أي حد تصف هــذه المفاهيــم بدقــة الخبــرة المميزة للأنــواع المختلفــة من النــاس. **وقد لوحظ أن الحتميــة تصــف خبــرة العصابــي والذهانــي بطريقــة أكثر دقــة، وأن حريــة الإرادة**

تصـف خبـرة الإنسـان السـوي نفسـياً علـى نحـو أدق. واعتبـر العصـاب عجزاً عن تمييـز الحريـات والحدود الحتميـة، ونوقش التداعـى الحر والإزاحـة والكراهية العصابيـة للذات فـي ضـوء مفهوم الاختيار الحر والمسـئولية الشـخصية.

الفصل الثالث

الحيوان الفريد (*)

يلاحظ «إيريك فروم» (1)، في اهتمامه بجوانب النقص المحددة العديدة في مسار التطور، أن الوعي بالذات والتعقل والتخيل مما يتميز به الإنسان، يجعله جزءً من المنظومة الكونية، وموضوع لقوانينها، ولا يستطيع أن يغير هذه القوانين إلا إذا تسامى ببقية الطبيعة».

ذلك التقبل لتفردية الإنسان يبدو نادراً نسبياً في كل ما كتب في علم النفس. ويشيع أكثر أن تفوقية الإنسان على الحيوان تعتبر قضية اختلاف في الدرجة أكثر منها في النوع. ويدعم وجهة النظر هذه اتجاهان متجمعان في علم السلوك: الأول – يؤول افتراض الاستمرارية في التطور بالكثير من العلماء إلى أن يفترضوا أن أي قدرة توجد في شكل أرقى للحياة ينبغي أن تتوفر بالضرورة في تلك الأشكال التي تقع تحتها على مقياس التطور. وقد نوقش هذا الموضع في دراسة «تييلهارد دي تشادين». أما الاتجاه الثاني، فهو مبدأ الاختزالية الذي يقرر أن كل الظاهرات المعقدة ينبغي تفسيرها عن طريق تحليلها إلى مكوناتها الأكثر أولية. ولذا، يصير التفكير والتعلم والأنشطة الواعية الأخرى وظائف للجهاز العصبي، وأنه ليس هناك ما يدعو إلى اعتبار المعطيات النفسية لدى الإنسان فريدة طالما أن الأنماط العامة للأبنية الدماغية توجد في أدمغة كل الفقاريات.

لكن، ثمة ثلاث خصائص إنسانية محددة، وهي: تكوين المفاهيم، واستخدام اللغة التصورية، والتقدم الحضاري، ينبغي أن تستخدم لاختبار أية تفوقية نوعية للإنسان على الحيوان. بالنسبة لتكوين المفاهيم، تعتبر البينة الإمبيريقية غامضة إلى حد ما. فكثيراً ما لا تفرق الدراسات الخاصة بالتعقل الحيواني بين التكوين الحقيقي للمفاهيم والأنماط الأخرى من التعلم. وتمثل تجارب «فيلدز» على الفيران البيضاء تلك البحوث التي تنزع إلى تأييد وجود

(*) The Unique Animal.

(1) E. Fromm: The sane Society. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1955, p. 23.

أفكار ذات صبغة بشرية humanoid Ideas[1]. فحينما دربت حيواناته على التعرف على نوع واحد من المثلثات، أخذت تستجيب بطريقة إيجابية إلى مثلثات مختلفة الأنماط، حتى إلى بعض المثلثات التي لم تستخدم في فترة التدريب. وقد بدى الشكل المثلثي على أنه العنصر المشترك الوحيد في هذه الأشكال؛ ولذا فقد طرح نتيجة تقرر بأن فيرانه البيضاء قد توصلت إلى تجريد مبدأ هندسي.

ولكن مما تجدر ملاحظته أن نتيجة مثل هذه لا تتبدى هكذا على أنها جاهزة الصنع من مجرد الملاحظات المعملية، لكنها تكوين منطقي لدى الشخص الملاحظ. فالدلائل التي تستند إليها يمكن تفسيرها بطريقة مختلفة، تبدو بصيرة الحيوان على أنها تتضمن إدراكاً حسياً لعلاقات حسية بين الأشياء أكثر من كونها تكوينا للمفاهيم بالمعنى الإنساني من حيث **إدراك المعنى التجريدي أو المبادئ العامة**. فالفأر الأبيض في صندوق «سكنر» يتحرك على نحو عشوائي حتى يرتطم بطريقة عرضية بالحل الصحيح. ويدعم النجاح هذا المسار العام حتى يخُتزل مقدار النشاط العشوائي إلى نقطة العدم. وهذا الشكل من التعلم يقوم على ترابط العناصر الإدراكية الحسية في **صيغة (جشطلت)** وليس اختباراً لفروض أو تطبيقاً لمبدأ نظري. يتضح التجريد الحيواني من حيث عزل وربط الانطباعات الحاسية في الأشكال البصرية. فهم قادرون، من خلال تعميم المثيرات، حتى على التعرف على الأشكال المتشابهة، لكن ليس ثمة حاجة لأن نفترض أنهم يفهمون هندسة المثلثات. وينبغي أن يوصف اتجاه التعلم لديهم على أنه حسي وليس تجريدي. وعلى العكس من ذلك، لا يعتبر تكوين المفاهيم بالضرورة إدراكياً، وقد خلص «مور»[2]، بعد استعراضه لعدد هائل من الدراسات المتعلقة بالذكاء الحيواني، إلى نتيجة بأنه « .. حينما نحاول قياس قوتهم في التفكير التجريدي وقدرتهم على رؤية وتكوين مبادئ

(1) P. E. Fieds. Studies in concept Formation: The development of the white rat. Comp. Psychol. Monog., 1932, 9(2), 1-70.

(2) T. V. Moore: Human and animal intelligence, In H. S. Jennings et al., Scientific aspects of the race problem. N. Y.: Longmans 1941, pp. 93-158.

عامة على نحو منطقي، نحصل على درجات صفرية، لأن مثل هذه القدرات ببساطة هي غير موجودة».

وبنفس الطريقة التي يمكن بها إخضاع الحيوان للاقتران الشرطي بالنسبة للمثيرات البصرية أو اللمسية، يمكن تدريبها على التعرف على أصوات محددة. فالكلب يعرف إسمه وقد ينفذ أوامر بسيطة بدون أن يفهم بالضرورة مضمون اللغة المنطوقة. وتتمتع معظم أنواع الحيوانات بالنمطية لتوصيل المعلومات الإدراكية، ولكن لا يستخدم أي واحد منها اللغة كحامل للتعبير عن الأفكار ذات الصيغة البشرية بالكلمة أو الإيماءة. فليس لدى النحلة، التي تُعَلِّم الشغالة الأخرى برقصتها المتمايلة عن مصدر الرحيق، ما تقوله بشأن الحالة الاقتتالية لاجنحتها أو رغبات الملكة. وتستطيع قردة الشمبانزي أن تلحن الأصوات بدرجة كافية حتى تصبح مفهومة، رغم محاولات تدريبها على الكلام بنفس الشروط التي يتكلم بها الطفل الإنساني، إلا أن مثل هذه الجهود لم تتمخض إلا عن نجاح ضئيل.

وقد يفترض أن الحيوانات ذات الذكاء الكافي لفهم المبادئ الهندسية قد تخترع، على مدى مليون سنة، لغة تصورية، أو على الأقل قد تأتي ببعض المحاولة لتطبيق معرفتها بطريقة ذات معنى على الحياة اليومية. وعلى العكس، تظل معظم العلاقات الاجتماعية بين الحيوانات على مستوى غريزي. ولا يوجد حتى بين القردة أي نمو حضاري يقترب حتى من أكثر قبائل الكائنات الإنسانية بدائية. فالإدراك العام لتفردية الإنسان لم ترفضه نتائج العلم.

يتضمن النقد التدريجي للحياة، وفقا لتصور بيير تييلارد دي تشاردين للخَلْق كما هو جاري حدوثه أمام أعيننا، جانباً داخلياً وكذلك خارجياً، ويتعلق التطور أساسا بالنمو النفسي. هذا الارتقاء المنتظم للوعي لدى الإنسان نادراً ما يستمر بدون أن يطور نفسه من الأعماق، أقرب إلى الارتفاع التدريجي في الحرارة الذي يسبب تحول الماء إلى بخار. ويمنحه الوعي بالذات المقدرة على أن يعكس ما يتعلق بنفسه وبمعرفته كموضوعات يمكن معرفتها. ومن هذه النقطة فصاعداً لا يمكن فهمه في ضوء الحيوانات الأدنى منه في سلم الحياة، لكن فحسب في ضوء هذه الوظيفة الفريدة — **الوعي الإنساني**.

(٨)

ميلاد الفكر(*)

بيير تييلارد دي تشاردين

يعـد الإنسـان، من وجهة النظـر الوضعية الخالصة، من بـين كل الموضوعات التـي قابلهـا العلـم أكثرها غموضـاً ومدعاة للحيـرة والالتباس. وفـي الواقع قد نعتـرف كذلـك بـأن العلـم لم يجـد بعد مكانـاً له فـي تصوراته عن الكـون. لقد نجحـت الفيزياء مؤقتاً فـي تحديـد عالم الذرة. وأصبحـت البيولوجيا قادرة على أن تفـرض نوعـاً معينـاً مـن النظام علـى تكوينات الحيـاة. ويبذل علـم الأجناس بـدوره أقصـى جهده، بمسـاعدة الفيزياء والبيولوجيا، فـي تكشـف بنية الجسـم الإنسـاني وبعـض ميكانزماته الفسـيولوجية. ولكـن حينما توضـع كل هذه المعالم معـاً، تقـل الصـورة بجلاء عـن الواقع. فالإنسـان، علـى النحو الذي يسـتطيع به العلم أن يدرسـه، هو كائن حي متميز يمكن بطريقة ضئيلة للغاية عزله تشـريحياً عـن الحيوانـات الراقية بحيث أن التصنيفـات الحديثة لعلماء الحيـوان تعود إلى موقـف « لينايـوس» Linnaeus، وتضع الإنسـان معها فـي نفـس العائلة الأرقى، وهـي فصيلة البشـر hominidae. لكـن، أن نحكم عليه بالنتائـج البيولوجية فإنه يعتبر ككل شـيئاً مـا مختلفاً.

وهنا تبدو المفارقة الإنسـانية الكاملة. فلكي نعطي الإنسـان وضعه الطبيعي فـي عالـم الخبـرة، من الضرورة أن نضع فـي الاعتبـار «ما بداخـل» وكذلك «ما بخـارج» الأشـياء. وقـد مكنتنا هـذه الطريقـة بالفعل مـن تقدير عظمـة ووجهة حركـة الحيـاة؛ وهـذه الطريقة سـوف تسـتخدم مرة أخـرى للتوفيق فـي أعيننا بين عدم الأهمية والأهمية الفائقة لظاهرة الإنسـان فـي نظام كوني بديع يسـود علـى نحو منسـجم على الحياة والأشـياء.

مـا الـذي حدث، بين الحقبـة الأخيرة من العصر البليوسـيني الذي لم يوجد فيـه الإنسـان، والحقبـة التالية التـي احتار الجيولوجيـون بشـأنها حينما وجدوا

(*) Pierre Tielhard de Chardin: The phenomenon of Man, (Translated by Bernard Wall), Harper & Brothers, New York, 1959. pp. 163-169.

القطع الأولى من حجر الصوان؟ وما هو المقياس الحقيقي لهذه الطفرة؟.

ومهمتنا أن نقدر ونزن الإجابات على هذه الأسئلة قبل أن نتتبع خطوة بخطوة مسار الإنسانية حتى نصل إلى المرحلة الحاسمة التي توجد عليها اليوم.

عتبة الفكر:

آدمية الإنسان:

(١) **الطبيعة**: لم يتفق علماء التاريخ الطبيعي على ما إذا كانت هناك أم لا وجهة للتطور، كما أنه ليس هناك اتفاق كبير بين علماء النفس، لسبب مقارب، عما إذا كانت الحياة النفسية الإنسانية (human psychism) تختلف بشكل محدد لدى الإنسان عن أسلافه أم لا. وتميل أغلبية العلماء إلى التشكك في صدق هذه القضايا. لقد قيل الكثير، ولا يزال يقال، عن ذكاء الحيوانات.

وإذا أردنا أن نقر هذا السؤال الخاص بتفوقية الإنسان على الحيوانات (وهذا أمر ضروري لإقراره من أجل أخلاقيات الحياة وكذلك من أجل المعرفة الخالصة)، أستطيع أن أرى سبيلاً واحداً لعمل ذلك – أن نُقْصِي جانباً عن قصد كل تلك المظاهر الثانوية والغامضة للنشاط الداخلي في السلوك الإنساني، مُعَوِّلين على الظاهرة الرئيسية وهي **الفكر**.

من وجهة نظرنا التجريبية، الفكر، كما توضح الكلمة، هو القوة المكتسبة بواسطة الوعي لتتحول إلى ذات الفرد كموضوع للفكر يتصف باتساق وقيمة معينتين. فلا يعد مجرد أن نعرف، ولكن أن نعرف أنفسنا، ولا يعد مجرد أن نعرف، ولكن أن نعرف أننا نعرف.

وتعتبر الآن مترتبات ذلك التحول هائلة، وواضحة كما هو الحال في الطبيعة بالنسبة للحقائق التي سجلها علم الفيزياء أو الفلك. فالكون، الذي هو موضوع فكره، يصبح بجلاء قادراً على أن يرفعه إلى نطاق جديد. وفي الواقع، لقد وُلد عالم آخر. فالتجريد والمنطق والاختيار السديد والإبداعات والرياضيات والفن وحساب الزمان والمكان، والقلق وأحلام الحب – كل هذه

الأنشطة للحياة الداخلية للإنسان ليست إلا تعاظماً لذلك الجانب كما يعتمل في الإنسان.

وإذا كان الأمر كذلك، يمكن أن نتساءل: هل يمكن أن نشك بجدية، ارتباطاً بحقيقة كوننا مفكرين، وهي تلك الحقيقة التي تشكل الكائن «الذكي»، أن الذكاء هو القَدَر التطوري الخاص بالإنسان وبالإنسان فحسب؟ وإذا لم يكن كذلك، هل يمكن أن نتردد، تحت تأثير تواضع زائف، في الاعتراف بأن تمتع الإنسان بالفكر والذكاء يؤلف تقدماً جذرياً في كل أشكال الحياة التي تتواتر أمامه؟ يمكن أن نقر بأن الحيوان يعرف، لكن لا يستطيع أن يعرف أنه يعرف، وهذا لا شك فيه. فإذا كانت الحيوانات هكذا تستطيع أن تمضي لتضاعف وتُطَوِّر نظاماً من التكوينات الداخلية لا تغفل عنها ملاحظتنا، فإن هذا مدخل مرفوض لنطاق كامل من الحقيقة نستطيع أن نتحرك داخله بحرية. إننا منفصلون بواسطة هوة – أو عتبة – لا يمكن تخطيها. فلأننا مفكرون لا نكون أشخاصاً مختلفين فحسب ولكن أشخاصاً آخرين أيضاً. إنها ليست قضية تغير في الدرجة، ولكن تغير في الطبيعة، ناتج من تغير الحالة.

هكذا نجد أنفسنا في مواجهة لتلك الحقيقة بأن الحياة، بكونها إرتقاءً للوعي، لا يمكن أن تستمر في التقدم بغير حد في مسارها بدون أن تحول نفسها من العمق. فعليها، ككل الكيانات المتطورة في العالم، أن تصير مختلفة لكي تُبقي على نفسها. وفي نفس الوقت نجد المنحنى الكلي للتطور البيولوجي يتبدى بجلاء في هذه النقطة الفريدة.

(ب) **الآلية النظرية**: لقد تبني العلماء الطبيعيون والفلاسفة آراء متباعدة للغاية بشأن التكوين النفسي للحيوانات. فبالنسبة للمفكرين المدرسيين كانت الغريزة نوعاً من الذكاء الأدنى sub – intelligence، المتجانس والثابت، والمميز لأحد المراحل الوجودية والمنطقية التي تسير في مراتب متدرجة إلى أسفل من الروح الخالصة إلى المادية الخالصة. وبالنسبة للديكارتيين يوجد الفكر فحسب؛ ولذا كان الحيوان الذي يعوزه أي فكر من الداخل، مجرد آلة. أما بالنسبة لمعظم البيولوجيين المحدثين، فلا يوجد خط فاصل واضح بين الغريزة والفكر.

فــي كل تلك الآراء المتباينة يوجد عنصــر للحقيقة، يصبح واضحاً على الفور فــي نفـس الوقت كسـبب للخطـأ حينما تنــزع إلى الاعتــراف (١) بــأن الغريزة، وهــي أبعـد مــن أن تكـون ظاهــرة لاحقــة تترجم مــن خــلال تعبيراتهــا المختلفة صميــم ظاهــرة الحيــاة، و(٢) بأنها نتيجــة لذلك تمثل بعــداً متغيراً.

مــا الــذي يحدث بالضبط لــو نظرنا إلــى الطبيعة من هــذه الزاوية؟ نتحقق – أولاً – بطريقة أفضل من حقيقة وســبب تنوع الســلوك الحيواني. ومن اللحظة التــي يعتبــر فيها التطور على أنه تحول نفســي أساســاً، نرى أنــه لا توجد غريزة واحــدة فــي الطبيعــة، ولكن حشــد من أشــكال الغرائــز، كل واحد منها مســئول عــن حــل معين لمشــكلة الحياة. فالتكوين النفســي لحشــرة لا يكــون، ولا يمكن أن يكــون، كالتكويــن النفســي لإحــدى الفقريات، وكذلــك الغريزة لدى الســنجاب لا يمكــن أن تكــون كالغريزة عنــد القطة أو الفيــل: فهذا يعتمد علــى مكانة كل منها فــي شجرة الحياة.

وبالحقيقــة ذاتهــا يمكــن أن نتبصر تلــك القضية: فــإذا كانت الغريــزة بعداً متغيــراً، ســوف لا تكون الغرائز مختلفة فحســب، وإنما ســوف تخلــق، فيما وراء تعقيدهــا، نظامــاً متطــوراً. فهــي تخلــق ككل نوعاً مــن التركيب المتشــعب تتميز فيــه المســتويات الأعلــى بنطاق أكبر مــن الاختيــار وتعتمد على مركــز أفضل من الاتســاق والوعي. وهذا هو الشــيء الوحيد الذي نراه. فالتكويــن الداخلي للكلب، رغــم كل مــا يقــال على النقيــض، يفــوق بطريقة إيجابيــة على التكويــن الداخلي لحيوان أو لســمكة[١].

وقــد يبــدو من دراســتنا للحيــاة أن مناصري التفســير الروحــي ليس لديهم حاجــة إلــى أن يقعــوا فــي حيرة وبلبلــة حينما يــرون، أو يضطرون إلــى أن يروا، فــي الحيوانات العليا (خاصة فــي القردة العليا) أســاليب وردود أفعال تســتدعي بغرابــة تلــك التي يســتخدمونها لتحديــد طبيعة (الــروح العاقلــة) ووجودها لدى الإنســان. وإذا كانت قصة الحياة ليســت أكثر من حركة للوعــي مرتبطة بالتركيب

---

(١) مـن وجهـة نظـر هـذه يمكـن القـول أن كل شـكل مـن أشـكال الغريـزة يميـل فـى مسـاره الخـاص إلـى أن يصبـح ذكاءاً؛ ولكـن فـي الخـط الإنسـانى فحسـب تكـون العمليـة (لأسـباب خارجيـة أو داخليـة) ناجحـة فـي كل المسـار. فالإنسـان، بتميـزه بالفكـر، يمثـل لذلـك أحـد النمـاذج الهائلـة للوعـي التـي اختبرتهـا الحيـاة.

العضـوي (المورفولوجـي)، فمن الحتمـي أن التكوينات النفسـية لـدى الحيوانات القريبـة من الإنسـان تبدو أنهـا تصل إلى حـدود الذكاء.

وهذا ما يلقي الضوء على «المفارقة الإنسـانية» ذاتها. قد نشـعر بالحيرة أن نلاحـظ كيـف أن حيواناً راقيـاً anthropos يختلف قليلا من الناحية التشـريحية عـن الحيوانـات الراقية الأخـرى، بالرغم من تفوقـه الواضح فـي جوانب معينة، علـى الأقـل من ناحيـة الأصل. لكن هـل هذه المضاهـاة غير العادية ليسـت على وجـه الدقة ما ينبغـي أن تكون عليه؟

حينمـا تسـخن الماء إلى درجـة الغليان تحت الضغط العادي، وتسـتمر فـي تسـخينه، فـإن أول شـيء يتبع ذلـك – بدون تغير درجـة الحرارة – هو الاتسـاع الضجيجـي والتبخـري للجزئيـات، أو إذا أخذنـا سلسـلة قطاعات مـن القاعدة نحـو قمـة المخروط، يتناقص هذا المجال باسـتمرار، ثم فجـأة، مع تحول لا نهائي الصغر، يتلاشـي السـطح تـاركاً إيانا مع نقطة. لـذا، مع هـذه المقارنات الجزئية نكـون قادرين على تصـور الميكانزم المتضمن فـي العتبة الحاسـمة للفكر.

إن المفكريـن الذيـن يتبنون التفسـير الروحي هم على صـواب حينما يدافعون بشـدة عن تسـامي الإنسـان على بقيـة الطبيعة. ولكـن ليس أنصـار المادية كذلك مخطئـون حينمـا يقـررون أن الإنسـان فقط هو حد أعلى فـي سلسـلة الأشـكال الحيوانية ليبقى الباب مفتوحاً لمزيد من الفكر وإعمال العقل فـي طبيعة الإنسـان، ولفهـم الإنسـان المفكر، والذكي، والمبدع، والمتسـامي بذاتـه، ووجوده.

رغـم مـا تشـير إليـه البيانـات والدلائـل الخاصـة بالحفريـات عـن اختلاف كيفـي بين الأسـاليب الإنسـانية والحيوانية فـي معرفة الأشـياء، فـإن ثمـة نقطة أخرى تتطلـب إيضاحاً: تثبت الدراسـات الخاصة بالاقتران الشـرطي بصـورة قاطعـة أن الحيوانـات تسـتجيب غالباً لشـيء واحد كما لـو أنه أمارة أو إلماعة لشـيء آخر. يميز «كاسـيرر» بوضوح، فـي الدراسـة الحاليـة، بـين الإلماعات والرمـوز، ويبين كيف أن الأخيـرة (الرمزية) تضيف بعـداً جديداً للخبـرة المعرفية.

(٩)

من ردود الأفعال الحيوانية إلى الاستجابات الإنسانية(*)

إرنست كاسيرر

لقـد وصلنا، بتعريفنا للإنسـان على أنه «حيوان رمـزي» أو «كائن حي رمزي» (animal symbolicum) إلـى نقطتنـا الأولـى للانطلاق لمزيد مـن البحوث. لكن يصبـح مـن الحتمـي أن نطور هـذا التعريـف إلى حد مـا لكي نعطيه دقـة أكبر. يعتبـر التفكيـر الرمـزي والسـلوك الرمـزي من بـين أكثـر المعالم المميـزة للحياة الإنسـانية، وأن كل تقـدم للحضـارة الإنسـانية قائـم علـى هذه الشـروط؛ وهذه حقائـق لا يمكـن إنكارها. لكن هـل يجيز لنا اعتبارها كمعطيات خاصة للإنسـان يتفـوق بهـا علـى كل الكائنـات العضوية الأخرى؟ أليسـت « الرمزيـة» مبدأً يمكن تتبعـه إلـى مصـدر أكثر عمقـاً، وله مـدى أكثر إتسـاعاً من حيـث الإمكانية على التطبيـق؟ إذا أجبنـا علـى هـذا السـؤال، بالنفـي، علينـا كمـا يبـدو، أن نعترف بتجاهلنـا لمـا يتعلـق بالكثير من الأسـئلة الرئيسـية التـي تحتل باسـتمرار مركز الانتبـاه فـي فلسـفة الحضارة الإنسـانية. ويصبح السـؤال الخـاص بأصل اللغة والفـن والديـن غير قابل للإجابة، ونُتْـرك مع الحضارة الإنسـانية كحقيقة واقعة تظـل منعزلـة وبالتالي تسـتعصي على الفهـم والتفطن.

ومـن المعـروف أن العلماء يرفضون دائماً قبول ذلـك الحل. لقد قاموا بجهود فائقـة لربـط حقيقة الرمزيـة بالحقائق الأخـرى المعروفـة جيداً والأكثـر أولية. لقـد تبـدت المشـكلة ذات أهميـة مطلقة، ولكن لسـوء الحظ نـادراً مـا تناولوها بعقـل متفتـح تماماً. لقـد أعيقت، واختلطت بمشـكلات أخرى تنتمـي إلى مجال مختلـف تمامـاً من البحث. فمناقشـة هذه المشـكلة، بـدلاً من أن تعطينـا وصفاً وتحليـلاً دقيقـين للظاهرات ذاتها، قد تحولت إلى جـدل ميتافيزيقي. لقد صارت موضـوع النزاع بين الأنظمـة المختلفة: بين المثالية والماديـة، الروحانية والطبيعية. وأصبحت مشـكلة الرمزية بالنسـبة لكل هذه الأنظمة مشـكلة حاسـمة لمسـتقبل العلـم وما وراء الطبيعـة (الميتافيزيقا).

(*) E. Cassirer: From Animal Reactions To Human Responses.

بهذا الجانب من المشكلة لا يتحدد اهتمامنا هنا، وإنما قد وضعنا أمامنا مسألة أكثر تواضعاً وتحديداً. سوف نحاول وصف الكيان الرمزي للإنسان بطريقة أكثر دقة حتى نتمكن من أن نمايزه عن الوسائط الأخرى للسلوك الحيواني الموجودة في المملكة الحيوانية. ويخرج عن نطاق السؤال بوضوح: أن الحيوانات لا تستجيب دائماً للمثيرات بطريقة مباشرة، وأنها قادرة على رد الفعل غير المباشر. وتزودنا تجارب بافلوف ذائعة الصيت بطائفة غنية من الدلائل الإمبيريقية المتعلقة بما يعرف بالمثيرات المُمَثِّلة representative stimuli في حالة القردة العليا. تبين الدراسة الفذة التي اضطلع بها «فولفي» (Wolfe) فاعلية « الإثابات المادية» token rewards. لقد تعلمت الحيوانات أن تستجيب للإشارات كبديل لإثابة الطعام بنفس الطريقة التي يستجيبون بها للطعام ذاته. لقد أوضحت نتائج التجارب التدريبية والمخططة، وفقا لفولفي، أن العمليات الرمزية تحدث في سلوك القردة العليا. يخرج «روبرت يركيس»، الذي يصف هذه التجارب في كتابه، بنتيجة عامة هامة:

يتضح بجلاء ما جري من اعتبار العمليات الرمزية نادرة، وصعبة نسبياً على الملاحظة. وربما نستمر في السؤال عن وجودها، لكني أشك أنها سوف تتحدد على أنها مقدمات سابقة للعمليات الرمزية الإنسانية. لذا نترك هذا الموضوع في المرحلة الأكثر استثارة للتطور، حين تبدو الاكتشافات الجليلة الشأن قريبة المنال [1].

قد يبد سابقا للأوان الإتيان بأي تنبؤات متعلقة بالتطور المستقبلي لهذه المشكلة. وينبغي أن يترك المجال مفتوحاً للبحوث في المستقبل. ومن ناحية أخرى، يتوقف دائما تفسير الحقائق التجريبية على مفاهيم أساسية معينة ينبغي استيضاحها قبل أن تفيد منها المادة التجريبية (الإمبيريقية). ويأخذ علم النفس الحديث وعلم النفس البيولوجي هذه الحقيقة في الاعتبار. ويبدو بالنسبة لي مهماً للغاية أن من يضطلع بالأدوار الرائدة في حل هذه المشكلة ليس الفلاسفة وإنما الملاحظون والباحثون الإمبيريقيون. وهؤلاء الأخيرون يخبروننا بأن المشكلة فضلا عن ذلك ليست مجرد مشكلة تجريبية

(1) Robert M. Yerkes: Chimpanzees. A Laboratory Colony, New Haven, Yale Univ. Press, p. 189.

(إمبيريقيــة)، وإنما هي مشــكلة منطقيــة بدرجة كبيرة. لقد نشــر «جيورج ريفيز» سلســلة مــن المقالات ينطلق فيهــا من الافتراض بــأن القضية المحتدمــة المعروفة بلغــة الحيــوان لا يمكن أن تُحل على أســاس مجرد حقائق علــم النفس الحيواني. وأي باحــث يتفحــص الآراء والنظريــات الســيكولوجية بعقلية ناقــدة غير متحيزة ســوف يصل فــي النهاية إلــى النتيجة بأن المشــكلة لا يمكن أن تتضــح عن طريق الإشــارة ببســاطة إلى أشــكال الاتصال الحيواني وإلى اســتجابات معينة يتوصل إليهــا الحيــوان بالتعليم والتدريب. كل هذه الاســتجابات تقبل التفســيرات الأكثر تناقضــاً. وهنــا من الضروري، أولاً وقبل كل شــيء، أن نجد نقطة انطلاق منطقية صحيحــة، يمكــن أن تــؤول بنا إلى تفســير طبيعــي وســديد للحقائــق التجريبية (الامبريقية).

نقطــة الانطــلاق هذه هــي تعريف الــكلام. لكن بدلاً مــن أن نعطــي تعريفاً جاهــزاً للــكلام، ربما يكون مــن الأفضل أن نمضــي وفقا لخطوط أوليــة. الكلام ليس ظاهرة بســيطة ومنتظمة. إنه يتألف من عناصر مختلفة لا تكون، ســواء من الناحيــة البيولوجيــة أو المنتظمة، بنفس المســتوى. وعلينا أن نحــاول التوصل إلى النظــام والعلاقــات المتبادلة للعناصر المكونــة؛ علينا، تمييز الطبقــات البيولوجية المختلفــة للــكلام. وتعتبر لغة الانفعــالات بوضوح الطبقة الأولى والأكثر أساســية. ولا تــزال نســبة هائلة مــن كل التعبير اللفظي الإنســاني تنتمي إلــى هذه الطبقة. لكــن ثمة شــكل للكلام يبــين لنا نمطاً مختلفــاً تماماً. هنا لا تكــون الكلمة إطلاقاً مجرد إســم صوت interjection، فهي ليســت تعبيراً لاإرادياً عن الشــعور، ولكن جــزء مــن جملة لهــا تركيب نحــوي ومنطقي محــدد. وإنها لحقيقة أنه حتى فـــي اللغــة الأكثــر تطوراً، فــي اللغة النظريــة والتجريديــة، لا ينقطع تمامــاً الاتصال بالعنصــر الأول. ونــادراً مــا توجــد جملــة – مــا عدا احتمــالاً جمــل الرياضيات الشــكلية الخالصــة – بــدون صبغــة وجدانيــة أو انفعاليــة معينــة. وقــد توجــد مشــابهات للغة الانفعالية بوفرة فــي عالم الحيوان. فبالنســبة لقردة الشــمبانزي يقــرر «وولفجــانج كيولــر» أنها تحقق درجة هائلــة من التعبير بواســطة الإيماءات الحركيــة. وبهــذه الطريقــة تعبــر بالفعل عــن الغضــب والفزع والقنــوط والحزن والتوســل والرغبــة والميــل إلــى اللعب والســرور. ومع ذلــك، فثمة عنصــر واحد، مميــز وضــروري لــكل اللغــة الإنســانية، تفتقر إليه هــذه الحيوانــات: لا نجد أية

إشـارات لها إحالـة موضوعيـة أو معني موضوعي. يقـرر كيولر:

قـد نأخـذ ذلك على أنـه قضية قـد خضعت للإثبات بـأن سُـلَّم الصوتيات لـدى الحيوانـات « ذاتـي» تمامـاً، ويسـتطيع أن يعبر فقـط عن الانفعـالات، ولا يعـين أو يصف الأشـياء أبداً. لكن لديهـا الكثير من العناصـر الصوتية التي تكون أيضـا عامـة بالنسـبة للغات الإنسـانية، بحيث أن مـا يعوزها مـن كلام تلفظي لا يمكن أن يعزى إلى حدود ثانوية (لسـانية – شـفية glosso – labial) تتمركز فـي اللسـان والشـفتين. كذلك فإن إيماءاتها الحركية، بالوجه أو الجسـم مثل تعبيرها بالصـوت، لا تعينِّ أو «تصف» الأشـياء أو الموضوعـات أبداً[1].

هنـا نتلمـس النقطة الحرجة فـي كل مشـكلتنا. يمثـل الاختلاف بـين «اللغة محتويـة المعانـي» (propositional language) و«اللغـة الإنفعاليـة» (emotional language) الفيصـل الحقيقـي بين عالم الإنسـان والحيوان. تعتبـر كل النظريات والملاحظـات المتعلقـة بلغـة الحيـوان واسـعة المدى حيـث تخفق فـي التعرف على هذا الاختلاف الأساسـي. ففـي الدراسـات المتعلقة بهذا الموضوع لا يبدو أن هناك تأييـداً قاطعـاً واحداً للحقيقـة بأن أي حيوان لـم يبد أبداً تلك الخطوة الحاسـمة للنقلـة مـن اللغـة الذاتية إلـى الموضوعية، مـن اللغـة الإنفعالية إلى اللغـة محتوية المعانـى. يؤكـد كيولـر بقوة أن الكلام أبعد بشـكل قاطع من إمكانـات القردة العليا. ويقـرر أن الافتقـار إلـى هـذا المعين الغنـي العظيم لتلـك المكونات الهامـة للتفكير المعروفـة بالصـور تؤلف الأسـباب التـي تمنع الحيوانـات من أن تتوصـل حتى إلى أقـل بدايـات التطور الحضاري. وقـد توصل « ريفيز» إلى نفـس النتيجة. ويؤكد أن الـكلام مفهوم أنثروبولوجـي ينبغي وفقا لذلك أن يطرح جانباً كليةً من دراسـة علم النفـس الحيوانـي. وإذا انطلقنـا من تحديد واضـح ودقيق للكلام، تسـقط تلقائياً كل الأشـكال الأخرى للتلفظات التي نجدها أيضا فـي الحيوانات. يتناول «بيركس» المشـكلة، التـي درسـها باهتمام خـاص، بطريقة إيجابيـة، وهو مقتنـع بأنه توجد، حتـى بالنسـبة للغـة والرمزية، علاقة وثيقة بين الإنسـان والقردة العليـا. ويقرر أن « هـذا يفتـرض أننـا ربما نكون قـد مررنا بمرحلة مبكـرة من التطور النوعي فـي

(1)Wolfgang Koehler, “Zur Psychologie des Schimpanscn” Psychologishe Forschung, 1, 27.

The Mentality of Apes, New York, Humanities Press, p. 317.

تطور العملية الرمزية. وهناك بيانات وفيرة عن أن الأنماط المختلفة من العملية الإشارية، خلافاً للعملية الرمزية، تحدث تكراراً لدى الشمبانزي وتؤدي وظيفة بفاعلية عندها [١]». إلا أن كل هذا يظل بشكل قاطع مميزاً لأنماط ما قبل اللغة. وحتى وفقا لما يذهب إليه ييركس، تعتبر كل هذه التعبيرات الوظيفية عشوائية وبسيطة وذات فائدة محدودة للغاية إذا قورنت بالعمليات المعرفية الإنسانية[٢]. وهنا لا تتعرض المشكلة التطورية للاختلال والبلبلة مع المشكلة التحليلية والظاهرية (الفينومينولوجية).

فالتحليل المنطقي للكلام الإنساني يؤول دائماً إلى عنصر ذات أهمية أولية ليس لها مقابل في عالم الحيوان. ولا تقف النظرية العامة للتطور بأي حال في طريق الاعتراف بهذه الحقيقة. وحتى في ميدان ظاهرات الطبيعة العضوية قد تعلمنا أن التطور لا يستبعد نوعاً من الخلق الأصيل. فينبغي الاعتراف بالتغير الفجائي والتطور المنبثق. ولم يعد علم التاريخ الطبيعي يتكلم عن التطور في ضوء الداروينية المبكرة، ولا حتى يفسر أسباب التطور بنفس الطريقة. وربما نكون على استعداد للاعتراف بأن القردة العليا، في نمو عمليات رمزية معينة، قد حققت خطوة هامة للأمام. لكن ينبغي أن نؤكد أنها لم تصل عتبة العالم الإنساني. لقد دخلت، كما كان، في زقاق مغلق.

ولأجل الإقرار الواضح للمشكلة، ينبغي أن نميز بعناية بين «الإشارات» (signs) و«الرموز» (symbols). فما نجده من نظم معقدة للإشارات Signals في سلوك الحيوان قد يبدو حقيقة مؤكدة. ويمكننا القول أن بعض الحيوانات، وخاصة المنزلية، حساسة للغاية للإشارات [٣]. ويستجيب الكلب لأبسط التغيرات

(1) Yerkes & Nissen: "Prelinguistic Sign Behavior in Chimpanzee," Science, LXXXIX, 587.

(2) Yerkes, Chimpanzees, p. 189.

(٣) هذه الحساسية، على سبيل المثال، قد تأيدت في الحالة المشهورة، «هانز النشيط» clever Hans التي خلفت، منذ عدة سنوات مضت، شيئا من الإثارة بين السيكوبيولوجيين. كان «هانز النشيط» حصاناً بدى كما لو أنه يتمتع بذكاء خارق. لقد كان يستطيع حتى حل مسائل حسابية معقدة، يستخلص الجذور التكعيبية، وغير ذلك. يصهل على الأرض لمرات كثيرة بقدر ما يتطلب حل المسألة. ولقد دعيت لجنة خاصة من السيكولوجيين وعلماء آخرين لدراسة الحالة. وأصبح واضحا في الحال أن الحيوان يأتي بردود أفعال لحركات لا إرادية معينة من صاحبه. فحينما يغيب صاحبه أو لم يفهم المسألة، لا يستطيع الحصان الإجابة عليها.

فــي سلوك صاحبه، وهو يستطيع أن يميز تعبيرات الوجه أو تعديل نغمات الصوت لــدى الإنســان [١]. ولكن ليــس هناك ما يمكن الخــروج به من هذه الظاهـرات فــي فهــم الــكلام الرمزي الإنســاني. تثبت تجــارب بافلوف الذائعة الصيت فحســب أن الحيوانــات يمكن أن تتدرب بســهولة علــى أن تأتي برد الفعل ليــس لمجرد المثيرات المباشــرة لكل أنواع المثيرات التوســطية أو الممثلة. فالجرس، على ســبيل المثال، قد يصبح «إشــارة للغذاء»، وقد يتدرب الحيوان على ألا يلمس طعامه فــي حالة غياب هذه الإشارة . لكن من هذا نتعلم فقط أن المجرب، فــي هذه الحالة، قد نجح فــي تغييــر موقف الطعام لــدى الحيوان. لقد قام بتعقيد هــذا الموقف عن طريق إدخال عنصــر جديــد فيه عن عمد. وليســت كل الظاهرات التي وُصفت كأفعال منعكســة شــرطية فقــط بعيــدة للغاية عــن الطبيعة الأساســية للتفكيــر الرمزي الإنســاني بــل وأيضــا مناقضــة لــه. فالرمــوز – بالمعني الصحيــح لهذا المصطلــح – لا يمكن اختزالهــا إلى مجرد الإشــارات. تنتمي الإشــارات والرموز إلــى عالمين مختلفين من البحث: **الإشــارة** signal **جزء من العالم الفيزيقــي للوجود، والرمز** Symbol **جزء من العالم الإنســاني للمعنــى.** الإشــارات «مُنَفِّذَات» (operators)، والرموز «مُصَمِّمات» (designators)[٢]. والإشــارات، حتــى حينما تُفهم وتُســتخدم علــى هذا النحو، هي مــع ذلــك نوع مــن الوجــود الفيزيقــي أو المادي، فــي حــين أن للرموز فقــط قيمة وظيفية إنسانية.

---

(١) لإيضـاح هـذه النقطـة أود أن أشـير إلـى مثـال كشـفي آخـر. لقـد أخبرنـى ذات مـرة العالـم السيكوبيولوجى، الدكتـور Dr. Pfungst الـذى طـور طريقـة جديـدة وطريفـة لدراسـة سـلوك الحيـوان: فلقـد تلقـى خطابـا مـن ضابـط بشـأن مشـكلة غريبـة. كان لـدى الضابـط كلـب يصاحبـه فـى تجولاتـه. وحينمـا يسـتعد صاحبـه للخـروج يبـدي الحيـوان أمـارات السـرور والانتعـاش. ولكـن ذات يـوم قـرر الضابـط أن يحـاول تجربـة بسـيطة، إذ أدعـى أنـه يهـم بالخـروج، فوضـع قبعتـه علـى رأسـه، وأخـذ عصـاه، وقـام بالاسـتعدادات المعتـادة - بـدون أي قصـد، مـع ذلـك، للخـروج إلـى نزهـة. وممـا أثـار دهشـته أن الكلـب لـم يخـدع بـكل هـذه المظاهـر؛ لقـد ظـل سـاكنا فـي ركـن الحجـرة. وبعـد فتـرة وجيـزة مـن الملاحظـة تمكـن الدكتـور مـن حـل المعضلـة. لقـد كان فـي حجـرة الضابـط منضـدة ذات قطـر يحتـوى علـى بعـض الوثائـق الهامـة. لقـد تعـود الضابـط علـى صلصلـة القمطـر قبـل أن يتـرك المنـزل ليتأكـد مـن أنـه يحكـم الإغـلاق. فـإذا لـم يفعـل هكـذا اليـوم فهـو لا ينـوى الخـروج. لكـن لقـد صـار هـذا بالنسـبة للكلـب إشـارة، عنصـراً متلازمـا لموقـف الخـروج للنزهـة، فبـدون هـذه الإشـارة لـم يـأت الكلـب بـرد فعـل.

(٢) عن هذا التحديد للمنفذات والمصممات أنظر:

Charles Morris: Foundations of the Theory of Signs. Encyclopedia of the Unified Sciences.

ويمكــن أن نجــد، باحتفاظنا بهذا التحديــد، مدخلا لأحد المشــكلات الأكثر احتدامــاً وجــدلاً. لقــد كانت مشــكلة ذكاء الحيوانــات دائماً أحد المعضلات فــي الفلســفة الأنثروبولوجيــة. لقد بُذلت جهــود هائلة، بالفكــر والملاحظة، لحل هذه المشــكلة، لكــن الغموض الــذي يكتنف مصطلح «الــذكاء» ذاته قد وقف دائماً فــي طريق الحل الواضح، كيف يمكن أن نأمل فــي الإجابة على ســؤال لا نفهم معناه؟ لقــد اســتخدم الميتافيزيقيــون والعلمــاء الطبيعيــون واللاهوتيــون، كلمــة « ذكاء» بمعانــي مختلفــة ومتناقضة. ويرفض بعض علماء النفــس وعلم النفس البيولوجي بســطحية أن يتكلموا عن ذكاء الحيوانات. ويرون فقط فــي كل الســلوك الحيواني اللعــب القائــم على آليــة محــددة. ويكمن وراء هــذه الفكــرة التأثيــر الديكارتي؛ ولكنــه قد أعيد تدعيمها فــي علــم النفس الحديث.

«فالحيــوان – كما يقرر ثورنديك فــي دراســته عن ذكاء الحيــوان – لا يفكر أحدهــا كالآخــر، ولا يُخَطِّــئ أحدهــا الآخــر. إنهــا لا تفكــر فــي الأشــياء علــى الإطــلاق، وإنمــا تفتكرهــا فحســب.. وما جــري من اعتبــار أن الحيوانــات تأتي بــرد فعــل إزاء إنطباعــة حســية معينة ومحــددة ومحققة تمامــاً، وأن ثمة رد فعل مشــابه لانطباعــة حســية يختلف عــن الأول يحقــق ترابطاً بالتماثل – ليســت إلا خرافــة»[1]. لقــد أدت الملاحظات اللاحقــة والأكثر دقة إلى نتيجــة مختلفة. فلقد صــار مــن الواضح فــي حالة الحيوانات العليــا أنها كانت قادرة على حل المســائل الأكثــر صعوبــة وأنها لــم تتوصل إلى هذه الحلــول بمجرد طريقة آليــة، بالمحاولة والخطــأ. فالفــارق الأكثــر تمييــزاً، كمــا يشــير كيولــر، يوجــد بين مجــرد الحل العرضــي والحــل الحقيقي، بحيــث أن أحدهما يمكن تمييزه عن الآخر بســهولة. ومــا يعتبــر علــى الأقل مــن أن بعــض ردود أفعال الحيوانــات العليــا ليس مجرد نتــاج الصدفــة ولكنــه موجه بالبصيــرة يبدو لا جــدال فيه.

وإذا كان لنــا أن نفهــم الــذكاء علــى أنه إما تكيــف للبيئة المباشــرة أو تعديل تواؤمــي للبيئــة، علينــا ولا شــك أن ننســب للحيوانــات بالمقارنــة ذكاء متطــوراً بدرجــة كبيــرة. كذلك علينا أن نســلم أنــه ليســت كل الأداءات الحيوانية محكومة بوجــود مثيــر مباشــر. فالحيوان قادر علــى كل أنواع الالتفافات والتحويرات فــي

(1) Edward L. Thorndike: Animal Inelligenee. New York, Macmillan, pp. 119.

ردود أفعالـه. فقـد يتعلم ألا يسـتخدم أدوات فحسـب بل وحتـى أن يبتدع أدوات لأغراضـه. وهنا لا يتردد بعض السـيكوبيولوجيين فـي طرح تسـاؤلات عن تخيل إبداعـي أو إنشـائي لـدى الحيوانـات. ولكن، لا هـذا الذكاء ولا ذلـك التخيل من النمـط المميز للإنسـان. وباختصار، ويمكننـا القول بأن الحيـوان يتمتع بخاصية أساسـية وهـي التخيـل والـذكاء العملـي، بينمـا ينمو لدى الإنسـان وحده شـكل جديـد، وهـو: التخيل والـذكاء الرمزي.

وبالإضافـة إلـى ذلك، يبـدو واضحاً الانتقال فـي النمو العقلـي لعقل الفرد مـن شـكل لآخـر- مـن مجرد الاتجـاه العملـي إلـى الاتجـاه الرمزي. لكـن هذه الخطـوة هنـا هـي النتيجـة النهائية لعمليـة بطيئة ومسـتمرة. وليس من السـهل بالطـرق التقليديـة للملاحظة السـيكولوجية تمييز المراحل الفرديـة لهذه العملية المعقـدة. إلا أن هنـاك طريقـة أخـرى للتوصـل إلـى بصيـرة كاملـة بالخاصيـة العامـة والأهميـة الفائقـة لهـذه الانتقالـة. لقـد أجرت الطبيعـة ذاتها هنـا، إذا شـئنا القـول، تجربـة تسـتطيع أن تلقي ضـوءً غير متوقـع على القضيـة موضع البحـث. فلدينا الحالات الكلاسـيكية عن «لاورا بردجمـان» و» هيلين كيلر»، وهما طفلتـان معوقـات بالعمـي والصمـم — البكم، قـد تعلمتـا الكلام بواسـطة طرق خاصـة. وبالرغـم من أن هاتـين الحالتين معروفتان جيداً وتم تناولهما غالبا فـي الكتابـات السـيكولوجية، إلا أنـه ينبغـي أن أُذكّر القـارئ بهما مرة أخـرى لأنهما ربمـا يتضمنـان أفضـل إيضـاح للمشـكلة العامـة التي تعنينا فـي هـذا الصدد. سـجلت السـيدة «سـوليفان»، معلمة هيلـين كيلـر، التاريخ المضبوط الـذي بدأت فيـه الطفلـة بالفعل فهم معنـي ووظيفة اللغة الإنسـانية. ونقتبـس كلماتها ذاتها:

ينبغـي أن أكتـب لـك هذا الصبـاح لأنه قد حدث شـيء ما مهـم للغاية. لقد قامـت هيلـين بالخطـوة الهائلـة الثانيـة فـي تعلمها. لقـد تعلمت أن لكل شـيء إسـمًا، وأن الحـروف الأبجديـة اليدويـة مفتاح لكل شـيء تريد أن تعرفه... فـي هـذا الصبـاح، حينما كانت تغتسـل، أرادت أن تعرف إسـم « الماء».حينما تريد أن تعرف إسـم أي شـيء، تشـير إليـه وتربت على يـدي. تهجيـت (w-a-t-e-r) ولم تفكـر فيـه أكثـر من ذلـك إلى ما بعـد الإفطـار... (وبعد ذلـك ذهبنا إلـى عنبر المضخـات، وجعلـت هيلين تمسـك بإبريقها تحـت الصنبور حينما قمـت بالضخ. وعندمـا اندفـع المـاء البـارد ليمـلأ الإبريـق، تهجيـت (w-a-t-e-r) فـي يدها

الفارغـة. وبتقـارب الكلمة مع الإحسـاس بالمـاء البارد المندفع بـين يديها قد بدى أنـه قـد أفزعهـا. وتركـت الإبريق ووقفت مشـدوهة مأخـوذة، ولاح علـى وجهها ضـوء جديـد، وتهجـت (w-a-t-e-r) عدة مرات، ثم خبطت على الأرض وسـألت عن إسـمه وأشـارت إلـى المضخة واسـتدارت فجأة لتسـأل عن إسـمي فتهجيت «المعلمـة» (teaeher). وفـي كل طريـق العـودة إلـى المنـزل كانت منفعلـة للغاية. وتعلمـت إسـم كل شـيء لمسـته، بحيـث أنه فـي غضون سـاعات قليلـة أضافت ثلاثـين كلمـة جديـدة إلـى حصيلتهـا اللغوية. وفـي صبـاح اليوم التالـي نهضت كجنِّيـة متألقـة، تمـرق من موضـوع لآخر، متسـائلة عن إسـم كل شـيء وتقبلني لذلك بسـرور بالغ ... ينبغي أن يكون لكل شـيء إسـم الآن. فحيثما نذهب تسـأل بشـغف عن أسـماء الأشـياء التي لـم تتعلمها بالمنـزل. وصارت شـغوفة بالتهجي أمـام أصدقائهـا، وبتعلم الحروف لأي فـرد يقابلها. وتركت الإلماعات والإشـارات والتمثيـل الإيمائـي الحركـي pantomime الذي كانت تسـتخدمه مـن قبل، حالما توفـرت لديهـا كلمـات تحـل محلهـا. وكان يزودها اكتسـاب كلمة جديدة بسـرور عـارم، وصرنـا نلاحـظ أن وجهها أخـذ ينمو بطريقة أكثـر تعبيريـة كل يوم [1].

ويمكـن وصـف الخطـوة الحاسـمة فـي الانتقـال مـن اسـتخدام الإلماعات والإشـارات والتمثيـل الحركي إلى اسـتخدام الكلمات، أي إلى اسـتخدام الرموز، بطريقـة أكثـر دقـة. ما هـو الاكتشـاف الحقيقي لدى الطفل فـي هـذه الحالة؟ لقـد تعلمـت هيلـين كيلر سـابقا أن تجمع شـيئاً أو حدثـاً معينا مع إشـارة معينة للحـروف الأبجديـة اليدويـة، أي أن هنـاك ترابطـاً ثابتـاً قـد اسـتقر بـين هذه الأشـياء وانطباعـات لمسـية معينـة. ولكـن سلسـلة هـذه الترابطـات، حتـى ولو تكـررت وتضخمـت لا تـزال لا تتضمـن فهمـاً عـن ماهية الـكلام الإنسـاني وما يعنيـه. ولكـي يتم التوصل إلـى ذلك الفهم لابـد أن يقوم الطفل باكتشـاف جديد وأكثـر أهميـة. عليـه أن يفهـم أن لـكل شـيء إسـماً – أن الوظيفـة الرمزيـة لا تتقيـد بحـالات خاصة ولكنهـا مبدأ عام قابـل للتطبيق يطوق كل ميـدان التفكير الإنسـاني. فـي حالة هيلين كيلر جاء هذا الاكتشـاف كصدمة مفاجئة. لقد كانت فتاة فـي السـابعة من العمر تتمتع، فيما عدا الإعاقات المرتبطة بأعضاء حسـية معينـة، بحالـة صحيـة طيبة وبعقـل متطـور النمو بدرجـة هائلة، لكنهـا تأخرت

(1) Helen Keller: The Study of My Life, Doubleday, Page & Co., 1903.

كثيراً بإغفال تعليمها. ثم يحدث فجأة النمو الحاسم: إنه أشبه بثورة عقلية. ويبدأ الطفل في رؤية العالم في ضوء جديد. إنه يتعلم أن استخدام الكلمات ليس مجرد إلماعات أو إشارات آلية، ولكن كأداة جديدة تماما للتفكير. لقد تفتح أفق جديد، وسوف يجول الطفل من الآن فصاعداً، وعن إرادة، في المجال الأكثر اتساعاً وتحرراً على نحو مفتوح ومتطور.

إذا نجح الطفل في إدراك معنى اللغة الإنسانية، فلا يهم في أي مادة معينة يمكن التوصل إلى هذا المعنى. وكما تثبت حالة هيلين كيلر، يستطيع الإنسان أن يبني عالمه الرمزي من المواد الأكثر إفقاراً وشحة. فالشيء ذو الأهمية الحيوية ليس الحجارة والطوب ولكن وظيفتها العامة كشكل بنائي هندسي. وفي مجال الكلام، تقوم الوظيفة الرمزية العامة للكلام ببعث الحياة في الإلماعات أو الإشارات المادية و«جعلها تتكلم». وبدون هذا «المبدأ الإحيائي» (vivifying principle) سوف يظل العالم الإنساني حقيقة أصماً، أبكماً. لكن بهذا المبدأ، يمكن أن يصبح عالم الطفل الأصم والأبكم والمكفوف أوسع وأغني بشكل منقطع النظير من عالم الحيوانات العليا.

فالتطبيقية العامة، ارتباطاً بحقيقة أن لكل شيء إسماً، هي أحد الامتيازات الهائلة للرمزية الإنسانية. لكنها ليست بالامتياز الوحيد. فلا يزال هناك خاصية أخرى للرموز تصحب وتتمم هذا الامتياز، وتؤلف ترابطه الوثيق اللازم. فالرمز ليس عاماً فحسب ولكنه متغير للغاية. فأنا أستطيع التعبير عن ذات المعنى بلغات مختلفة، وحتى داخل حدود اللغة الواحدة يمكن التعبير عن فكرة معينة بأشكال مختلفة تماماً. فالأمارة أو الإشارة ترتبط بالشيء الذي تشير إليه بطريقة ثابتة وفريدة. تشير أية أمارة واحدة محددة إلى شئ واحد محدد. في تجارب بافاوف يمكن تدريب الكلاب بسهولة على أن تتوصل إلى الطعام حينما تسمع صوتاً خاصاً يختاره المجرب. لكن هذا لا يحمل مشابهة، كما فُسر ذلك غالباً، بالرمزية الإنسانية؛ وإنما هو، على العكس، مناقض للرمزية. فالرمز الإنساني الحقيقي يتميز ليس بتجانسه ولكن بتنوعه. وهو ليس بجامد أو غير مرن ولكن متغير ومتحرك. حقيقة يبدو الوعي الكامل بهذه التغيرية على أنه قد تحقق متأخراً إلى حد ما في النمو الذهني والحضاري للإنسان. في العقلية البدائية نادراً جداً ما يتحقق هذا الوعي.

هنا لا يزال الرمز كخاصية للشئ مثل الخصائص الفيزيقية الأخرى. وغالباً ما يتملك الأطفال شعور بالحيرة والارتباك حينما يتعلمون منذ البداية أنه ليس أي إسم للشئ يكون «إسماً ملائماً»، وأن الشئ ذاته قد يكون له أسماء مختلفة تماماً في لغات مختلفة. إنهم يميلون إلى الاعتقاد بأن الشئ «يكون» بما يسمى به. لكن هذا يمثل خطوة أولى فحسب . فأي طفل عادي سوف يتعلم حالا أنه يمكن استخدام رموز متعددة للتعبير عن ذات الرغبة أو الفكرة. ومن الواضح، بالنسبة لهذه التغيرية والدينامية، أنه لا يوجد ما يقابلها في عالم الحيوان.

ويبرز الآن جانب هام آخر لمشكلتنا العامة – مشكلة اعتماد التفكير القائم على إدراك العلاقات relational thought على التفكير الرمزي. بدون نظام مركب للرموز لا يمكن أن يظهر إطلاقاً التفكير القائم على إدراك العلاقات، وأن يصل إلى نموه الكامل. وليس صحيحاً القول بأن مجرد الوعي بالعلاقات يفترض أداءً عقلياً، أداءً للتفكير المنطقي أو التجريدي. ووعي كهذا ضروري حتى في الأداءات الأولية للإدراك. لقد اعتاد أصحاب النظريات الحسية وصف الإدراك كتركيب فسيفسائي (mosaic) يتألف من بيانات حسية بسيطة. ودائماً ما يغفل أصحاب هذا الاتجاه الحقيقة بأن الإحساس ذاته ليس إطلاقاً مجرد حشد كومة من الانطباعات المتفرقة. وقد صحح هذه النظرة علم النفس الجشطلتي الذي بين أن أكثر العمليات الإدراكية بساطة يتضمن عناصر تركيبية أساسية، وهي نماذج أو صيغ معينة. وينسحب هذا المبدأ على العالم الإنساني والحيواني على السواء. وحتى في المستويات الدنيا من الحياة الحيوانية قد تأيد بالتجريب وجود هذه العناصر التركيبية – خاصة التركيبات المكانية والبصرية. ومن ثم لا يمكن اعتبار مجرد الوعي بالعلاقات كعلامة مميزة للوعي الإنساني. لكن نجد في الإنسان نمطاً خاصاً من التفكير القائم على إدراك العلاقات ليس له مقابل في عالم الحيوان. ففي الإنسان تنمو القدرة على عزل العلاقات، في معناها المجرد. فلكي يدرك هذا المعنى لم يعد الإنسان يعتمد على البيانات الحاسية المحددة، على البيانات البصرية والسمعية واللمسية والحركية. وهو يعتبر هذه العلاقات فقط «في حد ذاتها»، كما قال أفلاطون. والهندسة هي المثال الكلاسيكي لهذه النقطة التحولية في

حياة الإنسان العقلية. وحتى في الهندسة الأولية نكون غير مقيدين بإدراك أشكال منفردة حسية. فلا نكون مهتمين بالأشياء الفيزيقية أو الموضوعات الإدراكية، لأننا بصدد دراسة علاقات مكانية عامة نمتلك إزاءها رمزية ملائمة للتعبير عنها. وبدون الخطوة الأولية للغة الإنسانية يتعذر تحقيق ذلك الإنجاز. لقد غدت هذه النقطة واضحة في كل الاختبارات التي قامت على عمليات التجريد أو التعميم لدى الحيوانات. وقد نجح كيولر في إيضاح قدرة الشمبانزي على الاستجابة للعلاقة بين شيئين أو أكثر بدلاً من الاستجابة لشيء معين. فإذا قدمنا صندوقين ممتلئين بالطعام، فإن الشمبانزي سوف تختار باستمرار، في ضوء التدريب العام السابق، الصندوق الأكبر – حتى ولو كان الشيء المعين المختار ينبغي في تجربة سابقة رفضه على أنه أصغر الصندوقين. وقد اتضحت مقدرة مشابهة على الاستجابة إلى الشيء الأكثر قرباً، أو نصوعاً، أو زرقة من صندوق معين. وقد تأيدت واتسعت نتائج كيولر بالتجارب اللاحقة. ومما قد تبين أن الحيوانات العليا قادرة على ما يسمى بـ «عزل العوامل الإدراكية» . فهي تتمتع بإمكانية استخلاص خاصية إدراكية معينة للموقف التجريبي والاستجابة وفقا لها. وفي ذلك تكون الحيوانات قادرة على تجريد اللون من الحجم والشكل أو الشكل من الحجم واللون. ففي بعض التجارب، كانت الشمبانزي قادرة على الانتقاء – من بين مجموعة من الأشياء المختلفة بدرجة هائلة في الخصائص البصرية – تلك التي تتفق في خاصية واحدة، فهي تستطيع، على سبيل المثال، التقاط كل الأشياء المتفقة في لون معين وتضعها في صندوق معين. وتميل هذه الأمثلة إلى أن تثبت أن الحيوانات العليا قادرة على تلك العملية، التي يشير إليها «هيوم» في نظريته عن المعرفة، على أنها «تحديد مميز للتعقل». ولكن كل المجربين المشتركين في هذه البحوث قد أكدوا أيضا على ندرة هذه العمليات وعشوائيتها وعدم اكتمالها. وحتى بعد أن تعلمت استخلاص خاصية معينة وأن تتحرك نحوها، فإن الحيوانات عرضة لكل أنواع الأخطاء التي تبعث على الدهشة. وإذا كانت هناك آثار معينة لنوع من التعقل في عالم الحيوان، فإنها لا تستطيع أن تنمو لأنها لا تتمتع بتلك الأداة الفريدة ذات القيمة البالغة والراسخة، وهي الكلام الإنساني، أو نظام الرموز.

وقد كان «هردر» (Herder) أول المفكرين الذين تناولوا هذه المشكلة ببصيرة نافذة. لقد تكلم كفيلسوف للإنسانية ينشد وضع القضية في سياق «إنساني» تماماً. وإذ يرفض الآراء الميتافيزيقية، يبدأ «هردر» بتعديل ناقد للقضية ذاتها. الكلام ليس شيئاً فيزيقيا قد نبحث له عن سبب طبيعي أو ما فوق الطبيعة. إنه عملية، وظيفة عامة للعقل الإنساني. ولا نستطيع، سيكولوجيا، وصف هذه العملية بالمصطلحات التي كانت تستخدمها مدارس علم نفس القرن الثامن عشر. والكلام، وفقا لهردر، ليس خلقاً صناعياً للعقل، ولا يمكن تناوله كميكانزم خاص من الترابطات. ويُلقي «هردر» بكل اهتمامه، في محاولته لتبين طبيعة اللغة، على ما يسميه بـ «التبصر» أو التأمل Reflection. يعني التبصر أو التفكير التأملي Reflective thought قدرة الإنسان على استفراد عناصر ثابتة معينة من حشد كامل غير متميز ومن سياق تواتر ظاهرات حاسية، وذلك بهدف عزلها وتركيز الانتباه عليها.

يكشف الإنسان عن «التبصرية» (Reflectiveness) حينما تعمل قوة روحه بحرية بحيث تستطيع أن تستلخص من كل محيط الإحساس موجة واحدة طاغية خلال كل حواسه؛ ويستطيع أن يوقف هذه الموجة، ويوجه الانتباه إليها، وأن يكون واعياً بهذا الانتباه. وهو يكشف عن التبصر حينما يستطيع، من كل الأطياف المتموجة من الصور المتدفقة خلال حواسه، أن يلم شمل نفسه في لحظة من اليقظة، ويستقر على صورة واحدة تلقائياً، يلاحظها بوضوح وبهدوء أكثر، ويجرد الخصائص التي تبين له أن هذا، وليس أي شيء آخر، هو الموضوع. ومن ثم فهو يكشف عن التبصر حينما لا يستطيع فحسب أن يدرك كل الخصائص بوضوح ولكن حينما يستطيع أن «يتعرف» على واحد أو عديد منها كخصائص محددة.. والآن بأي الوسائل يتم هذا التعرف؟ خلال تلك الخاصية التي عليه أن يجردها ويستخلصها، والتي تقدم نفسها بوضوح كعنصر للوعي. حسناً، إذن، دعنا نصيح: «اكتشفت» (Eureka) (*)! هذه الطبيعة الأولية للوعي كانت هي لغة الروح، ومعها تطورت اللغة الإنسانية (1).

يحمل هذا مظهراً للوحة شعرية أكثر مما يحمل مظهر التحليل المنطقي

(*) قولة أرشميدس عقب اكتشافه قانون الثقل النوعي، وتعني: «إكتشفت»، «وجدت». (الترجمة).

(1) Herder: Uber den Ursprunk der Spruche "Werke", ed. Suphan, V. 34.

للكلام الإنساني. لقد ظلت نظرية «هردر» عن أصل اللغة تأملية تماماً. فهي لم تنطلق من نظرية عامة للمعرفة، ولا من ملاحظة للحقائق التجريبية (الامبيريقية). لقد قامت على مثله الأعلى للإنسانية، وعلى حدسه العميق لطبيعة الحضارة الإنسانية وتطورها.. ومع ذلك، فهي تتضمن عناصر منطقية وسيكولوجية من الطراز الأكثر قيمة وأهمية. فكل عمليات التجريد أو التعميم لدى الحيوانات، التي دُرست ووصفت بدقة، يعوزها العلامة المحددة التي أكدها هردر. إلا أن نظرة هردر فيما بعد قد لقيت إيضاحاً وتأييداً غير متوقعين من ناحية أخرى تماماً. فقد توصلت البحوث الحديثة في ميدان علم النفس المرضي للغة إلى نتيجة بأن فقدان الكلام أو الإعاقة الشديدة له المترتبة على إصابة الدماغ ليست إطلاقاً ظاهرة منعزلة. ذلك أن إعاقة كهذه من شأنها أن تغير الطبيعة العامة للسلوك الإنساني. فالمرضى الذين يعانون من الحُبْسة (الأفيزيا) أو غيرها من الأمراض المماثلة لا يفقدون فحسب القدرة على استخدام الكلمات ولكن يتعرضون لتغيرات عديدة في الشخصية. تلك التغيرات نادراً ما يمكن ملاحظتها في سلوكهم الخارجي، لأنهم يميلون هنا إلى التصرف بطريقة سوية. فهم يستطيعون ممارسة مهام الحياة اليومية، بل وينمي بعضهم مهارة طبيعية في كل الاختبارات من هذا النوع. لكنهم يبدون عجزاً تاماً بمجرد أن يتطلب حل المشكلة ثمة نشاطاً نظرياً أو تبصرياً معيناً. فهم لم يعودوا قادرين على التفكير في مفاهيم أو فئات عامة. وبفقدانهم للسيطرة على العموميات، يلتصقون بالحقائق المباشرة، بالمواقف الحسية. فهؤلاء المرضى عاجزون عن ممارسة أي عمل يمكن تنفيذه فحسب بواسطة التفطن إلى المجردات. وينطوي كل هذا على أهمية بالغة، لأنه يبين لنا إلى أي حد يتوقف هذا النمط من التفكير، الذي أسماه هردر بالتفكير التبصري، على التفكير الرمزي.

وهكذا، بدون «الرمزية» تكون حياة الإنسان أشبه بحياة المساجين في الكهف كما شبهه أفلاطون، وتتقيد حياة الإنسان داخل حدود حاجاته البيولوجية واهتماماته العملية، ولن تجد سبيلاً للدخول إلى «العالم المثالي» المفتوح أمامه من عالم رحب وآفاق مختلفة عن طريق الدين، والفن، والفلسفة، والعلم.

يجد علماء النفس أن العملية المركبة عادة ما يمكن دراستها بدقة أكبر عن طريق التركيز على العناصر الأبسط، خاصة تلك التي يمكن عزلها في المختبر. ورغم ما لهذا الاتجاه من مزايا، فإنه يدفع ثمناً فادحاً. فبعض الجوانب الهامة من المشكلة تكون مهملة، وقد يصعب تكامل الحلول الجزئية الكثيرة في نموذج ذي معني.

هكذا الحال مع التعلم. فقد نجمع بدقة قدر هائل من المعلومات من الدراسات على الحيوان، بينما لا يزال الكثير من الأسئلة المتعلقة بالبصيرة الإنسانية لم يجد إجابات له. وقبل أن نتمكن من بناء نظرية شاملة بحق، ينبغي أن يتكرس قدر عظيم من الجهد لفهم تلك الجوانب من التعلم المميزة للإنسان بشكل فريد.

(١٠)

نظرية التعلم المعاصرة والتعلم الإنساني(*)

فرانك كوبلر

(جامعة لويالا)

إن أهمية التعلم وما يرتبط به من سيكولوجية الدافعية في علم النفس المعاصر يمكن أن تتبدى من عبارة «بورنج» (Boring) في كتابه «تاريخ علم النفس التجريبي» من أن لهذه الموضوعات الآن الحق في أن تقف كموضوعات أساسية في علم النفس التجريبي للإحساس والإدراك.

يأخذ التعلم بالتدريج مركز الصدارة في علم النفس الأمريكي. فهو العامل الذي من خلاله يمكن أن نأمل في التوصل إلى فهم للتغيرات غير المرتبطة بعوامل الوراثة والنضج لدى الإنسان. وهو الميدان في علم النفس الذي من خلاله يمكن أن نأمل في التوصل إلى فهم ذلك الجانب عند الإنسان الذي يقدم المنظور الأعظم والأوحد للعمل بواقعية معه.

ويمكن أن تتبدي بالفعل أهمية التعلم ارتباطاً بفهم الإنسان إذا وضعت في الاعتبار الأسئلة التالية: «كيف تتكون الشخصية الإنسانية»؟ ما الذي يؤول إلى «التكوينات الناقصة أو المختلة» (Malformations) ، كما هو الحال – على سبيل المثال – في ظهور العصاب ؟ «كيف تُكتسب الأفكار؟» «كيف تتكون العادات؟» «الاتجاهات والآراء لدى الإنسان – كيف تتباور ؟» «كيف يُكتَسب ويكتمل المشي والكلام والقراءة والتفكير والخصال والمشاعر الطيبة ؟».

علاوة على ذلك، يمكن أن يتبدى تأثير وأهمية التعلم في علم النفس الأمريكي من الزيادة الواضحة في بحوث ودراسات التعلم المنشورة بالمجلات المتخصصة، وكذلك من فحص قائمة «الجمعية الأمريكية لعلم النفس» (APA)، والتي كان للكثير منهم إن لم يكن لمعظمهم اهتمام هائل بالتعلم ونظرية التعلم.

---

(1) Frank J. Kobler. "Contemporary Learning Theory and Human Learning" in Magda B. Arnold & John A. Gasson, J, The Human Person. Ronald Press, New York, ch, II.

ونظرية التعلم أيضا ذات أهمية بالغة بالنسبة للنظرية العامة لعلم النفس، كما أن أهميتها قد تزايدت بالنسبة لعلم النفس الإكلينيكي. فالتعلم يبدو كما لو أنه يمسك بالمفتاح لحل الكثير من المشكلات المعقدة في علم النفس.

وتتمثل الصعوبة التي تنشأ حينما نقرأ ما كتب عن نظرية التعلم في أن نجد نظرية تطوق بطريقة ملائمة الحقائق المعروفة، تؤلف بين التفسيرات المختلفة في بناء معين، وتقدم إطاراً تجريبياً ملائماً يمكن فيه التصدي لمشكلات الطبيعة البشرية. الحاجة إذن إلى نظرية واسعة بدرجة كافية تحيط بكل أنواع التعلم لدى الإنسان.. ويبرز النقد الأكبر الذي يمكن أن يوجه لنظرية التعلم المعاصرة في أنها، باجتزائها للتعلم الإنساني وبتركيزها على الجوانب ذات الدلالة من التعلم، قد أغفلت جوانب هامة على حد سواء، أو أنها قد أنشأت نظاماً من الأجزاء جعل من المستحيل تضمين النظرية عناصر أخرى أكثر حسماً وأهمية عن الشخصية الإنسانية. ولكن ما تم في هذا الشأن بهدف التحديد العلمي هو معروف ومرغوب، كما أن ما جري من تقييد كان من أجل نشاط علمي متعمق ومن أجل تقدم ذات أهمية.

ومن المفيد تفحص نظريات التعلم المعاصر في ضوء تطورها التاريخي، وفي ضوء حدودها وما فيها من قصور، ومن حيث علاقتها بنظرية بديلة تُقترح لتقوم بدورها الوظيفي في المسار السيكولوجي، وتقدم علاوة على ذلك مجموعة أكثر قبولاً من المبادئ لتفسير المشكلات المحيرة التي تفرضها الخبرة مع الشخص الإنساني.

تعتبر المناقشة المنظمة للتعلم حدثاً جديداً نسبياً في علم النفس، بداياتها في القرن العشرين، ولا تزال نظرية التعلم في أي فحوى شكلي أكثر حداثة، تلقى تقدماً كبيراً في علم النفس وتطبيقاتها في مجالات عديدة. لقد كان الاهتمام المبكر بالتعلم تجريبياً ومنهجياً بدرجة كبيرة، وهذا ما يتضح بصورة مميزة في أعمال «إبنجهاوس» عن الذاكرة، وأعمال «بريان وهارتر» عن اكتساب المهارات، وأعمال «ثورنديك» عن حل المشكلات لدى الحيوانات. وسابقاً على هؤلاء السيكولوجيين التجريبيين واتفاقاً مع التقليد الذي عملوا به، نوقش التعلم تحت موضوع التذكر، وعلى وجه الخصوص تحت موضوع الترابط.

وقد كان التعلم، وفقا للعلماء الارتباطيين، عملية اكتساب خبرات حسية تعرف «بالأفكار».

ليس ثمة تساؤل حول صحة ربط نظرية التعلم المعاصرة بالتقليد الارتباطي لأن جُل أصحاب نظريات التعلم الحالية يعترف بالعلماء الارتباطيين من نمط أو آخر. والاستثناء الأعظم من هذا هو أصحاب نظرية المجال الذين ينبع تقليدهم من أفلاطون من خلال «ليبنتز» (Leibnitz) و«كانت» (Kant) إلى علماء نفس الجشطلت المحدثين.

لقد حدد أرسطو في مقاله الموجز عن الذاكرة المبادئ الأساسية للارتباط التي أخذت تسيطر على نظرية التعلم. ولسبب غامض أخذت آراؤه تخبو، أو فُسرت بطريقة مختلفة حتى نالها الإحياء في القرن السابع عشر والازدهار في القرن التاسع عشر، حيث اعتبرت بشكل معدل على أنها الأساس الوحيد لكل العمليات العقلية.

ولقد مهدت الآلية والثنائية والتفاعلية الاصطناعية التي أتى بها ديكارت إلى نشأة المدرسة الارتباطية كما نراها متجسدة في نظرية التعلم، وهيأ فكرة لأعمال علماء لاحقين، لدينا نظرياتهم اليوم. فكل النظريات الحديثة للتعلم تنبع من نظرية المعرفة عند ديكارت. وهنا تتضح الفجوة التي خلقها بين العقل والبدن بما ينبغي تجاوزها بشكل ما في نظرية شاملة ملائمة.

تتمثل سيكولوجية التعلم الجديدة التي تعارض التبسيط المتناهي للفرض الارتباطي، في الاتجاهات التجريبية مثل أعمال «ماربى» (Marbe) عن التفكير، و «آخ» (Ach) عن الميول المسيطرة، و «بينيه» «Binet» عن حل المشكلات، و(جود) (Judd) عن انتقال أثر التدريب، (وفرنالد) (Fernald) عن الذاكرة.

من هذا التطور التاريخي نشأ اتجاهان كبيران في نظرية التعلم: الأول، وهو النظريات الترابطية، والثاني، وهو نظريات المجال التي كانت ثورة على قصور البنيوية والسلوكية والترابطية. يشير (هيلجارد) إلى أن العلماء الارتباطيين المحدثين يفضلون تأكيد تأثير البيئة، واعتبار «الكليات» wholes وفقا لبنيتها من عناصر مكونة، والتركيز على السلوك الاستجابي بدلاً من

الاستبطان. فهم يذهبون إلى ما هو أفضل من النماذج الآلية، وإلى العِلّية الموجهة تاريخياً. أما أصحاب نظريات المجال، من ناحية أخرى، فهم من القائلين بالفطرية Nativism، ويركزون على «الكليات» وفقا لنموذجها وتنظيمها الفريدين. وهم ينجذبون نحو الإدراك والأفكار (أكثر من الاستجابات) كمواد للتحليل. فنماذجهم دينامية، وتأكيدهم على العِلّية الراهنة، ويتناولون الحاضر بالحاضر وليس بالماضي.

ويمكن أن تتضح الاختلافات والتشابهات بين نظريات التعلم الترابطية والمجالية بتناول نظريات «ثورنديك» «وهل» و«تولمان» و«ماورر»:

يعرف ثورنديك «نظرية الترابطية» (Connectionism) على أنها نظام للعمليات العقلية يتألف من توظيف الترابطات الفطرية والمكتسبة بين المواقف والاستجابات. وهو عالم ارتباطي، نظامه فسيولوجي أساساً لكن بطريقة غامضة، وحيث يسلم بترابط «واحد لواحد» في النيرونات العصبية بين المثير والاستجابة. والتعلم، بالنسبة له، هو الناتج النهائي لكل خبرات الفرد متجمعة معاً. ويستخدم ثورنديك الأفعال المنعكسة والغرائز بالإضافة إلى العادات لتفسير التعلم. ومن أساسيات فهم نظرية ثورنديك في التعلم ما يسميه بقوانين التعلم، وهي من نمطين: قوانين الأثر الأولية، والتدريب والتكرار؛ والقوانين الثانوية مثل الانتماء، والانتقال الارتباطي، والحالة. ويمثل قانون الأثر أكثر القوانين أساسية في نظام ثورنديك. وهو يقرره على النحو التالي: «رباط متغير يقوى أو يضعف بقدر ما يصاحب وجوده من سرور أو ألم». ولقد تمثل قانون الأثر في هذه القضية الأساسية التي حول قبولها أو رفضها تُبْنَى نظريات التعلم. ويمكن أن نعتبر ثورنديك عالماً نفسياً من أتباع مذهب اللذة Psychological hedonism، طالما أن مبدأ اللذة – الألم أساسي بالنسبة لتوظيف قانون الأثر الذي ذهب إليه. ولقد اعتقد ثورنديك لسنوات كثيرة أن للذة والألم أو للثواب والعقاب تأثيرات مشابهة على التعلم. إلا أنه كنتيجة لمزيد من التجريب، عدل آراءه لكي يؤكد على الثواب ويقلل من العقاب، ورفض قانون التدريب، لأنه اكتشف أن الممارسة تكون فعالة فحسب بقدر ما تسمح للعوامل الأخرى أن تعمل، وهي العوامل التي تحدد حقيقة ما إذا كان التعلم سوف يتحقق أم لا. فالترابطات تصير أقوي بإثابتها، وليس فحسب بتكرارها.

وثمة ظاهرة أكتشفها ثورنديك تعرف «بامتداد الأثر» (Spread of effect) تشير إلى تقوية الترابطات القريبة مباشرة من تلك الترابطات التي تتعلق بالثواب. وهي تعمل إلى الخلف وإلى الأمام في نفس الوقت، وتتضاءل بالتدريج كلما تخلت عن نقطة الأصل. وهذه كانت نتيجة تجريبية هامة للترابطية لأنها تؤيد قانون الأثر والتأثير الآلي لهذا القانون على الترابطات. وفي ذلك، لم تكن ثمة حاجة إلى رمز أو فكرة تتناول التعلم. إلا أن التجارب اللاحقة قد بينت أن مبادئ التنظيم، وليس امتداد الأثر، هي التي ينبغي أن يعتمد عليها التفسير للتعلم. وتستبعد نظرية ثورنديك في التعلم الأفكار أو أي عنصر للوعي. فنظريته تعتبر نوعاً آلياً من السلوكية لا تملك إلا القليل، أو ليس لها، مما تفعله حيال تلك الأنشطة الإنسانية مثل المعنى أو الفهم. هذه النظريات تكون ملائمة لتفسير معظم عمليات التعلم لدى الأطفال، وذات أثر كبير في ميدان علم النفس التربوي، وإن كان غير مناسب على طول الخط. فهي لا تفسر التعلم لدى الكبار إلا على المستويات الأكثر أولية.

أما (هَلْ)، فيركز جُل اهتمامه على السلوكية المنطقية التي تعتمد على التحليل الرياضي. وتتحدد محاولته الأساسية باختزال كل التعلم حتى ذي النمط الأكثر بنائية وتعقيداً إلى تعلم آلي بسيط. لقد تناول القوانين الأساسية لهذا التعلم الأخير برجاء إمكانية تطبيقها على التعلم برمته أو ارتباطها به بطريقة مناسبة. إن المبدأ الأساس في نظام «هل» هو ببساطة الارتباط المُدَعَّم بخفض التوتر. ويتولد نشاط الكائن الحي بالحاجة إلى خفض التوتر التي تعتمد على موضوعات الهدف. وتتلخص نظرية التدعيم هذه على النحو التالي : لكي يتم التعلم، على الكائن الحي أن يتطلب شيئاً ما، وأن يلاحظ شيئاً ما، وأن يفعل شيئاً ما، وأن يحصل على شيء ما (ميلر ودولارد). يؤكد «هل» بوضوح على العوامل الخارجية أو السلوكية ويسعى إلى أن يجد لها أساساً فسيولوجياً. ويربط الأهداف بالكائن الحي على أساس تدرجها : مراتب الهدف. بقول آخر، بقدر ما يرتبط النشاط بالهدف، بقدر ما يكون التعلم أكثر فاعلية. وهذا ببساطة إعادة تقرير بطريقة سفسطائية لقانون التجاور. وبالنسبة لهذه النظرية، يعتبر تحقيق الهدف وخفض التوتر أشبه بالمبدأ الكلاسيكي الخاص بالإثابة أو اللذة، وهنا نكون أمام شكل معدل من فلسفة اللذة Hedonism. لقد ابتدع «هَلْ» مجموعة

من المسلمات المعقدة للغاية التي عرضها للاختبار والتي تطوق سلسلة ما يعرف بالمتغيرات الوسيطة أو العوامل داخل الكائن الحي التي تؤدي إلى ترسيخ المثير والاستجابة.

تعتبر نظرية «هل» عن التعزيز من خلال خفض التوتر بالغة الدقة في نظامه، وهي إقرار علمي بطريقة متقنة لفلسفة اللذة، كما أنها ترتبط بما هو حقيقي في التعلم. ومع ذلك، يستخدمها «هل» كمبدأ واحد لتفسير التعلم برمته، حتى ذلك النمط من التعلم الأكثر تعقيداً. ليس ثمة بينة تجريبية تؤيد هذا الزعم، كما أن الحس العام ينكره. فبعض التعلم يتم بسبب التجاور، في حين أن معظم التعلم — أو معظم الأداء على نحو أدق — يتحقق كنتيجة لخفض الحاجة. ولكن التعلم أيضا هو نشاط إدراكي ومعرفي يحدث على مستويات متعددة من التنظيم، وينبغي أن يتم توسيطه بواسطة مبادئ متعددة من التنظيم. فعلى سبيل المثال، تميل التجارب على التعلم الكامن latent learning الذي يرتبط بهذه الآراء، إلى تقويض النظام المعقد والمتقن برمته الذي ابتدعه «هَلّ».

تمثل نظرية (تولمان) في التعلم، وهى المعروفة «بنظرية الرمز — المدلول» (sign- significate theory) نظاماً أكثر اتفاقاً يؤلف مجموعة كافية وملائمة من المبادئ لتفسير تعقيدات التعلم الإنساني. ويبدو أنه بواسطة مزيج مختلط من الفطرية والسلوكية مع لمسة من اللاشعور المتحول تتطور النظرية في التعلم. وهناك اتجاه إلى هذا في نظام تولمان، ويوضح التركيز على هذا النظام العلاقة بين الانتقائية eclecticism والإحساس العام. فنظام تولمان يمزج بين الارتباطية والمجالية. وهو يستخدم الغرض والملاحظة الموضوعية والمعرفة والمتغيرات الوسيطة كعناصر أساسية في نظامه. ويؤكد أن الكائنات الحية تستجيب إلى «الرمز — الصيغة» (sign – gestalt)، وليس إلى مثيرات. والتعلم، بالنسبة لتولمان، ليس عملية اقتران شرطي، ولكنه عملية تقوم على التوقعات وابتداع حلول قد تؤدي إلى الأداء. ورغم ذلك، لا يعتبر تولمان «عقلانياً» (Mentalistic)، طالما أن الغايات التي تنظم السلوك «محتومة موضوعياً»، ويتناول السلوك على أنه سلوك كتلي أكثر منه سلوك جزئي ذري- ذلك السلوك الذي يعكس الاهتمام بما يمكن ملاحظته أكثر من التركيز على

ما هو فسيولوجي أو عقلاني. وفي هذا يهدف نظام «تولمان» إلى الاتجاه نحو علم لعلم النفس وليس للفسيولوجيا أو الفلسفة.

وأحد الجوانب الأكثر تحدياً واهتماماً في نظرية التعلم عند تولمان، هي تطوير مبدأ المتغيرات الوسيطة، وحيث يؤكد على المعرفة وعلى الغرض وبالتالي يكون أقرب إلى نظام يمكن الانتفاع به. وثمة جانب آخر يبعث على الاهتمام في نظامه: مبدأ «التعلم بالرمز – الصيغة» (sign-gestalt learning) الذي قدمه كبديل للتعلم الاستجابي response learning الأكثر شيوعاً. مضمون هذا التعلم أن الكائن الحي الإنساني يتعلم «معاني» وليس استجابات أو حركات. وبالتالي ينأى بهذا التعلم عن التفسير الآلي ويتجه به إلى تفسير غرضي للتعلم. وقد تجمع قدر هائل من البينة التجريبية المتعلقة بالتعلم الكامن والتعلم المكاني والتوقع لتأييد وجهة النظر هذه.

ولكي يفسر كيف أن البناء المعرفي يُنشِّط السلوك بدون ركون إلى مبدأ التعزيز أو إلى قانون الأثر، لجأ تولمان إلى خاصية معينة من الدافعية. فالمتعلم، في نظامه، يكتسب المعرفة من خلال العلاقة بين الوسيلة – الغاية بدرجة كبيرة، وتأثير الاهتمام أو الميل. فنحن نتعلم تلك الأشياء التي ننتبه إليها، أو نهتم بها، أو تقع في دائرة ميولنا.

يتمتع نظام تولمان، كما أشرنا، بمزايا محددة ترقى به على الأنظمة الأخرى. لكن نظرية تقوم على سيكولوجية الفيران، بصرف النظر عن مدى زيفها وملائمتها للفيران، سوف تعاني من تعقيدات وتحديدات معينة حينما تطبق على الكائنات الحية الإنسانية. يعترف تولمان نفسه بهذا في تفسيراته التعميمية للبيانات الإكلينيكية والحضارية.

لقد واجه أصحاب نظريات التعلم الذين حاولوا المقارنة بين نظم التعلم أو الذين حاولوا المصالحة أو التوسط بينها، مشكلة صعبة. فغالباً ما يتصدى أصحاب نظريات التعلم المختلفة لمشكلات مختلفة، أو يتصدون لمشكلة بعينها على مستويات مختلفة، وهنا تصير المقارنات صعبة أو مستحيلة.

وربما يكون أكبر جانب للنقد يمكن توجيهه هو أن كل هذه النظم هي نظم

جزئية. فهي تفسر جانباً من عملية التعلم الكلية، ثم تنزع إلى التعميم من هذا القطاع الجزئي إلى تفسير لكل التعلم الإنساني. ويمكن أن تتضح أهمية هذا التفسير بطريقة غير مباشرة حينما نقارن البَيِّنة التجريبية في تلك المجالات التي فيها يعمل أصحاب النظريات على مشكلات حاسمة وخاضعة للمقارنة. فمثلاً، في مجالات التعلم الكامن، والتواصل مقابل اللاتواصل في التعلم الفارقي، والتعلم المكاني مقابل التعلم الاستجابي، نجد نتائج مختلفة وتقريرات مختلفة بواسطة باحثين مختلفين تناولوا مشكلات متشابهة أساساً. بعض النتائج تؤيد نظرية معينة، ونتائج أخرى تؤيد نظرية أخرى، في حين أن البعض الآخر قد يقدم سنداً لأي نظرية.

ويمكننا أن نأمل في توفر حد أدنى لنظرية ملائمة في التعلم تجمع شمل العمليات التي أقرها تجريبياً أصحاب النظريات المختلفة. ويبدو في الإمكان أيضا ضرورة وجود نظرية مختلفة تماماً لتفسير التعلم الإنساني. إلا أنه من المعقول أكثر أن نفترض أن التعلم نشاط يتحقق على عدة مستويات، وأن نظريات التعلم قد عملت على أدنى المستويات الممكنة اهتماماً بعلم يقوم على الاقتصادية أو القلة. ويبدو من غير المحتمل وجود عملية واحدة للتعلم. وقد بين أصحاب النظريات الجشطلتية، ضمن ما عَلَّموه لنا، أن هناك عمليات للتعلم تختلف كيفياً عن التعلم بالاقتران الشرطي والتعلم بالمحاولة والخطأ.

يؤكد «مان» (Munn) أنه لا توجد نظرية واحدة من هذه النظريات تعُطي اعتباراً كافياً لقضية أساسية، وهي كيفية تعلم الاستجابات الجديدة. فإذا كان ثمة استجابة ينبغي أن تحدث قبلما يمكن أن تتدعم أو تُتَعلم، فكيف يمكن أن تُتَعلم حينما تكون استجابة جديدة؟ هنا يمكن فقط أن نضع في الاعتبار مجموعة جديدة من الاستجابات، كنظرية جديدة في التعلم، على سبيل المثال، تؤكد على العمليات الإدراكية والتفكيرية التي تستثار بواسطة المثير. ويبدو هذا معقولاً على المستوى الإدراكي ويمكن أن يشكل قاعدة لتوظيف عمليات التفكير. ومع ذلك، فلكي نفسر ظاهرات مثل الاستبصار والقصد والفروض، هناك نظريات متطورة تتصدى لهذه القضايا.

ثمة نظرية حديثة في التعلم تحمل بشائر طيبة لأنها تبدو كما لو أنها

تعمل في الاتجاه الصحيح من حيث تطويقها لكل الجوانب المتعلقة بالطبيعة الإنسانية – تلك هي «نظرية العاملين» (Two – factor theory) التي قدمها «ماورر». وأحد الأسباب التي تفسر لماذا تبعث هذه النظرية خاصة على التحدي أنها تبدأ في بناء جسور بين التعلم والشخصية ومشكلات علم النفس الإكلينيكي. وعلى هذا الدرب تسعى إلى «أنسنة» نظرية التعلم الأمريكية. تعكس نظرية «ماورر» ما ظهر من تقييدات أدركها عدد متزايد من العلماء لما لوحظ على نظريات التعزيز والارتباط بصفة عامة. تقتصر نظرية العاملين عند «ماورر» مصطلح «الاقتران الشرطي» على تعلم الاستجابات الانفعالية أو المحتومة بالاستقلال الذاتي، التي يمكن تفسيرها وفقا لمبدأ التجاور. ويستخدم «ماورر» سلوك حل المشكلات لتفسير التعلم بالتعزيز ومن خلال عمليات توسيطية بالجهاز العصبي المركزي. وهذا التخلي عن الأخذ بالمبدأ الواحد في تفسير التعلم يتفق أكثر مع حقائق التعلم الإنساني بالرغم من التعنت الذي قد ينشأ من التنافر بين مبدأ التعدد مع «مبدأ الاقتصاد أو القلة» (parsimony) الذائع الأخذ به. في نظرية ماورر، يبدو هذا التخلي عن مبدأ الاقتصاد قضية يمكن الدفاع عنها لأن العاملان المقترحان يقومان على نظامين فسيولوجيين محددين، وهما: «النظام العضلي الهيكلي» (skeletal muscular system) و«النظام الحشوي – الوعائي» (viscero – vascular system). ويعتبر الأخذ بعمليتين أساسيتين للتعلم، أحدهما عملية حل المشكلات والأخرى الاقتران الشرطي، فرضاً أكثر رصانةً فيما يتعلق بالتعلم. أما محدوديته، فتتمثل في إخفاقه في وصل وترابط هذه المستويات من التعلم، أي وصل العمليات الحشوية الداخلية والحسية والإدراكية، بالبصيرة أو نشاط الأنا.

ثمة مشكلتان كبيرتان تواجهان صاحب النظرية الذي لا يرغب في مثل هذا التوسع، وهما: عوامل الصراع الإنساني والحقيقة التي تقرر أن الكائن الحي الإنساني يعمل بطريقة مميزة في ضوء المستقبل أكثر منه في ضوء الماضي. ويرتبط هذا بالخاصية المميزة للإنسان، وهي الكلام الرمزي الذي يمثل التحدي الأعظم لنظريات التعلم المبتورة المعاصرة. فالاهتمام بسيكولوجية «تضمين الأنا» (ego - involvement) يُمَكننا من التأكيد على دور وأهمية التفكير والإرادة في نظرية منظمة للتعلم.

ونجد ، في ميدان العلاقات الإنسانية السوية الناضجة لدى الراشدين، دلائل لرفض قانون الأثر، ومبدأ التعزيز، ومبدأ اللذة (أولبورت).

وهنا يبدو التخلي عن هذه القوانين كعلامة مميزة لمرحلة الرشد الناضجة. وذلك ما يكشف عن القيود الكامنة في نظرية العامل الواحد أو حتى في نظرية العاملين في التعلم. فأن نعمل بطريقة رمزية، أي أن نعمل في وحدة مع «تضمين الأنا» — إنما يعني خروجاً على المبادئ المستخدمة في تفسير التعلم على المستويات الأدنى. فحينما أشعر بالالتزام، وحينما أعمل بوحي من الإحساس بالفخر والعزة، وحينما أضحى، وحينما أنجح في أن أكون فاضلاً.. عندئذ أرتطم بكل ما هو ارتباطي، وجداني (سعياً وراء اللذة)، وأتطلع إلى مستويات أعلى للإرتقاء النفسي. وإذ أقوم بذلك، فإنني أحقق مستويات ترقى على الاقتران الشرطي أو المحاولة والخطأ أو إدراك حل المشكلات، وحيث يكون التركيز على «الأنا» كمبدأ لتفسير كل ما هو مميز للإنسان «في نفسي»، وإن كان غالباً ما يبعث على عدم الارتياح. فالتعلم والسلوك قضية بيولوجية، وجدانية (سعياً وراء اللذة)، وأخلاقية (ماورر وكلوكهوهن).

ومن الأهمية بمكان أن نقر بأنه إذا كان لنظرية التعلم أن تقوم على الارتباطية (الاقتران الشرطي) ، والوجدانية (حل المشكلات)، وعمليات الأنا المنطقية، فإن الأخيرة تقوم على الارتباطية والوجدانية وتشتق منهما، بينما تحتفظ في نفس الوقت بخاصيتها المميزة الأساسية. وتعتبر فكرة «الاستقلال الوظيفي» (functional autonomy) إيضاحاً لإمكانية تناول هذه الجوانب داخل النسق العلمي الذي يؤدي بذاته إلى الإثبات التجريبي (أولبورت).

وتمثل مشكلة المعنى وفكرة الضمير إيضاحين طيبين للحاجة إلى نظرية للتعلم تعترف بهذه المستويات الثلاث. وإذ يعمل التعلم بالاقتران والتعلم بالمحاولة والخطأ بطريقة آلية، فإنه ينبغي التسليم بعامل ثالث يتناول الطبيعة المركبة للضمير. والضمير كبناء أو وظيفة أو عمل بأحكام معنوية هو بالضرورة نتاج للتعلم، ويتطلب بالتالي تكاملاً في نظرية التعلم. ونرى في تقييم عامل الضمير محدوديات نظرية الأثر. فالإثابة الذاتية (self – reward) للضمير تستطيع أن تتغلب بسهولة على أقسى عقاب داخلي أو خارجي؛ وعدم استحسان الضمير، كما يتضح في مشاعر

الذنب مثلاً، يمكن أن يطيح بأكثر حيل الإثابة فاعلية من الناحية الموضوعية.

فالسلوك المتعلم، الذي يكون متكاملاً عند هذه المستويات الأرقى أو المميزة للإنسان بصفة خاصة، يتطلب اتساقاً ضرورياً بين أعمال الذات أو الأنا والضمير. ولكي يتحقق تكامل التعلم على هذا النحو، من الضروري توفر قوة منطقية عقلية. والوظيفة المسيطرة لهذه القوة العاملة بهدف التكامل تتحقق على مستوى تجريدي أو رمزي، وعلى ما يتمخض من مترتبات لاحقة أو حاضرة، وتنظمها في وحدة فعالة. أما وظيفة الأنا فترتبط بالضمير، الذي يعتبر فعلاً متعلماً أو عادة متعلمة تسعى إلى ما هو طيب، وتعمل على تكامله داخل الشخصية برمتها.

ويعتبر السلوك غير المتكامل أو العصابي – سلوكا متعلماً تفاعلت فيه النواتج المرجأة والحاضرة بطريقة غير ملائمة. فمحور العصاب هو ما قد فعلناه وما كان علينا ألا نفعله، وليس هو ما يمكن أن نفعله ولكن لا تسمح أنفسنا به (ماورر). إنه ذلك التفاعل الداخلي بين الأنا والضمير الذي قد يؤدي إلى التوافق أو الفشل في التوافق، الأمر الذي يكشف عن الحاجة إلى مبدأ ثالث للتعلم. هذا المبدأ يعتبر إنسانياً بصفة مميزة وبالتالي منطقياً وعقلانياً.

فالعصابي، إذن، هو ذلك الشخص الذي يكشف بوضوح صارخ عن الحاجة إلى تضمين عامل ثالث في نظرية ملائمة للتعلم. فالإغفال الواعي للضمير بواسطة الأنا يبدد الشعور بالذنب ويستبدله بالإشارات العصابية للقلق وإدانة الذات. فالأنا لا يستطيع أن يتناول بفاعلية هذه المشاعر لأنه لا يملك ثمة علاقة «حقيقية» بالأحداث التي تخلق شعوراً بالذنب. وحينما نتعلم أن نكون على بصيرة واعية بهذه العلاقة، إنما نتعلم التوافق. وحينما يعطينا ضميرنا لذة أكثر مما يعطينا قلقاً، إنما نتعلم أن نكون في أحسن موقف ممكن لاستمرار السعادة الإنسانية. ويتناقض هذا مباشرة مع المبدأ الفرويدي الذي يقرر أن السعادة وظيفة لتحرير الحياة الغريزية والعدوانية بشكل ملائم من «ضمير زائد التعلم» (overlearned conscience). فحينما نتعلم أننا لم نعد قلقين أو شاعرين بالذنب بطريقة عُصابية حيال ما قد فعلناه أو حيال كيفية إغفالنا لحفزاتنا المعنوية (وليس حينما نتعلم أن نحرر

اندفاعاتنا المكبوتة- فهذا يؤدي إلى العصابية والسيكوباتية)، عندئذ يمكن أن نعتبر أنفسنا أشخاصاً متوافقين. فأن نكون متوافقين يعني التمييز على نحو ملائم بين القلق والذنب السويين والقلق العصابي الذي يهدر طاقات الكائن الحي الإنساني. ولا يستطيع التعلم بالاقتران الشرطي وبالمحاولة والخطأ أن يفعل هذا من أجلنا. أما البصيرة الواعية كعامل ثالث فحسب، فهي التي تسمح بالتوافق الأقصى على المستوى الإنساني.

يبدو واضحا من كل هذا أن نظرية شاملة في التعلم ينبغي أن تتضمن العوامل الثلاث: التجاور (contiguity)، والثواب (reward)، والحرية (freedom). ويكمن في الأخير (الحرية) – الشعور بالالتزام، وبالضمير، وبالواجب – وهو الجانب الحاسم المميز للتعلم الإنساني بطريقة فريدة. وسواء تعلم المرء أن يصير شخصاً راشداً ناضجاً أو عصابياً، إنما يتوقف ذلك على مجموعة العادات، ومجموعة الاتجاهات، ومجموعة المُثل التي تعلم أن يكاملها داخل نموذج متسق أو غير متسق للشخصية. وإذا طرحنا سؤالاً، كيف يتعلم المرء أن يسلك في ضوء («من الواجب عليَّ» أو «لزاماً عليَّ»)، نستطيع أن نرى العوامل الحاسمة التي تغفلها نظرية التعلم. وفي مجال الضمير، وخاصة كما يتعلق بالخصائص الأخرى المميزة للإنسان، نحتاج إلى عامل «التعقلية» (mindedness) لتفسير توافق الإنسان وإبداعاته. إن هذه القضايا الخاصة بنظرية التعلم وما تنطوي عليه من أهمية بالغة، تمثل حداً أدنى في علم النفس المعاصر ما لم تقدم فرصة للتحقق العلمي أو التجريبي. وإذا لم تقدم هذه المبادئ في إطار تصميم تجريبي يجعل من تحقيقها الموضوعي أمراً ممكناً، فسوف تكون ذات قيمة علمية ضئيلة، رغم ما قد تبدو عليه من نفعية وصدق في ضوء الإحساس العام.

وإذا كان للتجريب أن يهتم بالعامل الثالث الحاسم، وهو «العامل المنطقي العقلاني» (rational factor)، لنظرية منظمة في التعلم، فهو مجبر على استخدام الكائنات الحية الإنسانية، وليس الفيران، كمفحوصين. فالإنسان يتعلم عن طريق الاقتران الشرطي أو الارتباط، ويتعلم عن طريق حل المشكلات أو التعزيز؛ لكن ما يميز التعلم الإنساني بصفة خاصة هو كونه «تعلماً منطقياً وعقلانياً»، وتعلماً يقوم على «تضمين الأنا» فيه. وتلك وجهة رئيسية للبحث

العلمـــي ينبغـــي أن ينحـــو إليها بـــدون تعيـــين لتفاصيلهـــا. وليس هناك من ســـبب يفســـر لمـــاذا لا تطـــرح برامـــج البحـــوث الخاصـــة بالتعقليـــة والإراديـــة والضمير بطريقـــة منظمـــة وفقا لخطوط مشـــابهة لتلك التـــي اقترحها أصحـــاب «نظريات المســـتوى المنخفـــض» (Low – level theorists) علـــى الفيـــران، أو على المناشـــط الأدنـــى مـــن التعلـــم الإنســـاني. علينـــا أن نبتدع مواقـــف تجريبيـــة لا تحجب هذه العناصـــر فـــي الإنســـان: وهـــي العناصر الأكثـــر فائدة فـــي فهم ما يتفـــرد به من تعلـــم وتوافق وإبداع إنســـاني.

الفصل الرابع
تعقيل البدن (*)

يبدو «العقل» و«البدن»، مثل معظم الكلمات في حصيلتنا اللغوية العادية، ككلمتين بسيطتين للغاية. كل فرد يعرف ما هو الجسد، وكل فرد يفهم معنى العقل، أو هكذا يتخيل حتى يسعى إلى تحديدهما بطريقة أكثر دقة، ثم قد يكتشف تطبيقات خفية للمصطلحين لم يكن ليتوقعها من قبل.

لقد بدت العلاقة بين العقل والبدن، لقرون عديدة، كما لو كانت لا تمثل مشكلة معينة. تناولها أرسطو، على سبيل المثال، في ضوء «التآلفية» (Compositionism)، حيث يعتبر الإنسان كياناً واحداً متكاملاً، وليس باثنين. فالعقل والبدن مصدران جزئيان غير مكتملين بالضرورة في حد ذاتهما، وينتظمان بطبيعتهما ليكمل أحدهما الآخر. وفي وحدة أوثق من وحدة الأكسجين والهيدروجين، والتي لا تفقد هويتها في تكوين الماء، يمتزج العقل والبدن ليشكلا كائناً إنسانياً حياً. العقل خاصية لمصدر جزئي مسئول عن صيرورة تلك العناصر المادية والحيوية إنساناً أكثر من أي شيء آخر. وإذا كان لأرسطو أن نواجهه بالميل الحالي إلى توحيد التفكير بنشاط المخ، فمن المحتمل أنه لم يكن ليعترض بشدة. العقل، في نظريته، يمثل عضواً إنسانياً، وليس مجرد مادة جامدة غير حية. ولا يكون للعقل والبدن وجود منفصل في الكائن الحي الإنساني.

أما المشكلة الحديثة، فقد نشأت من الطريقة التي جعل بها «ديكارت» العقل والبدن في حالة من التعارض والتناقض. لقد صورهما، باستخدام نموذج الحصان وراكبه، ككيانين محددين منفصلين تماماً أحدهما عن الآخر عدا وجود نقطة اتصال متملصة تتموضع في الغدة الصنوبرية. وقد مهد له ذلك السبيل لتناول البدن كتركيب أشبه بالماكينة، ولكن فحسب على حساب الإطاحة بفكرة وحدة الشخصية. وإذ ظل العقل، كما يعتقد ديكارت، منغلقاً في البدن لا يتصل بالحواس، فكيف نكون واعين به خارج الأشياء كما نخبرها؟

(*) Minding the body

فلن يكون للعقل نوافذ مفتوحة على العالم. ومن الصعب على ديكارت كذلك تفسير تأثير التفكير على العمليات الجسمية في حالات التنويم المغناطيسي والأمراض السيكوسوماتية. وإن لم تكن هناك إمكانية للتفاعل بين العقل والبدن، فلن يستطيع أن يؤثر أحدهما في الآخر.

إن أحد مزالق التورط في معضلة الثنائية العويصة، هي أن نتناول الإنسان كعقل أو بدن، وليس كلاهما. لقد اعتبر (بركلي)، الفيلسوف الأيرلندي، كل الموضوعات المادية على أنها انعكاسات للعقل، وأنها ليست بأكثر مادية من أحلام اليقظة أو الاسترجاعات بالصور المتحركة في رواية سينمائية. والأستاذ في قاعة المحاضرة يعمل بوهم أنه يحاضر للطلاب في ذلك المكان. وفي الواقع، لا توجد قاعة المحاضرة خارج عقله، والمتلقون هم عقول وأفكار. إن عالم الواقع من الاقناع بحيث يطرح لهذه المفارقات حلولاً شائعة.

وقد يميل الفكر السائد إلى تفضيل «الأَحَدية» (monism) عملاً بمبدأ غائي واحد، ولكن من نوع مخالف: يوجد البدن وليس العقل. فالتفكير نشاط كيميائي – كهربي لملايين الخلايا المخية ينساب في نماذج مركبة خلال اللحاء والجذع المخيين. وإذا كانت هذه النظرية تتمتع بميزة البساطة، فإنها لا تقترب بالمشكلة إلى الحل. فثمة تباين هائل بين الوعي بالمعنى وإنسياب الدوائر الكهربية بصرف النظر عما تتصف به من تعقيد. وإذا كانت الأحداث العصبية بوضوح هي متعلقات للتفكير، فإنها لا تقدم تفسيراً كاملاً.

ويوجد موقف مشابه حينما يستدعي شخص صديقه على التليفون. فالصوت ومعناه يتم حملهما وتوصيلهما بواسطة ذبذبات في جهد الخط، لكن هذه النظرة الإجرائية الضيقة لا تلُقي ضوءاً كثيراً على الطبيعة الحقيقية للتفكير التواصلي.

وربما يمكن إزالة بعض العقبات التي تعترض حل المشكلة عن طريق تحليل الطريقة التي تتكون بها مفاهيم البدن والعقل. حينما نتأمل في الكائن الحي الإنساني وخبرته المباشرة، نكتشف أن بعض العمليات ترتبط بالقوى الأصلية للطبيعة بطريقة أوثق من غيرها. فالحركة والهضم والتمثيل الغذائي،

على سبيل المثال، يمكن تفسيرهما بشكل ملائم في ضوء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، في حين أن التفكير والاختيار لا يمكن تفسيرهما كذلك. هذه الملاحظات وغيرها تستخدم كأساس لمفاهيم البدن والعقل. ويمكن تحقيق المزيد من صقل هذه المفاهيم بواسطة التركيز على ما بينها من تناقض. فكل منهما هو ما لا يكون الآخر، أشبه إلى حد ما بوصف الذرة الموجية للضوء في ميكانيكا الحركة التموجية. وما ننتهي إليه هو تكوينات منطقية، وليس كيانات حقيقية، فليس العقل والبدن، سواء بمفردهما أو باتحادهما معاً، بالكائن الحي الإنساني. لكنهما تمثيلات مجردة لشيء ما موجود بطريقة مختلفة تماماً في إنسان حقيقي.

وهنا تصير المشكلة، كنتيجة لذلك، معقدة بطريقة لا تبعث على الأمل بسبب الحقائق المصطنعة المتعلقة بتصور المشكلة، الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة القضايا الأساسية. فليس هناك من تنافر بين العقل والبدن في الناس كما نعرفهم، ولكن فحسب في فكرنا عنهم.

يحاول «ويزدوم» في الدراسة المختارة التالية، إعادة تفحص العلاقة بين العقل والبدن من وجهة نظر جديدة. يقدم علم المغنطيسية الكهربية نموذجاً من الطبيعة لظاهرتين محددتين بطريقة قابلة للملاحظة ويتفاعلان غالباً كما لو أنهما ظاهرة واحدة بعينها. وبرغم أن «ويزدوم» يتناول هذه القضايا على أساس من الثنائية، إلا أنه يمكن تطويع هذا النموذج لتصورات نظرية مختلفة. وسواءً وجد القارئ، أم لم يجد، اقتناعاً بما قدمه هذا العالم من مضاهاة بين علاقة العقل – البدن والمغنطيسية – الكهربية، فمن المحتمل أن يستثير هذا النموذج تفكيراً أصيلاً عن مشكلة أزلية في علم النفس..

(١١)

نموذج جديد
لعلاقة العقل – البدن (*)

ج.أ. ويزدوم

(مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية)

١- مشكلة الوجود:

يقصر المحللون اللغويون الذين يكتبون عن علاقة العقل – البدن، أنفسهم على مشكلات معرفية، أو على بعضها. وقد طرحوا أسئلة، مثل: كيف أن عقلاً واحداً يعرف عن وجود ومشاعر عقل آخر من سلوك البدن؟ تلك أسئلة لا تهمنا في هذا الصدد، ولن أتساءل عما هو مقصود من قضايا علاقات العقل- البدن، فما يهمني فحسب هو مشكلة الوجود التقليدية، التي سيطرت على الفلسفة في الماضي، خاصة اعتباراً من ديكارت فصاعداً، والتي نادراً ما نوقشت على مر عصور طويلة. وهدفنا هو أن نعرض لوصف نموذج يعبر عن علاقة عامة بين العقول والأبدان.

انطلاقا من الافتراض بأن العقل والبدن شيئان بشكل أو بآخر، يمكن تقسيم النظريات المعروفة عن العلاقات الممكنة بينهما على النحو التالي:

(١) العقل يؤثر في البدن والبدن يؤثر في العقل (التفاعيلة أو ثنائية التفاعل).

(٢) تتوازى الأحداث التي تقع في العقل مع الأحداث التي تقع في البدن، والعكس صحيح، بدون ما تفاعل بينها (التوازية أو ثنائية التوازي).

(٣) يُـرَدّ العقل إلى البدن (منحى الظاهرات المضافة epiphenomenalism أو الأحدية المادية)،.

(٤) يُرد البدن إلى العقل (المثالية أو الأَحَدية المثالية).

(*) J. O. Wisdom: A new model for the mind - body relationship. Brit. J. Phil - Sci., 1952, 2, 295-301.

(٥) يُرَدُّ العقل والبدن إلى شيء ثالث (الأَحَدية المحايدة).

تنشأ «التوازية» (parallelism) بسبب الصعوبات التي تكتنف «التفاعلية» (Interactionism)، وتكمن أحد الأسباب الرئيسية لتبني الأحدية في صعوبة تقبل أي شكل للثنائية. وإذا كان للتفاعلية أن تلقى قبولاً أكثر، فسوف يختفي جانب كبير من السبب الذي يدعو إلى التمسك بأي نظرية من النظريات الأخرى. ومن المحتمل أن الصعوبة الأساسية تتمثل في أن نفهم بأي آلية (ميكانزم) يتم التفاعل بينهما، وذلك من وجهة النظر الثنائية بأن العقل والبدن لا يقبلان عزو أو رد أحدهما للآخر. ولكي نتغلب على ذلك، أقدم نموذجاً عن «اللاإختزالية» (irreducibility) أو عدم القابلية للإختزال (اختزال العقل في البدن، والعكس)، في ارتباطها بالتفاعل بين العقل البدن، ويعرض لنوع ملائم من التفاعل بينهما.

٢- **طبيعة النظريات التوحيدية:**

هناك اعتقاد عام بأن نظريتين يمكن توحيدهما بطريقة واحدة، أي بواسطة «رد» الواحدة إلى الأخرى. ويمكن أن يتم هذا ولا شك. فنظرية الضوء على أيدي «ماكسويل» قد ردت إلى نظريته الكهرومغناطيسية. وهنا يعني «الرد إلى» نفس الشيء الذي يعنيه «مُسْتَقراً من». وهذا المعنى هو الذي يكمن وراء تلك المحاولات أو النزعات العقيمة التي تنشد، مثلاً، «رد» البيولوجيا إلى الفيزياء، وهكذا

لكن ثمة معنى آخر وحتى أكثر أهمية، فيه يمكن أن تتحد نظريتان (ن١، ن٢)، وأنه بواسطة النظرية (ن) يمكن استقراء ن١، ن٢ بشكل منفصل إما كحالات خاصة أو كحالات تقريبية (وقد تنعكس هذه أحدها على الأخرى). بهذا المعنى نجد أمثلة هامة عن «النظريات التوحيدية» (unifying theories): فنظرية الجاذبية لنيوتن قد وحدت قوانين السرعة لجاليليو وقوانين حركة الكواكب لكيبلر، والنظرية الكهرومغناطيسية لماكسويل قد وحدت قوانين فاراداي وأمبير، ونزعت نظرية أينشتين عام ١٩٥٠ إلى توحيد نظريته في الجاذبية عام ١٩١٥ وعلم المغنطيسية الكهربية. والنقطة الهامة هنا أنه لا

يمكن استقراء أي النظريتين (نـ١، نـ٢) من الأخرى: فقوانين كيبلر لا يمكن استقراؤها من قوانين جاليليو، ولا قوانين جاليليو من كيبلر.

وأفضل مثال للتوحيد بالنسبة للأغراض الحالية، تقدمه النظرية الكهرومغناطيسية. في حالات معينة يمكن أن ندرس الظاهرات الكهربية أو الظاهرات المغنطيسية بطريقة مثمرة، بدون ما اعتبار للأخرى؛ ونستطيع أن نحصل على قوانين تتعلق بأي من هذه الظاهرات التي لا تحال للأخرى. ولذلك، فإن القانون المغنطيسي، الذي يقرر بأن القوة بين قطبين تتناسب مع قوتهما وتتناقص مع مساحة المسافة بينهما، لا ينطوي على إحالة إلى المفاهيم الكهربية. كذلك فإن القانون الكهربي، الذي يقرر بأن انسياب التيار خلال موصل كهربي يتناسب مع فارق الجهد بين نهايتيه، هو مستقل عن المفاهيم المغنطيسية. ومن ناحية أخري، توجد أيضا علاقات بين الكهربية والمغنطيسية، تعزى بداية اكتشافها إلى أمبير وفاراداي واستكملها ماكسويل. يمكن التعبير عن قانون أمبير بأن القوة المغنطيسية المستثارة بتيار كهربي تحمل علاقة كمية بسريان ذلك التيار. ويؤكد قانون فاراداي أنه إذا تحرك مجال مغنطيسي في مكان بحيث أن خطوط السريان المغنطيسية تقطع المُوَصِّل الكهربي، ينشأ تيار كهربي في المُوَصِّل تكون قوته الدافعة الكهربية متناسبة مع معدل التناقص الذي قطعت فيه خطوط السريان الموصل الكهربي. ورغم أن هذه القوانين تخدم الغرض الحالي، لكنه يكون من الأجدي أيضا تناولها بشكل عام، كما عرضها ماكسويل بعدما قدم عاملاً غير معروف لأمبير أو لفاراداي. إن كل العلاقات بين الكهربية والمغنطيسية تتضمنها معادلات ماكسويل.

بهذه المعادلات، إذا وفرنا التيار والقوة الدافعة الكهربية نستطيع حساب المجال المغنطيسي المستثار؛ وإذا وفرنا المجال المغنطيسي نستطيع حساب القوة الدافعة الكهربية وبالتالي التيار. وهنا يتضح تماماً مدى التأثير المتبادل. فبصفة عامة، لا يوجد تيار بدون مجال مغنطيسي، ولا مغنطيسية لا تُنْشئ تياراً.

وسواء اعتبرنا عمومية هذه القوى أمراً موضع جدل، فإنها ليست بذات أهمية بالنسبة للأغراض الحالية. ومن الناحية التصورية يعتبر هذا أمراً عاماً، وهذا ما يكفي لبناء نموذج. ورغم هذا الاعتماد المتبادل، نستطيع غالبا العمل

إما مع الكهرباء أو مع المغنطيسية على حدة، ونتناول التغيرات في أحدهما بدون أن نهتم بالأخرى، مثلما نتناول المقاومة في موصل كهربي أو القوة بين قطبين مغنطيسين. وفي بعض الحالات من الضروري، طبعاً، أن نضع في الاعتبار تلك التغيرات في الكهربية التي تستثير مجالاً مغنطيسياً يعدل بدوره من التيار الكهربي، لكن بالنسبة لأغراض معينة لا يعتبر هذا أمراً هاماً.

نستطيع أن نرى الآن أن النظريتين (نـ١ ،نـ٢)، ولتكونا الكهربية والمغنطيسية، تحتاجا لئلا تفقدا ذاتيهما، فلا يمكن استقراؤهما بطريقة متبادلة، أحدهما من الأخرى، ولا يمكن رد مفاهيم أحدهما إلى الأخرى، لأننا لا نستطيع العمل حتى من حيث المبدأ مع مفاهيم واحدة منهما فقط. وما يعنيه هذا أنه لا يمكن رد نظرية إلى أخري، لقد وجد ماكسويل أن الضوء شكل خاص للموجة الكهربية المغنطيسية. ومعنى هذا أن نظرية الضوء ليست بنظرية من نوع مختلف عن نظرية الظاهرات الكهرومغناطيسية.. فالضوء ببساطة موجة كهرومغناطيسية ذات طول موجي معين. ومن الطبيعي أن نحتفظ بمفهوم الضوء، لأننا مهتمون خاصة بالموجات الكهرومغناطيسية مع ذلك الطول الموجي الذي نربطه بالضوء. وبرغم ذلك، تفقد نظرية الضوء ذاتيتها المستقلة، فيمكن ردها إلى النظرية الكهرومغناطيسية (وبصورة دقيقة، يرتبط الضوء ليس بطول موجي واحد ولكن بمجموعة صغيرة منها).

ولنلخص الآن العلاقات الكهربية المغنطيسية. تعتمد ظاهرات هذين المجالين بطريقة متبادلة على أحدهما الآخر. ومن ناحية أخري، تعتبر ظاهراتهما مستقلتين من حيث عدم رد أحدهما للأخرى لأن مفاهيمها لا ترد أحدها إلى الأخرى. ومن ناحية ثالثة، طالما أننا نستطيع تناول الكهربية والقوانين الكهربية بدون رجوع إلى المغنطيسية، والعكس صحيح؛ وسواء أكان هذا صحيحاً على وجه التقريب فحسب أو صحيحاً في ظروف معينة فقط، نستطيع أن نقرر أن كل مجال له «استقلال ذاتي» معين.

٣- نموذج ثنائي:

سواء كانت الكهربية توجد أو لا توجد بدون المغنطيسية، أو المغنطيسية

بدون الكهربية، فإن تلك مسألة ليست موضع اهتمامنا. فالصلة الوطيدة بين الاثنين تكفي كنموذج تقريبي للنموذج الذي ننشده. ولا تلزمنا النظرية التوحيدية لماكسويل، كل ما يلزمنا هو:

١- قوانين تربط الظاهرات الكهربية أحدها بالأخرى بدون رجوع إلى المغنطيسية، وقوانين تربط الظاهرات المغنطيسية أحدها بالأخرى بدون رجوع إلى الكهربية.

٢- طريقة للإنتقال من الظاهرات الكهربية إلى المغنطيسية، كما يقدمها قانون أمبير، وطريقة للإنتقال من الظاهرات المغنطيسية إلى الكهربية، كما يقدمها قانون فاراداي. وعلى هذا النحو يكون لدينا مجالان من الظاهرات، يوصفان بمجموعتين من المفاهيم وينتظمان بنظريتين، ومن خلال نظرية توفيقية. فالمجالان مستقلان بالضرورة، ولكنهما في ظروف معينة يمكن أن يعملا بطريقة مستقلة، أي أنهما مستقلان. وهاتان المجموعتان من المفاهيم والنظريتان لا يمكن رد أحدهما للأخرى؛ إذن لدينا نموذج يمكن اعتباره نموذجاً «ثنائياً».

ونستخدم هنا هذا المصطلح للتعبير عن أي التئام أو نموذج يمكن وصفه فحسب بواسطة مجموعتين من المفاهيم. وهو «اللاإختزالية»، أي عدم رد إحداها إلى الأخرى، في حين أن المجالين المرتبطين من الظاهرات معتمدان في الحقيقة، ولكن برغم التأثير المتبادل يتصف كل مجال باستقلال ذاتي معين. وفي هذا الصدد يُستَبَعد أي معنى يرتبط بكلمة «ثنائية» في الفلسفة.

والقصد من النموذج أن نبين أن الصعوبة المتعلقة بمفهوم التفاعل لا تظهر في النموذج الكهرومغنطيسي للتفاعل.

والآن يمكن أن ننتقل إلى مشكلة العقل – البدن: تمكننا عمومية النموذج الثنائي من تناول البدن وعقله كشيئين بشكل أو بآخر. وتمكننا هذه العمومية، بتحديد أكثر، من عمل تقريرات توفيقية بين مجالي العقل والبدن، يعبر بعضها عن قوانين عامة. لذا يمكن أن يكون لدينا: «حينما يحقن الأدرينالين في الدم، يشعر العقل المرتبط به بالاستثارة»، و «حينما يكون العقل في حالة من الغضب

يرتفـع مسـتوي الادرينالين فـي أوعيته الدمويـة المرتبطة به». هنـا لدينا قوانين للتفاعـل ثنائـي الاتجـاه، أشـبه بقوانـين أمبير وفـارداي. ومـرة أخـرى، إرتباطاً بالاسـتقلال الذاتي فـي كل مجال، يمكن أن تكون لدينا قوانين فسـيولوجية، مثل القانـون الـذي يقـرر أن « مرض الكلية يـؤدي إلى زيادة ضغط الدم»، وهو أشـبه بقانـون فـارق الجهد فـي مُوَصَّـل كهربي. ويمكـن أن تكون لدينا قوانين نفسـية، مثـل القانـون الذي يقرر أن « اسـتدعاء المقاطع المتعلمة غيـر ذات المعنى يتناقص بالنسـبة للوغارتيـم الوقـت»، وهو أشـبه بقانون القـوة بين قطبين مغنطيسـيين. لكن الاسـتقلال الذاتي فـي أي المجالين يبقى تقريباً فحسـب ما دام لا يوجد(١) تأثيـر كبيـر علـى المجال الآخـر، (٢) وتغير كبير فـي ذلك المجال مـن أي مصدر آخـر. فيمكـن أن تكـون لدينـا ظاهـرات ذات تأثيـر متبـادل، ومـن ثـم «يهضـم الإنسـان وجبة عادية معينة فـي حوالي أربع سـاعات»، وذلك فقط فـي الحالات الإنفعاليـة العاديـة، وإذا تعـرض شـخص لخوف مفزع فسـوف لا يهضـم وجبته فـي ذلـك الوقـت أو ربما علـى الإطلاق. كذلـك القضية التي تقـرر أن « الخوف مـن الرسـوب فـي الامتحان قد يؤدي بالشـخص إلى أن يعمل بهمـة» قد تتعرض لتدخـل عوامـل أخري، وقد يحدث أن خوفه من الرسـوب يـؤدى إلى قرحة الإثنى عشـر، ومـا يترتب عليها مـن آلام تمنعه من التركيز فـي عملـه». وبالإضافة إلى ذلـك، يقـدم النموذج لنـا إمكانية من نوع معـين للاختيار: فإذا أردنـا زيادة مجال مغنطيسـي، نسـتطيع أن نفعل هذا إما بواسـطة إضافة المزيد من المغنطيسـيات أو بواسـطة تمريـر تيار كهربـي؛ وإذا أردنا زيادة تيار كهربـي، يمكن أن نفعل هذا إما بواسـطة إدخال تيار إضافـي أو بواسـطة تدوير مغنطيس. وعلى هذا النحو، إذا أردنـا زيـادة الغضب الذي يشـعر به شـخص حيال ملاحظات مؤلمة نسـتطيع أن نفعـل ذلـك عـن طريق جعـل ملاحظتنـا باعثة علـى مزيد من الإيـلام أو عن طريـق حقـن الأدرينالـين، وإذا أردنا تغيير تكوين الدم لدى شـخص، نسـتطيع أن نفعـل هـذا إما بواسـطة حقنة فـي داخل الوريـد أو بتقديم معلومـات إليه تبعث علـى الخـوف. ويمكـن أن نقرر بصفة عامـة، أننا يمكن أن نحـدث تغيرات عقلية (أو تغيـرات جسـمية) إمـا بوسـائل عقلية أو جسـمية، مثلما نسـتطيع أن نحدث تغيـرات مغنطيسـية (أو تغيرات كهربية) إما بوسـائل مغنطيسـية أو كهربية.

وفقـا للنمـوذج، الـذي فيه لا يمكـن أن توجـد الظاهرات المغنطيسـية بدون

ظاهرات كهربية والعكس صحيح، يكون للعقل والبدن مكانة السيادة بدون حق الانشقاق بينهما. فبينما لا يترك النموذج مجالا لعقول متجردة من الجسد، ولا يعطي أفضلية للأجساد في ابتداع المتاع الرئيسي على الأرض؛ ومن ثم فهو **نموذج لا يقدم عقولاً بدون أجساد، كما لا يقدم أجساداً حية بدون عقول.**

والنموذج أيضا لا يحجب النشاط المباشر لعقل على عقل آخر؛ فإذا كان العقل أشبه في النموذج بالمجال المغنطيسي، يستطيع مجال مغنطيسي أن يفرض تأثيراً مباشراً على مجال مغنطيسي آخر.

ومن الواضح أن النموذج يختلف بجلاء عن النموذج الكلاسيكي، الذي وضعه « جيبلينكس» Geulinex عن ساعتين متزامنتين وإن كانتا غير متصلتين ميكانيكيا.

٤- حدود النموذج:

لا يثبت النموذج المزدوج أن هناك تفاعلاً بين العقل والبدن. وإنما يجذب الانتباه إلى حقيقة غير مألوفة، مأخوذة عن علم الكهرومغناطيسية، الذي يبدو مطابقاً لـ «اللاإختزالية»، والاعتماد الوجودي، والاستقلال الذاتي.. وهذا من شأنه أن يزيل الغموض عن التفاعل بين العقل – البدن.

وإذا كان لأحد أن يعترض بأن هذا النموذج يزيل غموض التفاعل بين العقل والبدن بنفس القدر الضئيل الذي يزيل به غموض التفاعل الكهرومغناطيسي، فإنه ينبغي الاعتراف بذلك؛ فلم تجر ثمة محاولة لإزالة أي غموض قد يوجد حيال التفاعل الكهرومغناطيسي. فإذا شعرنا بغموض ذلك، فإن كل ما يمكن إيضاحه هو أن مشكلة العقل – البدن قد لقيت تعميماً واهتماماً لأنها من نوعية معينة.

والنموذج يستبعد «التوازية» (parallelism) بدون تفاعل، ولكن لا يستبعد إمكانية نوع معين من التوازية بين المجالات العقلية والبدنية. وهذه التوازية ينبغي أن تكون أقل بساطة بكثير في طبيعتها مما قد افترضه مؤيدو الاتجاه التقليدي.

قد يؤدي استخدام قوانين أمبير وفارادي وماكسويل إلى إحباط الأماني.

وليس من المقترح أن القوانين الواصلة بين العقل والبدن، مثل تلك القوانين التي استخدمتها للإيضاح، تتمتع بأي شيء أشبه بعمومية وتحديد القوانين الكهرومغناطيسية. وقد نأمل التوصل إلى قوانين عامة ومحددة جداً من هذا النوع، ولكننا لم ننجح بعد في هذا. وتعتبر القوانين الواصلة بين العقل والبدن، مثل قوانين ماكسويل، قابلة للإقرار في عبارات كمية دقيقة، لكنه لا ينبغي إغفال أن الكثير من هذه القوانين في الحقيقة هي قوانين «كمية» برغم عدم إمكانية تقديم أرقام محددة: فالقانون يفترض بصفة عامة أن درجة من عدم المسئولية لها علاقة كمية بمقدار تعاطي الخمور (بالرغم من أنه يرتبط بطبيعة الحال بأشياء أخرى كذلك، مثل التكوين الفردي للشخصية). مثل هذه الحدود بعد كل شيء هي ضئيلة ولا تؤثر في استخدام النموذج.

ومن الأهمية أن نؤكد، بالرغم من النموذج، أن كل فكرة التفاعل بين العقل والبدن، التي تتألف من اللاإختزالية والاعتماد الوجودي والاستقلال الذاتي قد تتحول إلى أن تصبح غير قابلة للدفاع عنها. فكل ما يُرَجّي من تصميم النموذج أن يجعل من المعقول تماماً طرح واستنباط أنواع معينة من الفروض عن العقول والأبدان.

لقد وُجد، إبان العقود الماضية، أن بالعقل أبنية متعددة تسهم بطريقة حيوية فعالة في الأنماط المختلفة للسلوك. توضح الدراسات الفذة التي قام بها «أولدز» و«فون هولست» و«فون سانت بول» فاعلية غرس أقطاب كهربية في استدعاء تشكيلة واسعة من الاستجابات التي يمكن التنبؤ بها. وعندما يقف الطالب من هذه التجارب على أن العلماء يفهمون الآن جيداً كيف يقوم العقل بوظائفه، فإن الفكر السائد سوف يقنعه أنه بينما قد رجعت حدود الغموض إلى الوراء خطوات قليلة، فإن سر الوعي يبقي معززاً بكل إصرار كما كان من قبل. كيف يتم تفريغ العَصَبات (النيورونات) في حالة شعور فرد بالانشراح بشروق الشمس أو الشعور بالبهجة في حضرة صديق؟ فكل الاندفاعات، بصرف النظر عن وظيفتها، تنشأ بواسطة حركة الأيونات ions خلال غشاء الخلايا مقترنة بإطلاق مادة قادحة عند طرف المحور axon terminal في سياق المنظومة العصبية. لماذا ينبغي إذن أن يرتبط الاندفاع بحركة عضلة لدى شخص، وأخرى بالتفكير الإبداعي لدى أينشتين؟ وبالرغم مما تحقق من تقدم هائل في علم فسيولوجيا الأعصاب، فإن دور عَصَبات (نيورونات) لحاء المخ في التفكير هو موضع اهتمام وبحث مستمر.

(١٢)

الدماغ والعقل (*)

جيرارد فون بونين

(كلية الطب – جامعة إلينوي)

مقدمـــة :

يعنـــي الدمـــاغ والعقـــل، بالنســـبة للكثيريـــن، تشـــريح الدمـــاغ والعقل. وفـــي الحقيقـــة أن التنظيـــم التشـــريحي يفرض قيوداً مســـتمرة على الطـــرق التي يمكن أن يعمـــل بهـــا الدمـــاغ، ولكنه يتـــرك الطريقة التي يعمـــل بها بالفعـــل غير محددة بدرجـــة كبيـــرة. كذلـــك، يُعـــرف العقـــل أساســـاً بوظائفه، ولكـــن ثمة أيضـــا قيوداً مفروضـــة عليـــه بواســـطة أشـــياء مثـــل الأخـــلاق أو الطبائع. فـــي أي حـــدث، قد يكون من الصواب القول أنه بالنســـبة للدماغ، نفكر أولاً فـــي التشـــريح، وبالنســـبة للعقـــل، نفكر أولاً فـــي وظائفه؛ ولكن فـــي كلتـــا الحالتين، من الأهميـــة بمكان ألا نغـــض البصـــر عن الجانـــب الآخر.

الخلايا العصبية:

ســـوف نبـــدأ بوقفـــة قصيرة علـــى تشـــغيلات الخلايـــا العصبيـــة. الكثير من البيانـــات المتعلقـــة بالخلايـــا العصبيـــة مشـــتقة بالفعل مـــن الأعصـــاب الطرفية، غالبـــاً الأعصاب الحســـية. وهـــذه تتلقى دفعاتهـــا من أعضاء تتعرض لاســـتثارات مســـتمرة طويلـــة، مقارنـــة بمدة الدفعـــات العصبية. هـــذه الاســـتثارات، بالإضافة إلـــى ذلـــك، ذات قوى مختلفة فـــي أوقـــات مختلفة. كذلك، فـــي الجهـــاز العصبي المركـــزي توجـــد دائماً الخلايـــا العصبية فـــي مجموعات هائلة، بحيث أن ســـلوك خليـــة واحـــدة ليس مؤشـــراً حقيقياً لما يحدث فـــي الدمـــاغ حينما يســـتقبل مثيراً مـــا. وفـــي هـــذا الإطـــار، دعنا نســـتعرض بإيجـــاز بعـــض الخصائص الأساســـية للخلايـــا العصبية.

(*) G. von Bonin: Brain and mind. In S.Koch (Ed.), Psychology: A Study of a Science. Vol. 4. Biologically oriented fields: Their place in psychology and in biological Sciences. New York: Mc Graw - Hill, 1992.

لقد أوضحت الدراسات الكهربية – المجهرية electron – microscopic أنه يوجد غشاء حول الخلية العصبية يبدو كخط دقيق في الصورة، وأحياناً مزدوجاً، وأكثر دكنة إلى حد ما من البلازما داخل الخلية. وتبدو بعض «أجسام نسل» Nissl Bodies أنها تقع بطريقة مباشرة مجاورة للغشاء، ولكن ليس هذا هو القاعدة. ويمكن أن نحدد بسهولة أجسام نسل والحبيبات الفتيلية Mitochondria. ولكن تركيبها التفصيلي ليس موضوعاً في هذا الصدد.

إن قانون «الكل – أو – لاشيء» (all-or-none) يبدو أنه يحكم تشغيلات الخلايا العصبية. ففي لحظة معينة، قد تستثار الخلية أو لا تستثار، ولكن إذا استثيرت فسوف تفعل ذلك بكل القوة التي هي عليها في تلك اللحظة التي تكون فيها قادرة على الامتداد. لذا تكون قوة المثير غير قابلة للانتقال بواسطة دفعات متدرجة من خلية ما؛ فالطريقة الوحيدة التي بها يمكن أن تتكشف قوة المثير هي بواسطة معدل الاستثارة. فبقدر ما تزداد قوة المثير، يزاد «قدح الاستثارة» (firing) لخلية من الخلايا.

وما جري من اعتبار الدفع العصبي impulse ناشئاً من كف عمل الغشاء، يلقى قبولاً عاماً. فالكف يؤدي إلى إيقاف الاستقطاب depolarization الذي ينبغي أن يحدث داخل منطقة واسعة تماماً من الخلية لكي يؤول إلى دفع منتشر. ويبقى الدفع الواحد في أفضل الأحوال لحوالي واحد ميليثانية. بعد الاستثارة، تبقى الخلية العصبية غير قادرة على الاستثارة مرة أخرى لعدة ميليثواني، حتى تستعيد الغشاء وتبنيه مرة أخرى. وتختلف فترة الاستعادة في الخلايا العصبية المختلفة، فقد تكون قصيرة لحوالي واحد أو إثنين ميليثانية (يفترض أن وحدات المخيخ cerebellar units قادرة على الاستثارة لخمسمائة مرة في الثانية)، وربما تكون لحوالي ١٥ أو أكثر ميليثانية.

ومن المعروف جيداً أن الخلية العصبية لا تستجيب لمثير واحد، ولكن فقط حينما يسبق مثير «شرطي» المثير الفعلي. ومن المقرر بصفة عامة أن كل مجال «الموصّلات العصبية» (synaptic field) ينبغي أن يُستَثَار قبل أن يتمكن المثير من أن ينفذ فيها.

وتوصل الشجيرات العصبية dentrites بسرعة أقل بكثير من المحور العصبي axon، وحتى من جسم الخلية cell body، بحيث أن ما يأخذ فترة من الميليثانية على جسم الخلية قد يأخذ مئات من عشرات الثواني على الشجيرة، لذا فإن الوقت الذي تستغرقه المثيرات على الشجيرة قد يكون بحوالي ١٥ ميليثانية.

هذه الخصائص مهمة، بالطبع، خاصة بالنسبة لنشاط النيرونات، في حين أن معدل الاستثارة يتوقف على قوة المثير الواقعة على نهاية العضو. ويمكن أن يتبين هذا بسهولة كافية في العصب الطرفي peripheral nerve الذى يمكن قياسه. وحالماً يكون الدفع في النظام العصبي المركزي، يتحدد معدل الاستثارة جزئياً بالمعدل في العضو الطرفي، وجزئياً بالتفاعل بين النيرونات التي تؤلف النواة من الدرجة الثانية Second order nucleus.

ومما هو جدير بالاعتبار أننا لا نجد أبداً من الناحية العملية أن الاستثارة تتعلق بخلية عصبية واحدة كشرط أولي للدفع. ففي العين، على سبيل المثال، يتألف المثير الملائم من خمس إلى ثماني كميات تتحول إلى ما يقرب من خمس قنوات مختلفة. في العضلة، يُنَشِّط المثير ذو الحساسية الحركية الاتزانية proprioceptive stimulus عدداً هائلاً (حوالي خمسة) من الأطراف العضلية في آن واحد. وتوجد براعم التذوق taste buds بصفة عامة في مجموعات كبيرة، وهكذا.

ولما كانت العتبات الفارقة الفردية داخل أي مجموعة من نهايات الأعضاء متفاوتة إلى حد ما، فعادة ما يكون هذا طريقة للاستجابة لشدة المثير: فبقدر ما تصير الخلايا متضمنة، تتزايد شدة المثير. وسواء قامت المثيرات من الخلايا المختلفة بتدعيم بعضها الآخر عند الموضع التالي (النواة)، أو سواء، على العكس، سوف تضيق المثيرات إلى قنوات أقل — فإن ذلك يعتمد على ظروف ومثيرات عديدة. فبالإضافة إلى هذه الدفعات، توجد دفعات الكف inhibitory impulses في الجهاز العصبي .

الطابع والدماغ :

ما نعنيه بالطابع character قد يقترب من نموذج عمل الدماغ. قد نذهب، مثلاً، إلى أن الشخص يميل إلى النسيان، أو الدقة، أو سهولة الاستثارة.هذه الخصال تبدو أن تكون فطرية وأن تبقى مع الفرد طوال الحياة. ونحن غير قادرين، في أكثر الحالات أهمية، أن نحدد أي شئ في الدماغ قد يرتبط بها على وجه التحديد. ففي حالة المواهب الموسيقية، يتمتع الأشخاص بنمو هائل لتلافيف المخ المعروفة بتلافيف هيتشل gyrus of Heschl (على مستوى ما فوق الفصوص الصدغية (supratemporal plane)، كجزء تشريحي مقابل.

الوعي :

يهتم علم النفس بالعمليات الشعورية أو الواعية، هل نستطيع أن نحدد معالم واضحة للوعي؟ نحن على يقين تام بأن الوعي لا يتمركز في اللحاء cortex، لأننا (أو في حالة المرض) يمكن أن نقيد من عمل اللحاء بدون أن نصبح واعين به، وهي حالة أطلق عليها «بابينسكي» Babinski مصطلح «اللاوعي» (anosognosia)، ويعني فقدان القدرة على الوعي بالمرض. ولكن تبين الخبرة الإكلينكية، وكذلك التجريب على الحيوان، أن الوعي يبدو مرتبطاً إلى حد ما بالمخ الأوسط midbrain وجذع المخ brain stem . وتؤدي العمليات القريبة من الأجسام الرباعية quadrigeminal bodies غالباً إلى فقدان الوعي. ويمكن استرداد الوعي بعد توقف العمليات في هذه المنطقة. وربما تستمر هذه الحالة لسنوات عديدة، وقد تبين بالتجريب على الكلاب أن الضغط على جذع المخ، وليس على عمليات اللحاء، يمكن أن يمحو الوعي.

ويعزى إلى «ماجون» Magon وزملائه اكتشاف «المادة الشبكية» reticular substance في جذع المخ وارتباطاتها إلى أعلى وأسفل الجهاز العصبي المركزي. وقد أوضحوا، على وجه الخصوص، أهمية هذه المادة بالنسبة لرد الفعل الاستثاري arousal reaction وللتوظيف الملائم للحاء المخ بالدماغ (Brain Cortical Functions).

أما ملاحظات «بينفيلد» Penfield، الذي استطاع أن يستدعي لدى

بعض الأشخاص أحداثاً محددة في حياتهم السابقة، فلا تنتمي حقيقة إلى الظاهرات التي تعنينا في هذا الصدد. فهذه الاستثارات للفصوص الصدغية تغير فقط من مضامين الوعي – وليس الوعي ذاته.

وقد تكون الملاحظات الاستبطانية في حد ذاتها غير مقنعة، ولكنها قد تكون سديدة للإشارة إلى تلك الفكرة التي تذهب إلى أنه يوجد إنسان صغير يجلس في مكان ما في الدماغ ويلاحظ ما يجري. هذه الفكرة من السهل أن تفسر الافتراض بأن الوعي لا يتمركز في اللحاء، ولكن يتمركز فحسب في مضامين الوعي.

وثمة جانب هام آخر للمشكلة يتمثل في أن العمليات الكامنة وراء الوعي تتواتر ببطء كأحداث تقاس في علم فسيولوجيا الأعصاب. ويتضمن الوعي تخطيطاً مقدماً، كما يتضمن استمراراً يمكن أن يتواتر فقط من تذكر ما كان يجري من قبل ومن التحقق من أن ما قد خُطِّط هو ما يتم تنفيذه الآن. وسواء كنا لا نعرف بأن هذه هي الطريقة التي تعمل بها المادة الشبكية، ولكنه من المثير للاهتمام أن نكتشف ذلك، ومن المحتمل أن يتحقق بواسطة الأجهزة الكهروفسيولوجية الحديثة. ومن الطبيعي أن تمضي بعض أحداث اللحاء contical events ببطء يتفق مع تواتر عمليات الوعي.

الدماغ والعقل:

لا يوجد حقيقة ثمة سؤال ذكي يمكن إثارته عن العلاقة بين علمي الفسيولوجيا والنفس. ويصدق التشبيه في هذين المجالين على ملاحظة الدائرة. تبدو الدائرة، بالنسبة للشخص الواقع خارجها، محدبة؛ ومقعرة بالنسبة للشخص الواقع داخلها. ويؤخذ المنظوران لشئ واحد ببساطة كقضية مسلمة. ولا نستطيع تقبل النظرية العِّلية في هذا الشأن. علينا أن نعترف ببساطة بأن العمليات الواعية والعمليات العقلية لا تعني نفس الشيء. ويعتبر «بور» Bohr خير من يعبر عن وجهة نظرنا – فهو الذي استعان بمبدأ «التكاملية complimentarity في تفسير تلك العمليات». فكما نحتاج إلى كل من الصورة الموجية wave picture ونظرية الجسيمات corpuscular theory لتفسير

سلوك الإلكترون، فإننا نحتاج إلى كل من الصورة الفسيولوجية والسيكولوجية لتفسير عمل الدماغ. فإذا كنا ندرس الدماغ بهدف تحديد عمل العقل، علينا أن نستعين بكل أنواع الأجهزة الجسمية والكيميائية وبأدوات علم النفس.

ويمكن القول بأن ذلك يؤول ليس لأكثر من العموميات، بأن العقل يصور الواقع. وبقول آخر، ينبغي أن تكون القوانين الشكلية لنشاط العقل واحدة مثل الأساس الشكلي للنشاط العصبي.

مركز الحس:

ترجع مشكلة مركز الحس sensorium commune إلى أرسطو كما هو معروف، ولكن أن نقرر أبعد بأن مركز الحس يوجد في اللحاء، فإن ذلك قد لا يعكس الواقع. ففي كل المناشط العليا يبدو اللحاء كما لو أنه يعمل ككل. وقد يبدو صحيحاً أن الأجزاء المختلفة قد تُتضمن بدرجات مختلفة من الشدة أو في نماذج مختلفة. وربما يكون الفص الجداري Parietal lobe هو الجزء الأول الذي يُتَضمن، ويتموضع بين المجالين البصري والسمعي، ولكن النشاط يمتد إلى الفص الجبهي frontal lobe وإلى المنطقة الطرفية limbic region بطريقة معقدة.

يذهب «فون فيشاكر» Von Weizsacker وآخرون كثيرون إلى اعتبار الجانبين (الحسي والحركي) منعزلين أحدهما عن الآخر- كما لو أنهما في فراغ – يعد شيئاً مصطنعاً ويؤول إلى نقص فهم هذه التكوينات. فهما يرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، وأي إعاقة حسية تؤول إلى إعاقة حركية، والعكس صحيح .

المُخْرَج الحركي:

تتحصر دائماً المهمة الأساسية للدماغ في عمل شيء ما أكثر من التأمل في سكون. تلعب الذاكرة دوراً هائلاً في الإحساس والإدراك، في العمل والأداء؛ ويلعب التبصر دوراً هاماً مشابهاً، ولكن يتحقق غالباً على نحو غير كامل. وبالإضافة إلى ذلك، من المعروف جيداً أنه مع التدريب، تمارس الحركات

بيسر أكبر وبفاقد أقل من الناحية الفعلية للطاقة. وهذا يعني فحسب أن تناسق النشاط العضلي قد تحسن، وهناك شك ضئيل أننا نستطيع تعلم الإعصاب (أو التغذية العصبية) Innervation لعضلاتنا بطريقة ملائمة، فهذه العملية أيضا تتم على نحو لا إرادي تماماً.

والمشكلة التالية: كيف يحرك الدماغ الآليات (الميكانزمات) الحركية، أي العضلات؟ من الواضح أن شيئاً ما يوجد في العقل أولاً ثم يصير حركة واضحة من نوع أو آخر. نعلم أنه يوجد دائماً في البداية قصد لعمل شئ ما، ثم يتبع ذلك التنفيذ العملي له، أين يتكون ذلك؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عليه يتضح من «اختلال الوظائف التعبيرية الحركية» (الأبراكسيا apraxia) – كما حددها «ليبمان» Liepman – من حدوث اضطرابات في الفصوص الجدارية وكذلك في الفصوص الجبهية. ومن هذه المناطق، تتجه الدفعات إلى المناطق اللحائية التي منها تتفرغ الألياف إلى الأجزاء الأعمق من الدماغ والحبل الشوكي.

وعادة ما تتجمع هذه الألياف في ألياف هرمية أو فوق الهرمية. وقد لقي هذا التحديد نقداً كبيراً؛ فقد أوضح «بوسي» Bucy في عدد من الرسوم البيانية ترتيب المراكز فوق الهرمية extra pyramidal centers. فمن الواضح أن كل الأنواء Nuclei فوق الهرمية تتجه بؤريا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى المادة الشبكية، ومنها تصل إلى الحبل الشوكي عبر سلسلة من النيرونات القصيرة؛ في حين أن الألياف الهرمية تذهب بطريقة مباشرة من اللحاء إلى الحبل الشوكي. أما توقيت هذه الدفعات، فيبدو أنها تصل في وقت ملائم لكي تؤثر في العضلات.

تعتبر الأفكار السائدة عن النظام الهرمي أفكاراً قد تبدو ساذجة. لقد أشار «كوجيل» Coghill إلى أن الوظيفة الأولى للنظام الهرمي هي قمع العمل الكتلي الذي هو الطريقة الأصلية لعمل جسم الحيوان. فلدى حيوان النيوط newt، مثلاً، يتحرك كل الجسم مع دفعة تصطدم بأي جزء من سطحه. وفي حالة الإنسان، تستجيب مجموعة محددة تماماً من العضلات لأي مثير. فالطفل الصغير، حينما يريد رفع يديه أو تحريك قدميه، سوف يحرك العديد

من العضلات التي ليس لها ما تفعله مع الحركة موضع الاعتبار. وحينما تنمو الامتدادات الهرمية، فإن مجموعة صغيرة فقط من العضلات سوف تصير متضمنة في الحركة.

ولقد اتضح أن الحبل الشوكي وحده قادر على الإتيان بقدر معين من الإتساق. وما يفعله اللحاء يمكن إيضاحه على نحو أفضل بعبارات، مثل: «اللحاء يريد من الأجزاء الطرفية limb أن تكون في وضع معين»، بدلاً من أن «اللحاء يريد انقباضاً contradiction لهذه أو تلك من العضلات». ويتفق ذلك مع أعمال «جيلهورن» Gelhorn، الذي كشف عن أن للاستثارة اللحائية تأثيرات مختلفة وفقا لتدفق الحساسية الحركية الإتزانية إلى الداخل (proprioceptive inflow).

وفي ضوء هذا، فإن الهدف الرئيسي للجهاز الهرمي pyramidal tract هو أن يرسل أسفل إلى الحبل الشوكي فكرة عامة بدرجة أكثر أو أقل لما ينبغي أن يحدث، تاركاً التفاصيل للجهاز بما يوجد في الحبل الشوكي ذاته. إنه يرسل أمراً بالهدف الذي ينبغي تحقيقه، تاركاً التفاصيل المتعلقة بكيفية تحقيقه إلى الموصلات التأثيرية internuncials والخلايا القرنية الأمامية anterior horn cells. لكن هذه المعلومات العامة ليست بكافية لتأكيد التنفيذ الرصين للحركات. وهنا أيضاً يكون دور الجهاز فوق هرمي. لقد شبه «شالتبراند» و«هوفشميت» نشاط هذه المراكز بنشاط الكمَّاحة (الفرملة) والياي، ويلائم الجهاز الهرمي تحقيق وظيفة الموتور. ويجدي هذا التشبيه على وجه التقريب في تبين وظيفة الجهاز الهرمي.

وإذا كان لهذه الخطة أن تعمل، فينبغي أن يكون لدينا نظام يعلم به المركز الأعلى ما يجري في المركز الأدني. تقرر فكرة «فون هولست» أن المركز الأعلى يُعْلَم بما يقع كنتيجة للدفعات التي نزلت إلى المركز الأدني. وهنا يدخل ولا شك جزء من جهاز الاستطالات العضلية، ولكن قد تلعب أيضا الألياف في النظام الهرمي الذي يجري من الحبل الشوكي إلى المخ دوراً فعالاً، وكذلك في أنظمة أخرى عديدة.

الكـلام :

يحتـل الـكلام مكانـاً فريداً فـي عمل الدماغ الإنسـاني، لأن الإنسـان فقط وبعـد كل شـئ هـو الذي يسـتطيع اسـتخدام الكلام المتلفـظ لتوصيـل المعلومات وتشـاركها. مـن الناحيـة العصبيـة يتصف الجهـاز الكلامي بخصائـص متعددة: فبينما تتحرك كل عضلات الجسـم الأخرى عملياً بواسـطة الحساسـية الحركية الاتزانيـة، فـإن عضـلات الـكلام تتلقى ضبطهـا من الأصـوات المنطوقـة — لذا لا يسـتطيع الأصـم بالـولادة أن يتكلـم بشـكل ملائـم، إن لـم يكن إطلاقـاً. ومن ناحيـة أخـرى، يتطلب النطق البـين عملاً مشـتركاً بين الرئتـين والحنجرة والفم والشـفتين، ممـا يمكـن تعلمه فقط فـي غضون سـنوات عديدة. وحالما يسـتقر، يكـون راسـخاً تماماً. فمـن الصعب للغاية مثـلاً التكلم بلغة أجنبيـة بدون تلحين، حيـث أن لكل لغـة خصائصها المميزة فـي النطق. وهذا الارتبـاط لكل العضلات لا يمكن تفسـيره عصبياً فحسـب.

والنقطة الثانية تتعلق بما إذا كنا نسـتطيع الإشـارة إلى مناطق محددة فـي الدمـاغ تدخل خاصة فـي هذه المناشـط. فلقد جري الاعتقاد بـأن منطقة بروكاً Broca ومنطقة فرنيكيه Wernicke فـي الفصوص الجبهية اليسـرى والفصوص الصدغية تمثلان مناطق للكلام أساسـاً. إلا أن الملاحظات الحديثة تلقي شـكوكاً هائلـة علـى هـذه النظريـة. ويبـدو الآن كمـا لـو أن الحُبْسَـة aphasia تأتي من إصابـات مختلفـة فـي أي مـكان فـي اللحـاء غالباً، كمـا تبين أيضـا أن منطقة بـروكا، على الأقل، يمكن أن تُسْـتَأصل فـي بعـض الأحيان بـدون أن يترتب على ذلك حُبْسة فـي الكلام.

الانتبـاه:

يعتبـر تركيـز الانتبـاه أحد المشـكلات التي قد تتضمـن إمـا أداءاً حركياً أو مُدخـلاً حسـياً. يعـرف كل شـخص أن معظم الناس يقـدرون علـى التركيز على شـئ واحـد فقـط، أو ربما لفتـرة قصيـرة، على شـيئين فـي المرة. يسـتطيعون الإنصـات لدقات السـاعة أو يسـتطيعون التركيز على القـراءة أو الكتابة، ولكنهم لا يسـتطيعون القيام بكلاهما فـي نفس الوقت- على الأقل، ليس بطريقة كاملة.

الانفعالات :

الحقيقة التي تذهب إلى أن الانفعالات تتمركز إلى حد ما في الدماغ تتطلب تناولاً بإيجاز. ففي عام ١٩٣٧ كان «بابيز» Papez أول من طور نظرية تقرر بأن أجزاءاً كبيرة مما يعتبر بالمخ الشمي olfactory brain إنما ترتبط حقيقة بالحياة الانفعالية للفرد. وقد اعتبر أيضا أنه مما ينظم الحياة الإنفعالية: الجزء الثديي Mamillary، والنواة الأمامية للمهاد anterior nucleus of the thalamus، والجانب الأوسط من لحاء المخ، وخاصة جزءه الأمامي، المنطقة الأربعة وعشرون. وينبغي أن يلاحظ أنها تتضمن في الأجزاء الثديية مركزاً باراسمباتية parasympathetic. ومن المحتمل أن يوجد مسلك أورثوسمباتي orthosympathetic ، يأتي من المنطقة الحاجزة septal region إلى الجزء الأمامي من المهاد التحتاني Hypothalamus عن طريق حزمة مُقدم المخ الأوسط medial forebrain bundle . وينبغي الإشارة أيضا إلى أن اللوزة البؤرية nucleus amygdalae والذَنَب البؤري nucleus caudatus يرتبطان به إلى حد ما، تقوم الأولي بالتيسير، والأخرى بالكف.

حرية الإرادة :

تعتبر حرية الإرادة مشكلة معقدة للغاية. فبينما يكون من أساسيات مدنيتنا الافتراض بأن الإنسان يستطيع عمل أشياء محددة أو يكف عن الإتيان بها. لذا فهو مسئول عن هذه الأفعال (ولقد بُني علم القانون على هذا الافتراض)، إلا أنه ليس من المؤكد على الإطلاق إلى أي حد يكون حراً حقيقة. كل إنسان يولد في المناخ النفسي لعصره، وأنه يمكن القول بصفة عامة إلى أي حد سوف يعمل شخص معين تحت ظروف معينة، على الأقل داخل حدود معينة.

غالباً ما يستخدم مبدأ اللاحتمية عند «هييسنبرج» Heiscnberg لتفسير ما يعرف بـ «حرية الإرادة». وهنا أيضا تعتبر اللاحتمية مسألة نسبية فحسب. وقد يكون ثمة شك حول ما إذا كانت هناك أي عمليات في التحول العصبي. لكن علينا أن نعترف بحدوث التغايرات الطفيفة في عتبة الخلايا العصبية – وهي تغايرات قد تخلق الفارق بين الاستثارة وعدم الاستثارة. وإذا كنا نتحقق

بـأن هــذا يقع فــي آلاف أو ملايين الخلايـا، يمكننا أن نــدرك أن الدفعات يمكن أن تنتقـل إلـى مسـالك مختلفـة وفقا للحالـة الفعلية التـي تكون عليهـا الخلايا فــي الوقــت الــذي يصــل فيــه الدفــع إليها. فــي هــذا المعنــى يمكــن الاعتراف باللاحتميــة، بالرغــم مــن أن هــذا لا يتفــق إلا قليــلاً مــع مبــدأ اللاحتميــة كما صاغــة «هييســنبرج». لــذا، فإنــه داخل حــدود معينة، يحتمــل أن نكــون أحراراً، ولكــن ليــس بغير خاضعــين لقانون تماماً. فهنــاك قيم معينة تقدم لنــا، وعلينا أن نتمســك بهذه المعايير.

وهــذا ينقلنا إلى مســألة القيــم. حاول» كيولر» ربط مشــكلة القيــم بحقائق مبدأ الإغلاق التي أقرتها مدرســة الجشــطلت فــي علم النفس التي هو رائدها. ويعنــي «مبــدأ الإغــلاق» (closure) الميــل إلى التكملة أو الازدياد فــي الأشــكال التــي تكون ناقصة بالنســبة لوضع الأشــكال الكلية. فمثلاً، الدائــرة الناقصة إلى حد ما ســوف تُــدرك، وخاصة حينما تقــدم من خلال جهاز التاكستســكوب، على أنهــا دائــرة كاملــة. وهذه دلائل بعيــدة هنا عن فكــرة القيمة، ولكــن مما لا يمكن إنــكاره أنه فــي كلتا الحالتــين علينا أن نعمل شــيئاً كما ينبغي أن يكــون أكثر مما علينــا أن نعمــل شــيئاً كمــا هو . وفــي هــذا المعنى، يقف التفســير الذكــي الذي قدمه كيولر.

الخلاصــة:

إذا كانــت الفكــرة التي تذهــب إلى أن حيــاة العقل وحياة الدمــاغ مرتبطتان — تبــدو ســديدة وحقيقيــة، إلا أننــا لا نســتطيع تناولهــا وحلهــا بالتفصيــل. إننا لا نعــرف بالضبــط مــا الــذي يفعلــه اللحاء، كيــف ينشــأ الوعي، أو كيــف ندرك بالقيــاس العالــم الخارجــي، أو كيف نحرك أجســادنا.

وهنــا لا نســتطيع أن نفعــل أكثــر من الإشــارة إلــى الصعوبات الكامنة فــي الأســئلة التــي أثرناهــا. علينا أن نقول فــي النهايــة ما ربما نكون قد ذكرناه فــي البدايــة: **ليس من الصــواب تماماً أن نعــادل أو نقابــل الأحداث اللحائيــة بالأحداث الواعيــة.** فكثيــر مــن العمليــات تتم فــي اللحــاء ولا نكــون واعين بهــا. وعلينا ألا ننســى أن اللحــاء ينمــو بشــكل ملائم لــدى الثدييات فقــط، وأن الأشــكال الدنيا

ينبغي أن توجه بطريقة أخرى إلى حد ما. ومن المحتمل غالباً أن المنطقة الشبكية هي الميكانزم التنسيقي الأقدم، وبالتالي من المحتمل أن تكون هي المركز الأقدم للوعي. **لكن يبدو من الواضح أنه بواسطة عمل كل هذه الأجزاء معاً فحسب يمكن أن تتغير حياة العقل الإنساني.** ويستلزم الفهم الكامل لهذا جهوداً عديدة من الدراسة والبحث. ونأمل أن يكون القارئ قد استثير لكي يتبصر أكثر من ذلك فيما كتب في هذا الميدان ولكي يتوصل إلى صورة أوسع وأعمق لهذه المشكلة الخلابة.

الجزء الثاني

العلم ودراسة الإنسان

الفصل الخامس

الأبعاد الإنسانية للعلم

لقد ابتدعت الطرق العلمية لغرض واحد، وهو: الإقلال من التحيز والهوى، ومن خداع الذات، وغير ذلك من الأخطاء الذاتية في دراسة الظاهرات الطبيعية. وحيث نهتم بالتعميمات تبدو أيضا عدم دقة الملاحظة غير المنظمة. فالأقوال الشائعة القائمة على الخبرة العلِّية، على سبيل المثال، يمكن أن تؤيد جانبي القضية. يشير «شكسبير» إلى أن « الغيبة تجعل القلب ينمو أحمقاً»، ولكن تضيف صيغة أخرى لنفس القول المأثور عبارة «بالنسبة لأي شخص آخر». فقط حينما يكون الشخص على يقين من حقائقه يصبح التنظير ذات معنى.

يتضمن أي بحث تجربي (إمبيريقي) وجهاً مزدوجاً: جمع البيانات بواسطة الملاحظة أو القياس، وتفسير معناها داخل إطار الدراسة موضع الاعتبار. وبقول آخر، يتضمن البحث كلاً من «العمليات الإدراكية» (perceptual) و«التصورية» (conceptual)، وكلاهما ينبغي أن يكون قابلاً على إقامة الصدق. لقد خبر فلاسفة الإغريق القدامى بعض النجاح في دراسة الظاهرات الطبيعية خلال تطوير نظام من المنطق لإثبات صحة عملية استدلالية، واكتشفوا أن العلاقات الصادقة بين قضايا القياس يمكن اختزالها إلى قاعدة، ولذا فهي تُسَهّل التحقق من الدقة. وما كان يعوزهم هو الجانب الإدراكي من المنطق لتوثيق ملاحظاتهم الأصلية . فبدون خطوط موجهة لضبط العوامل غير المتعلقة أو للتحصن ضد خداع الذات في جمع البيانات، لم يكن ليوجد ثمة سبيل لتحديد ما إذا كانت المقدمات الأولى قد تضمنت قمحاً أم تِبْناً. وما أن توفر هذا حتى أصبح العلم مهيئاً تماماً للتحكم في قوي الطبيعة وإداراتها.

وعلى أساس هذه الأرضية، ليس مما يبعث على الدهشة أن كثيراً من أوصاف العلم تؤكد فقط على موضوعيته، فالنظرة الذاتية والموضوعية متناقضتان بطريقة قد تجعلهما متنافرتين تماماً. يلاحظ «دافيد هاو كنجز»[1]

(1) D. Hawkins. The creativity of science. In H. Brown (Ed.), Science and the creative Spirit: Essays on humanistic aspects of science. Toronto: University of Toronto Press.

أن «ما ينقص الاهتمامات العامة هو الإحساس ببواطن العلم، بدفعاته الإبداعية ومرامية الخفية، بتعقلاته ولا تعقلاته، بنموه العقلي، بضآلته وعظمته — وباختصار، إحساس بالطابع الإنساني للعلم». العلم بالضرورة نمط من السلوك وليس شيئاً أزلياً ثابتاً يوجد في معزل عن الناس. ويطبق «الممارسون الإنسانيون» (human practitioners) مبادئه بطريقتهم غير المعصومة من الخطأ معتمدين إلى حد ما على حكم خاص في تلك العملية. ويمكن أن تكون المبالغة في تعديد فضائل العلم عائقاً كالنقد. قال فولتير ذات مرة: « يارب نجني من أصدقائي: أما أعدائي فأنا كفيل بهم». فأي التزام إنساني يمكن أن يتحقق على نحو أفضل إذا وُضع في الاعتبار بعض حدوده.

تتناول الدراسات المتضمنة في هذا الفصل جوانب ذاتية متعددة للعلم التطبيقي التي خضعت للمناقشة بواسطة الدراسين في مجالات مختلفة. من أمثلة هذه الأسئلة المثارة: كيف ينشأ الفرض أولاً؟ ما أنماط الاختيارات الذاتية التي ينبغي عملها؟ عند أي مرحلة في العملية تطبق أولاً الطرق الموضوعية؟ ما الغرض منها على وجه الدقة؟ كيف ترتبط بيانات العلم المتقنة بالخبرة الأولية؟ هل يمكن أن تكون هناك موضوعية مطلقة حتى في النظرية؟ ما هو الدور الذي تلعبه اتجاهات العالِم ومعتقداته واستعداده للاقتناع بنتائج التجربة؟ هل هو بغير متحيز؟ هل هناك معتقدات ينبغي اختبارها على أسس غير علمية؟ هل تدخل الأحكام القيمية في مناقشة المسائل العلمية والفنية (التقنية) ؟ تلك أسئلة تسبر غور تلك المجالات المُشْكلة والتي تتطلب اختباراً وإجابة، ولكنها أسئلة مفتوحة دوماً على كل جبهات وفنيات وإبداعات العلم.

من بين الأساليب المقنعة لتناول المجردات هو معالجتها كأشياء قائمة بالفعل، مثل: «الأمريكي المتوسط» average American، أو «دليل مستوى المعيشة». تبدو المفاهيم المستغلقة أكثر طبيعية وإرضاء حينما تغلف ببعض الصفات الحسية المتجردة في عملية التحليل المنطقي. وتميل التجسيمات المألوفة، على مدار الوقت، إلى أن تكتسب وجوداً متخيلاً، إلى حد ما بعد نمط عموميات أفلاطون. وحتى قد يُتصور «العلم» في النهاية، ليس كملكية شخصية لكل عالم في شكل فريد بالنسبة له، ولكن كشئ تلقائي متجانس يحتل نطاقاً خارج ذواتنا. بل إن الطرق العلمية، بكل صرامتها وعفتها اللاشخصية، قد ابتدعت لغرض واحد ينشد التحقق من صدق الفروض الذاتية. وبالنظر إلى العلم كإنجازات أو حيازات إنسانية أكثر من أن يكون موضوعاً، يعتبر العلم ليس بوجود سحري يوضع على منصة الشرف، ولا بروح من الجن تبعث على الخوف: **العلم هو الناس.**

(١٣)

أشخــاص أم علــم (*)

كارل روجرز

(معهد العلوم السلوكية الغربية، لاجولا، كاليفورنيا، وجامعة وسكونسن)

نظرة متغيرة إلى العلم :

لقد ناقشــت قضايا هذا الموضوع، التي طرحتها فــي دراســة ســابقة مراراً مع تلاميــذي وزملائــي وأصدقائي. وبفضل ذلك تأصلت فــي نفســي نظــرة معينة إلى العلم. لقد صرت مقتنعاً بالتدريج أن الخطأ الأســاس الأكبر فــي الصياغة الأصلية كان فــي وصف العلم. وها أحاول تصحيح ذلك الخطأ فــي الدراســة الحالية.

يتمثــل القصــور الأكبــر، كما أعتقد، فــي النظــرة إلى العلم كشــئ ما «خارج عنــا» (out there)، كشــئ نتهجاه بحرف كبيــر «Science» S، «ككيان من المعرفة» موجود فــي موضع ما فــي المــكان والزمان. وأعتقد، متفقا فــي ذلــك مع الكثير مــن علمــاء النفس، أن العلم هو حشــد متســق منظم من حقائق تأيــدت بالاختبار والتجريــب، وأرى أن طرق العلم وســائل مُسْتحسَــنة اجتماعياً لجمــع هذا الكيان مــن المعرفة، وللاســتمرار فــي تحقيقها وتأييدها.فهو أشــبه بمســتودع يلقي فيه الــكل، وبتعــدد أشــكاله، بدلــوه للحصــول علــى الماء — بضمــان ٩٩٪ مــن النقاء. حينمــا ننظــر إلــى هــذا النموذج الخارجــي واللاشــخصي، لا يبدو مــن الصواب أن ننظــر إلــى العلم ليس فحســب كاكتشــاف للمعرفة بطريقة رفيعــة، ولكن على أنــه يتضمــن إغفالاً للشــخصية، وإنــكاراً للحرية الأساســية فــي الاختيــار التي ندركهــا عن خبرة فــي العلاج. لــذا يمكن أن ننظر إلى الاتجــاه العلمي من منظور مختلــف وأكثر دقة.

العلم هو في الأشخاص:

العلــم يوجــد فــي النــاس ويتعاظــم فــي الإنســان فحســب. فلكل مشــروع علمي بزوغه الإبداعي، عمليته، ونتائجه المختبرة، فــي الشــخص أو الأشــخاص.

(*) C. R. Rogers: Persons or Science: A philosophical question. Amer. Psycholgist 1955 10, 267-278.,

والمعرفة – وحتى المعرفة العلمية – هي تلك التي تكون مقبولة ذاتياً. ويمكن توصيل المعرفة العلمية فقط إلى أولئك الذين يكونون مستعدين ذاتياً لتلقي هذا الاتصال. ويتواتر استخدام وتوظيف العلم أيضا فحسب من خلال الناس الذين يقتنعون بقيم معينة لها معنى بالنسبة لهم.

الطور الإبداعي:

للعلم بداياته البازغة في شخص معين له أهدافه وقيمه وأغراضه، ويحمل بالنسبة له معنى شخصياً وذاتياً. وكجزء من هذا «يسعى إلى أن يكتشف» في مجال معين. ونتيجة لذلك، إذا أراد أن يكون عالماً فذاً، عليه أن يغمر نفسه في الخبرة المواتية، سواء كانت في معمل الفيزياء، أو عالم النبات أو الحياة الحيوانية، أو المستشفى، أو المختبر النفسي أو العيادة النفسية، أو في التعليم والثقافة، أو في اللعب أو العمل، أو العلاقات الإنسانية، أو غير ذلك. ويكون هذا الانغماز كاملاً وذاتياً، أشبه بانغماز المعالج في العلاج، يحس بالميدان الذي يكون مهتماً به، يعيشه. إنه يقوم بأكثر من أن «يفكر» فيه – يدع كيانه يؤخذ به ويستجيب له، سواء على المستوى المعروف أو اللامعروف. وهو يحس بأكثر مما يمكن أن يتلفظ به عن ميدان إهتمامه، ويستجيب بكيانه في ضوء علاقات قد لا تكون حاضرة في وعيه.

من هذا الانغماز الذاتي الكامل يأتي التشكل الابداعي، إحساس باتجاه، صياغة غامضة لعلاقات غير معروفة حتى اللحظة. ويصير هذا التشكل الإبداعي، بعد شحذه وتشذيبه وبلورته وصياغته في عبارات واضحة، فرضا من الفروض- وهو تقرير قائم على اعتقاد أولي، شخصي، ذاتي. ويكون لسان حال العالِم، باستخدامه لكل خبرته المعروفة أو غير المعروفة: «يراودني إلهام بوجود مثل تلك العلاقة، وأن وجود هذه الظاهرة يصدق بالنسبة لقيمي الشخصية».

ما قمنا بوصفه هو الطور الأولي للعلم. ومن المحتمل أن يكون هو طوره الأكثر أهمية. ولكن، قد يميل العلماء الأمريكيون – وخاصة علماء النفس – إلى الإقلال من شأنه أو إغفاله. وهو لم يخضع للإنكار بقدر ما تعرض

للإغفـال والإهمـال. يقرر عالم النفـس «كينيث سـبنس» (Kenneth Spence) أن هــذا الجانـب للعلـم «قـد أُخذ ببسـاطة كقضية مسـلمة»، وهو يميل أيضـاً، مثل الكثيـر مـن الخبرات التي تؤخـذ كقضية مسـلمة، إلى أن يكون مدعاة للنسـيان. لكـن هـذا الجانب يكمن حقيقـة وراء الخبرة الذاتية، الشـخصية المباشـرة، التي منها يسـتمد العلـم، وكل بحث علمـي، أصوله.

المراجعة على الواقع:

يحقـق العالِـم إذن بطريقـة إبداعيـة الفرض الـذي يذهب إليـه، أو اعتقاده الأولـي الخاضـع للاختبـار. ولكن هـل يمكن مراجعة هـذا الفرض علـى الواقع؟ تبـين خبـرة كل شـخص منـا أنه من السـهل جـداً أن نخـدع أنفسـنا، وأن نعتقد بشـيء تكشـف الخبـرة فيما بعد أنـه ليس كذلك. كيف أسـتطيع أن أقـرر ما إذا كان لهـذا الاعتقـاد الأولـي علاقـة واقعيـة معينـة بالحقائق الملاحظـة؟ يمكنني أن اسـتخدم ليـس خطـأ واحـداً مـن البيانات فحسـب، ولكـن العديـد من هذه الخطـوط. وأسـتطيع أن أحيـط ملاحظتي للحقائـق بالاحتياطـات العديدة لكي أتأكـد من أني لا أخدع نفسـي. أسـتطيع اسـتطلاع آراء الآخريـن الذين يهتمون أيضـا بتجنـب خـداع الـذات، وتعلـم الطـرق المفيـدة التـي أقـي بها نفسـي من المعتقـدات المضللة، القائمة على سـوء تأويل الملاحظات. أسـتطيع، باختصار، أن أبـدأ فـي اسـتخدام كل الطرق المنهجيـة المتقنة التـي وفرها العلم، واكتشـف أن إقـرار الفرض فـي عبارات إجرائية سـوف يمكنني من تجنـب الكثير من الدروب المغلقـة والنتائـج الكاذبـة. وأتعلـم أن المجموعـات الضابطة يمكن أن تسـاعدني فـي تجنب اسـتخلاص الاسـتنتاجات الزائفة. وأتعلم أن الارتباطات واختبار «ت» والنسـبة الحرجـة وكل الإجراءات الإحصائيـة يمكن أن تعينني فـي التوصل إلى اسـتنتاجات رصينة.

لـذا يُنظـر إلـى طـرق البحـث العلمـي، وهـي حقيقة كذلـك، علـى أنها – طريقـة لحمايتـي من خداعي لذاتي بالنسـبة لإلهاماتي الذاتية المتشـكلة بطريقة إبداعيـة والتـي نشـأت مـن العلاقة بينـي وبين مادتي. فـي هذا السـياق، وربما فـي هذا السـياق فحسـب، يكون للبنية الواسـعة للإجرائية، والوضعية المنطقية، وتصميم البحوث، واختبارات الدلالة وغيرها – مكانتها. فهي توجد، ليسـت فـي

حـد ذاتهـا، ولكن كمعينات فـي محاولة اختبار شـعور الفرد الذاتـي أو إلهامه أو فرضـه مع الحقيقـة الموضوعية.

وحتـى من خلال اسـتخدام الطرق المتقنة واللاشـخصية، تتأتـى الاختيارات ذات المغـزى الذاتـي بواسـطة العالِـم ذاته: لأي عـدد من الفروض سـوف أكرس وقتـاً؟ أي نـوع مـن المجموعات الضابطة يكـون أكثر ملائمة لتجنـب خداع الذات فـي هـذا البحـث الخـاص؟ إلـى أي حد سـوف اسـتخدم التحليـل الإحصائي؟ مـا مقـدار الثقـة التي يمكـن أن أوليهـا للنتائج؟ يمثـل كل ذلك بالضـرورة حكماً شـخصياً ذاتيـاً، يؤكـد أن البنيـة العظيمـة للعلم تقوم أساسـاً على اسـتخدامها الذاتي بواسـطة الأشـخاص. ويمثل هـذا الأداة الأفضل التي تمكننـا من أن نبدع لكـي نتحقـق من إحساسـنا الحيوي والعظيـم بالكون.

النتائـج:

إذا أحببـتُ، كعالِـم، الطريق الذي انتهجته فـي بحثـي، وإذا تفتحت على كل البيانـات، وإذا انتقيـت واسـتخدمت بـذكاء كل الاحتياطـات ضد خـداع الذات، وهـي الاحتياطـات التـي اسـتطعت أن اسـتوعبها مـن الآخريـن أو أن أتدبرهـا بنفسـي – إذن أسـتطيع أن أبدي قناعاتي وثقتي فـي النتائج التي توصلت إليها. سـوف اعتبرهـا كمعبـر لمزيد مـن البحث ولمزيـد من الفحـص والتنقيب.

ويبـدو لـي أن مـن أهداف العلـم، أن الغرض الأولـي هو أن يوفـر فرضاً أو اعتقـاداً أو عهـداً يمكـن الاعتمـاد عليـه وأكثـر مدعـاةً للرضا، للباحث نفسـه. وإلـى الحـد الـذي يهتـم به العالـم بإثبات شـيء معين لشـخص ما آخـر – وهو خطـأ وقعـت فيـه أكثر مـن مرة – فإنـي أعتقد أنه يسـتخدم العلـم للتخفف من الشـعور بعـدم الأمان الشـخصي، ويبعده عـن دوره الإبداعي بحـق مقابل خدمة هذا الشـخص.

بالنسـبة لنتائج العلم، يتضح الأسـاس الذاتي جيداً فـي الحقيقة بأن العالِم فـي بعـض الأوقات قد يرفض الاعتقاد فـي نتائجه. «لقد أظهـرت التجربة ذلك فحسـب، ولكنـي أعتقد أنهـا خاطئة»- تلك فكـرة يخبرها أي عالم فـي وقت أو آخـر. لقـد بزغـت بعض الاختراعـات الفذة مـن الارتياب الشـديد الـذي يبديه

العالِم حيال نتائجه وكذلك ما توصل إليه الآخرون من نتائج. ففي التحليل النهائي ربما يضع ثقة في ردود الأفعال المتعلقة بكيانه الحيوي (الأورجانزم) ككل أكثر مما يضعها في طرق العلم. وليس ثمة شك بأن هذا يمكن أن يتمخض عن خطأ فادح، وكذلك قد يتمخض عن اكتشافات علمية، ولكنه يوضح مرة أخرى تلك المكانة المتميزة للذاتية في استخدام العلم والإبداع فيه.

تواصل النتائج العلمية:

لقد رأيت، وأنا أسير في هذا الصباح على الشاطئ المرجاني بالبحر، سمكة كبيرة زرقاء — أعتقد ذلك. وأنت إذا رأيتها كذلك على نحو مستقل تماماً، لتملكتني ثقة أكبر في ملاحظتي الذاتية. وهذا ما يعرف بالتحقيق أو الإثبات الذاتي المتبادل؛ وهو ما يؤلف جانباً هاماً في فهمنا للعلم. إذا أخذتك (سواء في محادثة أو في مادة مطبوعة أو سلوكياً) خلال المراحل التي مررت بها في بحث من البحوث، وبدت لك أيضا أني لم أخدع نفسي، وأني حقيقة قد توصلت إلى علاقة جديدة تتفق مع قيمي، وأن هناك ما يؤيد اعتقاده الأولي في هذه العلاقة — هنا تكون لدينا بدايات العلم. عند هذا الحد يحتمل أن نعتقد أننا قد ابتدعنا كياناً من المعرفة العلمية. وفي الحقيقة لا يوجد مثل هذا الكيان من المعرفة. هناك فقط معتقدات أولية، موجودة ذاتياً، لدى عدد من الأشخاص المختلفين. وإذا لم تكن هذه المعتقدات أولية، فما يوجد منها يكون عقيدة جامدة (دوجما)، وليس علماً. ومن ناحية أخرى، إذا لم يكن هناك أحد إلا الباحث يعتقد في النتائج، فإن هذه النتائج تكون إما شخصية ومضللة، أو حالة من حالات علم النفس المرضي، أو تكون حقيقة غير عادية اكتشفها أحد العباقرة، وليس هناك بعد أي شخص على استعداد ذاتياً للاعتقاد فيها. يؤدي بي ذلك إلى التعليق على المجموعة التي تستطيع أن تضع ثقة أولية في أي نتيجة علمية.

التواصل مع من ؟

من الواضح أن النتائج العلمية يمكن توصيلها فقط إلى أولئك الذين يتفقون على نفس القواعد الرصينة للبحث العلمي. فزارع القصب في

أستراليا لا يتأثر بنتائج العلم المتعلقة بعدوى الجراثيم، ولكنه يعتقد حقيقة أن المرض يتسبب بالأرواح الشريرة. وفقط حينما يتفق أيضا على الطريقة العلمية كوسيلة رشيدة للحد من خداع الذات، فسوف يميل إلى تقبل نتائجها.

ولكن حتى بين أولئك الذين يتبينون القواعد الرصينة للعلم، فإن الاعتقاد الأولي في نتائج البحث العلمي يمكن فقط أن يتوفر حيثما يوجد استعداد ذاتي للاعتقاد فيها. وفي ذلك يمكن أن نجد أمثلة كثيرة: يميل معظم علماء النفس إلى الاعتقاد في البيانات التي تبين أن نظام المحاضرة يحقق زيادة هامة في التعلم، ولا يميلون إلى الاعتقاد بأنه يمكن تسمية بطاقة غير مرئية بعد قلبها من خلال ما يعرف بالقدرة على الإدراك الحسي الزائد. فالبيانات العلمية بالنسبة للحالة الأخيرة معصومة أكثر من الحالة الأولى.

وعلى هذا النحو، حينما خرجت الدراسات المعروفة بـ «دراسات جامعة أيوا» للمرة الأولى، موضحة أن الذكاء يمكن أن يتغير بشكل هائل بواسطة الشروط البيئية، تردد علماء النفس بارتياب شديد، ووجهت الضربات والهجمات الكثيرة إلى الطرق العلمية الناقصة. وليست البيانات العلمية الخاصة بهذه النتائج أحسن حالا اليوم مما كانت عليه حينما ظهرت دراسات جامعة أيوا للمرة الأولى، ولكن الاستعداد الذاتي لدى السيكلولوجين للاعتقاد في مثل هذه النتائج قد تغير بدرجة كبيرة. ويسجل مؤرخ العلم أن الإمبيريقيين كانوا أول من كان يرتاب في نتائج كوبر نيكوس.

يبدو إذن أنه سواء اعتقدت في النتائج العلمية التي توصل الآخرون إليها، أو في النتائج التي خرجت بها من دراساتي، إنما يعتمد جزئياً على استعدادي لكي أضع ثقة أولية في تلك النتائج. وأحد الأسباب المسئولة خاصة عن عدم وعينا بهذه الحقيقة الذاتية أنه في العلوم الفيزيائية خاصة قد تكشف بالتدريج عن نطاق كبير من الخبرة نكون فيه مستعدين لتصديق أية نتيجة تبدو مرتكزة على قواعد اللعبة العلمية المؤداة على نحو ملائم.

استخدام العلم:

لكن لا يقتصر الأمر فحسب على أن أصول العلم وعمليته ونتائجه توجد

فحسب فــي الخبرة الذاتية للأشخاص، ولكن فـي استخدامها أيضاً. «العلم» لا يقوم أبــداً بالإخــلال من الكيان الشــخصي (اختــلال الإِنِّيــة depersonalization) لدى الأفــراد، أو باحتكارهم، أو السـيطرة عليهم والتحكم فيهم. فهم الأشــخاص وحدهم الذيــن يســتطيعون أن يفعلــوا ذلك وســوف يفعلونه. تلك بالتأكيــد ملاحظة واضحة وبســيطة، ولكن التحقيق العميق لها يحمل بالنســبة لي الكثير من المعاني. يعني ذلك أن الاســتخدام الذي يمكن أن نقوم به للنتائج العلمية فــي ميدان الشــخصية يكون، وســوف يكــون، موضوعــاً للاختيار الشــخصي الذاتــي — وهو نفس نمــط الاختيار الــذي يقــوم به الشــخص فــي العــلاج. وبقدر مــا يغلق الشــخص بطريقــة دفاعية مجــالات خبرته عن الوعي، من المحتمــل أن يأتي باختيارات تكون هدامة من الناحية الاجتماعيــة. وبقــدر ما يتفتح الشــخص علــى كل جوانب خبرته، قد نوقــن بأن هذا الشــخص ســيكون أكثر ميلاً إلى اســتخدام نتائج العلم وطرقه (أو أية أداة أو مقدرة أخــرى) بطريقة تكــون بناءة من الناحية الشــخصية والاجتماعية.

إذن، لا يوجــد حقيقــة فــي العلــم كيــان مهــدد يمكــن أن يؤثر بأيــة طريقة فــي مصيرنــا. وإنمــا يوجد النــاس، والناس فحســب. وإذا كان الكثير منهم فــي الحقيقــة مدعــاة للتهديــد والخطر فــي دفاعاتهــم، وإذا كانــت المعرفــة العلمية الحديثــة تضاعــف التهديــد والخطــر الاجتماعيــين، إلا أن هذا لا يمثــل الصورة الكليــة. فهنــاك وجهــان هامــان آخــران: (١) يوجد أشــخاص كثيــرون متفتحون نســبياً علــى خبرتهــم ومــن ثم يحتمــل أن يكونــوا إيجابيــين وبنَّائين مــن الناحية الاجتماعيــة، (٢) توضح الخبرة الذاتية للعلاج النفســي والنتائــج العلمية المتعلقة بهــا أن الأفراد يكونون مدفوعين إلى التغير، ويمكن مســاعدتهم على التغير، فــي اتجــاه المزيد مــن الانفتاح على الخبرة، وبالتالي فــي اتجاه الســلوك الذي يرتقي بالــذات وبالمجتمــع، وليس الســلوك الذي يــؤدي إلى الهــدم والتدمير.

والخلاصة، أن العلم لا يستطيع أبداً أن يهددنا. وإنما الأشخاص فقط هم الذين يستطيعون فعل ذلك. وإذا كان بعض الأفراد مدمرين في استخدامهم للأدوات التي توفرهــا المعرفة العلمية فــي أيديهــم، لكن هذا لا يمثل إلا جانباً واحــداً من الصورة. فلدينــا بالفعل المعرفة الذاتية والموضوعية للمبادئ الأساســية التي قد يســتطيع بها الأفــراد تحقيق الســلوك الاجتماعــي الأكثر بنائيــة وإيجابية وإبداعية، وهو ســلوك طبيعي بالنســبة لعملية الصيرورة المرتبطة بكيانهم الإنســاني الحيوي.

لـو توفـر زائر من الكوكب « مارس» على قـراءة كتاب أولي، فقد يتصور العالِـمْ علـى أنه حكَـمٌ فيصل لـلآراء، غيـر انفعالي كالحاسـب الآلي، وولع بالتخلـي عـن نظرياته المفضلة عنـد ظهور بيانات متناقضـة لأول وهلة. ولا شـك أن المزيـد مـن التفاعل مع الكائنات الإنسـانية سـوف يصحح من هذه الانطباعات الأولية. فالعلماء، كما سيكتشـف، ليسـوا بأكثر أو أقل إنسـانية مـن الدارسـين الآخريـن. وبالرغم من أي جهـد يبذل ليكونـوا موضوعيين، لكـن يظل هناك دائمـاً بعض التحيز فـي تفكيرهم المهني.

(١٤)

العلم والسلوك الإنساني (*)

جيمس كونانت

(جامعة هارفارد)

أود أن أقصر اهتمامي بالقرارات المؤثرة في السلوك الإنساني التي تبدو متوازنة، حيث لا تنطوي على ردود أفعال انفعالية ضاربة في الأعماق – تلك هي القرارات السديدة، إذا صح هذا القول. هذه القرارات قد تتفاوت من عقد العزم على شراء بنزين من صنف جيد بدلاً من الصنف الرخيص الثمن، إلى الإصرار على توقيع التماس لتحريم القنابل الذرية. أو، إذا كنت تحتل موقعاً مسئولاً في شئون هذا العالم الآخذ بالتصنيع بدرجة كاسحة، فقد تصوت بالرفض أو الموافقة على قرض مقترح بهدف بناء منطقة استكشافية لعمل منتجات جديدة أو تكنولوجيات جديدة.

إن ثمة مغالطة شائعة تقرر أنك إذا كنت تعمل بالشئون العلمية والفنية، فنادراً ما يدخل فيها حكم القيم. الحقائق تتكلم بنفسها في العلم – هكذا يُقال غالباً. ويعلم أي فرد يكون على دراية بمسار البحث العلمي وتقدمه أن هذا القول ليس إلا ضرباً من اللامعقول. فما هو حقيقي أن مجال المناظرة والجدل محدد تماماً. فمثلا، من يتقدم بعملية لإنشاء مصنع جديد لا يلجأ إلى الاشتقاق عن أفلاطون أو أرسطو بدلا من أن يقدم اقتراحه أو مشروعه، كما أنه لا يلجأ إلى الأخذ عن المبادئ المتضمنة في «إعلان الاستقلال» أو قرارات «المحكمة العليا». ولكن هذا لا يعني أن ما هو مقترح لا يقبل المناقشة. وإنما يعني ببساطة أن عدد الأشخاص الصالحين للإسهام في المناقشة محدود للغاية. وتمثل هذه الحقيقة أحد المتاعب التي تحملها لمجتمعنا الحر. وفي الواقع أن من بين النتائج الهامة والخطيرة للغاية المرتبطة بتطور العلم الحديث تلك الحقيقة بأن الخبراء العلميين يحتلون الآن موقعاً عظيماً ومنعزلاً. وهذا، بالطبع، هو عصر الخبراء من كل الأنواع؛ فأحد المشكلات الحيوية للتربية مثلاً،

---

(1) J. B. Conant: Science and human conduct. In Modern Scienc and modern man. New York: Columbia, pp. 65-70.

أن نبدأ باتجاه عقلاني بين الناشئة يؤدي إلى فهم أفضل بواسطة مجموعة واحدة من الخبراء عما تفعله مجموعات الخبراء الأخرى.

إن الفكرة التي تذهب إلى أن العالِم شخص رزين وعادل وفيصل، هي فكرة تنافي العقل بالطبع. فقوة الإقناع والاعتزاز بنواتج عملهم وإبداعاتهم تتأجج بعنف بين العلماء وكذلك بين العاملين المبدعين. وفي الحقيقة، إذا لم يفعلوا ذلك، لن يكون ثمة تقدم في العلم. لكن هذا التعلق الانفعالي بوجهة نظرهم يبعث خاصة على الخداع في العلم لأنه من السهل تماماً على المتقدم بمشروع أن يغلف آراءه بلغة فنية. لذا من الضروري الكشف عن الطرق والوسائل التي تعين على ترشيد تحيزات الخبراء حينما يكون لآرائهم أهمية كبيرة في صناعة القرارات.

إن التشكك الصحي، أولا وقبل كل شيء، هو أن نصغى إلى الخبير، وخاصة الخبير المتحمس. الخطوة التالية هي أن نحاول أن نجد شخصاً يتمتع بنفس الكفاءة الفنية ولكن يتصف بانحياز انفعالي مضاد. وإذ لم يتيسر هذا الشخص، يمكن أن نسأل شخصاً مقتدراً بعيداً عن المشروع ليقوم بمهمة «المدافع عن الشيطان». ينبغي أن يطُلب منه أن يتكرس للقيام بدور المعارضة السديدة لما هو مقترح. وهذه الإجراءات الهادفة إلى ترشيد تحيزات الأشخاص الفنيين، وخاصة العلماء الذين تحولوا إلى مخترعين، قد أسهمت غالباً بدون خطة في الصناعات الناجحة في مجتمعنا. ولكن لم تنشأ طرق مماثلة في مجالات أخرى، مثل « حكومة الولايات المتحدة» . فهي لازمة على وجه الخصوص، لأن الحكومة قد أدخلت «البحث والتنمية» (R&D) على نطاق واسع حقاً. ومن الحتمي في أي عملية تكنولوجية أن تتصدى النزعة المحافظة للحماس. وهنا تتبدى الانفعالات ويختلط القدر الشخصي مع الاعتبارات الفنية.

وقد يشعر البعض أن اتجاهي نحو العلم إنهزامي، وأنه بدلاً من اقتراح كيفية ترشيد الاستجابات الانفعالية لدى العلماء حينما يقدمون النصح بشأن إجراءات في المستقبل، ينبغي أن أطالب بأن يعمل العلماء مثل العلماء ويلغون تعصباتهم. فعلى سبيل المثال، يجيب عالم اجتماعي بالإيجاب على السؤال: «هل يستطيع العلم أن ينقذنا؟»، كما يلي:

«العلم، كطريقة، هو شكل من أشكال السلوك الإنساني، وهو يقوم على توجيه أسئلة واضحة يمكن الإجابة عنها لكي توجه ملاحظات الفرد، التي تتطور بطريقة هادئة وغير متحيزة، والتي تدون بدقة بقدر الإمكان وبطريقة تسمح بالإجابة على الأسئلة المثارة في البداية، بحيث أن المعتقدات أو الفروض الرصينة التي تكونت قبل القيام بالملاحظات تخضع للتعديل في ضوء ما تجمع من ملاحظات وما تم التوصل إليه من إجابات» . يمثل كل ذلك وصفاً لما يعرف غالباً بالسلوك العلمي، ولكني أرى أنه ليس وصفا للطريقة المميزة التي طورتها العلوم الطبيعية؛ إنه اهتمام باستخدام فروض عاملة محدودة جداً ليست غير مماثلة لتلك الفروض المستخدمة في الحياة اليومية.

لكي أوضح ما أعني بالفروض العاملة المحدودة، اقترح أن النشاط الذي نعنيه كبحث علمي يتألف من الإجراءات التجريبية (الإمبريقية) التي بها طور الإنسان من الفنون العملية حتى منذ فجر المدنية، ومن الأفكار التأملية العامة، والتفكير الرياضي أو التجريدي. لقد بدأ العلم في التقدم السريع حينما رأى الناس كيف يربطون بين هذه النشاطات الثلاثة. فحينما استخدمت، صارت الأفكار التأملية فروضا عاملة على نطاق واسع. فهذه الخطط التصورية (مثل «الأرض محاطة ببحر من الهواء») يمكن اختبارها بواسطة التجربة التي فيها نتناول سلسلة من الفروض العاملة المحدودة، وهي من قبيل «لو أدرت هذا الصمام، إذن سوف يحدث كذا وكذا». فبعد سلسلة طويلة من التعقل تتحقق القضية «لو، إذن» التي يمكن اختبارها- تلك القضية المرتبطة بصدق الفرض العامل على نطاق واسع.

تبدأ أية طريقة علمية بافتراضات عن طبيعة الشيء موضوع الدراسة، سواء كان الضوء أو الإلكترون أو الإنسان. وبدون وجود فكرة ما عما يمكن أن يكون عليه الشيء حقيقة، لا يمكن تطوير الطرق الموضوعية لملاحظة هذا الشيء. وفي علم النفس، يكون من الأهمية خاصة أن نعرف أي الافتراضات القبلية قد وُضعت عن طبيعة الإنسان لكي نتجنب سوء تناولها عند صياغة النتائج المشتقة من البيانات التجريبية (الإمبيريقية).

(١٥)

الافتراضات في علم النفس (*)

أدريان كآم

(جامعة ديكوزين)

مـن الأهمية بمكان فـي تطور العلـم التحقق من أن العلم ذاتي نسـبياً. ولقد كان علمـاء الفيزيـاء، مثل بلانـك وبوهر وفـون فييزايكر وهييسـنبرج، هم الذين جعلـوا الإنسـان واعياً بذلـك. وقد أوضح تطور فيزياء الكميـات خاصة أن مثالية الموضوعيـة المطلقـة أو النظـرة الموضوعية الخالصـة كانتا حلماً لـم يتحقق أبداً. وتعلمنا الاكتشـافات الحديثة باقتناع أن كل ما يسـمى بالنظرة العلمية إلى العالم محـدود للغايـة، فـأي عالـم يتناول الكـون إنما ينتقـي بالضرورة وجهـة نظر من بـين وجهـات نظر كثيـرة يمكن الأخذ بها. ومـن الضروري أن العالِـم لا ينظر إلى الإنسـان والكـون فـي كل أبعادهما، ولكن يحدد نفسـه بجانب ينتقيـه من الكون. ويقـوم هـذا الانتقاء علـى الاختيار وعلـى الافتراضات التي هي ذاتية نسـبياً.

ولـم يتحقـق علمـاء الفيزيـاء وحدهـم بـل والمفكـرون الآخـرون أيضـا من الذاتيـة النسـبية للعلم. ومما هو ذات مغزى فـي هذا الصـدد ما يعرف بالطريقة الظاهرية (الفينومينولوجية) فـي التفكير. يـدرس العالم الظاهري الخبرة الأولية لـدى الإنسـان. وهذه الخبـرة أكثر شـمولية من المعرفـة التصورية التـي ينتقيها الإنسـان فيما بعـد من خبرتـه الأصلية بواسـطة التحليل. هذه الخبـرة الأصلية تسـبق «التصوريـة» (Conceptualization). فهـي المنبـت لـكل المفاهيم الجزئية التـي يختارهـا الإنسـان عن عمد. والإنسـان فـي خبرته الأولية لا يـزال منفتحاً علـى الكـون. فهو يكـون على اتصال مع كماليـة الواقع بكل ما بـه من اختلافات. لـذا تكون هذه الخبرة بالضـرورة مختلفة عن الطريقة العلمية للمعرفة. الإنسـان يمكـن أن يفهم فحسـب بطريقة علميـة حينما يحدد ذاتياً نظرتـه الأصلية. فلكي يكـون علميـاً، ينبغـي أن يتبني اتجاهاً بدلا مـن «الاتجاه العلمي السـبقي المفتوح» (Open prescientific). عليـه أن يغيـر ويختزل ما توفر له فـي الأصل من خبرة أوليـة. ومـا جـرى اعتباره موضوعات فـي العلم ليـس بالموضوعات التي نشـأت

(*) A. L. Van Kaam. Assumptions in psychology. J. Indiv. Psychol., 1958, 14, 22-28.

في الأصل، ولكن هي موضوعات نُظر إليها في إطار معين لأن الإنسان يوجه نفسه ذاتياً بطريقة معينة نحو الواقع. فالخبرة الأولية أو الساذجة naïve experience لا تعرف موضوعات ولكن تعرف الناس والمنازل والأشجار والطيور والزهور والحب والكراهية والقلق.

وحينما يحدد الإنسان ذاتياً أنه سوف يتناول كل هذا الواقع في العلم بطريقة علمية، إنما يحدد خبرته به بواسطة إطار مرجعي كَوَّنَه بطريقة ذاتية. فلم يعد الواقع ما كان عليه من قبل. وما يطلق عليه البيانات المضبوطة أو المدققة هو بالأحرى تفسيرات لخبرة الإنسان الأولية. ويقوم التفكير العلمي بتوظيف الخبرة الأولية وطرُقها بدلاً من أن يتجاوزها: إن النظرة العلمية للإنسان والكون هي نتيجة لتعديل معين للاتجاه الإنساني. الخبرة الأولية عن العالم تتسيج وتتحصن بواسطة العلم. فالعلم يعدل الخبرة تعديلاً أساسياً. وهو يفعل ذلك بواسطة الاختيار الذاتي الذي يقوم به الإنسان.

وهكذا، فإن ما جرى من التحقق الذي قام به الفيزيائيون والفينومينولوجيون المعاصرون من أن العلم ذاتي نسبياً، قد جعل الإنسان أكثر وعياً بالحقيقة التي تقرر أنه ينطلق دائماً من افتراضات محددة في اجتهاداته العلمية.

إنكار الافتراضات:

إن علم النفس لا يتشرب بسهولة هذه التحقيقات الجديدة. فعلماء النفس المختلفين يحاولون التخلص من التحقق الذي يقرر أن الافتراضات حتمية. ويعترف بعضهم أنهم يضعون في الاعتبار كل وجهات نظر مدارس علم النفس على أنها وجهات نظر نسبية وأنهم أنفسهم ينطلقون بدون أي افتراض. ولكن مع التصريح بأن كل وجهات النظر هذه نسبية، لا يستطيع عالِم النفس أن يتملص من أن له نظرته المحددة. وبقدر ما يكون الاهتمام بنسبية وجهات النظر المختلفة في علم النفس، بقدر ما تتكشف الخاصية المطلقة لموقع الفرد في علم النفس. قد يطلق على ذلك وجهة نظر فائقة، ولكنها تظل وجهة نظر. فهي لا تبدي أي تردد إزاء الاختيار المطلق والحاسم للموقف الذي يركز على فهم الإنسان.

ويذهب آخرون إلى أنه لا توجد افتراضات لأنه لا يمكن إثباتها بواسطة الطريقة العلمية. وعبثاً كذلك يكون السعي إلى التخلص من الافتراضات. فالتصريح بأن افتراضات علماء النفس تأتي بما يمكن التحقق منه تجريبياً هو واحد من أكثر الافتراضات شمولاً لأنه يتضمن حكماً قاطعاً يتعلق بكل إمكانيات المعرفة الإنسانية وعلاقتها بما يمكن معرفته. فليس ثمة تملص من الافتراضات في علم النفس. وعالم النفس من أي مدرسة يأتي دائماً بحكم مطلق ونهائي عما يسمى بطبيعة الإنسان وعن الطريقة التي يمكن بها فهم الإنسان. ولم يتوصل البحث السيكولوجي إلى هذه الافتراضات التي ذهب إليها علماء النفس. وعلى العكس، تعتبر افتراضات عالم النفس نقطة الانطلاق لنوع البحث الذي سيضطلع به ولتقييم نتائج هذا البحث.

أسباب الإنكار:

يبدو أنه من الصعب بالنسبة لميدان علم النفس أكثر من الميادين الأخرى أن يتقبل أن العلم ذاتي نسبياً ويتضمن دائماً افتراضات لا يمكن التوصل إليها بواسطة الطريقة العلمية ذاتها.

لقد كان علماء النفس الأولين أكثر ميلاً إلى محاكاة علم الفيزياء. ولا يزال هذا التقليد يؤثر في كثير من علماء النفس. لكن ما يعرفونه بالفعل عن الفيزياء قد يكون هو المبادئ التفاؤلية التي ذهب إليها علماء الفيزياء الأولون. فهي تبدو أقل تداولاً بالنسبة للتحقيقات أو الإثباتات التي توصل إليها علماء الفيزياء الذين أشرنا إليهم في مطلع هذه الدراسة، ومع ثم يعتبر علماء الفيزياء الأولون أقل حساسية للذاتية النسبية للعلم من بعض معاصريهم.

لقد سعى علم النفس إلى تحرير نفسه من سطوة الفلسفة. وقد كان من المفهوم أن عالم النفس يعمل ضد فلسفة مسيطرة كانت هي الفلسفة العقلانية والتجريدية. والنتيجة غير المواتية هي أن الكثير من علماء النفس الآن يميل أكثر من العلماء العقلانيين intellectuals الآخرين إلى الإقلال من قيمة كل الأعمال ذات الطبيعة النظرية أو الفلسفية أو الأدبية. وقد يتمخض عن هذا أفول للذهن، وعدم وعي بما يجري في المدرسة العقلانية المعاصرة. وبسبب

هـذا، قـد يكـون بعـض علماء النفـس أقل قـدرة على الإفـادة مـن التحققات أو الإثباتـات الجديـدة التي تتم فـي هذه الميادين الأخرى المتعلقـة بطبيعة العلم.

لقـد كان علـم النفـس نسـبياً علماً يافعـاً عليه أن يثبـت ذاتـه، والعلم يقوم بحـق علـى درجـة معينة من الموضوعية والاتسـاق فـي طرقـه ونتائجـه الفعلية، طالمـا أن العالـم ينتقـي ذاتياً شـريحة صغيرة مـن الواقع كموضـوع للبحث. ومن السـهل أن نوقـن لذلـك أن عالـم النفس الذي تراوده مشـاعر عـدم الأمان يميل إلـى التأكيـد الزائـد على الموضوعيـة. وكنتيجـة لهذا الموقـف التاريخـي يتملك بعـض علمـاء النفس خـوف أكثر مـن العلماء الآخريـن من أن يعترفوا فـي ضوء التحققـات أو الإثباتـات الجديـدة بـأن الافتراضات حتميـة وبأنها ليسـت قابلة للإثبـات بواسـطة الطريقة العلميـة ذاتها.

وعالـم النفس الذي يعتقد أن افتراضاته وتفسـيرات نتائـج بحثه موضوعية بصـورة مطلقـة قـد يميـل إلى تكويـن نظرته للحيـاة على أسـاس هـذه النتائج. فعلمـه يصير فلسـفته عـن الحياة. وهذا ما يجعلـه أكثر صعوبة بالنسـبة له لكي يتحمـل التحقـق من أن علميتـه Scientism، كالعلـم ذاته، تُبْنىَ فـي النهاية على الافتراضـات التـي تكـون وفقا لشـعوره غير جديـرة بالاعتبار لأنهـا لا تقوم على نتائج الطريقـة العلمية.

وثمـة عامـل آخر يتلخص فـي أن بعض العلمـاء الذين يتناولـون نوعاً معيناً مـن البحـوث الدقيقـة، قـد تكون طبائـع الشـخصية لديهـم متصفة بالقسـرية بدرجـة أكثـر أو أقل. قد يقوم العلم فـي حياتهـم بوظيفة تنظيـم الواقع بطريقة يشـعرون معهـا بأنهم يسـتطيعون على الأقل قيـاس ما هو غير معـروف وضبطه والسـيطرة عليه. وتسـتدعي الافتراضات التي لا تقبل الإيضاح تجريبيا، مشـاعر القلـق لديهم. وفـي هذه الحالة، فإن تجنـب التحقق من هـذه الافتراضات يعمل كدفاعات ماكرة.

وفـي النهايـة لا تـؤدي طبيعة العمل التجريبي مباشـرة إلـى التحقق من كل تطبيقـات علـم النفـس التجريبـي. وعلينـا أن نعتـرف أنه بقـدر ما يكـون عالم النفـس واعيـاً بهذه المشـكلات، يمكنه أن يسـتبعدها من وعيه طالمـا أنه منغمس

في البحث التجريبي. فتوجيه الانتباه إلى الافتراضات أثناء التجريب ذاته قد يجعل العمل العلمي مستحيلاً. هذا الاتجاه الرامي إلى التجرد من الافتراضات المتضمنة أثناء التجريب يمتد بسهولة خارج المعمل ويجعل المجرب في غفلة من وجود الافتراضات المتضمنة.

ويعاني تعليم السيكولوجيين بالضرورة من النقائص التي تميز علم النفس ذاته. ربما يميل الطالب، منذ البداية، إلى ألا يأخذ بجدية مصادر معينة من المعرفة عن الواقع مثل الفلسفة والأدب وغيرها مما يعتبر مصادر عامة للمتعلمين الآخرين في ثقافته. وفي نفس الوقت ليس لديه الإعداد الذي يمكنه من أن يدخل بعمق في علم حديث مثل الفيزياء. لذا يفقد أيضا التحقيقات أو الإثباتات التي تكون عامة لدى عالم الفيزياء الحديثة.

الوعي بالافتراضات :

بالرغم من كل هذا، يتزايد عدد علماء النفس الذين يتزايد وعيهم بالحقيقة التي تقرر أن بحوثهم تنطلق بالضرورة من افتراضات ذاتية نسبياً. ومن المحتمل ألا يكون السبب في ذلك هو أن هؤلاء السيكولوجيين على معرفة أفضل بالنتائج النهائية لفيزياء الكميات ولنسبية النظرة العلمية التي هي أحد نتائج تطورها الحديث. ومن المحتمل كذلك ألا نستطيع استيضاحها بمزيد من المعرفة المتعمقة والمتسعة عن الفنون والآداب والفلسفة المعاصرة.

كيف تخلص علماء النفس من الانعزال الذهني؟ يبدو أن هذا قد حدث بالنسبة للجزء الأعظم من علماء النفس الذين يهتمون بالميدان الإكلينيكي. يتضمن هذا الاهتمام عناية بالشخص الإنساني وخاصة حياته الخِبْرية. هذا الاهتمام الفذ والدائم بخبرة الإنسان قد يؤدي إلى التحقق من أن خبرته الذاتية نسبياً هي مصدر كل اجتهاداته ومساعيه حتى في العلم. وهنا يتفق علم النفس الإكلينكي مع تحققات وإثباتات الفكر الحديث وإدراكية الوجود المعاصر. وأحد النتائج أن هؤلاء السيكولوجيين يميلون هكذا إلى أن يكونوا أكثر وعياً بالافتراضات ويحاولون جعلها صريحة وواضحة.

ويمكننا، بطريقة غير متقنة إلى حد ما، رسم حد فاصل بين علماء

النفس الوضعيين وعلماء النفس الظاهريين (الفينومينولوجيين) – الوجوديين.
حينما نسأل أنفسنا عن ذاتيتهم النسبية، يمكننا توصيف ذلك على النحو التالي: تبدو الذاتية لدى عالم النفس الوضعي أكثر قمعاً، ومنعة، وجموداً، وانغلاقاً، ويعني هذا أنه يميل إلى رؤية افتراضاته الذاتية نسبياً على أنها موضوعية بصورة مطلقة. فهو يترفع عن التفكير في افتراضات ذاتية، وحتى قد يراوده بعض الخوف من هذا التفكير. هذه الذاتية المستهدفة للقمع بدرجة أكبر أو أقل تميل إلى أن تجعله جامداً ويهتم بصورة مطلقة، على سبيل المثال، بتقييم الطرق التي يستخدمها . فربما يعتقد، مثلاً، أن «طرق التكمية» (quantifying methods) هي الطرق الوحيدة الجديرة بالاهتمام. وبسبب أن الأساس الذاتي نسبياً لهذا الاعتقاد غير قابل لمزيد من التأمل والفكر، لا تكون لديه أية وسيلة لتصحيح هذا الاتجاه.

أما الذاتية لدى عالم النفس الظاهري – الوجودي، فتبدو أكثر منالاً ومرونة وانفتاحاً. وهو أقل ميلاً للاعتقاد بأن افتراضاته موضوعية بصورة مطلقة. كما أنه أكثر وعياً بما يحدد عمله العلمي. وهذا ما يمنع التأثير الذاتي من أن يصير ثابتاً للغاية وجامداً للغاية. ويجعله هذا أكثر انفتاحاً على المحددات الذاتية التي تؤثر في الناس الآخرين وانعكاساتها على علم النفس والميادين الأخرى. وهو يميل إلى التأمل في افتراضاته الذاتية نسبياً، وإلى أن يسأل نفسه من وقت لآخر عما إذا كانت لا تزال رصينة يمكن الدفاع عنها، وما إذا كان يمكن توسيع نطاقها أو مصالحتها مع التصورات الذاتية نسبياً لدى أشخاص آخرين يدرسون الشخص الإنساني بطريقة أو بأخرى. بل وحتى قد ينظر إلى مفهوم العلم ذاته على أنه مفهوم نام متطور ومتغير. ويأخذ هذا المفهوم، اعتماداً على الافتراضات الذاتية نسبياً، معنى ومضموناً مختلفاً باختلاف الفترات الحضارية.

ومن الواضح أن هذه الذاتية المنفتحة والمرنة والميسورة يمكن تنميتها لدى طلاب علم النفس. وقد يستلزم ذلك من الطالب أن يسجل في تقرير البحث ما هي افتراضاته الأساسية. وعندما يقوم بتفسير النتائج، عليهم أن يبينوا بوضوح ما الذي يكون عليه التفسير في ضوء افتراضاتهم ذاتها، وما الذي يكون عليه في ضوء مدارس علم النفس المتميزة الأخرى.

الافتراضات الوضعية مقابل الافتراضات الظاهرية:

وفي النهاية يمكننا أن نتساءل: ما هي افتراضات عالِم النفس الوضعي؟ وما هي افتراضات عالِم النفس الوجودي- الظاهري (الفينومينولوجي)؟ باختصار، لا يزال عالم النفس الوضعي يتشيع بطريقة ضمنية لافتراض مثل «**الآلية**» (mechanism) و«**الحتمية**» (determinism) اللذين كانا يميزا علم الفيزياء المبكر.

تتضمن «**الآلية**» نظرية كمية تماماً عن الذرات بدون كيفيات. هذا الافتراض الضمني يتناقض أكثر وأكثر مع الحقائق التي اكتشفها علماء الفيزياء؛ ويصدق ذلك على تطور علم النفس. فالافتراض الضمني الذي يقرر أنه يمكن فهم الإنسان بواسطة تحليله إلى عناصر متشابهة إحصائياً، يتناقض أساساً مع الواقع. بقول آخر، لم يعد افتراض الآلية، الذي يذهب إلى أن كل الظاهرات يمكن اختزالها إلى تغير موضعي أو إلى تغير في وضع الذرات الثابتة داخلياً، يحتمل الدفاع عنه من منظور الحقائق، ولكنه لا يزال يؤثر فيما يقوم به عالم النفس الوضعي من عمل علمي.

أما الافتراض الآخر لعلم الفيزياء، وهو افتراض «**الحتمية**»، فيذهب إلى أن أى موقف للعناصر الأولية في وقت معين يكون محتوماً بواسطة قانون داخلي أو بالموقف في وقت آخر. ولا يزال لهذا الافتراض في شكله السيكولوجي تأثير هائل على تفكير عالم النفس الوضعي. لقد صار علماء الفيزياء أكثر حذراً بكثير منذ أن خرج «هييزنبرج» بمبدأ الشك. ونحن نطلق على كلا هذين المفهومين افتراضات فلسفية، ونسميها بافتراضات لأنهما لا يجدا سنداً في نظرية امبيريقية متقنة، ونصفهما بالفلسفية بسبب «الإطلاقية» (absoluteness) اللتان يتمسكان بها: أنهما ينطبقان بواسطة العقل الوضعي على كل شيء في الإنسان وفي الكون.

والافتراضات التي يذهب إليها علماء النفس الظاهريون — الوجوديون متنوعة بدرجة هائلة كتلك التي يذهب إليها علماء النفس الوضعيون. ويسمح لنا حيز هذه الدراسة بأن نشير إليها سلبيا بموقفها المتناقض من الآلية

المطلقـة والحتميـة المطلقـة. وتمثل هـذه الافتراضات الصـورة المقابلة فـي علم النفـس للافتراضات الجديدة لدى علماء فيزياء الكميات والفلاسـفة الوجوديين. فمصطلحـات، مثل الصيـرورة والإبـداع والنمو وتحقيق الـذات، هي مصطلحات توضـح بدرجـة أكثر أو أقل فـي أي اتجـاه تتطور هـذه الافتراضات.

(١٦)

الافتراضات القبلية العلمية(*)

روللومـاى

(معهد وليام آلانسون للطب النفسي وجامعة نيويورك)

مـا هـي «الافتراضات القبليـة» (presuppositions) التي تكمـن وراء علمنا وممارسـاتنا؟ لا أذكـر هنـا «الطريقـة العلميـة»، فقـد حظيت، وعلـى وجه أصح مشـكلة مناهـج البحث وطرقه، بقدر كبيـر من الاهتمام. ولكن كل طريقة تسـتند إلـى افتراضـات قبليـة معينة — افتراضات عـن طبيعة الإنسـان، وطبيعة خبرته، وهكـذا. هـذه الافتراضات القبلية مشـروطة جزئياً بثقافتنـا وبالمرحلة التاريخية التي نعيشـها. هذا التوجه الحاسـم، كما أرى، قد اختفـى غالباً فـي علم النفس: فنحـن نميـل إلـى أن نفترض ضمنا وبـدون تمحص أن الطريقة التي نسـتخدمها تصلـح لكل الوقـت. والقضية التي تقرر أن العلم قد تشـيد على أسـاس مقاييس صحيحـة بذاتهـا self – corrective measures- وهـي صادقة جزئيا — لا يمكن أن تؤخذ كسـبب لتجاوز الحقيقة التي تقرر أن «علمنا مشـروط ثقافياً وتاريخياً» ، ومـن ثم فهو محدد حتى فـي مقاييسـه الصحيحة بذاتها.

وهنـا يكـون الإصـرار الوجودي بـأن عالِم النفـس، بسـبب أن أي علم نفس وأي طريقة لفهم الإنسـان تسـتند على افتراضات قبلية معينة، مطالب باسـتمرار بتحليـل واسـتيضاح افتراضاتـه. فالافتراضـات التي يذهـب إليها عالِـم النفس تحـدد وتقيـد دائماً ما يراه فـي مشـكلة أو تجربـة أو موقف علاجـي؛ ومن هذا الجانـب الخاص بـ «التحديد» الإنسـاني لا يكون ثمة مفـر. العالم الطبيعي يدرك فـي الإنسـان مـا يلائم منظـوره الطبيعي، والعالـم الوضعي يـرى جوانب الخبرة التي تلائم الأشـكال المنطقية لقضاياه. ومن المعروف جيداً أن المعالجين المختلفين من المدارس المختلفة سـوف يرون فـي نفـس حلم مريض بعينـه الديناميات التي تلائـم النظريـة التي تأخذ بها المدرسـة التـي ينتمون إليها. يعبر «برتراند رسـل» عـن هذه المشـكلة تعبيراً سـليماً بالنسـبة لعلم الفيزيـاء: «الفيزيـاء رياضية ليس لأننـا نعرف كثيـراً عن عالم الفيزياء ولكـن لأننا نعرف النذر اليسـير؛ فما نعرفه

(*) Rollo May (ed.), Existential Psychology. Random House, Inc., 1961.

فقط هو خصائصها الرياضية التي يمكن أن نكتشفها».

لا يستطيع أي عالم، في الفيزياء أو في علم النفس أو في أي علم آخر، أن يتنصل من جلده المحكوم تاريخياً. ولكن السبيل الوحيد الذي نستطيع معه الاحتفاظ بالافتراضات القبلية الكامنة وراء طريقتنا الخاصة من التأثير المتحيز غير اللائق، هو أن نعرف بوعي ماهية هذه الافتراضات وبالتالي عدم السعي إلى الأخذ بها كمفاهيم مطلقة أو قطعية (دوجماطيقية). ومن ثم لدينا على الأقل فرصة للكف عن فرض موضوعاتنا أو مرضانا قسراً على «أرائكنا الجامدة» procrustean couches، ونغض البصر عما لا يوافق أو نرفض النظر إليه.

يتضمن كتاب «لودفينج بينشفانجر»: «سيجموند فرويد ذكريات صداقة»، وهو كتاب صغير يتناول محادثاته ومراسلاته مع فرويد، وجهات نظر متبادلة قيمّة توضح هذه النقطة. لقد كانت الصداقة بين فرويد المحلل النفسي، وبينشفانجر، الطبيب النفسي الوجودي في سويسرا، وطيدة ومديدة وتقف كمثال لاحتفاظ فرويد بالصداقة مع شخص يختلف عنه اختلافاً جذرياً.

وباختصار، كتب بينشفانجر، قبل عيد ميلاد فرويد الثمانين، مقالاً يصف كيف أن نظرية فرويد قد عمقت بطريقة جذرية الطب النفسي الإكلينيكي، ولكنه أضاف إلى أن وجود فرويد ذاته كشخص قد تجاوز الافتراضات القبلية الحتمية لنظريته.

«والآن لم يعد الإنسان (وفقا لمنجزات التحليل النفسي الفرويدي) مجرد كيان حيواني نشط animated organism، ولكن كائنا حيا living being له أصول في عملية الحياة المتناهية لهذه الأرض، يموت حياتها ويعيش موتها، ولم يعد المرض اضطراباً، يتسبب بعوامل خارجية أو داخلية، للمسار السوي للحياة في الطريق إلى موتها». ولكن بينشفانجر مضى يشير إلى أنه كنتيجة لاهتمامه بالتحليل الوجودي، يعتقد أن الإنسان في نظرية فرويد ليس بعد إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى:

.. لكي تكون إنساناً لا يعني مجرد أن تكون مخلوقاً توجده حياة البقاء-

المـوت، يلقي بدلوه فيها ويغالبها، وتتملكه معنويات عالية أو منخفضة بواسـطتها؛ إنـه يعنـي أن تكـون كائنـاً يتحمـس إليهـا ونصف عينيـه قَـدرَ الإنسـانية، كائناً «راسـخاً» أي كائنـاً يحصـل علـى موقـع له فيهـا، أو كائنـاً يقف علـى قدميه... والحقيقـة التـي تقـرر أن حياتنـا محـددة بقوى الحيـاة، هي فقط أحـد جوانب الحقيقـة، والجانـب الآخـر هـو أننـا نحدد هـذه القوى علـى أنها قدرنـا. هذان الجانبـان معـاً فقـط يكمنان وراء كل مشـكلة سـلامة العقـل واختلالـه. وأولئك الذيـن، مثـل فرويـد، طرقـوا أقدارهـم بالمطرقـة، يمكنهـم تناول هـذه الحقيقة بالجـدل أقل مـن كل الحقائق».

لقـد دعت «الجمعية الطبية بفيينا» (Vienese Medcial Society)، بمناسـبة عيد ميلاد فرويد الثمانين، بينشـفانجر بالاشـتراك مع «تومـاس مان» (Thomas Mann) لتقديم دراسـات فـي هذا الاحتفال السـنوي. ولم يحضر فرويد نفسـه، حيـث لـم يكن بصحة جيدة، ولم يكـن يُغرم بمثل هذه الاحتفالات السـنوية – كما كتـب إلـى بينشـفانجر. وقد قضـي بنيشـفاجر يومين مع فرويد فـي فيينا فـي وقـت هذه المناسـبة وأشـار إلى أنه فـي هذه المحادثـات قد خـرج بانطباعة مرة أخرى عن إلى أي أحد كانت نظرة فرويد إلى الإنسـانية تتسـم بالاتسـاع والعمق كإنسـان يعلو علـى نظرياته العلمية.

أقـر بينشـفانجر، فـي دراسـته التي قدمها بمناسـبة هـذا الاحتفـال، بفضل فرويـد فـي توسـيع وتعميـق بصيرتنا بالطبيعـة البشـرية، ربما أكثر مـن أي مفكر منـذ أرسـطو. لكنه مضى إلى الإشـارة بـأن هذه البصائـر قد لبسـت « رداء نظريا – علميـاً يبـدو لـي ككل « من جانـب واحد» وضيقـاً للغاية». وذهب إلى أن إسـهامة فرويد العظيمة كانت فـي مجال «الطبيعة البشـرية» homo natura، الإنسـان فـي علاقتـه بالطبيعـة (Umwelt) – الحوافز، الغرائز، والجوانب الماثلة للخبرة. وكنتيجة لذلك، اعتقد بينشـفانجر أن نظرية فرويد تتضمن فحسـب فهماً غامضاً يقوم على مبدأ الظاهرات المضافة epiphenomenon للإنسـان فـي علاقته بغيره من الناس (mitwelt)، وأن مجال الإنسـان فـي علاقته بنفسـه (Eigenwelt) قد أُغفل تماماً.

وقد أرسـل بينشـفانجر نسخة من دراسـته لفرويد الذي أرسـل خطاباً إليه بعد أسـبوع يحوي العبـارات التالية:

عندما قرأت دراستكم شعرت بالغبطة من لغتكم الجميلة، ومن حصافتكم وسعة أفقكم، ومن فطانتكم في معارضتي. وكما هو معروف جيداً، يستطيع المرء أن يتجاوز عن مقادير هائلة من المديح والتفريط... ومن الطبيعي، نظراً لكل ذلك، أن تخفق في إقناعي. لقد قيدت نفسي دائماً بالأساس الوطيد الذي يقوم عليه صرح البناء. وإنك لتصر على أنه بتغيير وجهة نظر الفرد، فإنه يستطيع أن يرى الطابق الأعلى، حيث تقطن تلك الضيوف المميزة كالدين والفن وغيرهما...»

ثم يضيف بينشفانجر في كتابه – وهذا هو السبب الأساسي الذي دفعنا لأن نقتبس ما ورد بينهما من تبادل: «وكما يمكن أن نرى من الجملة الأخيرة، نظرة فرويد إلى ما بيننا من اختلافات على أنه شيء نتغلب عليه بالبحث الامبيريقي، وليس على أنه شيء تتم حمايته بالتصورات المتسامية transcendental conceptions التي تكمن وراء كل البحوث الامبيريقية».

وفي حكمي، أن ما ذهب إليه بينشفانجر لا يُدحض. قد نستطيع جمع بيانات إمبيريقية، ولتكن عن الدين والفن، ولا نستطيع أن نقترب من فهم هذه النشاطات إذا كانت افتراضاته القبلية التي يبدأ بها تحجب ما الذي يتكرس عليه الشخص المتدين وما الذي يحاول الفنان أن يقوم به. ومن شأن الافتراضات القبلية الحتمية deterministic presuppositions أن تجعل في الإمكان فهم كل شيء عن الفن عدا العمل الإبداعي والفن نفسه؛ وقد تؤدي الافتراضات القبلية الطبيعية الآلية mechanistic naturalistic إلى إخفاء الكثير من الحقائق عن الدين.

والنقطة التي نود إثارتها في هذه المناقشة هي ضرورة تحليل الافتراضات القبلية التي تذهب إليها، وضرورة الكشف عن جوانب الواقع – وقد تكون في الحقيقة هائلة – التي قد يغفلها بالضرورة اتجاه معين نأخذ به. وفي حكمي، أننا في علم النفس غالباً ما شَوّهنا فهمنا وأفسدنا إدراكنا نتيجة الإخفاق عن عمد في استيضاح هذه الافتراضات القبلية.

ولعلـى أتذكـر بوضوح، إذا عدت إلى الوراء أيام دراسـتي الجامعية فـي علم النفـس، كيـف كان هناك ميل إلى رفـض نظريات فرويد كنظريـات «غير علمية» لأنهـا لا تلائـم الطـرق الذائعـة الصيـت آنذاك فـي مـدارس علم النفـس. وقد تمسـكت فـي ذلك الوقـت بأن هـذا الميل قـد أغفل النقطـة التاليـة: لقد أماط فرويـد اللثـام عن جوانـب الخبرة الإنسـانية ذات الأهميـة البالغـة؛ وإذا لم تكن تلائـم طرقنـا، فمـا أكثـر ما تتصف به هـذه الطرق مـن رداءة. والمشـكلة هي أن نبتـدع طرقـا جديـدة. وفـي حقيقة الأمـر، أن الفرويديـة – كما يشـير روجرز- عقيـدة (دوجمـا) علم النفـس الإكلينيكي. لـذا يتملكني ميل، إذا عـدت بذاكرتي إلـى أيام دراسـتي الجامعيـة، إلى الضحك حينمـا يقول البعـض أن مفاهيم علم النفـس الوجـودي « غيـر علميـة» لأنها لا تلائم الطـرق المعنية ذائعـة الصيت.

مـن الواضـح تماماً أن الآليـات (الميكانزمات) الفرويدية تدعـو إلى القطيعة والانفصـال فـي مفاهيـم السـبب والنتيجـة المغايـرة التـي تلائـم طـرق البحث الحتميـة التـي تسـيطر علـى علم النفـس. ولكن ما يسـتلزم البصر أيضـا أن ما جعـل الفرويديـة عقيدة (دوجما) فـي علـم النفس قد تحقق على حسـاب إغفال جوانـب هامة وضرورية للغاية من فكر فرويد. وتوجد فـي الوقت الحاضر علاقة ذات ثـلاث جوانـب، من حيث الميـل، وإلى حد ما من حيث الواقـع، بين الفرويدية والسـلوكية فـي علم النفـس، والوضعية فـي الفلسـفة. مثال الجانـب الأول من العلاقـة هـو التشـابه الكبيـر بـين نظريـة التعلم عند «هل» فـي خفـض الحافز drive reduction theory، ومفهـوم اللـذة عنـد فرويد، وهو هدف السـلوك كما يتحـدد مـن خفض المثيرات. مثـال الجانب الثانـي هو عبارة الفيلسـوف «هرمان فييجـل» Herman Feigl، فـي خطابـه إلى أحـد المؤتمرات السـنوية لـ «الجمعية الأمريكيـة لعلـم النفـس» (APA)، أن الآليـات (الميكانزمات) الخاصـة التي ذهب إليهـا فرويـد يمكن صياغتهـا واسـتخدامها بطريقة علميـة، ولكـن مفاهيم مثل «غريـزة المـوت» لا تقبل مثل هـذه الصياغة والاسـتخدام العلميين.

لكـن المشـكلة هـي أن مفاهيـم مثـل «غريـزة الموت» عنـد فرويد هـي التي أنقذتـه مـن التـورط فـي المفاهيم الآليـة تمامـاً لنظامه؛ فهـذه المفاهيـم تكمن دائمـا وراء التحديـدات الحتميـة لنظريتـه. إنهـا، فـي أفضل ما تحملـه الكلمة مـن معنـى، من قبيـل علم الأسـاطير. ولـم يكـن فرويد بـراض أبداً بـأن يجعل

هذا البعد الأسطوري يتسلل إلى تفكيره بالرغم من جهوده الفائقة في ذلك الوقت لصياغة علم النفس في ضوء افتراضاته القبلية البيولوجية. وفي حكمي، أن الأسطورية لدى فرويد كانت أساسية بالنسبة لعظمة إسهاماته وضرورية بالنسبة لاكتشافاته الرئيسية، مثل «اللاشعور». وكانت، علاوة على ذلك، ضرورية بالنسبة لإسهامه الجذري في الصورة التي قدمها عن الإنسان، ألا وهي الإنسان كما تحركه القوى «الشريرة» (demonic) و«المفجعة» (tragic) والمدمرة (destructive). وقد حاولت في موضع آخر أن أبين أن المفهوم المفجع الذي ذهب إليه فرويد عن عقدة أوديب أقرب إلى الحقيقة من ميلنا لتفسير عقدة أوديب في ضوء العلاقات الجنسية والعدوانية المنفصلة في الأسرة. ومن الطبيعي ألا تأتي صياغة (غريزة الموت) كغريزة بيولوجية بأي معنى. وهنا كان يحق للمدرسة السلوكية وللمدرسة الوضعية الأمريكيتين رفض مثل هذه المفاهيم. ولكن هذه الفكرة، كإقرار سيكولوجي وروحي للطبيعة المأساوية للإنسان، تحمل في الحقيقة أهمية بالغة وتتجاوز أي تفسير بيولوجي أو آلي محض.

تعاني طرق البحث العلمي دائماً من تخلف ثقافي. ومشكلتنا هي أن نفتح بصرنا ونمده إلى مزيد من الخبرة الإنسانية، وأن نطور طرقنا ونحررها لكي تسهم بقدر الإمكان في ثراء وعمق خبرة الإنسان. ويمكن أن يتحقق هذا فحسب بتحليل الافتراضات القبلية الفلسفية، وكما يقرر «ماسلو» بعنف: «من الأهمية للغاية بالنسبة لعلماء النفس أن الوجوديين قد يمدوا علم النفس بالفلسفة اللازمة التي تعوزه الآن. ومما لا شك فيه، وعلى أي مستوى، أن المشكلات الفلسفية الأساسية سوف تُطرح للمناقشة مرة ثانية، وربما سيتوقف علماء النفس عن الاستناد إلى حلول كاذبة أو إلى فلسفات غير ممحصة وغير واعية التقطوها كالأطفال».

فـي دراسة طبيعة الإنسان، نجح العلم بدرجة هائلة في مواجهة التحدي: « كيف أعرف أني أعرف ؟» ولا يقبل أية بيانات كدلائل صادقة ما لم تقم على بَيِّنة موضوعية. وليس هناك من شيء يجعل الشخص على يقين تام من نفسه مثل تمكنه من القول: «لقد رأيتها بعيني»، أو «لقد قمت بقياسها بنفسي». وتؤدي الإجراءات المنتظمة بهدف ضبط العوامل غير ذات الدلالة بالنسبة للظاهرة موضوع البحث وبهدف التمكن من تكرار التجربة والبيانات، إلى المزيد من تدعيم الشعور باليقين.

ولا يختلف العلم، باعتباره شكلاً من أشكال التفكير، عن غيره من الأنظمة الأخرى. فالتعقل ليس سبقاً وحيداً لأي مجال. ويتفرد العالِم بالطريقة التي يحصل بها على بياناته، وليس بالطريقة التي ينظر بها. ويستخدم الدارسون في أي مجال استراتيجية مماثلة لحل المشكلات كلما أتوا بتفكير متقن.

(١٧)

العلم وفهم السلوك(*)

لويس ليفين

(جامعة سان فرانسيسكو)

تتبدي الصعوبات التي تعرقل جهود الإنسان في فهم السلوك الإنساني أيضاً حينما يحاول أن يعزو أحداثاً طبيعية إلى أحداث أخرى. فقدراته المحدودة على الملاحظة، وعجزه عن أن يهتم بكل جوانب المشكلة التي يتناولها بالبحث، وتأثير انفعالاته، وصعوبة استخلاص معنى من ملاحظاته - كل هذا يعوقه في جهوده لفهم أي جانب من عالمه. ومع الزمن، أدى وعي الإنسان بهذه الصعوبات المعوقة للمعرفة إلى تطويره لطرق تقييم البيانات، ولعزو الملاحظات بطريقة منظمة لملاحظات أخرى، وإلى إجراءات لاختبار الافتراضات الخاصة بهذه العلاقات. وقد أسهمت الطرق والإجراءات هذه إسهاماً هائلاً في توسيع معرفة الإنسان في كل المجالات، متضمنة دراسة الإنسان ذاته. وإذا لم تكن هذه الطرق والإجراءات هي نفسها بدقة بالنسبة لكل المشكلات، فلها أصل عام فيما يصفه «جون ديوي» بـ «**الاتجاه العلمي**»:

الاتجاه العلمي، باختصار، هو خاصية تتضح في أي مسيرة للحياة. إذن، ما هي؟ من جانبها السلبي، هي التحرر من التحكم بواسطة الروتين والتعصب والجمود (الدوجما) والتقليد الأعمي والاهتمام المطلق بالذات. ومن الناحية الإيجابية، هي إرادة الفحص والتمحيص، والتمييز، واستخلاص النتائج فقط على أساس البيانات، وبذل الجهد والمعاناة في سبيل جمع كل البيانات الميسورة. إنها القصد بهدف الوصول إلى المعتقدات، ولاختبار تلك المعتقدات القائمة، على أساس الوقائع الملاحظة، مع الاعتراف أيضاً بأن الحقائق تكون بلا معنى عدا أنها تشير إلى أفكار. وهي بالتالي الاتجاه التجريبي الذي يقرر أنه بينما تكون الأفكار ضرورية لتناول الحقائق، إلا أنها فروض عاملة تخضع للاختبار بواسطة النتائج التي تتمخض عنها.

(*) Louis S. Levine. Personal and Social Development. Holt, Rinehart and Winston, Inc.

توضح عبارات ديوي في تناوله المتميز عن «وحدة العلم كمشكلة اجتماعية»، أن الحُظوة بالاتجاه العلمي غير قاصرة على العلماء المتخصصين، فكل الناس قد يشاركون العلماء في الرغبة في التنبؤ بدقة بنواتج مواقف محددة أو في تعديل الظروف أو الشروط للوصول إلى نتيجة معينة. ولكن ليس كل الناس تُقيِّم الاتجاه العلمي بدرجة متساوية، وقليلون نسبياً منهم متمرسون في الطرق المستخدمة في أي من النظم العلمية.

لكن هذه الطرق المختلفة هي مجرد أساليب محددة لتطبيق نفس المبدأ. وبصرف النظر عن الظاهرات التي توضع في الاعتبار، يتضمن الاكتساب العلمي للمعرفة: (١) إقرار مشكلة للبحث بواسطة طرح سؤال واضح وقابل للإجابة، (ب) صياغة فرض من الفروض، (ح) تحديد كل المصطلحات والطرق المستخدمة، (د) تجميع وتحليل البيانات، (هـ) التحقق من النتيجة المستخلصة بواسطة تكرار الدراسة. لذا، ينبغي تحديد كل المصطلحات والإجراءات والطرق بوضوح لكي تستطيع البحوث الأخرى تأييد النتائج أو رفضها. وجملة المعرفة التي تتحقق بهذه الخطوات الخمس هي ما نسميها بالعلم.

يزودنا العلم بالوسيلة التي تُقَيَّم بها صلاحية المعتقدات المتعلقة بالأحداث والظاهرات الطبيعية، ولكن المعتقدات التي تنتسب إلى أحداث أو ظاهرات خارج نطاق الخبرة الإنسانية الموضوعية تكون غير قابلة علمياً للتحقق والاختبار. فالمتعقدات التي لا تقبل التوصيل للآخرين أو الطرح في أشكال ملائمة للبحث العلمي تكون أيضا خارج نطاق العلم. فالقول بأن شِعْر «كيتس» أفضل من شعر «شيللي» يخضع للجدل، ولكن لا يمكن تقييمه علمياً حتى يكون هناك اتفاق على تعريف كلمة «أفضل».

فالشخص الذي يتمتع باتجاه علمي تتملكه رغبة في اختبار البيانات الخاصة بمعتقداته. ولا يتفق مع الاتجاه العلمي التعلق بأحكام مطلقة عن الأحداث الطبيعية بدون اعتبار للبيانات الخاصة بها، لأن العلم يتناول حقائق أولية وليست نهائية. ففي مملكة العلم، تخضع المعتقدات دائماً للاختبار بصرف النظر عن كيفية رسوخها بقوة أو تأييدها بمهابة.

ورغم اختلاف الإجراءات التي تستخدمها العلوم المختلفة، لكنها تشترك في هدف عام هو جمع وتقييم البيانات. فكل العلوم تزودنا بالملاحظة الدقيقة، والكثير من الطرق التي ذاع ارتباطها بالعلماء قد ابتدعت لتوسيع نطاق وقوة إحساساتهم. فتلسكوب عالم الفلك وميكروسكوب عالم البيولوجيا يُمكننا الملاحظ من رؤية النجوم والخلايا التي تكون غير قابلة للملاحظة بالعين المجردة. وبالإضافة إلى ذلك، يحاول العالم عن قصد أن يصنف ملاحظاته. ومثل هذا التصنيف خير معين كلما حاول فهم كيف أن الأحداث ومقدماتها ونواتجها مرتبطة ببعضها البعض. ويمكنه التصنيف كذلك من توصيل إجراءاته ونتائجه إلى زملائه، حتى يستطيعوا تكرار البحث والتحقق من النتائج التي توصل إليها.

فــي وقت من الأوقــات، اعتبر الدماغ كلوحة مفاتيــح معقدة complex switchboard تقــوم بمهمــة عمل توصيلات ملائمة بين الإشــارات الداخلة والخارجــة. وتعطي النماذج العصبية – الفســيولوجية المعاصرة للدماغ دوراً أكثــر نشــاطاً، متضمنــا بعــض التحكم فــي تلك الآليــات لتصبــح خاضعة للوعــي. وعلــى وجــه الخصــوص، اعتُبِــرت «منظومــة التكويــن الشــبكي» (reticular formation system) كســكرتارية جــذع المــخ brainstem secretary، التــي تقوم بتشــغيل كل المعلومات الحســية لكي تحدد أيها يوجّه إلــى مركــز القيــادة وأيها يحجــب عنها. وبدون هذه المســاعدة ينــوء الدماغ بأعبــاء إيجــاد أماكن فــي الوعي لــكل المثيــرات المتضاربة.

وعلــى المســتوي التصــوري، تقــدم النظريــات العلميــة خدمــة مماثلة، فالظــروف التــي تحيــط وتســبق أي حدث غير محــدودة، وليــس هناك من ســبب وجيــه يدعونــا لتســجيلها كلها. وهنــا يلــزم توفــر أداة انتقائية لعزل الملاحظــات الملائمــة عــن غيــر الملائمــة. وطالمــا أن الطبيعــة لا توفر هذه الأداة، ينبغــي أن يقــوم التخيل الإبداعــي بتوفيرها. ويتم الانتقاء فــي ضوء التكوينــات العقليــة، التــي يمكــن تشــبيهها بالــذرة والإلكتــرون والخطــوط المغنطيســية للقــوة التي توفر نظاماً فــي الملاحظات وتفســيرها، كما يُرجي مــن ذلــك. وحينما تُكتشــف ظاهــرة جديدة، يمكن عــادة مراجعــة واحد أو آخــر من هــذه التكوينــات العقلية لكي تتلاءم مــع النظريــات المختلفة. لهذا الســبب لا تبدو نفــس البيانات الموضوعية مقنعة بدرجة متســاوية بالنســبة لأي عالــم. فالبيانــات التــي تبــدو مواتيــة بالنســبة لعالم من العلمــاء قد لا تكــون كذلــك بالنســبة لعالم آخر.

(١٨)

الحاجة إلى نظرية (*)

دونالد هب

(جامعة ماك جيل)

لقد شاع الزعم بأن الفسيولوجيا « لا تستطيع أن تعطي أي صوت» في اختيار المبادئ النفسية. ولعله من الواضح أن فرتيمر وكيولر، من أصحاب النظرية المجالية (الجشطلت)، فيما ذهبا إليه بشأن العملية البصرية المُوَرِّدة يمثل سبقا طيباً للعالم النيورولوجي، وحيث يسلمون بوجود تفاعل بين الخلايا على نفس المستوى في النقل من شبكية العين. إذا قرأ أحد مثلاً « مارشال وتالبوت»، يجد قصة شبيهة بالجشطلت عن النشاط في المنطقة السابعة عشر من لحاء المخ، تستند إلى معرفة سيكولوجية متقدمة. لكن بالرغم حقيقة من سلامة وضع الجشطلت، سواء من الناحية السيكولوجية أو الفسيولوجية، فإنه قد رُفِضت هذه التطورات كموقف غامض لأنه كان من المعروف أن الجهاز العصبي لا يعمل بهذه الطريقة.

هل كانت هذه الصيحة (وهي في هذه الحالة صيحة خاطئة) ممكنة فحسب في العشرينات التي شهدت خداعاً أو غموضاً من الناحية النيورولوجية؟ ليس إطلاقاً. فقد كان لتناول «سبنس» Spence الفذ للاستبصار وللحل الفجائي في «التعلم التمييزي» أثراً عميقاً على أولئك السيكولوجين «متصلبي الدماغ» الذين كانوا (ولا يزالوا) معارضين لفسيولوجية علم النفس (physiologizing Psychology).

فبالنسبة لهم، لم تكن هكذا البيانات المتعلقة بالاستبصار(insight)، كما قررها كيولر وكريتش، مُقنعة إلى أن أوضح «سبنس» كيف ينبغي معالجتها. ولكن «سبنس» في حله كان «متصلب الدماغ» (وهو يقدم ميكانزماً عظيما للاستجابة) لأن تصور المتدرجات الفسيولوجية physiological gradients كان

(*) D. O. Hebb. The role of neurological ideas in psychology, J. Pers., 1951, 20, 39-55.

معروفـا بالفعل من دراسـات علم الأجنـة، وإذا كان «كابرز» Kappers و«تشـايلد» Child قـد عرّفـا البيولوجيـا بهـذا التصـور (وقـد اعتـرف لهما «لاشـلي» بهذا الفضـل، واسـتخدام الفكـرة أيضـا من الناحيـة النظريـة)، فإن هـذا التقدم قد اسـتخدم جيـداً بطريقـة صريحـة على المسـتوى الفسـيولوجي على يـد بافلوف وجماعـة الجشـطلت. لقـد كان «سـبنس» يحمـل جـواز سـفر فسـيولوجي حتى حينمـا أنكر فسـيولوجية علـم النفس.

إن أي نظريـة للسـلوك ينبغـي أن تتسـق للغايـة مـع البيانـات السـلوكية والفسـيولوجية علـى حـد سـواء. فـكلا النظامين قد يرفـض الفكـرة التي تضل بعيـداً عـن المعرفـة القائمـة، حتـى ولو كانـت الفكرة سـليمة. إذا خرج شـخص عبقـري فـذ فجـأة ذات يـوم بنظريـة حقيقيـة وكاملـة عن السـلوك، فقـد يجد أنـه مـن المسـتحيل أن تتهيـأ لـه الفرصـة من علمـاء النفـس لعـرض قضيته لما قـد يبـدو أفـكاراً غير واقعيـة متناقضة مـع العقل. هـذا الموقف أشـبه بالموقف الـذي اعتـرف فيه أينشـتين بعوامـة نهـر أسْـطُفُس Styx (نهر العالم السـفلي) وحـاول شـرح ميكانيكا الكميات لأرشـميدس وإقليدس، أولئك الأشـخاص الذين لـم يسـمعوا بعد عن الإلكترون أو عـن الطريقة التي يمكـن أن توجد بها الموجات الكهرومغنطسـية أو حتـى عـن نظريـة الجاذبية. نحـن عامة نفكر فـي النظرية علـى أنهـا صادقـة أو كاذبة، حقيقيـة أو غير حقيقيـة: لكن هل توجـد اليوم أية إمكانيـة إطلاقـاً لكـي تكـون لدينا نظريـة صادقة عن السـلوك؟ لقـد كان نيوتن عبقريـاً لأن نظرياتـه قـد لاقت قبولاً لمدة ٢٥٠ عاماً أو أكثـر، ولكن لا يعتقد اليوم أنهـا صحيحـة أو ملائمـة. وأفضل ما نسـتطيع إقـراره إذن هـو أن **ثمـة نظرية جيـدة، وليسـت صحيحة.**

وفـي علـم النفـس، ينبغـي أن نتوقـع أنـه علينا أن نشـق طريقنـا قدماً من خـلال سلسـلة مـن الآراء، مـن النظريـات الأفضل والأفضـل. وليس إدانـة بأية حـال لنظريـة المثير – الاسـتجابة أن نقرر أنها نظرية ضيقـة أو أنه توجد حقائق (ونحـن الآن علـى يقين تـام منها) لا نسـتطيع إدراكها. والسـؤال الهـام ليس هو مـا إذا كان اهتمـام ثورنديـك بالتعلـم الحيواني علـى حق، ولكن مـا إذا كان هذا الاهتمـام قد أعاننا على رؤية أفضل لهذه المشـكلات المتضمنـة وآل بنا لتحليلات جديدة. إن هذه البيانات والدلائل فـي منظومية systematization «هَلّ»، أو فـي

قدرة «تولمان» على تحديد الغرض بدون غائية فلسفية، أو في تحليل «لاشلي» للإدراك الحيواني، أو في تجارب «كيولر وكريتش» عن الاستبصار في الجشطلت – تعتبر بيانات واضحة فيما يتعلق بالقيمة الإلهامية والتوضحية لنظرية المثير – الاستجابة ولأساسها الفسيولوجي الخاطئ (بسبب عدم اكتماله). تبين وجهة النظر هذه كيف نستوضح الغموض في مناقشة «ماك ليود» و «سميث» فيما يتعلق بالطريقة التي يقوم بها العالم الظاهري (الفينومينولوجي) بمهمته. ويتحدد التصور بأن العالم الظاهري هو ذلك الشخص الذي يُلقي بالتعصبات أو التحيزات جانباً (سواء نظرية أو إحساس عام) ويلاحظ ببساطة ما يوجد أمامه. ولكن هنا يضيف «ماك ليود» أن هذا أبداً ليس ممكنا كلية ويتكلم عن الملاحظة بـ «الفطرة المنظمة» disciplined naivete، أما الغموض فيدخل في التفسير الممكن الذي بتخلصه من النظرية كلية يوفر الملاحظة الأكثر وضوحاً (أو ما يقابل هذا من نظام وفطرة).

ومن وجهة النظر التي توصلنا إليها الآن، تتيسر الإجابة على هذه المشكلة. فما هو مطلوب ليس التخلص من النظرية كليةً (وإلا كان الشيء الذي نعمله يتناوله إنسان ليس له وجود، أو لم يسمع أبداً بعلم النفس، لكي يقوم بملاحظة التجارب)، وإنما أن نضع النظرية في الخلفية بدلاً من الأمامية حيث تُعاق الرؤية. إن «النظام» discipline يوجد في معرفة عميقة للنظرية، أما «الفطرة» naivete فتتألف من محاولة التوصل إلى طرق أخرى للنظر في العالم بالإضافة إلى الطريقة التي تمليها نظرية قائمة. تعني الظاهرية (الفينومينولوجية)، أساساً، البحث عن تحيزات وتعصبات جديدة، وليس التخلص من التحيزات والتعصبات. لقد تكلمت بصدد الملاحظة العامة بأن النظرية تتحرك بخطوات قصيرة. وربما يُعتقد أن هذه الملاحظة كما لو أنها تتضمن فقط تأثيراً سلبياً من نظرية سابقة، وكما لو أنها توفر البيانات ببساطة من القصور الذاتي للفكر الإنساني. ولكن هناك ما ينبغي أن يكون أكثر من ذلك في تلك العملية. فما توصل إليه أينشتين لم يكن من الممكن بدون الملاحظات التي تجمعت بتأثير أفكار نيوتن. فالنظريات المبكرة، إذن، تقوم على التحديد والتقييد لسبب وجيه: فهي ما يتسلق عليه الشخص لكي يرقى إلى المرحلة التالية.

بقول آخر، ينبغي أن نعترف بالقيمة الإيجابية حتى للنظريات «الخاطئة» كموجهات للملاحظة. وإذا قام العالم الفينومينولوجي حقيقة بتجريد نفسه من كل معرفته النظرية وحاول بالتالي أن يسجل الحقائق المتعلقة بإدراكه ذاته أو بسلوك الحيوان، فما الذي يتعين عليه اختياره لكي يسجله على الورق؟ هناك عدد غير محدد من علاقات وجوانب السلوك، وهناك كمية غير متناهية من التقسيمات الفرعية الممكنة للنشاط الحيواني أو للفكر الإنساني. وهنا يلزم توفر ثمة مرشد نظري كمبدأ للانتقاء.

فما يقوم به الفرد ذو العقلية الفينومينولوجية بتسجيله دائماً هو ما يرى أنه يرتبط بنظرية قائمة، ولكنه غير متسق معها. وفي هذا فقط يتجنب التحيز، وإن كان بالطبع لا يتجنبه حقيقة. وأفضل طريقة لتعريف العالم الظاهري (الفينومينولوجي) هي القول بأنه هو ذلك العالم الذي لا يحب النظريات القائمة (وربما لن يحبها أبداً)، ولكنه يكون شغوفاً بمهاجمتها وبالتوصل إلى بيانات يكون من الصعب على النظرية تناولها: اتجاه «مغايرة النظام القائم». وهو «اتجاه معاد للنظرية» (anti-theoretical) ولكن ليس «باتجاه لا نظري» (a-theoretical) الذي كان من الناحية التاريخية مصدراً هاماً لأفكار وتجارب جديدة.

وقد يساعدنا تصور هذه القضية من منظور آخر على استيضاحها. قد يبدو أن في علم النفس جناحاً أيسر أو جناحاً أيمن، موازيا لليسار ولليمين في السياسة، وأنه لا يمكن فهم نشاط اليسار إذا لم ير المرء أن الاستمرار الوحيد في سلوكه هو في كونه معارضاً لليمين. في علم النفس يميل اليمين إلى تفضيل الاقتصاد والتقتير في الأفكار الإيضاحية، وإلى الاهتمام البسيط أو الآلي بالسلوك، وإلى التدقيق حتى ولو أدى إلى التضييق والمحدودية. أما اليسار في تناوله للسلوك، فهو مهيأ للتسليم بحرية أكبر ويستطيع أن يتحمل الغموض ونقص النظام على نحو أفضل. لذا طور علم النفس الجشطلتي، وخاصة في سنواته المبكرة، نظرية عن الإدراك ونظرية عن التفكير لم تدخلا في أية علاقة واضحة مع أحدهما الآخر، ونظرية عن الذاكرة (الآثار) التي بدت غير متسقة تماماً مع اهتمام الجشطلت بالإدراك. ولكن لم يكن الدافع الأولي هو بناء نظرية، وإنما كان إيضاح نقائص نظرية المثير — الاستجابة، والفوائد العلمية

التي تمخضت عن هذا الجهد واضحة – وهي واضحة مثل الحقيقة التي تقرر أن ذلك الاتجاه (والذي يتضمن الظاهرياتية) غير ممكن بدون نظرية يهاجمها.

المغالطة البيكونية:

إن الفكرة التي تذهب إلى أن المرء يمكن أن يلاحظ بوضوح أكثر إذا استطاع أن يجرد نفسه من كل نظرية سابقة، أو بأن علم النفس يكون على نحو أفضل بدون نظرية، إنما ترتبط بتصور معرفي خاطئ وذائع الانتشار يتعلق بالطريقة العلمية. ترجع هذه الفكرة من خلال «جون ستيوارت مل» إلى «فرانسيس بيكون» بما يمكن أن نطلق عليه «المغالطة البيكونية» (Baconian fallacy). وهي في المحل الأول تلك الفكرة القائلة بأن التعميمات العلمية تتحقق بواسطة «الاستقراء» وتعدد الحالات، ومنها تشتق الفكرة بأن القوانين العلمية هي قوانين إمبيريقية. وتقوم على وجود عدد محدود من «الحقائق» أو «الأحداث» أو خصائص أي شيء أو موقف، لكي يستطيع العالم أن يمضي قدما بواسطة الوصف ببساطة، إذا كان ذلك مرغوباً، وبواسطة تسجيل كل شيء يقع في ارتباط بأي شيء يتعلق بالظاهرة موضوع الاهتمام.

ولا يوجد ما يعوق التخيل المبدع. ويمكن اكتشاف الأسباب ببساطة بواسطة المداومة والمثابرة: تسجيل كل شيء يسبق الحدث اللازم تفسيره، لعديد من المرات إذا لزم الأمر؛ وإذا كانت تسجيلاتك كاملة، فإن السبب سوف يكون الشيء الوحيد الذي يتضمنه كل تسجيل.

ولكن أي شخص يمكن أن يرى أنه يوجد هنا شيء ما خاطئ حينما يكون هناك تتبع للتضمينات الخام لفكرة الاستقراء بهذه الطريقة. والخطوة التالية هي التخلي عن الاهتمام بالأسباب (وخاصة الأسباب الفرضية التي تدخل بصعوبة في تسجيلات الفرد). وعلى مستوى عال من التدقيق والنظر، يعتبر القانون العلمي إقراراً للاحتمالية فقط، والعلم على أنه وصف. فالنظرية هي تكرار للمعاني وخداع للذات.

ويمكن الاعتراض على تلك الآراء بالمقترحات التالية:

(أ) الاستقراء وتعدد الحالات هما فحسب طريقتان للاستيضاح أو لاختبار

تعميم تم التوصل إليه بالفعل (غالباً على أساس حالة واحدة).

(ب) القانون العلمي الأصلي ليس مُلَخصاً لملاحظات وليس له ما يفعله مع الاحتمالية، ولكنه مسلمة عاملة working postulate أو طريقة للتفكير. وإذا لوحظت تناقضات واضحة لقانون مفيد، يسلم المرء بشيء آخر يعمل على وضع هذه التناقضات في الاعتبار بدلاً من نبذ القانون.

(ج) من بين طرق التفكير، لا تزال طريقة السبب – النتيجة مستخدمة بصفة عامة بالرغم من أنها ليست طريقة ضرورية للتفكير ولا ذات قيمة في كل المواقف.

(د) مما يميز العالِم اهتمامه بما يسلم به أكثر من اهتمامه بالظاهرات المشتقة منها (يهتم العالِم الكيميائي بالأوزان الذرية أكثر من اهتمامه بأوزان المواد الحقيقية، ويهتم عالم الفيزياء بالنيترونات والميزونات «في أبحاث الذرة» أكثر من اهتمامه بصور تجمعات السحب أو حتى بالقنابل). فما يميز العلم أنه ينهض على بنية متقنة من تكوينات وأحداث متخيلة.

(هـ) طالما لا توجد لا نهائية للأشياء التي يمكن تسجيلها في أي موقف، يكون الوصف الكلي تصوراً غير ذات معنى، شأنه في ذلك شأن العلم الوصفي الخالص. وقد تكون التكوينات تكرار للمعاني من الناحية الشكلية، لكنها تؤدي وظيفة عملية – هي توجيه الملاحظة.

ربما تتضح هذه الملاحظات على نحو أفضل إذا سقنا بعض الأمثلة القليلة. فقانون نيوتن الأول عن الحركة كان أداة نظرية قيمة بعمق، ولكنه لم يكن ولا شك استقراءاً أو ملخصاً لوصف، لأنه ليس هناك من حدث يلاحظ أبداً مثل استمرار الشيء في الحركة بغير حد بسرعة منتظمة في خط مستقيم. وإذا جعلنا القانون تقريراً للاحتمالية يكون غير ذات معنى. يستطيع فرد أن يزعم أنه صادق، أو أنه غير صادق، ويستطيع الفرد إذن أن يستمر في رؤية أي الافتراضات الأخرى التي ينبغي العمل بها أيضا وما هي الاستنباطات التي يمكن استخلاصها منها. ويصل التحقيق التجريبي إلى حد أن يبين أن الحالة الكلية تكون متسقة مع الحقائق أو تؤول إلى اكتشاف حقائق جديدة تكون متسقة أيضاً.

إن قانون الجاذبية تكرار دامغ للمعاني : القوى وهمية، والتسليم بقوة للجاذبية تكون معروفة فقط من خلال الظاهرات التي يفترض أنها تفسرها حقيقة إنما لا يضيف شيئا إلى الحقائق. ولكن إذا تناولنا فحوى قانون الجاذبية كإقرار لطريقة جديدة في التفكير، تلك الجاذبية الكامنة وراء المد ومدار الأرض وغيرها، نستطيع أن نري على نحو أفضل الدور العملي لأي تكوين خاص بتكرار المعاني. ولا يضيف إعادة تصنيف مجموعة من الحقائق إلى عدد الحقائق المُصَنّفة، ولكن إعادة التصنيف هي حقيقة هامة في حد ذاتها. وقد يُخْتزَل الإيضاح والتفسير، منطقياً، إلى تنظيم وتصنيف الظاهرات فقط، ولكن يستحيل بالنسبة للإنسان أن يفكر بطريقة متسقة على هذا الأساس.

الذرة والإلكترون، كالجاذبية، تكوينات لأنه لا يوجد أحد قد رآها أو أمسك بها رغم أنه يصعب الآن التحقق من أنها ليست بحقائق (أي ظاهرات معروفة مباشرة)، ووظيفتها ينبغي أن تكون موجودة، طالما أن الإنسان منطقي تماماً. وربما يكون من ضعف العقل الإنساني أنه ينبغي أن يلجأ لمثل هذه الطرق، ولكني اعتقد أنه من الواضح أن التفكير لا يكون فعالا على هذا النحو. فالتفكير لا يتقدم وفقا للمنطق الصوري، حتى في العلوم الطبيعية أو الرياضيات (كورانت وروبنس، كونانت، هادامار)، وإذا ما حاول أن يعمل هكذا لكان عِلْماً عقيماً.

وإذا كان العالِم، كما يبدو، يركن أساساً إلى أشياء متخيلة وخصائص الأشياء لكي يسد الفجوات كما كانت في الظاهرات الطبيعية، تكون مشكلته أن يتخيل الأشياء الحقيقة، وأن يختار التكوينات التي تعمل على زيادة تقدير النظام في الأحداث المتخيلة (أو يبتدع تكويناً منظما قد يتخيله أكثر مما يدركه). وفي بعض الأحيان يكون التأثير الإيضاحي لكيان مُسلم به مباشراً ومنتشراً بحيث أن قيمته تكون واضحة. إنه «اكتشاف»، يتم قبوله في الحال على أنه اكتشاف «حقيقي»، ولكن، لما كان الفرد يتناول عدداً من المسلمات مرة واحدة لكي يتحقق نفس التأثير بواسطة تغيير مسلمة مرة أخرى، فإنه غالباً ما لا تتضح فائدة التصور الجديد في الحال، وغالباً ما يكون فحسب إقترابا من التصور المجدي. وعند هذه المرحلة في البحث يلجأ العالِم الساذج فلسفياً إلى إلهامه فقط: «هل هي هكذا؟» ويحاول اختبار حقيقتها بأية طريقة يستطيعها.

فهو لا يبقى على مستوى ملاحظاته الأصلية ولكنه يطبق أي اختبار يراه. وقد تكون فكرة الواقع فكرة بريئة، ولكنها تؤدي إلى نتائج علمية. وربما نستطيع وصف عملية اختبار قيمة تكوين من التكوينات في عبارات أخرى، ولكننا لا نستطيع أن نتحمل إغفالها. وفي علم النفس، كما نعلم، المتغيرات الوسيطة هي في الحقيقة تكوينات عصبية وفسيولوجية، ورفض هذه التكوينات يعادل رفض الدليل الذي به تختار مكونات بناء الإنسان. فهو رفض النظر إلى البيانات التي قد تكشف عن أن النظرية خاطئة.

فبسبب قصور العقل الإنساني، ينبغي أن نقوم بالتنظير. وفي التنظير، لا نستطيع تحمل إغفال أية معلومات متاحة، لذا ينبغي أن تتوافق النظرية مع المعرفة الخاصة بالجهاز العصبي بالرغم من أن الشخص، إذا أراد، يمكنه اختيار مصطلحات تؤدي إلى إخفاء الحقيقة. ويعتبر «سكنر»، بالطبع، هو ذلك العالم الذي يمكنه بأعماله التجريبية الفذة أن يأتي ببراهين وحجج عند ذلك، ولكني اعتقد أنها فحسب قدرة «سكنر» الشخصية بمستواها العالي، بالرغم من أن ما جعل هذه النجاحات ممكنة هو وجود نظرية خاطئة للمعرفة. ومع ذلك، فهو ينزلق إلى استخدام تكوينات من حين لآخر (مثل، «مخزون الانعكاسات» reflex reserve)، وربما اعتمد على التصورات النيورولوجية المبكرة أكثر مما يعتقد، كما ناقشت ذلك عاليه عند الحديث عن «سبنس» و«تولمان». فلو أن كل النظم النظرية عن السلوك قد أُغفلت حقيقة، لما استطاع «سكنر» حتى أن يتقدم بوصف بسيط.

الفصل السادس

تأثير الفيزياء على علم النفس

للفيزياء تأثير عميق على تقدم علم النفس. فبسبب صدارتها بين العلوم الطبيعية، إستُخدمت دائماً كنموذج يحتذيه الآخرون؛ ولكن في حالة علم النفس توجد أسباب إضافية. لقد خَبَّر علم النفس، بوصفه الطفل الأصغر في أسرة الفلسفة، صعوبات غير عادية في التخلص من القيود الوالدية. ولم يكن الدارسون في الميادين الأخرى مقتنعين بأن علم النفس يستحق أن يسمى بعلم، وأن علم النفس ذاته كان واعياً صراحة بأبوة الفلسفة. وكانت أحد طرق إثبات ذاته أن يتبنى ما تقوم عليه الفيزياء من موضوعية وصلابة كاملتين في اتجاهه لدراسة الإنسان – وذلك في حد ذاته طموح له وجاهته، ولكنه طموح عَرّض علم النفس لخطر تقليد الإجراءات والافتراضات غير الملائمة لموضوعه الفريد.

لقد قامت الفيزياء، في الوقت الذي جاء فيه علم النفس إلى الوجود، على أساس «مبادئ» (principia) إسحق نيوتن. وتألفت أساساً من تفسير آلي للكون مشتق من مجموعة من التعريفات والبديهيات التي يعبر عنها بمصطلحات رياضية. وكانت الفيزياء الكلاسيكية، بالنسبة لكل الظاهرات، ثابتة ولا نهائية. ولم يكن هناك من مفهوم واحد يمكن أن يتغير بدون إخلال بالبنية الكلية، فحينما يخضع المفهوم للاختبار والتمحيص يبدو محققاً بدون أي ظلال للشك. وقد أدى استحسان الإيضاح البسيط نسبياً للطبيعة إلى الاحتفاظ بالنجاح العظيم فيما يتعلق بالجاذبية وحركة الكواكب وديناميكية الموائع وغير ذلك من الظاهرات. وقد استلزم كل ذلك مد مبادئ الميكانيكا على نحو أوسع إلى المبادئ الأخرى.

هذا الاتجاه، الذي امتد إلى الفلسفة بواسطة أوجست كونت، قد كان له تأثير قوي على نظرية المعرفة. لقد نظر بازدراء إلى كل المعرفة التي لم تتوفر إستناداً إلى الطرق التجريبية (الإمبيريقية)، واقترح «علماً أَسْمَى» (Superscience) متكاملاً بدرجة هائلة لتفسير كل ظاهرة في أبسط عبارات ممكنة. وُأعيد تجميع العلوم المتفرقة ووضعت في نظام هرمي وفقا لمستوى

تعقيدهـا، وتوفـر الرياضيـات والميكانيكا الإيضـاح الأقصى لكل الأشـياء. وليس مـن الصعب أن نعترف فـي هذه البدايات بالوضعيـة المنطقية التي قدمت المبادئ التوجيهيـة لكثير مـن العلماء.

وإذ انشـغل علمـاء النفـس بمهمة دراسـة السـلوك، فإنهم لم يكونـوا تماماً علـى وعي بالتغيرات الحادثة فـي الفيزيـاء التي أخذوا منها نمـوذج علمهم. لقد اعتقـد نيوتـن، علـى سـبيل المثـال، أن ما أتـى بـه من ميكانيـكا لـم يتضمن أية افتراضـات لـم تقرهـا بوضوح البيانـات التجريبيـة. ويعلق نورثروب أنـه إذا كان ذلـك صحيحـاً، فلـن يكون ثمـة حاجة إلى إجـراء التعديـلات طالمـا أن النظرية إذن نهائيـة ويقينيـة كالحقائق ذاتها. ولا يجد أينشـتين وهييزنبـرج وغيرهما من علماء الفيزياء فـي القرن العشـرين أن هـذا هو الحال، واضطـروا بالتدريج إلى التحقـق مـن أن العالِم يصل إلى نظريتـه بطريقة تأملية، وكما يقـول نورثروب[1]: «الاسـتدلال فـي طريقته ينتقـل لا من الحقائق إلـى الافتراضـات النظرية ولكن مـن النظريـة المفترضة إلـى الحقائق والبيانـات التجريبية».

لهـذا السـبب صـار علمـاء الفيزيـاء أكثـر حرصـا فـي دفع خطـة ناجحة للتفسـير إلـى نتائجهـا النهائيـة. ولا تسـتطيع مبادئ نيوتن فـي الميكانيـكا التي لا تقبـل التحسـين لكـي تفسـر سـلوك الكثيـر مـن عالمنـا لأنهـا تحـدد وتُقَيِّـد الحالات. وحينما تصير سـرعة الأجسـام المتحركة أشـبه بسـرعة الضوء، تبدو المتناقضات فـي حسـاب تقديراتها . كما لا تسـتطيع الميكانيكا الكلاسيكية تناول ظاهـرات الضـوء أو أشـعة الطاقة من الأجسـام السـوداء. وينبغي أن تسـتخدم الأنظمـة النظريـة الأخـرى – النسـبية وميكانيكا الكـم. وهي تبدأ ، مثـل فيزياء نيويـن، بالتعريفـات والبديهيات التي صيغـت رياضياً، ولكن تزول المشـابهة فيها. فالافتراضـات التي تقوم عليها تتشـابه قليلا أو لا تتفق فيمـا بينها. ومن الواضح أن كل نظريـة تضـع نقـاط اتصـال مـع الواقع بدون تقـديم إيضـاح كاف. وربما يـؤدي تحقيق هذا الاكتشـاف إلى تخفيـف حدة حماس بعض علمـاء النفس نحو الاختزاليـة، وإلـى خفـض الميل إلى التمسـك بجمـود بوضع نظـري واحد.

---

(1) F. S. C. Northrup: Introduction. In Werner Heisenberg: Physics and philosophy: The revolution in modern science. New York: Harper & Row, 1958. p. 3.

وتتطلب البديهية الأخرى في الفيزياء الكلاسيكية من المجرب أن يدرس الطبيعة بدون أي رجوع إلى نفسه. وتستلزم ميكانيكا الكم افتراضا مختلفاً. فنشاط الملاحظة ذاته يُدخل تغيراً في الشيء موضوع البحث. وفي المواقف التي يكون فيها هذا التدخل ليس قليلاً للغاية بحيث يمكن إغفاله، فإن المجرب يتناول ليس أحداثاً ملموسة ولكن مجموعة كاملة من الأحداث الممكنة متضمنةً وظيفة احتمالية. وفي بعض التجريب السيكولوجي يخضع سلوك الأشخاص المفحوصين للتغير تمامًا بواسطة الملاحظة في مواقف مضبوطة، رغم أنه قد يكون في الإمكان إبتداع طريقة مشابهة لتقليل هذا التأثير المُعَوِّق للبحث العلمي.

ومن بين الانطباعات الواضحة المرتبطة بما أحرزته الفيزياء من تقدم حديث، أن العلم لا يعطي وصفاً موضوعياً تماماً للواقع. فبصرف النظر عن الطريقة المستخدمة، فإن ما نلاحظه ليس الطبيعة كما هي، ولكن الطبيعة في تفاعلها مع طريقتنا في استكشافها.

لقد صار «فيرنرهييزنبرج»، من خلال اكتشابه لمبدأ «اللاحتمية» (indeterminacy) في ميكانيكا الكم، واحداً من أبرز مؤسسي علم الفيزياء الحديث. ولم يكن واضحاً أن الثورة التي بدأها في الفيزياء سوف تؤثر بعمق في النظرية الكلية للعلم. فالقضايا الفلسفية التي طالما اعتبرت قضايا جدباء تفتحت مرة أخرى بإلحاح جديد. ما هدف البحث العلمي، وكيف نعرفه ؟ ما الذي تخبرنا به النظريات، بدقة، عن الطبيعة؟ هل العالم مضطر إلى التفكير في موضوعه بعبارات لا تنطبق تماماً على الواقع؟.

في هذه الدراسة المختارة، يتتبع هييزنبرج سعي علم الفيزياء لكي يحرر نفسه من النظرة الضيقة الجامدة التي قتلت الاتجاهات الجديدة لدراسة الطبيعة. وتعتبر بصيرته بقيمة اللغة الطبيعية ذات أهمية خاصة بالنسبة لعلماء النفس. فاللغة الطبيعية، خلافاً للمصطلحات العلمية الدقيقة، تعكس الاتصال المباشر للفرد بالنطاق الكلي للواقع وليس بجانب محدود مُسْتَمَثل منه وبصور مثالية عن الواقع. وفي بعض الحالات يمكن أن تكون اللغة الطبيعية أكثر فائدة في توسيع المعرفة مما تقوم به المصطلحات العلمية الرفيعة.

(١٩)

دور علم الفيزياء الحديث في تقدم الفكر الإنساني(*)

فرنر هييزنبرج

(معهد ماكس – بلانك للفيزياء والفيزياء الفلكية، ميونخ)

لقد تقدمت العلوم الطبيعية محققة صورة أوضح وأوسع للعالم المادي . في الفيزياء جاء وصف هذه الصورة بواسطة تلك المفاهيم التي نطلق عليها اليوم مفاهيم الفيزياء الكلاسيكية . يتألف العالم من أشياء في مكان وزمان، وتتألف الأشياء من مادة، والمادة تستطيع أن تخلق القوى وأن تخضعها في عملها لها . وتنتج الأحداث من التفاعل بين المادة والقوى - كل حدث هو نتيجة أو سبب لأحداث أخرى. وفي نفس الوقت تغير الاتجاه الإنساني نحو الطبيعة من الاتجاه التأملي إلى الاتجاه البراجماتي. فالإنسان لم يكن هكذا مهتماً كثيراً بالطبيعة كما هي، ولكنه تساءل بدلاً من ذلك ما الذي يستطيع أن يفعله معها . لذا، تحولت العلوم الطبيعية إلى علوم تطبيقية عملية؛ فارتبط كل تقدم في المعرفة بالتساؤل عن ماهية الفائدة العملية التي يمكن أن تستخلص منها . ولم يصدق هذا فحسب على الفيزياء؛ ولكن ساد نفس الاتجاه أساساً في الكيمياء والبيولوجيا، وأسهم نجاح الطرق الجديدة في الطب أو في الزراعة بالضرورة في انتشار تلك الاتجاهات الجديدة.

بهذه الطريقة تطور في البداية إطار جامد للعلوم الطبيعة، أدى إلى تشكيل ليس العلم فحسب ولكن أيضا النظرة العامة للناس عامة . وقد تأيد هذا الإطار بالمفاهيم الأساسية للفيزياء الكلاسيكية – المكان، الزمان، المادة، العلّية؛ وينطبق مفهوم «الواقع» (reality) على الأشياء أو الأحداث التي نستطيع إدراكها باحساساتنا أو التي يمكن ملاحظتها بواسطة الأدوات الدقيقة التي وفرتها العلوم التطبيقية . وكانت المادة هي الحقيقة الأولية . وصُوِّر تقدم العلم على أنه سعي جاد لغزو العالم المادي، وكانت النفعية هي كلمة السر في هذا التطور .

(*) Werner Heisenberg. Physics and Philosophy. Harper & Row, Pub., Inc., New York and George Allen & Unwin, Lid, London, 1958, pp. 196-202.

ومـن ناحيـة أخـرى، كان هذا الإطـار ضيقا وجامـداً للغاية بحيـث أنه كان مـن الصعـب أن نجـد فيه مكانا لكثيـر من مفاهيم لغتنـا التي كانـت تتعلق دائماً بصميـم جوهرهـاً، مثل مفاهيـم العقل والروح الإنسـانية والحيـاة. فالعقل يمكن أن يدخـل فـي الصورة العامة فقط على أنـه نوع من مرآة العالـم المادي؛ وحينما دُرسـت خصائـص هذه المرآة فـي علم النفـس، كان العلماء ينزعـون دائماً – إذا كان لنـا أن نمضـي بالمقارنـة إلـى ما هـو أبعد من ذلـك – إلى أن يولـوا اهتماماً بخصائصهـا الآليـة أكبـر من الاهتمـام بخصائصهـا البصرية. وحتـى إذا حاول البعض تطبيق مفاهيم الفيزياء الكلاسـيكية، لكان فـي مقدمتهـا مفاهيم العِلّية. وبنفـس الطريقـة فُسّـرت الحياة علـى أنها عملية جسـمية وكيميائيـة، محكومة بالقوانـين الطبيعيـة، ومحتومـة بالعِلّيـة تمامـاً. وقـدم مفهوم دارون عـن التطور بيانـات وافيـة لهذا التفسـير. وكان من الصعـب خاصة أن نجد فـي هذا الإطار مكانـاً لتلـك الأجزاء من الواقع التـي كانت موضوعاً لعلوم الديـن التقليدية والتي قد تبدو خيالية بدرجة أكبر أو أقل. لذا نشـأت فـي الـدول الأوروبية، حيث جنح الإنسـان إلـى تتبع الأفـكار إلى نتائجهـا النهائيـة، عدوانية صريحة نحـو العلم، بـل حتـى كان هناك فـي الـدول الأخـرى ميل متزايد نحـو اللامبـالاة بمثل هذه القضايا، ولكن اسـتثنيت فحسـب القيم الأخلاقية للدين مـن هذا الاتجاه، وحلت الثقـة بالطريقة العلميـة وبالتفكير العقلانـي محل كل حماة العقل الإنسـاني.

وإذا عدنـا الآن إلـى إسـهامات الفيزياء الحديثـة، يمكننا القول بـأن التغير الأكثـر أهمية الذي أتت به نتائجها ينحصر فـي التخلـي عن هذا الإطار الجامد. وقـد كانـت هنـاك بالطبع محـاولات كثيـرة من قبـل للتخلـص من هـذا الإطار الجامـد الـذي بدى بوضـوح ضيقـاً للغاية لفهـم الأجزاء الرئيسـية مـن الواقع. ولكنـه لـم يكـن من الممكـن رؤية مـا هـو خاطـئ بالنسـبة للمفاهيم الأساسـية مثـل المـادة والمـكان والزمـان والعلّية التـي كانت ناجحة للغاية فـي تاريـخ العلم. وقـد قامـت البحـوث التجريبية ذاتها فحسـب، والتـي أجريت بواسـطة الأدوات والأجهـزة الدقيقـة التـي يقدمهـا العلـم التطبيقي ومـا قدمته هـذه البحوث من تفسـير رياضـي، بتوفير الأسـاس للتحليل النقدي- أو إذا صـح القول قد فرضت التحليـل النقـدي – لهـذه المفاهيـم، وفـي النهايـة أدت إلـى فـض هـذا الإطار الجامد.

حدث هذا الفض والتحلل في مرحلتين محددتين، الأولي: كانت الاكتشاف، من خلال نظرية النسبية، أن تلك المفاهيم الأساسية كالزمان والمكان يمكن أن تتغير، وفي الحقيقة ينبغي أن تتغير وفقا للخبرة الجديدة. لا يهتم هذا التغير بمفاهيم المكان والزمان الغامضة إلى حد ما في اللغة الطبيعية، ولكنها اهتمت بصياغتها الدقيقة في اللغة العلمية لميكانيكا نيوتن، التي لاقت قبولا بطريقة خاطئة كمفاهيم نهائية.

أما المرحلة الثانية، فكانت مناقشة مفهوم المادة الذي فرضته النتائج التجريبية الخاصة بالتركيب الذري. ومن المحتمل أن فكرة حقيقة المادة كانت الجانب الأقوى في ذلك الإطار الجامد للمفاهيم، وكان من اللازم على الأقل أن تتعدل هذه الفكرة ارتباطاً بالخبرة الجديدة. وظلت المفاهيم مرة أخرى بعيدة عن التناول، بقدر ما كانت تنتسب إلى اللغة الطبيعية. لم تكن هناك صعوبة للكلام عن المادة أو عن الواقع حينما كان على الفرد وصف التجارب الذرية ونتائجها. ولكن التحليل العلمي الزائد لهذه المفاهيم إلى أصغر أجزاء المادة لا يمكن أن يتم بالطريقة البسيطة التي قدمتها الفيزياء، بالرغم من أنها قد حددت خطأ النظرة العامة لمشكلة المادة.

لقد اعتبرت هذه النتائج الجديدة أولاً وقبل كل شيء كتحذير جاد ضد تطبيق مفاهيم علمية في مجالات لا تختص بها، وهو تطبيق مفروض عنوة إلى حد ما. وكان تطبيق مفاهيم الفيزياء، في الكيمياء مثلاً، مشوباً بالخطأ. لذا، يكون المرء أقل ميلاً إلى الافتراض بأن مفاهيم الفيزياء وحتى مفاهيم نظرية الكم، يمكن أن تنطبق بلا شك أينما كان في البيولوجيا والعلوم الأخرى. وسوف نحاول، على العكس من ذلك، أن نحتفظ بالأبواب مفتوحة لدخول مفاهيم جديدة حتى في تلك الأجزاء من العلم التي فيها تكون المفاهيم الأقدم مفيدة لفهم الظاهرات. وسوف نحاول، خاصة في تلك الموضوعات التي يبدو فيها تطبيق المفاهيم الأقدم مفروضاً إلى حد ما أو يبدو غير ملائم تماماً للمشكلة، أن نتجنب أية نتائج مندفعة.

فضلا عن ذلك، أنه من بين المعالم الأكثر أهمية لتقدم الفيزياء أن مفاهيم اللغة الطبيعية، المحددة بغموض كما هي ، تبدو أن تكون أكثر ثباتاً في

توسيع المعرفة من المصطلحات الدقيقة للغة العلمية المشتقة بطريقة مثالية/ استمثالية (idealization) من مجموعات محدودة من الظاهرات فقط. وفي الحقيقة أن هذا لا يبعث على الدهشة طالما أن مفاهيم اللغة الطبيعية تتشكل عن طريق الاتصال المباشر مع الواقع؛ فهي تمثل الواقع. وفي الحقيقة أنها ليست غير محددة جيداً وقد تخضع لذلك لتغيرات على مدار القرون، كما فعل الواقع ذاته، ولكنها لا تفقد أبداً اتصالها بالواقع. ومن ناحية أخرى، تعتبر المفاهيم العلمية مستمثلات، فهي تشتق من الخبرة التي تتوفر بواسطة الأدوات التجريبية الدقيقة، وتتحدد بدقة من خلال البديهيات والتعريفات. ومن خلال هذه التعريفات الدقيقة فحسب من الممكن ربط المفاهيم بخطة رياضية واستخلاص المجموعة غير المحددة من الظاهرات الممكنة في هذا الميدان بطريقة رياضية. ولكن خلال عملية الاستمثال والتعريف الدقيق يختفي الاتصال المباشر مع الواقع. ولا تزال المفاهيم تنطبق تماماً على الواقع في ذلك الجزء من الطبيعة الذي كان موضوع البحث. ولكن قد يختفي التطابق في الأجزاء الأخرى التي تتضمن مجموعات أخرى من الظاهرات.

وإذا احتفظنا في عقولنا بالثبات الداخلي لمفاهيم اللغة الطبيعية في عملية التقدم العلمي، لرأينا أن اتجاهنا نحو مفاهيم مثل العقل أو الروح الإنسانية أو الحياة – بعد خبرة الفيزياء الحديثة – سوف يكون مختلفاً عن مفاهيم سابقة لأن هذه المفاهيم تنتمي إلى اللغة الطبيعة، وهي لذلك ذات اتصال مباشر بالواقع. وفي الحقيقة أننا سوف نتحقق أيضا من أن هذه المفاهيم ليست محددة جيداً بالمعنى العلمي، وأن تطبيقها قد يؤول إلى تناقضات مختلفة، حيث أننا قد نتناول هذه المفاهيم كما هي بدون تحليل، ولكننا لا زلنا نعرف أنها تمس الواقع. وقد يكون من المفيد في هذا الصدد أن نتذكر أنه حتى في الجانب الأكثر دقة من العلم – في الرياضيات – لا نستطيع تجنب استخدام المفاهيم التي تتضمن تناقضات. فعلى سبيل المثال، من المعروف جيداً أن مفهوم اللانهائية (أو الكمية غير المتناهية) infinity يؤدي إلى تناقضات تخضع للتحليل، ولكن يبدو من المستحيل عملياً بناء الأجزاء الرئيسية للرياضيات بدون هذا المفهوم.

وقد كان الاتجاه العام للفكر الإنساني هو نحو مزيد من الثقة في

الطريقة العلمية وفي المصطلحات السديدة الدقيقة. وقد أدى هذا الاتجاه إلى التشككية العامة فيما يتعلق بتلك المفاهيم من اللغة الطبيعية التي لا تتلاءم داخل الإطار المغلق للتفكير العلمي. فقد أدت الفيزياء الحديثة إلى زيادة هذه التشككية، ولكنها في نفس الوقت قد حولتها ضد التقدير الزائد للمفاهيم العلمية الدقيقة، وضد نظرة متفائلة للغاية إلى التقدم بصفة عامة، وأخيراً ضد التشككية ذاتها. ولا تعني التشككية في المفاهيم العلمية الدقيقة أنه ينبغي أن يكون هناك حد معين لتطبيق الفكر السديد. وعلى العكس، يمكننا القول أن القدرة الإنسانية على الفهم قد تكون غير محدودة بمعنى معين. إلا أن المفاهيم العلمية القائمة تغطي فقط جزءاً محدداً تماماً من الواقع، أما الجزء الآخر غير المفهوم بعد فهو غير محدود. وحينما نتقدم من المعروف إلى اللامعروف قد نأمل في أن نفهم، ولكن ربما نتعلم في نفس الوقت معني جديداً لكلمة «فهم» . نحن نعلم أن أي فهم ينبغي أن يقوم في النهاية على اللغة الطبيعية لأننا بها فقط يمكن أن نتأكد من تلمسنا للواقع واتصالنا بالواقع، وبالتالي ينبغي أن نتمعن في أي تشككية تتعلق بهذه اللغة الطبيعية وبمفاهيمها الأساسية. لذا، ربما نستخدم هذا المفاهيم على النحو الذي استخدمت به في كل الأوقات. وبهذه الطريقة ربما تكون الفيزياء الحديثة قد فتحت الباب لنظرة أوسع إلى العلاقة بين العقل الإنساني والواقع.

هذا العلم الحديث، إذن، ينفذ إلى الأجزاء الأخرى من العالم حيث يختلف الوضع الحضاري عن المدنية الأوروبية تمامًا. في هذه الاجزاء ينبغي الإحساس بقوة أكبر بأثر هذا النشاط الجديد في العلوم الطبيعية والتطبيقية منها في أوروبا، لأن التغيرات في شروط الحياة التي قد استغرقت قرون في أوروبا سوف تحدث في هذه الأجزاء في غضون عقود قليلة. ويمكننا أن نتوقع أن هذا النشاط الجديد في أماكن كثيرة يبدو كاضمحلال للثقافة الأقدم، يقلب التوازن الحساس الذي تقوم عليه كل السعادة الإنسانية. مثل هذه النتائج لا يمكن تجنبها، وينبغي أن تؤخذ كجانب واحد من عصرنا. ولكن حتى هنا قد يساعد إلى حد ما تفتح الفيزياء الحديثة على مصالحة التقدم الأقدم مع اتجاهات الفكر الجديدة. فعلى سبيل المثال، قد تكون الإسهامات العلمية الهائلة في الفيزياء النظرية التي جاءت من اليابان دليلا

علـى وجـود علاقـة معينة بين الأفـكار الفلسـفية فـي تقاليد الشـرق الأقصي والجوهر الفلسفـي لنظريـة الكم quantum. وربما يكون من الأسـهل أن يكيف الفـرد نفسـه مـع المفهوم الكمـي – النظري للواقـع حينما لا يلجأ إلـى الطريقة المادية السـاذجة فـي التفكير التي سـادت فـي أوروبا فـي القرن العشرين.

توضح الدراســتان التاليتان، إحداهما لعالم أمريكي مبرز فـــي الفيزياء والأخــرى لفيلســوف، بعض الطرق التــي يمكن بها تطبيــق المفاهيم الأحدث للعلــم علــى علم النفــس. وكلاهما يســتنتج ضمناً أن علم النفس فـــي حاجة إلــى أن يتأكــد مــن أن مناخه الفكــري لا يتأثــر بالمفاهيــم الفيزيائية. وربما يرغــب الطالــب فــي بناء قائمــة للمراجعة خاصــة بالميادين الحاســمة التي ينبغــي أن يبدأ فيهــا ذلك البحث.

(٢٠)
التماثل في العلم (*)

روبرت أوبنهايمر

(جامعة برنستون)

أود أن أقول بعض الشيء عما ينبغي أن تعيده الفيزياء إلى الفهم العام الذي يبدو أنها قد فقدته ، ليس بسبب اعتقادي بوضوح أن هذه الأفكار أدوات هامة في البحث السيكولوجي، ولكن بسبب أنه يبدو لي أن أسوأ ما في كل سوء الفهم أن علم النفس قد دُفع لكي يُكَوِّن لنفسه نموذجاً يحتذي به علم الفيزياء قد انتهى عهده تماماً.

لقد ورثنا فكرة عن العالم الفيزيقي على أنه عَالم قائم على العلِّية، فيه يمكن أن يوضع حساب لأي حدث إذا كنا على درجة كافية من الفطنة؛ وهو عالم يتميز بالرقم حيث يمكن تناول أي شيء هام بالقياس والتكمية (الصياغة الكمية)؛ وهو عالم الإنسان الحتمي الذي لا يوجد فيه فائدة أو مجال للفردية؛ ويكون فيه لذلك موضوع الدراسة بسيطاً، وكيفما درسته لا يؤثر في الموضوع ولا يؤثر في نوع الوصف الذي تقدمه؛ وهو عالم تتعدي فيه المقدرة الموضوعانية (أي نجعل من كل شيء موضوعاً) objectifiability مجرد اتفاقنا على ما تعنيه بالكلمات وعما نتكلم عنه، وفيه تحتل «الموضوعية» objectification (النظر في المعلوم من الناحية الموضوعية) المحل الأول بصرف النظر عن أية محاولة لدراسة النظام موضوع الاعتبار. فهو فحسب الشيء الحقيقي القائم، وليس هناك من شيء يبعث فيك القلق يتعلق بالناحية المعرفية. هذه الصورة الجامدة للغاية قد أغفلت قدراً هائلاً من الإحساس العام. ولكن هذه العناصر المفقودة قد تبدو باعثة على العون؛ ولكن استعادتها على الأقل قد يوسع المصادر التي يمكن أن نجلبها لأي علم.

ما هي هذه الأفكار؟ في كلامنا العادي وخاصة عن مشكلات علم النفس، لدينا خمس أو ست أشياء ترجع إلى الفيزياء تتعلق بالصلابة الكاملة وبالموضوعية الكاملة التي تسمح لنا بفهم أحدنا الآخر، وبالاختفاء التام

(*) R. Oppenheimer: Analogy in science, Amer Psychologist, 1956, 11, 127-135.

للغموض، وبالنجاح الفني الظاهري كلية. أحد هذه الأفكار تلك الفكرة بأن العالم الفيزيقي ليس محتوما كلية. هناك تنبؤات تستطيع أن تأتي بها تتعلق بهذا العالم ولكنها إحصائية، ويحمل أي حدث نوعاً من الدهشة أو المعجزة أو شيئاً لا تستطيع تصويره. فالفيزياء تنبؤية، ولكن داخل حدود، عالمها خاضع لنظام، ولكن ليس عِلّياً كليّة.

فكرة أخرى، وهي اكتشاف حدود القَدْر الذي نستطيع به القيام بالموضوعانية بدون رجوع إلى ما نتكلم عنه حقيقة بالمعني الإجرائي العملي. يمكننا القول بأن للإلكترون شحنة معينة ولا نجادل فيما إذا كنا نقول ذلك على أساس رؤيتنا له؛ فهو دائماً هكذا. ولا نستطيع القول بأن له مكاناً أو حركةً. إذا قلنا ذلك نقصد ضمنا شيئاً يتعلق بما نقوم به أنفسنا — وأعني علماء الطبيعة وليس الناس.

نقطة ثالثة، وهي ترتبط تماماً بهذا، وهي التلازمية أو اللاانفصالية لما ندرسه والوسائل المستخدمة لدراسته، الاتصال العضوي بين الشيء والملاحِظ، والملاحظ ليس في هذه الحالة إنساناً، ولكن في علم النفس يكون الملاحظ في بعض الأحيان إنساناً.

ثم هناك، كنتائج منطقية لهذا، «فكرة الكلية» (wholeness). فالفيزياء النيوتينية (أو العلم الكلاسيكي) كانت تفاضلية differential، كل شيء يمكن تجزئته إلى عناصر أدق وأدق، وتحليله كذلك. لو نظر فرد إلى ظاهرة ذرية بين البداية والنهاية، فسوف لا تكون هناك نهاية؛ وإنما ستكون ظاهرة مختلفة، وأي زوج من الملاحظات يأخذ شكل «نحن نعرف هذا، إذن نتنبأ بذلك» هو شيء كلي، فلا يقبل التجزئة.

وأخيراً، كل حدث ذري هو حدث فردي. فهو ليس ، في أساسياته، مُسْتَولداً.

تلك طائفة من الأفكار التي نستخدمها دائماً: **الفردية، الكلية، العلاقة الوطيدة بين ما يُري وكيف يُرى، لا محدودية الخبرة وعِلّيتها**. ويمكنني الزعم فقط أنه إذا أبطلت الفيزياء كل هذه الأفكار لمدة ثلاث قرون ثم أعادتها في

عشر سنوات، يمكننا القول أن كل الأفكار التي تتوارد في الإحساس العام هي أفكار سليمة كنقاط انطلاق، وليست مضمونة لكي تعمل ولكنها صادقة مثل مادة المتشابهات والمتطابقات التي نبدأ بها.

لا تتحدد المهمة الكلية للعلم بالنفاذ إلى تلك المجالات التي تكون غير مألوفة في الخبرة العادية. فهناك الأعمال الهائلة التي تتعلق بالتحليل، وبالتعرف على المتشابهات والمتطابقات، وبالتوصل إلى الإحساس بالطبيعة؛ وهناك الإحساس الكيفي العظيم بالعلاقات بين الفئات وبالتصنيف للظاهرات والأحداث. وليس من الفطنة دائماً أن نحاول التركيز على «التكمية» (الصياغة الكمية)، فليس من الواضح دائماً أن لجوء الفرد إلى القياس أنه قد وجد شيئاً يستحق القياس بدرجة كبيرة. حقيقة كانت المظاهر الأولى للقمر تستحق القياس – الملاحظة بواسطة البابليين لأنها كانت ذات قيمة عملية. فتنبؤاتهم وتكهناتهم وسحرهم لا تتم بدونه؛ وأعلم أن لدى كثير من علماء النفس ذات النوع من الأسباب التي تجعلهم يبتغون القياس. فالقياس صفة واقعية للعالم الواقعي الذي تقيسه، ولكنه بالضرورة الطريقة الأفضل لتقدم الفهم الحقيقي لما يجري. ولعلي اعتبر ذلك عذراً قوياً للتعددية فيما يتعلق بالطرق التي قد تعتبر مفيدة ومعينة، وخاصة في المراحل الأولى لفرز وتعرف الخبرات المتعددة. وهذه الطرق ربما تساعد ليس كثيراً على تحقيق الموضوعية، ولا على طلب اليقين الذي لا يمكن أبداً تحقيقه كلية. لكن يوجد مجال لاستخدام الطرق الطبيعية Naturalistic، وهو للاستخدام كطرق وصفية. لقد تركت زيارة (جان بياجيه) لمعهدنا أثراً هائلا في نفسي. إذا نظرت إلى أعماله، لوجدت أن ما يستخدمه من إحصاء يتألف حقيقة من حالة أو حالتين. إنها لبداية حقاً، إلا أني اعتقد أنه قد أضاف إلى فهمنا بدرجة هائلة. ولا يعني ذلك أني موقن من أنه على صواب، ولكنه قدم لنا شيئا يستحق البحث لإقرار ما إذا كان صحيحاً. وقد أتيت بهذا العذر لكي لا نعامل بفظاظة أولئك الذين يحكون لك قصة. فلقد لاحظوا بعناية بدون أن يدعوا أنهم موقنون أن القصة هي القصة الكلية والقصة العامة.

في ضوء ذلك أنظر إلى التنظيم الهائل للممارسة – فمع كل مزالقها، ومع كل مخاطرها المرتبطة بما تأتي به من حلول غير ناضجة وغير سليمة، إلا أنها توفر قدراً هائلاً من الخبرة.

(٢١)

هل علم النفس الإكلينيكي علماً (*)

كارلتون بيريندا

(جامعة أوكلاهوما)

ما يثيره العنوان من تساؤل يتضح داخل إطار واسع وفي سياق أسئلة أخرى واتهامات عديدة. هناك من يقول، أو يقر ضمناً، أن علم النفس ككل ليس كثيراً بعلم، وأن علم النفس الإكلينيكي ونظريات ديناميات الشخصية والتحليل النفسي ليست إلا مجموعة من طرق فنية عملية وتأملات تصورية أو غامضة. وقد ينظر إلى العمل الإكلينيكي في علم النفس على أنه فن أكثر من أن يكون علماً: فسواء كان لدى الفرد، أو لم يكن لديه، «إحساس بهذا العمل، لكنه لا توجد قواعد أو قوانين علمية يستطيع بها الفرد توجيه نفسه في هذا المجال». ولقد اعتُبرت الاختبارات والمقاييس النفسية في بعض الأحيان على أنها الجانب العلمي حقيقة من هذا العمل، لأنه يتم بها الحصول على بعض الأعداد أو الأرقام الإحصائية، أما بقية المجال فغالبا ما أُقصي جانباً كتعاويذ غامضة وحدسية وغيبية.

قد يكمن وراء هذه التساؤلات افتراضات قبلية أخرى تتعلق بطبيعة «العلم الحقيقي». ونستطيع أن نذهب إلى أن المرشد والمعيار لذلك العلم هو علم الفيزياء – مجموعة من القوانين الطبيعية المتقنة، والكمية، والاستدلالية – المنطقية، والقابلة للتحقيق.

وتأتي المشكلة بالنسبة لهذا المعيار غالباً من التصور الخاطئ من جانب أولئك الذين يناصرون هذا المعيار، فكثيراً ما تتلون نظرتهم إلى الفيزياء الحديثة بمفاهيم غيبية متضمنة ترجع إلى كوبرنيكوس وجاليليو وكيبلر وديكارت ونيوتن. ومن الواضح أن هذا التصور الخاطئ كان ليتدعم بعمق في ثقافتنا، طالما أنه قد لقي اعترافاً صريحا حتى في كتاب مشهور للأطفال[1].

(*) C. W. Berenda: Is clinical psychology a science? Amer. Psychologist, 1957, 12, 723-729.

(1) A. de Saint - Exupery: The little prince. New York: Reynald & Hitchock.

«إن الكبار يحبون الأرقام. إذا أخبرتهم أنك قد حظيت بصديق جديد، فلن يسألونك أبداً أية أسئلة بموضوعات أساسية، لن يقولون لك أبداً: «ماذا يشبه صوته؟ ما هي الألعاب التي يفضلها؟ هل يجمع الفراش؟» وبدلاً من ذلك، يطلبون: «كم عمره ؟ كم أخاً له ؟ ما وزنه ؟ ما مقدار دخل الأب؟». ومن هذه الأرقام فقط يعتقدون أنهم قد عرفوا شيئاً عنه.. لكن ولا شك، بالنسبة لأولئك الذين يفهمون الحياة، أن الأرقام شيء قد لا يُكترث به».

يمكن العودة بجذور هذا النوع من «سحر الرقم» إلى ٢٥٠٠ سنة مضت، إلى فيثاغورس، ثم إلى أفلاطون، والرياضيين والفلكيين، حتى كوبرنيكوس. وينبع الاعتقاد بأن الحقيقة القصوى يتم فهمها في ضوء الأرقام والأشكال الهندسية والنسب من هذا التقليد القديم ويبلغ ذروته لدى جاليليو وديكارت. العالم الحقيقي يصبح هو العالم الكمّي للرياضيات؛ : «الخواص الأولية» (primary qualities) للعالم تكون قابلة للقياس: المكان والزمان والحركة والكتلة، بينما تكون «الخواص الثانوية» (secondary qualities) هي فحسب : الألوان والروائح والأذواق والأصوات، أما «الخواص الثلاثية» (tertiary qualities) فهي الأفكار والرغبات والانفعالات والأحكام القيمية المعنوية والجمالية، وغير ذلك. الخواص الثانوية والثلاثية تكون في العقل الإنساني بحيث أنها في بعض الحالات تكون حبيسة في الدماغ والجسم. ويمكن فهم الدماغ والجسم الإنسانيين في ضوء الخواص الأولية، ولذا فهي جزء من العلم تماماً، أي جزء من دراسة الحقيقة القصوي (الرياضية). ولكن الخواص الأخرى تكون في روح الإنسان وينبغي أن تترك للدين. تلك هي التصورات المتضمنة بدرجة أكبر أو أقل في آراء جاليليو وديكارت. وذلك هو «تشعب الطبيعة» (Bifurcation of Nature) الذي أتى به ديكارت حينما قسم العالم إلى : العالم الفيزيقي للرياضيات الهندسية (res extensa)، والعقل الإنساني بما ينطوي عليه من إحساسات ومشاعر ورغبات وأفكار وغيرها (res cogitans).

بعد نجاح نيوتن، كان هناك تأثير بالتدرج على تفكير الناس إرتباطاً بصورة العالم التي كان فيها الإنسان ترساً صغيراً في ماكينة كونية كبيرة تسير وفقا لقوانين طبيعية ثابتة وحتمية. والعالم الموضوعي الحقيقي هو عالم لا شخصي، مضبوط، عالم الرياضيات، عالم خاضع لقانون عِلِّي محدد في كل سلوكه.

وعلى هذا النحو، اعتبر الجسم الإنساني وسلوكه كمجرد ماكينة أكثر تعقيداً. لقد كانت ميكانيكا الإحصاء وديناميكية الكهرباء والكيمياء والتطور البيولوجي في ظل القوانين الطبيعية الثابتة مفاهيم مضافة لصورة العالم هذه؛ ولكن، من منظور أوسع، بقيت الفكرة العامة عن الإنسان والكون كما هي أساساً. وتعتبر سلوكية واطسون، في أوائل القرن العشرين، نتاج هذه الصورة عن العالم: الإنسان «ماكينة انعكاسية كهروكيميائية» (electrochemical reflex machine).

تسير، مع صورة العالم ونظرية الإنسان، فكرة منهجية: فلكي نفهم ذلك العالم، ينبغي أن نتشبه به – أن نكون موضوعيين، رياضيين، مدققين. ولكي نكتشف بالتفصيل القوانين الطبيعية للسلوك الإنساني، ينبغي أيضا التسليم بهذه الإجراءات. هناك توجد القوانين: أذهب إليها واعثر عليها. ذلك هو طريق العالِم والسيكولوجي الحقيقي.

عند هذه النقطة ينبغي أن نؤكد أن المؤلف لا يقصد نبذ الطريقة العلمية، ولا يذهب بالتأكيد إلى أن أصولها توجد جزئياً في وَهْم سحر الأرقام. فإذا قمنا بتتبع الأفكار تاريخياً إلى الأوهام والأساطير، فليس من المنطقي أن نرفضها، وإنما علينا ببساطة أن نصير أكثر وعياً بالحقيقة الهامة التي تقرر أن العلم، كالدين والفلسفة وغيرهما من الأنشطة التصورية، هي «**أنشطة إنسانية**»، تكتظ بتسليمات غيبية تضمينية – بحيث أننا نعيش ونفكر بطريقة إبداعية بواسطة الرموز والنظريات، وأن النظريات الموجودة اليوم ربما تكون «أوهام» الغد. وفي صورة العالم المحدد التي ارتسمناها، يوجد مزيد من التحقق بأن الإنسان، لكونه مبدعاً وتخيليا وعاطفياً، قد خرج من صورة العالم، لكي يفسر بعيداً بطريقة تصورية في عبارات (ابتدعناها نحن!) عن الآليات الدقيقة، الموضوعية، الكمية، العِلّية لسلوكنا الجسمي.

وقد كان علم الفيزياء هو الذي قدم رفضه الثوري لهذه النظرة إلى العالم. ولن نشير كثيراً إلى أفكار مثل مبدأ هيزنبرج عن اللامحدودية في نظرية الكم – رفض العلية الآلية الكلاسيكية في الطبيعة النووية – ولكن نشير إلى شيء أكثر أساسية وبعيد المدى. لقد خالفت الفيزياء الحديثة النظرة القديمة إلى العالم بطريقتين: (أ) بحثت إمكانية أية صور أو نماذج يمكن

تخيلهــا عما يســمي بالعالم الحقيقي للــذرات، الخ، (ب) بحثــت طبيعة ومكانة ما يســمي بالقوانين أو المعــادلات الفيزيائيــة الطبيعية.

فيمــا يتعلــق بالبنــد «أ» : تجــاوزت نظريــة الكــم الحديثــة، وكذلــك نظرية النســبية، بعيــداً إمكانية النمــاذج الآلية العادية لكــي تمثل معادلاتهــا أو قوانينها الأساســية. فــي نظريــة الكم خاصة، من يســتطيع الادعــاء بأنه يكشــف بالنظر «الدقائــق الموجية» wave – particles كما توجد فـــي المعــادلات الخاصة بالضوء (الضوئيات photons)، والكهيربات electrons، والبروتونات protons والنترونات neutrnos، الــخ؟ لقــد صــار من الواضــح الآن لعالــم الفيزياء النظريــة أن علمه لــم يعد يدخل فـــي مهمة تقديم صورة تكشــف عــن البنية القصــوى للحقيقة. بل تكونــت (ولم « تكتشــف») معادلاته الرياضيــة التجريدية بواســطة تخيل العباقرة الإبداعــي الذيــن اشــتركوا فــي «**المحاولة الإنسانية**» لتقديم نظام اســتدلالي – منطقــي ينظــم ببســاطة واتســاق بعض المعالــم القابلــة للوصف لعالمنــا الملاحظ الخــاص **بالخبــرة العامــة** (وليــس عالم المــادة الآلي الــذي لا لون له).

وفيمــا يتعلــق بالبند «ب»: لــم تعد القوانــين الطبيعية تعتبــر أوصافاً فريدة، جليــة، صادقــة تمامــاً عــن حقيقــة قصوى معينــة موجــودة « موضوعيــا»، وإنما نشــأت نظــرة جديــدة بــين علمــاء الفيزياء. لقــد وُجد فــي الإمكان تقــديم أكثر مــن نظريــة واحــدة محققــة لموضــوع معــين: قــدم «ديــراك» Dirac نظريــة عن «البوســيترون» positron (إلكتــرون ذو شــحنة إيجابية)، بينما قــدم لنا «فيينمان» Feynman نظريــة أخرى. ولقد تأيدت المعادلات الأساســية لكلا العالمين تجريبياً! ويبــدو هــذا مســتحيلاً، إذا لــم نتلخص مــن التصور القبلــي بأن الفيزيــاء تدخل فــي الكشــف عن الطبيعــة القصوي «لعالــم موضوعي حقيقي»، معــين وراء عالم الظاهــرات أو الخبــرات العامــة. وعلاوة على ذلــك، فقد انبــري فيينمان لإثبات أن نظريتــه ونظريــة ديراك «متكافئتــان» – فأحد النظريتين (وهــي مجموعة من المعــادلات الرئيســية) يمكــن أن « تترجــم» إلــى النظرية الأخرى برمتهــا – أقرب كثيــراً إلــى الترجمــة مــن الألمانية إلــى الإنجليزية. بعبــارة أخرى، يمكــن التحقق مــن أكثــر من نظرية واحدة فــي نفس ميدان البحث، وأنه يمكن اســتخدام إحدى النظريتــين أو كلاهمــا بطريقة تبادلية، بقــدر ما ترى عالم الفيزيــاء. **فالنظريات لا تعطينــا مجــرد صــور أو قوانــين عن حقيقــة مطلقة، ولكن (كما يؤكــد جون ديوي)**

هي مجرد أدوات أو وسائط عقلية ابتدعتها عقول فذة لتناول بعض الجوانب المختارة من الظاهرات القابلة للملاحظة بطريقة ملائمة. ولنسوق اقتباساً عن عالمين محدثين في الفيزياء[1]:

كيف نعرف أن عالمنا هذا قابلاً للكشف إلى أقصى حد؟ هل يوجد نظام فريد للتفسير الفيزيائي؟ إذا كان كذلك، ويقوم عالم الفيزياء بتعلمه ببطء، تكون مهنته أشبه بالمصور الفوتوغرافي الذي يأخذ عدداً هائلاً من الصور في دراسة موضوع من الموضوعات. إلا أنه، إذا لم يكن هناك يقين بشأن هذه الأسئلة، لكان عمله ليس بتصوير فوتوغرافي، وإنما هو خلق فنيِ. ويبدو أن الخبرات المتراكمة تؤيد البديل الأخير.

في إطار خلفية الملاحظات السابقة يمكننا البحث عن إجابة لسؤالنا الأساسي الخاص بعلم النفس الإكلينيكي كعلم. يستلزم النظام العلمي ألا يحاول تزويدنا بنظرية **فريدة** عن الظاهرات، ولا يستلزم أن تكون مفاهيمها المجردة قابلة لرؤيتها بالبصر على أساس تخيل حسي أو ميكانيكي، ولا يستلزم أن تكون النظرية كمية. ويستطيع عالم النفس الإكلينيكي أن يستخدم أكثر من نظرية للشخصية أو للعلاج، ومن الممكن أن تبدو المصطلحات المجردة للنظريات المختلفة (وهي كلها «محققة») متكافئة. وأي من هذه النظريات يستخدمه العالم الإكلينيكي قد يكون موضوعاً للتفضيل الشخصي، يتفق مع مزاجه أو توجهه الخاص. ونستطيع فحسب أن نسعى لبناء نظام متسق ذاتياً من التجريدات أو المفاهيم التي تُنَظِّم منطقياً، ببساطة بقدر الإمكان، مجالاً معيناً من الظاهرات في ميدان السلوك الإنساني. وهنا يكون في الإمكان توفر أكثر من نظام واحد.

ولم يعد التقسيم القديم بين العلم والفن، بين الحقيقة الآلية الموضوعية والرمزية الإبداعية الذاتية، واضحاً كما كان يبدو من قبل. فلكي تكون «موضوعيا» (Objective) ينبغي أيضا أن تكون لديك «أهداف» (objectives)؛ وحتى الإنسان كالعالم يكون موجهاً نحو الهدف وكذلك خالقاً للأهداف أو

(1) Lindsay, R. & Margenau, H. Foundations of Physics. New york: Wiley.

منتقياً لها – بالإضافة إلى ما يتمتع به من ثراء من الأهداف المثالية (أي الهدف المثالي لعلم الإنسان).

في ميدان غني ومتنوع كالسلوك الإنساني، يكون من الواجب علينا أن نصير أكثر تعرفاً بعمق على موضوعنا لكي يكون إلهامنا بتكوين مفاهيم مجردة وبتنظير مبدع متأصلاً جيداً في خبرات حسية، ولكي يُوَجّه «إثبات» تلك النظريات إلى التخلص من بعض غموضه الحالي. ولا يعتبر تعدد النظريات «المتضاربة»، ولكن المثبتة والمحققة بدرجة متساوية، في حد ذاته خطيئة علمية. وفي ميدان علم النفس الإكلينيكي الغني كيفياً، علينا أن نتوقع، بل وأن نشجع، وجود مفاهيم وافتراضات مجردة مختلفة تكونت في سياق نظريات محققة متعددة. فالعلم **موضوع لدرجة** من التنظيم المنطقي المنظم للظاهرات، وعلم النفس الإكلينيكي علم بالدرجة التي سوف تنشأ قياساً إلى تلك «التنظيمية» (systematization)؛ ولكن ما نرجوه لذلك النشوء أن يعتمد على حرية التفكير الإبداعي المتجسد في المنبت الدافئ والحي للخبرات الشمولية والتعاطفية والكيفية في الميدان الإكلينيكي.

الفصل السابع

الإجرائية

يتمثل التحدي الأكبر من أي بحث علمي في الإجابة على السؤال التالي: كيف نتحقق من صدق مفاهيمنا؟ لقد عول الدارسون، في القرون الماضية قبل أن تحقق العلوم وجودها المستقل عن الفلسفة، بقوة على التعقل الاستدلالي في تفسير الظاهرات الطبيعية: يبدأون بملاحظات ذات طبيعة عامة جداً يتحقق منها الآخرون، ثم يتفكرون من قضية لأخرى حتى يصلوا إلى نتيجة حتمية على نحو افتراضي. مثال ذلك، الإدراك العام للإنسان ككائن اجتماعي قادر على التفكير والشعور وحل المشكلات، والذي هو في نفس الوقت كائن قلق وشغوف وطموح. ومن تلك البدايات الإمبيريقية يمكن استقراء مفهوم الطبيعة البشرية والجوانب الأخلاقية للسلوك. وهذه الطريقة حتى اليوم، هي الطريقة الوحيدة المتيسرة لبحث بعض المشكلات الإنسانية التي لا تخضع للملاحظة والقياس.

ويشيع إلى حد ما نفس هذا الإجراء في التجريب الموضوعي. فالتكوينات لا تكتشف كلية كما تكونت في البيانات الأصلية، ولكن ينبغي أن تتضح إجتهاداً بواسطة التعقل الاستدلالي والاستقرائي بعد استكمال المعالجات الإحصائية. ويختلف المنهج العلمي عن الفلسفة، ليس في إبطال الحاجة إلى عمليات التفكير المنطقي التي تتضح في القياس، ولكن في الحاجة إلى مزيد من الملاحظة الدقيقة والمتقنة. ويؤدي اختبار وإعادة اختبار البيانات الأصلية إلى زيادة ثقة العالم في أن نتائجه هي أكثر من مجرد تدريبات على المنطق. ويعتبر الاتساق الداخلي أقل المتطلبات التي يستلزمها أي تفسير، ولكن إلى أن يثبت ملائمته للواقع وكذلك لقواعد التفكير السليم، يظل التفسير كفرض من الفروض.

العلم أسمى من الفلسفة في دراسة الظاهرات الطبيعية إلى الحد الذي يستطيع معه أن يحرر نفسه من العوامل الذاتية. ويسعى النظام المعقد الخاص بالضوابط والإجراءات والطرق والأدوات المستخدمة في الدراسات الموضوعية إلى محاولة التغلب على الأخطاء التي تعزى إلى التحيز والهوى،

وإلى الإدراك الخاطئ في جمع البيانات. وثمة احتياطات وتحفظات مماثلة ينبغي اتخاذها في المرحلة الثانية الأقل موضوعية من البحث التي تقوم على تكشف ما تنطوي عليه البيانات المتوفرة بين أيدينا من معاني. ويمكن وضع بعض الخطوط الإرشادية العامة للإقلال من احتمال الخطأ إلى الحد الأدنى. فبقدر ما يختفي النشاط المعرفي للفرد من الإدراك الحسي، تكون صعوبة التحقق والإثبات. ومن ثم، ينبغي أن تظل التكوينات العلمية على اتصال وثيق بقدر الإمكان من الملاحظة التجريبية (الامبريقية). ويمدنا التفكير في ضوء أشياء وأنشطة حسية بجسر بين التأمل وعالم الحقيقة. وإذا كان من الصحيح أن المفاهيم الأكثر تجريدية وعمومية نظاماً أوسع للتطبيق، فإنها لذات السبب أكثر صعوبة في التحقيق والإثبات.

تقرر طريقة «التحليل الإجرائي» (operational analysis)، المألوفة لأي عالم، هذا المبدأ في شكل موجز . يحدد (هنري مارجيناو) «الإجرائية» (operationalism) على أنها «اتجاه يؤكد الحاجة إلى اللجوء – حيثما يتيسر ذلك – إلى الإجراءات الوسيلية أو الأدائية instrumental procedures حينما يستلزم الأمر إقرار المعاني». فهي تتحدد في الكلمة والتكوينات والنظريات بالمعالجات والحسابات التي تشتق منها، مثال ذلك التعريف الإجرائي لإحدى المأكولات كما يقدمه الطاهي بأنه وصفة أو صيغة طهوية معينة في كتاب الطهي.

بالرغم من أن الإجرائية ترتبط بمجالات علم الفيزياء، فإنها قد أسهمت بطريقة هامة في تقدم علم النفس ولا زالت تؤثر فيه بدرجة هائلة، بالرغم من الحقيقة بأن قلة من علماء النفس قد تبنت هذه الحركة رسمياً. فإذ سعى هؤلاء العلماء إلى التخلص من الافتراضات غير القابلة للتحقيق لدى العلماء السلوكيين الأوائل، فإنهم قد هيأوا بذلك الطريق للإجرائية أمام النظرية السلوكية الحديثة.

(٢٢)

المعقول واللامعقول في الإجرائية

جوستاف برجمان

(جامعة ولاية آيوا)

لقد كان فضل الإجرائية على علم النفس هائلاً. وهنا من السهل أن نفهم ذلك، فلقد صارت الإجرائية، حينما طُبقت على المفاهيم النفسية، ما يعرف «بالسلوكية المنهجية» (methodological behaviorism) – أي السلوكية التي صَحَت من غفوتها، واستعادت وقارها، وتخلصت من غيبياتها. لذا كان للإجرائية الفضل في تيسير الانتقال من الواطسونية Watsonianism إلى النظرية السلوكية المعاصرة. لكنه، بالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض اللامعقول، معظمه سوء فهم يرجع إلى السذاجة الفلسفية لبعض علماء النفس. ولحسن الحظ أن سوء الفهم هذا قد تلاشي، أو على الأقل قد صار واضحاً للعيان. وتكمن جذور المشكلة في أن بعض علماء النفس في غمرة حماسهم قد اغفلوا قيمة الإجرائية بالنسبة لكل فلسفة العلم، إن لم يكن بالنسبة لكل الفلسفة. لذا اعتقدوا، أولاً، أن الإجرائية تقدم أيضا قواعد لتأكيد أهمية المفاهيم المحددة بطريقة ملائمة. ولا يوجد، بالطبع، مثل هذه الأحكام. ثانياً، إذا كانت العمليات الإجرائية operations بالمعنى الملائم هي تناولات وليس أي شئ آخر، فقد رأوا تلك العمليات في كل مكان. فمن ناحية، خضعت إدراكات العالِم إلى التمييق لتكون نوعاً من العمليات. ومن ناحية أخرى، كانت نشاطاته التقديرية اللفظية أقرب إلى ما يطلق عليه العمليات الرمزية التي تأتلف مع نفس المجموعة. وقد أدى هذا الاستخدام غير المحدد تماما لمصطلح «عملية» إلى إشاعة الارتباك والفوضى. مثال إيضاحي على ذلك: يرفض البعض، استناداً إلى المبادئ الإجرائية، «التعميم» من حالة في التجربة إلى الأخرى إذا كان الجهاز في الوقت ذاته قد تحرك إلى ركن آخر بالحجرة. ومع ذلك، لا توجد قاعدة قبلية لتمييز المتغيرات المناسبة عن غير المناسبة. كما لا توجد الأوصاف النهائية. لقد قدم النموذج الإجرائي، بصفة عامة، بعض الحجج الوجيهة إلى أولئك الذين يمقتون كل أنواع التنظير أو حتى التصور. لكن ربما كان من المفيد أن علم النفس قد سار في هذا الاتجاه.

تعتبر الإجرائية – بالمعنى الواسع جداً – أكثر قليلاً من صورة مستحدثة لما كان يقوم به العلماء دائماً للتحقق من أفكارهم، ولكن ثمة قناعة في بعض الدوائر بأن المبدأ الإجرائي قد لقي اهتماماً زائداً. يبعد «بردجمان» نفسه صراحة عن الشرط أو المطلب الذي يقرر أن أي تعريف ينبغي صياغته في عبارات إجرائية، وينظر إلى الإجرائية كوجهة نظر عامة وليس كفكرة جامدة (دوجما) أو كفلسفة للعلم. ومن شأن العالم أن يقع في أخطاء أقل إذا اعتاد أن يوجه إلى نفسه السؤال التالي: « ما الذي فعلته حتى وصلت إلى هذا المفهوم؟» كذلك لا يعتبر «بردجمان» الإجرائية على أنها الخاصية الفريدة للعلم. حتى التعريفات الغيبية، مثل فكرة نيوتين عن الزمان المطلق، تصير أوضح حينما تخضع لتحليل مماثل.

(٢٣)

ملاحظات حول الإجرائية

ب. بردجمان

لعلـى أنجـح فـي إثـارة مناقشـة تتعلـق تاريخياً بذلك الشـيء الـذي يعرف «بالإجرائيـة». وأشـعر، باختصـار، أني قد خلقـت «فرانكنشـتاين»، وقد انصرف بـكل تأكيـد بعيـداً عني. إنـي أبغض كلمـة» الإجرائيـة»، التي تبدو أنهـا تتضمن فكـرة جامـدة «دوجما»، أو علـى الأقل فكرة من نوع معين. والشـيء الذي أتصوره بسـيطا للغايـة حتـى يُبَجـل بتلـك التسـمية المفتعلة، وأكثـر من ذلك، فهـو يعتبر اتجاهـاً أو وجهـة نظـر مسـتخلصة من الممارسـة المسـتمرة للتحليـل الإجرائي. ومهمـا كانـت الفكرة الجامـدة (الدوجمـا) المتضمنة هنا، فهي تبـدو مفيدة، لأنها تأخذنـا إلـى ما هو أبعد مـن ذلك، إلى تحليـل الأفعال والأحداث وليس الأشـياء أو الموضوعات.

مـا أود تضمينـه هنـا قد يكون أوضـح قليـلا إذا فهمنا الخلفيـة التاريخية، وأرجـو أن تسـمحوا لي إذا كنـت أدخل بعض الملاحظات الشـخصية. يرتبط ذلك بكتابـي «منطـق الفيزيـاء الحديثـة» (The logic of modern physics)، وخاصة حينمـا كلفت فجـأة بمهمة تدريـس مادتين متقدميتن فـي الديناميـكا الكهربية. وكان ممـا تضمنتـاه مادة من نظرية النسـبية، وقد سـبب لي ذلـك ضيقاً حاولت التخفف منه بقدر ما اسـتطعت، وسـبب آخر للضيق كان الموقف بالنسـبة للتحليل البُعْـدي/ تحليل الأبعـاد (dimensional anlysis) الذي كان غالباً ما يثير الشـك حينمـا يكـون العمـل التجريبـي ضروريـاً حقيقـةً. وقد تبـين أن الموقـف البُعْدي بسـيط إلـى حد مـا، وتمكنت مـن تناوله بمـا أدى إلى شـعوري بالرضـا — وهي خبـرة أدت إلـى زيـادة معنويتي الذهنيـة: وقد نُشـر التحليل الـذي كان إجرائيا فـي جوهـره، بالرغم مـن أن كلمة إجرائية لم تسـتخدم. وأعتقـد أن كلمة عملية إجرائية operation قد اسـتخدمت بصراحة لأول مرة فـي مناقشـة أثرتها فـي نـدوة ببوسـطن عقدتهـا «الجمعية الأمريكية لتقـدم العلـوم» (AAAS) عن نظرية النسـبية اشـتركت فيها مع (جورج بيركوف) و(هـارلوشـابلي).

لقد كتبت (منطق الفيزياء الحديثة) في فترة وجيزة ومزدحمة. وفي نطاق هذا الوقت المحدود، كان عليّ رسم خريطة بالأسئلة التي بدت بالنسبة لي أكثر إلحاحاً ومتفقة مع المناقشات التي يمكن أن أقول عنها أنها (على الأقل ينبغي أن تصدق بدرجة كبيرة وأن تكون جزءً من الصورة النهائية)، وألا أحاول القيام ببرنامج طموح لتحليل كامل. وباختصار، ارتضيت بالتحليل (الضروري) كما يتعارض مع التحليل (الكافي). وكان من نتيجة ذلك أن خطوات هامة كثيرة قد تُركت بدون تكشف: على سبيل المثال، تحليل ما يجعل العملية الإجرائية ملائمة لصياغة مفهوم علمي، وهنا، بأي مصطلحات يمكن تحديد العمليات الإجرائية. وفي الحقيقة، كان مما أثار دهشتي اهتمام الآخرين بالقضايا المنهجية المجردة التي أوجدها السعي إلى إقامة نظام فلسفي من نوع معين بدلاً من محاولات تتبع الخطوات الأكثر تحديداً ووضوحاً.

منذ كتابة هذا الكتاب، لم أتمكن أبداً من تكريس اهتمام مثابر بهذا المجال، ولكني اكتفيت ببعض التعديلات القصيرة التي تمخضت عن مقالات كثيرة وكتابين صغيرين. إلا أنه في نفس الوقت، مع الممارسة المستمرة للتحليل الإجرائي، تغيرت أفكاري وتطورت وارتقت إلى العمومية. وإذا كان عَليّ أن أبدأ اليوم في استجلاء اتجاهي بطريقة منظمة، لاختلف نظام تقديم هذه الأفكار. لقد قدمت وجهات النظر العامة في بداية معالجتها، مع تجنب الكثير من الخلط والالتباس. وأعتقد غالباً أنه يوجد جانب معياري (للإجرائية)، ذلك الجانب اعتبر أنه (الدوجما) وبأن التعريفات لذلك ينبغي أن تصاغ بعبارات العمليات الإجرائية operations . وكما أرى، لا يوجد من وجهة النظر العامة شيء معياري. فالتحليل الإجرائي ممكن دائماً؟ وهو تحليل لما وقع أو حدث. ويمكن تقديم التحليل الإجرائي لأكثر التعريفات الغيبية غموضاً، مثل تعريف نيوتن للزمان المطلق شأنه في ذلك شأن التعريفات التي تبدو بذاتها منسجمة ومتسقة. وما هو أكثر من ذلك، أن أي شخص يستطيع بتحليل إجرائي، سواء تقبل أم لم يتقبل، يعتقد أم لا يعتقد، أنه مبدأ (الإجرائية)، وسواء اعتقد أنه يضيع وقته بلا فائدة في عمل ذلك. فما يميز «العالِم الإجرائي» (operationalist) عن (العالم اللاإجرائي) هو اقتناع الأول بأنه من المجدي غالباً عمل تحليل إجرائي، وفي شعوره الخاص أيضا — وهذا ما أشك فيه —

أن (العالِم اللاإجرائي) غالباً ما لا يريد الاعتماد على التحليل الإجرائي بسبب التخوف من أنه قد يتمخض عن تغيير في اتجاهه.

إذا استخدمنا التحليل الإجرائي بطريقة متسقة، أعتقد أن وجهة نظرنا العامة سوف تكتسب طعماً معيناً واعتبارات معينة تتأكد في هذا التفكير، وهذا ما نحاول وصفه باختصار. فمن ناحية، نحن نتأثر بالملاحظة بأن التحليل الإجرائي يمكن أن يُدْفَع دائماً إلى الحد الذي تختفي الحدة معه. فمفاهيم مثل إشارة (نعم أو لا) في النظرية الحديثة للمعلومات ومبدأ (الكل أو لا شيء) في عمل الوحدة العصبية (النيرون) لدى عالم الفسيولوجيا وغير ذلك من المفاهيم، تفقد حدتها حينما تعتبر كعمليات تحدث في زمان معين، وتفقد عمليات المنطق حدتها حينما يدفع التحليل إلى حد الشك في الذات. وبالإضافة إلى ذلك، نحن نتأثر بذلك الحشد المعقد من التركيب اللفظي الذي كونه الإنسان عبر العصور. هنا يوجد عالم تلقائي ذاتي (autonomous world) يستطيع فيه الإنسان، وغالباً ما يستطيع، أن يعيش وجوداً منعزلاً ومستقلا بدرجة أكبر أو أقل. ومن ناحية أخرى، بالرغم من الحشد المعقد للعالم اللفظي، يعتبر العالم الخارجي الخاص بالأشياء والواقع والأحداث أكثر تعقيداً بدرجة هائلة – معقداً إلى درجة أن كل جوانبه لا يمكن استعادتها بواسطة أي تركيب لفظي. وحتى في الفيزياء لم يلق هذا بعد التقييم الكافي كما يتضح، مثلاً، في استعادة الطاقة. فالمجموع الكلي للمواقف التي تغطيها الجوانب المختلفة لمفهوم الطاقة معقد للغاية حتى يمكن استعادته بواسطة أية حيلة لفظية بسيطة. وأشعر شخصيا، كنتيجة للتفاعل المستمر بين العالم اللفظي والعالم (الموضوعي)، بقيمة تحليل عملياتنا الإجرائية بقدر الإمكان داخل مكوناتها الأدائية أو الوسيلية (instrumental) ومكوناتها الخاصة (بالورقة والقلم)، وأعتقد أنه لا يزال يوجد الكثير مما لم يتكشف؛ كما أعتقد هنا أنه يوجد الكثير مما نعمله في الميادين اللاعلمية وفقا لهذه الخطوط. فعلى سبيل المثال، أتوقع أن نجد أن الكثير من عمليات الفلسفة تكون بالضرورة لفظية وغير قادرة على الدخول في العالم الإجرائي أو الأدائي أو الوسيلي. وأعتقد أن نتائج عظيمة سوف تعقب التحقيق الكامل لحتمية ورسوخ العزيمة الإنسانية.

فـــي الدراســة التالية، وهــي نموذج للاختصــار والدقــة، يتوقع «هنري مارجينــاو» احتمــال إثارة ســؤالين لــدى القارئ: مــا هو الإجــراء الأدائي أو الوســيلي؟ وإذا كانــت التعريفــات الإجرائيــة ضرورية فـــي البحــث العلمي، لمــاذا تكــون غيــر كافية للغــرض الذي ينشــد تطويــر النظريات؟ .

(٢٤)

في تفسير وسوء تفسير الإجرائية

هنري مارجيناو

(جامعة ييل)

أظن أنه من الملائم عند تناول (الحالة الراهنة للإجرائية)، أن أعرض ملاحظاتي مختصرة وعامة، تاركاً النقد والتقدير للآخرين.

الإجراءات الوسيلية أو الأدائية تتبدى حينما يستلزم الأمر إقرار المعاني. ينكر (بردجمان) مكانتها كفلسفة لأنها كنظرة عامة تكون قابلة للنقد من ناحيتين: أولاً، أنها لا تستطيع تحديد معنى (الإجراء الأدائي أو الوسيلي) بطريقة تنقذ هذه النظرة من أن تكون إما بغير ذات معنى (وهي حقيقة تكون كذلك إذا كانت الأدائية أو الوسيلية تفسر بحيث تتضمن العمليات الرمزية والعقلية وعمليات الورقة – والقلم)، أو تقييدية للغاية (إذا كانت كل العمليات إجراءات معملية)، ثانياً، أنها تخفق في إضفاء المعنى على المفاهيم الكونية، أي المفاهيم المتعلقة بالكيفيات أو الكميات القابلة للتحديد إجرائياً. لإيضاح هذه النقطة الأخيرة: من الممكن، في ضوء الإجراءات الوسيلية الأدائية، تعريف الشحنة والكتلة وغيرها في الإلكترون ولكن من الصعب تحديد الإلكترون نفسه .

ومع ذلك يشعر كل عالم بقيمة الاتجاه الإجرائي. سبب ذلك هو أن نوضح أن التعريفات الإجرائية تشغل مكاناً حاسماً في منهجية العلم وطرق البحث فيه .

وإذا كنا، كما جرت العادة في الكثير من الفلسفة التقليدية، نعترف داخل نطاق خبرتنا المعرفية بركيزتين أساسيتين: الركيزة التعقلية rational (المفاهيم، التكوينات، الأفكار، وغير ذلك) والركيزة المباشرة immediate (مثل، الإحساسات والملاحظات والبيانات)- فإنه تنشأ إذن مشكلة إقامة الوصل والربط بينهما. فمن الواضح أن المفهوم ليس متوحداً مع، أو مشتقاً بطريقة استدلالية من، مجموعة من المدركات. ويمكن إقرار المتطلبات اللاتجريبية

(اللاإمبيريقية) التي توفر الجدوى والاتساق لمكونات نظرية من النظريات في (طبيعة الحقيقة الفيزيائية) مما يمكن أن نطلق عليه «المتطلبات الغيبية» بدون الرجوع إلى ملاحظات فعلية. ومن هنا، فإنها لا تحقق صدق أو موضوعية المكونات التي تتضمنها، ولكن تقررها فقط كمجموعة أو فئة متسقة داخلياً، أي كنظرية شكلية (formal theory). فالمتطلب الإمبيريقي، أو إمكانية القيام بالتحقيقات الحقيقية التي تتوسط بين البيانات الملاحظة والتكوينات، توفر الصدق. ومثل هذه التحقيقات تكون مستحيلة بدون تعريفات إجرائية — على أساس الإجراءات المعملية المُمارسة أو المُتخيلة.

يتضمن هذا أن العمليات الإجرائية ليست الوسائل الوحيدة لتحديد المفاهيم العلمية. حقيقة يبين التحليل بدقة لماذا تعتبر وحدها غير كافية. فالمفهوم الصادق ينبغي أن ينتمي إلى نظرية مقبولة تخضع لقواعد ميتافيزيقية. وهو لا يستطيع أن يؤدي ذلك إلا إذا كان موضوعاً للهدف. فالتعريف شكلي يرتبط بطريقة لا إجرائية بالمفاهيم أو المصطلحات الأخرى للنظرية. ولكنه ينبغي أن يكون أيضا قابلاً للتحقيق بطريقة إمبيريقية، وهذا يتطلب وصلا وربطاً مع الملاحظات من خلال الإجراءات الإجرائية. لذا، من الضروري، وكما يبين استعراض الطريقة العلمية حقيقة ذلك، أن لكل كمية علمية مقبولة قابلة للقياس على الأقل تعريفين: أحدهما شكلي (formal)، والآخر إجرائي أو أدائي أو وسيلي (instrumental). وإنها لمهمة عظيمة أن نبين كيف أن بعض العلوم تخفق في أن تصبح محكمة ومتقنة لأنها تغفل هذه الخاصية المزدوجة لعملية التعريف. ويؤدي إغفال التعريفات الإجرائية إلى تأمل عقيم، وإلى غيبيات تعيب ذلك النظام وتفضحه، كما يؤدي إغفال التعريفات الشكلية (أو «التكوينية» constitutive) إلى تجريبية (إمبيريقية) عمياء تعوزها قوة وجمال علم الفيزياء .

لقد أُدْخل التحليل الإجرائي في العلم لكي يطهره من كل العناصر الذاتية. فبواسطة ربط مضمون المفاهيم والنظريات بعمليات إجرائية محددة يمكن التحقق منها بسهولة، يبدو العالم كما لو كان يحرر نفسه من التحيز والهوى وغير ذلك من السواقط الإنسانية، ولكن «الأفكار الثانوية» (second thoughts) قد تكون أكثر رصانة. فالمعرفة، في خاتمة التحليل، لا يمكن أبداً أن تكون موضوعية مثل الأشياء الموجودة في العالم الخارجي. المعرفة اقتناء شخصي، يعتمد كلية على النشاط الذاتي سواء في اكتسابها أو استخدامها على حد سواء. وكل فرد ينبغي أن يفعل أي شيء في مقدوره لكي يتأكد من صدق ما يعرفه. ولكن، إلى أن يحاول تحقيق موضوعية أفكاره، فإنها لا تزال تظل خبرة داخلية.

(٢٥)
الأَنْسَـــنَة

فلوريـد ماتسـون

(جامعـــة كاليفورنيـا)

لقد اكتسـب الحافز لدى كل منا، والذي أشـار إليه شـرنجتون، وهو للتخلص مـن ربقة «اَلتّشُـكلية الذاتيـة» (subjective automorphism)، دعمه الأعظم من خـلال طريقـة «التحليـل الإجرائي» التي قدمها بيرسـي بردجمان عالـم الفيزياء الرياضيـة. فمـن منظـور الإجرائية، يكون معنـى قضية من القضايا هو ببسـاطة مجموعـة معينـة مـن (العمليـات الإجرائيـة) operations اللازمـة لتحقيقهـا أو إثباتهـا. يتمتـع مفهـوم بردجمـان بميـزة إرضـاء تشـوق العالـم الوضعي إلى الموضوعيـة المطلقـة (absolute objectification) إلـى التخلـص تماماً من ذلك الوجود المنتشـر فـي كل مـكان، ومن ذلك الملاحـظِ الإنسـاني بأصابعه المرتجفة وتحيزاتـه المفسـدة. لقد أعقب نشـر كتاب (منطـق الفيزياء الحديثـة) أن عكفت أعـداد من الفلاسـفة العلميـين والسـيكولوجيين العلميين على احتضـان طريقة برجمـان وذهبـت إلى حد أنها قـد أولتها التبجيل الكامـل ومطابقتها مع ما أطلق عليه (روللومـاى) مصطلح «الطرائقيـة» (methodolatry).

ولكـن فـي ذلـك الوقـت كان هناك شـيء عجيب يحـدث. فلقد بـدأ مؤلف الإجرائية نفسـه فـي إعـادة تقييم وتعديل مفهومه فـي ضوء التطـورات الجارية فـي ميادين الفيزيـاء والرياضيـات، وخاصة تلـك الميادين المرتبطـة بمبدأ الكم لـدى (هييزنبـرج) ونظرية المنطق لـدى (جودل). وتؤكد النتيجـة التي توصل إليها بردجمان نفسـه عـن البصيرة (بأننا لا نتخلص أبداً من أنفسـنا) — بأن العمليات الإجرائية المتضمنة فـي أي أداء علمي، أو لذلك السـبب فـي أي عمل إنسـانيِ، هـي عمليـات فرديـة بالدرجة الأولـى. ويقرر بأننا لا نسـتطيع ببسـاطة الهروب من السـند الشـخصي، تلك الخاصية الأصيلة للشـخص المتفـرد صاحب المعرفة فـي أداء عملـه. فـي وقت من الأوقـات أدى هذا الخـط من التفكيـر ببردجمان إلـى تقديـر (التشـكلية الذاتيـة) بعمـق وصراحة حتى أنـه اضطر مـراراً إلى أن يدافـع عن نفسـه ضد الاتهـام العنيـف بالذاتية المفرطـة (الأنانـة solipsism)–

ذلك الاتهام الذي وُجه إليه خاصة من تلاميذه في وقت ما، أي من العلماء الإجرائيين. ويمكن القول أن بردجمان، باستخلاصه للمعنى والصحة من الذات الإنسانية من خلال عمل بارع من الجراحة تجاوز حدود مهنته قد أصبح بذلك مناصراً صريحاً لفكرة «التضمين الشخصي» (personal involvement) في السلوك سواء لدى الناس في الشارع أو العلماء في البرج.

لقد لقي الاعتراف بأن «المعرفة شخصية» مقاومة هائلة استناداً للافتراض بأنها تولف اعترافاً بالضعف الإنساني وبالتالي (كما اعتبرها «هل») هي شورى اليأس. ولا شك بالنسبة لأولئك الذين يقتنعون بأن رصيد المعرفة الإنسانية يتزايد بنسبة مباشرة للمسافة بين الذات والموضوع، تأخذ فكرة (المعرفة الشخصية) مظهر الإخلال بالمنطق. لكن من المفيد أن نعيد إلى أذهاننا تلك الحقيقة بأنه خلال قرون مسيرة التقدم العلمي لم يخمد أو يزول الشك الذي لا نستطيع أن نخلص أنفسنا منه – وربما لا ينبغي ذلك. وبقول آخر، تلك نظرة تؤكد أن الاعتراف بالبعد الداخلي الشخصي، وكذلك في ملاحظة السلوك، لا يعني أن نستسلم لهذا العيب القدري ولكن أن نحدد فيه، ونستمد منه، مصدراً للقوة – ذلك الامتياز الفريد للشرط الإنساني الذي يوفر الأساس الوحيد للتواصل والتفاعل الخلاقين بين الإنسان والإنسان، وبالتالي لفهم الأصوات الأخرى والعقول الأخرى والأنماط السلوكية الأخرى.

الفصل الثامن

توسيع آفاق المنهج العلمي

«لقد اعتاد علماء النفس – كما يذهب دافيد ما كليلاند في أحد دراساته في هذا الفصل – أن يهتموا بما يجري في أدمغة الناس». لم يكن من المعتقد أن علم النفس ينبغي ألا يهتم بالخبرة الداخلية الإنسانية، واعتبر التفكير والتخيل والشعور والاختيار أبرز ما يميز كل الأنشطة الإنسانية: بدونها قد تنشأ فيزياء أو فسيولوجيا الإنسان، ولكن ليس علم النفس. وقد أدت نشأة السلوكية إلى تغيير هذه النظرة. وإذ قام «جون واطسون» بتزعم ثورة ضد تجاوزات الاتجاه الاستبطاني، لكنه من ناحية أخرى قد أقصى المضمون العقلي من علم النفس. ومن هنا جرى اعتبار أن علم الإنسان ينبغي أن يحدد نفسه بتلك الجوانب من السلوك أو «العمليات» القابلة للملاحظة من الناحية الخارجية، موضحاً «كيف» يحدث النشاط النفسي أكثر من اهتمامه بما يجري في العقل.

ورغم أن افتراضات واطسون الأصلية قد تعدلت كثيراً في سياق تطور النظرية السلوكية الحديثة، فلا يزال هناك الكثير من علماء النفس ممن يشك في أن المضمون العقلي يمكن دراسته علمياً. ويذهبون إلى أن الأفكار متنوعة للغاية، ونسبية، ومرتبطة بالملاحظة الخارجية، بما يجعل في الإمكان الاعتماد على الاتجاه التجربي (الامبيريقى). يذهب ماكليلاند إلى أن الاستجابة الوحيدة لهذا التحدي أن نثبت أن الأفكار يمكن دراستها بنجاح. وقد سقنا هنا أمثلة تكشف عن تجارب ناجحة من هذا النمط، ولكن قد حاولنا أولاً أن نبين على أسس نظرية، لماذا يعتبر هذا ممكناً.

يرتبط أي اعتبار للمضمون العقلي ارتباطاً وثيقاً بفكرة الوعي. ولفترة طويلة اعتبر الوعي كمرآة داخلية منعزلة عن الواقع. فإذا رغب «الأنا» في معرفة ما يجري خارجه، فإنه ينظر في المرآة، وليس من خلال نافذة مفتوحة. لذا تم الحصول على المعرفة الإدراكية من خلال تفسير الإحساسات كخطوة وسيطة. يوحد «جوزيف نوتان» (في تناوله لعدم ملائمة ذلك المفهوم) الوعي

بالخبرة الفورية المباشـرة للواقع: فالوعي هو انغماز ذات الشـخص فـي الأشياء. والعالـم المـدرك هـو العالم الحقيقي أو السـلوكي، وليـس تأملاً لـه. وإذا لم يكن الأمـر كذلـك، لا تكـون البيانـات العلميـة موضوعية لأنهـا، كالاسـتبطان، تكون دائمـاً خطـوة واحـدة منعزلة عـن الواقـع. وينبغي بالضـرورة لذلك أن يتوسـط التفسـير كعمل ذاتي بـين الاتصال الحسـي والإدراك.

إذن، إذا كان الوعـي مرتبطـاً ارتباطـاً وثيقـاً مـع خبـرة العالم السـلوكي، لمـاذا لا يوثـق فـي طريقـة الاسـتبطان كثيـراً؟ أولاً وقبـل كل شـيء، ينبغي أن نميـز بين جانبين للوعـي: «الوعـي الأولـي» (primary consciousness) الذي يُدْخلنـا فـي اتصال إدراكي فـوري مع الأشـياء المحيطة بنا، و«الوعـي التأملي» (reflective consciousness) أو الاسـتبطان، وذلك ما يشـير إليه «نوتان» على أنـه «الحضور البديلي» (vicarious presence) للأشـياء فـي غيابها من خلال الذاكـرة والتفكيـر والتخيـل. يختـص الوعي الأولـي بالخبرة الواقعيـة الجارية التـي يمكـن أن تصـدق بالفعـل بواسـطة تكـرار ملاحظـات الفـرد، أو مقارنة الملاحظـات مـع الأشـخاص الآخريـن، أو الاسـتفادة من طـرق البحـث العلمي المتقنـة. أمـا فـي عمليـة الوعـي التأملي، فمـن المحتمـل أكثر أن يضـل الفرد كلمـا رجع إلـى مضمون الخبرة الداخلية المباشـرة لكـي يُقَيِّميهـا أو يُصَنِّفها أو يصفهـا بطريقـة معينـة. فخبرته الأوليـة بامتلاكه لفكرة أو صورة، أو بالشـعور بعاطفـة أو انفعـال لا تختلـف أساسـاً عن إدراك الشـيء الخارجي.وهي تشـبه فـي ذلـك الألم فـي الظهر، فحقيقة أن الألـم يحدث داخل الشـخص، ولكنه لا يفقـد دلالتـه كبيانات للملاحظـة الفورية يمكـن تناولها موضوعيـاً كأي بيانات أخرى.

إن التحليـل التأملـي لـلإدراك هـو موضـوع آخر . يـرى ماكليلانـد أن أكبر ضعـف فـي طريقـة «تيتشـنر» يتمثل فـي اسـتخدامه لنفـس المفحوصـين أولاً للحصـول علـى الملاحظـات الأصلية ثم لتصنيفها إلى فئات. فـي ضوء المناقشـة السـابقة، يتطلـب الاتجاه الاسـتبطاني من المفحـوص أن يسـتخدم كلا من وعيه الأولـي والتأملـي. فهـو يقرر ليس فحسـب حضور فكـرة أو صورة ولكن يُشَـغِّلها بطريقـة ما وفقا للتعليمات التي يتلقاها. تقوم طرق البحث العلمي فـي دراسـات

دافع الإنجاز [1] على حصر التقرير اللفظي بحقائق الإدراك المباشر والفوري – الأفكار التي تتواتر لدى المفحوصين حينما تعرض عليهم صور على شاشة. ولا يطلب من المفحوصين التعليق على القصص التي كتبوها أو تصنيف تأويل تخليهم. ويقوم المجرب بمجرد جمع المادة الإدراكية الخام التي لا تختلف عن نوع الملاحظات المألوفة في الدراسات النفسية التي تتطلب أحكاماً عن وزن الموضوعات وفقا لوضوح الأفكار. فبواسطة تسجيل واستخدام البروتوكولات بطريقة موضوعية، يمكن التخلص من عيوب الطريقة الاستبطانية، لذا يقدم لنا نوتان وماكليلاند أساسا عقلياً للطرق السيكولوجية القادرة على دراسة «ما يجري في أدمغة الناس».

(١) للاحاطة بوصف مختصر لطريقة قياس دافع الانجاز، أنظر:

D. C. Me Clelland: The achieving society. Princeton, N. J., Van Nostrand, 1961, pp. 39-46.

(٢٦)

الوعي والسلوك والشخصية (*)

جوزيف نوتان

(جامعة لوفان)

لا يــزال مفهــوم الوعــي مرتبطــاً بواحــدة من أكثــر الخبرات الصادمة فــي تاريــخ علــم النفس العلمــي، وهــي الاســتبطانية introspectionism. ولــم تلتئم الجــروح بعــد، فلا يزال الوعــي يعني بالنســبة للكثيرين تهديداً للعلوم الســلوكية. لــذا لا ينبغــي الدفاع عنــه لنتجنب مخاطرة إثــارة ردود أفعــال انفعالية لو عمدنا إلــى إعــادة تقديم الموضوع. فإذا لم يكن ثمة أمل فــي التخلص من المشــكلة وكان مــن الضروري إعادة صياغتها، فإن هذا قد يســتلزم بعض التأثير العلاجي وفــي النهايــة يســاعد علم النفس فــي تطــوره إلى مزيد مــن النضج. ويعنــي، حقيقة، دخول علم النفس فــي اتصال مع العالم الســلوكي الحقيقي ومواجهة المشــكلات الناشئة فيه.

الوعي هو فقط ما يُدْخل الإنســان فــي اتصال مع العالمَ الســلوكي. فينبغي ألا يعتبر، خلافاً لما شــاع الاعتقاد فيه، أن الوعي يرتبط بالضرورة بالاســتبطانية وبدراســة ما يعرف بـ «حالات الوعي».

الإدراك والنظرية التمثيلية للوعي:

تؤكــد بعــض اتجاهات علــم النفــس دور الوظائــف المعرفية أو الإدراكية فــي الســلوك. وربما يكون هذا خطوة هامة فــي اتجاه مفهوم ســليم للســلوك. إلا أنني أرى ثمة خطورة فــي الحقيقة بأن نظريات النشاط المعرفــي والإدراك لا تزال فــي الغالــب تعمــل بمفاهيــم متبناة من علم النفس الاســتبطاني. لقد جــرى فهم العالم الإدراكــي علــى أنــه «تمثيــل» (representation) «داخل» الفرد للعالــم الذي يوجد «خــارج الفــرد». لــذا، يكون هــذا التمثيل كمطابقة أو كنســخة طبــق الأصل للعالم الخارجــي: مطابقــة توجــد «في الفرد». فــي ندوة عــن النظرية المعرفيــة وتوظيف

(*) J. Nuttin: Consciousness, behavior, and personality. Psychological Rev., 1955, 62, 349-355.

الشخصية تردد على لسان المشاركين أنفسهم تلك المصطلحات المتعلقة بالتمثيل. ويذهب « شيرر» Scheerer إلى أن «النظرية المعرفية تفترض أن الكيان الحيوي (الأورجانزم) يتجاوب مع بيئته خلال وسيط التمثيل الانتقائي». ويذهب «سويت» Sweet إلى أنه « عن طريق وسيط العمليات الحسية، تتحقق تمثيلات البيئة» . فهذا التمثيل الإدراكي يعتبر «استجابة إدراكية موجودة في الكائن الحي».

في ميدان العمليات المعرفية والإدراكية، كما في العلوم السلوكية بصفة عامة، يبدو أنه من الضروري حقيقة العودة إلى ما كان يسمى بالحقائق «الطبيعية» أو الأولية. وإذا لم يتحقق ذلك، ربما يفقد علم النفس الصلة مع الظاهرة المعنية المراد استيضاحها وتفسيرها، ألا وهي الإنسان السالك في عالمه الخاص بالمواقف الحياتية الملموسة. من وجهة النظر السيكولوجية أو السلوكية، لا شيء يطابق الواقع أقل من أن نعتبر الإدراك كتمثيل «في الإنسان لشيء ما يوجد خارجه، والإدراك هو اتصال مباشر مع العالم الخارجي ذاته. فليس من وسيط، ولا من مطابقة، ولا من تمثيل يتداخل بين الفرد وعالمه.

تنبع هذه النظرية التمثيلية عميقة الجذور من مشكلات فلسفية وفسيولوجية. فعلى سبيل المثال، تدرس سيكولوجية الإحساس العمليات الفسيولوجية المتضمنة في الإدراك، ومن هذا المنظور، تكون الاستجابات الإدراكية في الواقع «حالات عضوية» (حيوية) organismic states يأتي بها الكيان الحيوي (الأورجانزم) في الجهاز العصبي والتي تمثل «الشيء المدرك لي» .

وتثير الفلسفة، من ناحية أخرى، مشكلة «الحقيقة» الموجودة خارج موضوع العمليات المعرفية. فالشيء أو الموضوع المُدَرك يعتبر فقط تمثيلاً أو مطابقة لتلك الحقيقة غير المعروفة كما يفترض أنها توجد بذاتها، مستقلة عن الشخص السالك. أما من وجهة النظر السلوكية أو السيكولوجية، فلاشك أن الإنسان يدرك الأشياء ذاتها، أي العالم ذاته، ولا يعطيه الإدراك تمثيلا للعالم، ولكن **حضوراً مباشراً** direct presence **للعالم ذاته في الوعي**.

فالنظرية التمثيلية (representational theory) مسئولة عن إدخال

مفهوم خاطئ للوعي. لقد اعتبر الوعي على أنه عالم التمثيلات الداخلية المحصور في الفرد. وفي الحقيقة، وفقا للنظرية التمثيلية، يوجد عالمَ الأشياء الموضوعية والقابلة للملاحظة الذي يرقى بالنشاط النفسي من ناحية، ومن ناحية أخرى، هناك العالم السيكولوجي للوعي حيث تجري عملية تمثيل العالم الموضوعي داخلياً ، نفسياً. فالتمثيلات الداخلية للأشياء الخارجية تعمل في أداء تمثيلي يعكس تلك الأشياء، ولكنه غير قابل للتوصيل. ومن ثم تعتبر النظرية التمثيلية مسئولة عن إدخال تصور مزدوج لعالمنا، وحتى عن عالم مزدوج: العالَم الموضوعي والعالَم النفسي.

الوعي: انفتاح على العالم الخارجي:

من الحقائق المعروفة أن علوم السلوك لا تهتم بطريقة مباشرة بالعالم الخاص (الذاتي) للوعي، غير القابل للتوصيل. وقد كان علم النفس على حق في التحول إلى العالم ذاته القابل للملاحظة، حيث يسلك الإنسان حقيقة. لكن التحول إلى الأشياء الموضوعية القابلة للملاحظة لا يعني إنكار الوعي. وعلى العكس، هذا العالم من الأشياء والزملاء والمواقف «**يوجد بالنسبة لنا**»، موجود داخلنا، إرتباطاً بصميم حقيقة «انفتاح» الإنسان أو تعرضه للأشياء الخارجية. هذا التعرض المتميز يؤلف الوعي.

لذا، فالحقيقة الواقعية التي ينبغي أن تعود إليها العلوم السلوكية هي أن الإنسان، في أية لحظة، يجد نفسه في عالم من الأشياء، والزملاء، والمواقف والأحداث ذات المعنى. وليس سلوكه أكثر من مجرد كونه تعاقداً مع عالم المواقف الحياتية هذا أو تعاملاً معه. بقول آخر، إن الحقيقة الأولية التي ينبغي أن توضع في الاعتبار في تصور ودراسة السلوك هي الحقيقة بأن «**العالم الخارجي حاضر بالنسبة لنا**». هذا الحضور للعالم الخارجي داخلنا يتألف من الاتصال المباشر مع الأشياء والناس خارج ذواتنا. ويعني هذا أن الإنسان ليس بنية مغلقة في ذاته، ولكنه يتكون وينشط أساساً «كانفتاح» openness أو «تعرض» exposure للعالم الخارجي. وفي هذا الصدد، يعتبر مفهوم «التعرض» و«الانفتاح» و«الحضور» المباشر للعالم بالنسبة لنا مفهوما أساسياً: فهو يكمن وراء إمكانية «مواجهة» الناس والأشياء والتعامل معهم،

وبالتالي إمكانية السلوك كتعامل مع مواقف: فالنظر إلى شيء ما، التكلم مع أشخاص مستمعين، حضور مؤتمر، الخروج من المنزل أو البقاء به، الشعور بالإحباط وغير ذلك يعني ويتضمن كوننا في حضور عالم خارجي ذات معنى.

هذا الحضور للعالم الخارجي بالنسبة لنا لا يُفهم، بالطبع، على أنه حقيقة فيزيقية (التجاور الفيزيقي مثلا). قد تتموضع الشجرة أو الحجرة في نفس البيئة الفيزيقية مثلنا، إلا أنهما لا تتعاملان مع هذه البيئة على أنها «عالمها»، فهما لا يوضحان أن العالم حاضر لهما أو أنهما يعيشان في عالم. فاستجاباتهما محدودة بردود الأفعال الفيزيقية أو الكيميائية للمثيرات. أما حضور «العالم ذات المعنى» (meaningful world) بالنسبة لنا، فهو حقيقة سيكولوجية أو سلوكية.

يعني الوعي في معناه الأولي تعرض أو انفتاح الكائن الحي (الأورجانزم) للعالم، أو بعبارة أخرى الحضور المباشر للعالم بالنسبة لنا. فالحقيقة، مثلاً، بأن المستمعين حاضرون بالنسبة لي أو موجودون لأجلي، كجزء من عالمي أو موقفي في اللحظة التي أخاطبهم فيها، تشتق أساساً من الحقيقة بأني واع، أَخْبُر حالة من الوعي. **فالوعي يعني التعرض للعالم الخارجي، وليس الانغلاق في «الذات الداخلية»** (inner self). وبالإضافة إلى ذلك، لا يعتبر الوعي — أو الحقيقة بأن الإنسان يجد نفسه في حضور عالم خارجي — كمسألة «خاصة» للحياة الداخلية، وإنما على العكس، فهو موضوع للإدراك المباشر. فرؤيتي لإنسان يتكلم مع أشخاص آخرين أو يقود سيارة، أدرك الحقيقة بأن الشوارع والمنازل والناس حاضرون لهذا الإنسان، بأنهم يوجدون بالنسبة له، بأنه واع بهم، بأن الكائن الحي (الأورجانزم) منفتح لهم- أي حالة من الوعي.

ولكي تتجنب أي سوء فهم، ينبغي أن نؤكد أن الاعتراف بهذه الحقيقة الأولية للوعي كتعرض أو انفتاح للعالم الخارجي لا يتعارض مع نظرية الإدراك كعملية انتقائية وبنائية. فالمضمون الحي للعالم السلوكي الحاضر بالنسبة لنا هو تنظيم انتقائي وظيفي للشخصية السيكوفسيولوجية. ولكن ليس ثمة مضمون للعالم الإدراكي يمكن أن يتكون إذا لم تتوفر هذه الخاصية الأساسية في نشاط الكائن الحي (الأورجانزم) مما يعرف بالوعي. بعبارة أخرى، ليس

تعرض الإنسان للعالم هو النتيجة أو المجموع الكلي لسلسلة المضامين الإدراكية الملموسة. وعلى العكس، يمكن فحسب أن نفهم الإدراك الانتقائي والبنائي كنشاط مستمر لنوعية العالم الخارجي الذي يجد الإنسان نفسه متعرضاً له. تلك الحقيقة الجوهرية، التعرض للعالم الخارجي، هي ما نعنيه بالوعي. وبدون مقدرة الكائن الحي (الأورجانزم) الأساسية لكي ينفتح أو يتعرض للعالم الخارجي، تُختزل العمليات الإدراكية إلى مستوي التغيرات الحيوية الداخلية. ومن ثم، يعني «نقص الوعي الانغلاق أو الانحصار» في نطاق التفاعلات الفيزيقية والبيوكيميائية. الوعي نشاط سيكوفسيولوجي يكمن وراء كل العمليات السيكولوجية أو السلوكية، بقدر ما تكون موجهة، من الداخل - الذات نحو الأشياء. وحتى ما يعرف بالدافعيات والنماذج السلوكية واللاشعورية أو اللاواعية إنما يفترض حالة الوعي بهذا المعنى.

ولا شك أن العلوم النفسية والفسيولوجية مطالبة بدراسة العمليات المتضمنة في تعرض الفرد للعالم. لكن الاختبار العلمي لهذه العمليات ينبغي ألا يهدم الحقيقة السيكولوجية الأساسية بأن العالم حاضر بالنسبة لنا، أو يوجد لأجلنا، وأن سلوك الإنسان هو تعامل ذو معني مع هذا العالم. **وهدف علم النفس العلمي هو استيضاح وتأكيد هذه الحقيقة، وليس استبدالها بعمليات جوهرية ولكن مختلفة.** بقول آخر، ينبغي أن ترتبط العمليات الجوهرية التي يكتشفها البحث العلمي ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة السلوكية الفريدة المراد استيضاحها. ولا يقدم مفهوم الوعي حلاً لأي مشكلة علمية عن السلوك، ولكنه ضروري لأي تصور سليم عن السلوك ذاته، ولأي اتجاه واقعي عن المشكلات السلوكية.

لذا، لا يعني تقديم فكرة الوعي رِدّة إلى الاستبطانية. وعلى العكس، تعني ببساطة الاعتراف بأن الخاصية الجوهرية المميزة للسلوك ذاته هي ارتباطها بالعالم الخارجي ذي المعنى الذي يجد الفرد نفسه في مواجهة معه وحضور فيه. وينبغي ألا يغيب عن ذاكرتنا أيضا أن البحث العلمي ذاته شكل من أشكال السلوك، أي شكل من التعامل مع العالم الذي نعيش فيه. أما توصيل النتائج العلمية، فهو شكل آخر للسلوك، ويتضمن كلا النشاطين ما نسميه بالوعي.

الحضور البديلي للعالم في الوعي:

لقد اعتبرنا الوعي، حتى الآن، على أنه يضعنا في اتصال مباشر مع العالم الخارجي ومع الحقائق السلوكية الخارجية. إلا أن مشكلة الوعي تصير معقدة إرتباطاً بالحقيقة بأن العالم يمكن أن يكون حاضراً بالنسبة لنا بطرق مختلفة. الإنسان قادر أن يجد نفسه في حضور شيء أو موقف لا يكون فوراً حاضراً بالنسبة له من الخارج. وهذا ما أطلق عليه «الحضور البديلي» (vicarious presence) للشيء. هذه الإمكانية الخاصة بالحضور البديلي للأشياء بالنسبة لنا، عن طريق الصور والمفاهيم والرموز، حقيقة سيكولوجية رئيسية. وهي توسع بدرجة هائلة من العالم الذي يعيش فيه الإنسان، وبالتالي توسيع إمكانات أو احتمالات أو آفاق السلوك. وبهذا الحضور البديلي يذهب تعامل الإنسان مع المواقف إلى ما هو أبعد من حدود الاستجابة للأشياء الحاضرة بالفعل. فالإنسان، مثلا، «يفكر فيها»، أي يتعامل معها بطريقة معرفية. وليس التفكير والتخيل في حقيقة الأمر أكثر من كونهما طرقاً أخرى لتناول العالم وللتعامل مع مواقفه. هذا التعامل المعرفي الداخلي مع المواقف يكون من الناحية الداخلية موجهاً إلى، أو منعكساً نحو، عالَم خارجي، ويكون — كقاعدة — تجهيزاً أو بديلاً للسلوك الخارجي الفعال. في بعض الظروف — كما في حالة العلم مثلا — يؤلف التفكير في الأشياء بالفعل الشكل الفعال للسلوك ذاته. وفي واقع الأمر، أن الإنسان يجد نفسه أيضا في هذا الموقف الخاص بأن العالم ندركه كمشكلة تخضع للحل، أي يعالج بطريقة معرفية.

حضور الإنسان بالنسبة لنفسه:

لا يجد الإنسان نفسه في حضور عالم خارجي فحسب، ولكنه أيضا يكون حاضراً مع نفسه. فقد تصير أنشطته بالنسبة لنفسه موضوعات إدراكه ومعرفته، كما هو الحال في الإستبطان. بهذه الطريقة يجد الإنسان نفسه حاضراً مع أنشطته وأفكاره ومشاعره عن العالم: فهو يتفكر ويتأمل في نفسه، وفي أنشطته، وفي مضمون وعيه التلقائي أو المباشر. **هذا الحضور الداخلي للإنسان بالنسبة لنفسه والتأمل في أنشطته قد يسمى بالوعي التأملي أو الوعي المتحرك إلى القوة الثانية.**

الوعـــي التأملـــي طريقة أخـــرى وآلية فعالة يتجنـــب بها الإنســـان «الانغلاق» فـــي نفســـه. وارتباطـــاً بحقيقـــة كون الإنســـان قـــادراً على التأمل فـــي نفســـه، لا يجد الإنســـان نفســـه أبداً منغلقاً أو محصوراً كلية فـــي الجانـــب الواقعي للتفاعل مـــع البيئـــة. فالإنســـان، بتأملـــه فيما هو عليـــه وفيما يفعلـــه، «يخرج» من نفســـه، يتســـامى بتحديدات وقيود المكان والزمان للذات بواســـطة تقديره وتقييمه لنفســـه ولنشاطه.

وفـــي نفـــس الوقت، يؤدي حضور الإنســـان بالنســـبة لنفســـه إلـــى تمكينه من النظـــر إلى نفســـه وإلى العالـــم من وجهات نظـــر مختلفة، وإلى أن يعمل، فـــي أي وقـــت وإلى حد ما، على إعادة تشـــكيل شـــخصيته ذاتها. وهو يمكنـــه من التدخل، بقصد، فـــي مســـار نموه لكي يعيد بنـــاء علاقاته مع البيئة. وتبـــدو هذه الإمكانية أيضا متضمنة فـــي بعض مراحـــل العملية العلاجية.

مـــرة أخـــرى، هـــذه الوظيفة الأســـمي للوعي تُوسّـــع عالـــم الإنســـان والذات بطريقـــة ذات مغـــزى، وهي تحرره من الانغلاق فـــي ذاتيته وتمكنـــه من النظر إلى الأشـــياء وإلى نفســـه مـــن وجهة نظـــر «موضوعيـــة». هـــذه الإمكانية هي أســـاس تلـــك الأشـــكال مـــن الســـلوك كالعلـــم والجهـــود القصديـــة الموجهـــة إلى تحســـين الـــذات وتنميـــة الـــذات. ومـــن ثم، فـــإن الوعـــي بوظائفـــه المختلفة يحرر الإنســـان من الانغلاق والانحصار فـــي كيانـــه العضوي(الأورجانزم)، وفـــي العالم الفيزيقي المباشـــر، وفـــي ذاتيتـــه. وبينمـــا تبدو درجـــة معينة مـــن التعرض للعالـــم متضمنة فـــي كل الســـلوك، تكشـــف الوظائف العليا للوعي عن نفسها فحسب فـــي أشكال معينـــة من الســـلوك الإنســـاني (اللغـــة، والثقافة).

الوعي والعلوم السلوكية:

مـــن الحقائـــق المقـــررة، أن الحضـــور التعويضـــي للأشـــياء والوعـــي التأملي للإنسان فـــي نشاطه يحدثان على مســـتوى التمثيل الداخلي. إلا أن هذه الوظائف الأكثـــر تعقيـــداً للوعـــي تفترض الوعي فـــي معنـــاه الأولي – أي الحضور المباشـــر للعالم الخارجي للإنســـان.

فمـــن الضـــروري بالنســـبة لعلـــم الســـلوك ألا نفصـــل «الوعـــي التمثيلـــي»

(representational consciousness) عن التعرض المباشر للعالم، كما أنه من الأهمية بمكان ألا نفصل الطريقة التمثيلية لمعالجة المواقف عن السلوك الفعال. فالمستوى التمثيلي للوعي لا يُدرس في حد ذاته على أنه يتعارض مع السلوك الحقيقي، أي على أنه فحسب عالم الخصائص «الوجودية» للخبرة الداخلية. لقد بين علم النفس الإكلينيكي والطرق الإسقاطية كيف ترتبط هذه التمثيلات والصور ارتباطاً وثيقاً مع السلوك الحقيقي للإنسان في العالم الذي يعيش فيه. ومن ثم، فإن البيانات الاستبطانية للوعي التأملي والعالم الحاضر بديلياً على مستوي التمثيل ينبغي أن تخضع للدراسة في علاقتها الوظيفية بالسلوك ككل. وحتى بالنسبة لعلم النفس الإكلينيكي، من الأهمية بمكان تأسيس بصيرته على نظرية سلوكية فيها تترابط وظيفياً المستويات التمثيلية والإجرائية للسلوك.

ومن ناحية أخرى، لا يمكن للعالم ذي المعنى ذاته، كما هو حاضر بالنسبة لنا بواسطة الوعي المباشر، أن ينفصل عن السلوك. وفي الحقيقة، يعتبر عالم الأشياء والمواقف ذات المعني تجسيداً أو تكثيفاً للنماذج السلوكية. فذلك الشيء المادي أو ذلك الجزء من الفضاء المحيط، يصبح منضدة أو تليفوناً أو مكتباً بقدر ما يتضمن فيه من محصلة كلية من التعامل السلوكي وإمكانيات هذا التعامل. بهذه الطريقة، **يكون الوعي بالمعنى الموضوعي، بأنه «العالم الحاضر بالنسبة لنا»، هو «السلوك المتبلور»** (crystallized behavior) .

أضف إلى ذلك، أن «الحضور الواعي» (conscious presence) للإنسان في العالم هو «حضور سلوكي» (behavioral presence). ويعني هذا أن الشخصية الإنسانية تجد نفسها في حضور عالم يتضمن ويستلزم بالضرورة تعاملاً سلوكياً مع العالم. وبهذا المعنى، يكون الوعي أو التعرض للعالم «سلوك ضمني» (implicit behavior) بالفعل، بينما يكون السلوك ذاته هو «وعي مستخرج» (externalized consciousness) أو «حضور مُحَقّق» (realized presence) للعالم. وعلى أية حال، بدلاً من إقامة التعارض بين الوعي والسلوك، ينبغي أن نتحقق من أنه لا توجد ثمة حقائق واقعية إنسانية تكون أكثر اتحاداً بطريقة غير قابلة للفصل بينها.

الوعي، والشخصية، والدافعية:

وفي النهاية، من الواجب أن أوضح باختصار العلاقة بين الوعي ومفهوم الشخصية. يفهم علماء النفس – كقاعدة- الشخصية على أنها تنظيم داخلي للسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقات السلوكية. حقيقة، الشخصية هي ذلك التنظيم الداخلي، ولكن الخاصية الأكثر أساسية المميزة للشخصية تختفي في ذلك التعريف. الشخصية أساساً بنية تتجاوز تنظيمها الداخلي. فأبرز معالمها المميزة تتركز في الحقيقة بأن النظرة إلى العالم والتعرض له تكون متضمنة في تكوينها.

الشخصية «طريقة للوجود والسلوك» (Way of being and behaving) في عالم يوجد بالنسبة للذات. فالنظرة إلى العالم أو الموقف الحياتي هي مكون ضروري في الشخصية ذاتها. بهذا المعنى، تكون البنية الأساسية للشخصية هي «وحدة الأنا – العالم» (Ego – world unity). ولا شيء يشوه مفهوم الشخصية أكثر من إغفال جانب التعرض للعالم هذا والذي يعتبر مكوناً «أساسياً» للشخصية. هذا التعرض، كما سبق ذكره، هو ما نعنيه هنا بالوعي. وإذا كان صحيحاً، كما يقول ليفين، أن الشخصية التي تحكم السلوك هي جزء من المجال النفسي، فإنه ينبغي ألا ننسى أن المجال النفسي ذاته، من حيث المعنى العام، وهو «العيش في عالم»، يدخل في تكوين الشخصية.

وفهم الشخصية بهذه الطريقة على أنها «بنية الأنا – العالم» يزودنا بأساس سليم لنظرية عن الدافعية الإنسانية. ويمكننا القول أن نظرية الدافعية قد تميل إلى مَوْضَعة الحاجات في الكائن الحي (الأورجانزم) ذاته. لكن من وجهة النظر السلوكية، ينبغي أن نفهم الحاجات على أنها نماذج patterns أساسية لعلاقات بين الكائن الحي – البيئة أو لعلاقات الأنا – العالم اللازمة بالفعل للإنسان ولتوظيف الشخصية (personality functioning). وفي الحقيقة، تتألف الشخصية من أنماط مختلفة من تلك العلاقات، ليس فحسب على مستوى التفاعل البيوكيميائي بين الكائن الحي – البيئة، ولكن أيضا على مستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الأنا – العالم. وبينما تعمل النماذج الأساسية للتفاعل البيوكيميائي – وبالتالي الحوافز الأساسية

في هذا الجانب – في التكوين الفسيولوجي للكائن الحي، تكون علاقات الأنا – العالم الراسخة معرفياً أكثر شخصية في أصلها وطبيعتها. والدافعيات على هذا المستوى من السلوك تبدو بذاتها كشكل متغير غير محدود لعلاقات الأنا – العالم في حالات التوتر. وتُفهم الحاجات الأساسية على مستوى الأنا أنها اتجاهات معينة عامة وذات مغزى يمكن في النهاية أن تُكتشف في، وتُستلخص أو تُجرد من، هذا الشكل المتغير من الأساليب التي بها يحاول الفرد إدراج ذاته وتأكيدها في عالمه، يمكن أن نطلق على هذا الاتجاه العام» «**الحاجة إلى تحقيق الذات**». فهذا «المغزى» يُكتشف في، أو يُستخلص من، الأشكال الملموسة اللاحصر لها للتعامل السلوكي للإنسان مع عالم زملائه من الناس والمواقف الحياتية.

وتختلف نماذج علاقات الأنا – العالم التي تؤلف الشخصية لدى الأطفال عن بنية الأنا – العالم لدى الراشدين. إلا أن نفس الاتجاهات ذات المغزى قد تُكتشف في كليهما. وبهذه الطريقة، قد توجد الأشكال الطفلية والراشدة لنفس الحاجات الأساسية، كما توجد نماذج طفلية وراشدة لعلاقات الأنا – العالم. وليس هناك من سبب يفسر لماذا جرى اعتبار الشكل الطفلي على أنه الحاجة الأساسية، وأن النموذج الراشد هو الحاجة المشتقة أو الثانوية. فكلاهما ينبغي أن يُفْهَما كأشكال متغيرة لنمط أساسي من علاقة الأنا – العالم التي يحتاجها الفرد لكي يُنَميّ ويحافظ على البنية الوظيفية للكائن الحي – البيئة وللأنا – العالم، التي تؤلف بنية الشخصية في مرحة معينة من نموها.

خلاصة واستنتاجات:

إن علماء النفس الذين يعملون في ميادين النشاط المعرفي والإدراك كثيراً ما يعتبرون العالم المُدَرك على أنه تمثيل داخلي لعالم خارجي حقيقي. هذه النظرية التمثيلية تضرب في أعماق علم النفس، ولكن أصلها يرتبط بالتأمل الفلسفي الذي يثير قضية الحقيقة الواقعية الكامنة وراء موضوعات المعرفة. ومن وجهة نظر الدراسة النفسية لسلوك، لا يعتبر العالم المُدَرك بأي حال من الأحوال تمثيلاً داخل الإنسان (داخل الوعي) لشيء معين يقع وجوده الحقيقي خارجه. إن العالم المُدَرك هو العالم الحقيقي ذاته، ويتألف الإدراك

من الاتصال المباشر مع البيئة. لهذا السبب تكون فكرة الوعي، كما تطورت داخل إطار علم النفس الاستبطاني، في حاجة إلى تعديل. فالوعي لا يشير أساساً إلى عالم داخلي يتكون من تمثيلات، فهو يتألف من وعي مباشر ومن حضور فوري للعالم ذاته.

يشير الوعي إذن، قبل أي شيء آخر، إلى التعرض إلي، أو الانفتاح على، العالم السلوكي الحقيقي، وليس انحصاراً في عالم داخلي من التمثيل. الوعي هو إقرار للإنسان ككائن يعيش في العالم، وبالتالي يعتبر الوعي جانباً أساسياً للسلوك. أضف إلى ذلك، أن العالم قد يكون حاضراً أيضا لدى الشخص السالك بطريقة تعويضية، عن طريق التمثيل؛ وأن الإنسان يمكن أن يكون حاضراً بالنسبة لنفسه بواسطة الوعي التأملي. هذه الوظائف «العليا» للوعي تحرر الإنسان أيضا من أشكال عديدة من الإنغلاقية.

وبالنسبة لمفهوم الشخصية، ليس هناك من شيء أقل مسايرة مع الواقع من أن نفهم الشخصية كبنية داخلية خالصة تتألف من السمات والاستعدادات، وغيرها. **الشخصية تشير إلى «نهج نوعي» (specific modality) من الوجود والنشاط، يتميز بحقيقة الاحتواء أو الانضواء في موقف أو في العالم.** لذا تكون البنية الأساسية للشخصية هي وحدة الأنا – العالم، وليست تنظيما داخلياً للأنا. ويدخل المجال النفسي ذاته، بدرجة أساسية، في تكوين الشخصية.

أما الدافعية فينبغي النظر إليها أيضاً ارتباطا بحقيقة أن الإنسان يعيش في عالم ذات معنى. وفي الحقيقة، **تعتبر الحاجات الأساسية أنماطاً عامة لعلاقات الكائن الحي – البيئة والأنا – العالم التي تكون لازمة حقيقة في توظيف الكائن الحي وتوظيف الشخصية.**

إن إدخال فكرة الوعي لا يستبعد مفاهيم علمية ملموسة تتعلق بالسلوك، ولكنه ضروري لترشيد هذا المفهوم لكي يحدد ويستبين مشكلات السلوك والشخصية بطريقة واقعية.

(٢٧)

عَوْدٌ إلى سيكولوجية المحتوى العقلي

دافيد ماكليلاند

(جامعة هارفارد)

لقد اعتاد علماء النفس أن يهتموا بما يجري في أدمغة الناس. ولقد ظل هذا، في حقيقة الأمر، لآلاف السنين هو كل ما كانوا يهتمون به من الناحية العملية. لقد اهتم علماء النفس ابتداءاً من أرسطو حتى جون ستيوارت مل أساساً بالأفكار والترابطات بين الأفكار، ولكن مع ظهور علم النفس العلمي فقدنا الاهتمام بالأفكار، بقليل أو كثير. وتاريخ هذا التطور معروف جيداً، ولكن لنستعرضه بعض الشيء.

لقد انهارت سيكولوجية المحتوى العقلي في الولايات المتحدة الأمريكية بتأثير ضربتين ثقيلتين: أولاً، فقد بدى الاتجاه الاستبطاني أنه يمضي إلى نهاية معدمة. لقد ناقش «تيتشنر» بشجاعة الدراسة العلمية لمضامين العقل، وذهب فيها إلى نوع من الكيمياء العقلية التي تُكتشف وتُفرز فيها كل العناصر الأساسية، لكن ببساطة أخفقت مختبراته في تقديم بيانات كافية لتعضيد موقفه النظري. لم يكن موقفه هكذا حرجاً على نحو لا يمكن الدفاع عنه. وكان الوضع فحسب هو أن البيانات التي تجمعت على أيدي الاستبطانيين لم تكشف أنها تؤول إلى أي مكان — إلى فروض مثمرة مثلاً، تستخدم في تكوين معني نظري نابع من تواتر الأحداث العقلية.

أما الضربة الثانية فكانت أكثر إيلاماً وتدميراً. وقد جاءت، بطبيعة الحال، مع الثورة السلوكية. لقد بدأ علماء النفس، في الولايات المتحدة خاصة، في مناقشة أن المحتوي الواعي لا يكون أبداً أساساً لعلم، في حين أن السلوك هو الذي يستطيع توفير ذلك الأساس. قاد «جون واطسون» الثورة باسم الموضوعية العلمية. فهل تستطيع أن ترى أو تلمس أو تشعر أو تسجل فكرة أو شعوراً بواسطة ماكينة؟ والآن يظهر من جديد ما هو أقرب إلى الانقباضات العضلية — حركة العين، تراجع القدم، الالتفاف الصحيح في متاهة. ذلك هو

مـا يمكـن أن يُري ويُلمس ويُشـعر به ويُسـجل غالبـاً بطريقة آلية تماماً بواسـطة جهـاز لا شـخصي، آلـي. هنـا توجد المـادة التي يتألـف منها علـم حقيقي وعلى نحـو ما تذهب السـلوكية الكلاسـيكية !.

إذا نظرنـا إلـى الوراء نسـتطيع أن نبدأ فـي رؤيـة لماذا كانت هـذه الحركة، مـع ذلك، عوناً ونصيراً. ففـي المحـل الأول، أنها قد وفرت نوعـاً من الموضوعية، إذا تكلمنـا مـن ناحيـة المنهـج العلمي، بما لـم يتحقق أبـدا لعلم النفـس من قبل وبالتالـي زودت علـم النفـس بسـند حقيقي يدعـم كونه علمـاً من العلـوم. ثانياً، أن هـذه الحركـة قـد لقيت قبـولاً من الاتجـاه الوضعـي الأمريكـي التقليدي من حيـث تفضيـل العمـل والأداء علـى الفكـر أو الشـعور الـذي اعتبر بصفـة عامة مفاهيـم أوروبيـة قديمة العهـد. وبالإضافة إلى ذلك، أن ما يشـيع فـي الولايات المتحـدة هـو التأكيـد على ما يحسـبه الإنسـان أو يحصيه، وليس علـى ما يقوله أو يفكـر فيـه أو يشـعر بـه. ولا يـزال هـذا الاتجاه فـي علـم النفـس الأمريكي يسـيطر عليه بحيث أنه بالنسـبة لكثيـر من علماء النفس الأمريكيـين يعني التنبؤ بالسـلوك فقـط — التنبـؤ بسـلوك حركي هائل أكثـر منه تنبؤ بأفـكار وصراعات وظنون وتخيلات ومشـاعر وغير ذلك مما ينعكس فـي السـلوك اللفظي. ثالثا، أن المدرسـة السـلوكية قد جنحت إلى تركيز الانتباه على مشـكلات كانت ذات أهمية محليـة حيوية فـي بلد جديد يحـاول فيه الكثير من مواطنيه التكيف مع أسـاليب الحيـاة الجديـدة. وفـي الواقـع، أن التكيـف أو التعلـم قد صـار هكـذا المفهوم الأساسـي. وكان هـذا طبيعيـاً فـي بلد يفـرض علـى المهاجريـن الكثيرين وعلى أطفالهـم التخلص من أسـاليب السـلوك الأوروبيـة التقليدية لتحـل محلها نماذج أمريكيـة جديـدة من العـادات. وكان علم النفس عند هـذه النقطة قد أصبح يهتم فـي معظمه بـ «متغيرات العمليـة» (process variables): كيـف ينحو الناس إلى عمـل الأشـياء أكثر مـن الاهتمام بمـا يفعلونه. لقد جـرى هذا فـي الوقت الذي أكـد فيـه «وودورث» بأننا ينبغي أن نعيد كتابة علم النفس على أسـاس اسـتخدام كلمـات تعني التشـغيل والتعميـل والتوظيـف («ing» words) — مثـل أن ندرك، أن ننفعـل، أن نفكـر، أن نتعلم، وغيـر ذلـك (perceiving, emoting, thinking, learning). ولـم يهتـم أحـد بـ «ما الـذي» فكر فيه النـاس، و«ما الـذي» أدركوه، و«مـا الـذي» تعلمونه، الخ؛ فبـدلاً من ذلك يجـري الاهتمام فقـط بالقوانين التي تحكـم عملية إدراكنـا وتعلمنـا ومعرفتنا، الخ.

وحتى الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، وهما بالتحديد ذات توجه نحو المضمون، وبالتالي ينبغي أن يقاوما هذا الاتجاه، قد وقعا تحت تأثير هذه الحركة ذائعة الصيت. في علم نفس الشخصية نهتم أساساً بمقاييس الوصف الذاتي self – descriptive inventories التي يجيب فيها المفحوص على كمية من الأسئلة تتناول أوجاعه وآلامه وقلقه. ولكن، حقيقة، نحن لا ننظر إلى إجاباته، ولكننا نجمعها معاً لكي نحصل على درجة العصابية أو درجة السيطرة أو عدم ظهورهما. فنحن لا نهتم حتى هنا بما قاله عن نفسه، وفيما كانت أفكاره. وإنما نهتم فقط بالحد الذي أسهمت به إجابته في الدرجة الكلية التي تعني شيئاً ما آخر. ومما يؤكد ذلك، أن عالم النفس الإكلينيكي إذا ذهب بعيداً إلى حد النظر في الإجابات الحقيقية التي أعطاها الشخص في مقياس للشخصية، لم يكن ليعتبر عالماً! وفي علم النفس الاجتماعي بدت المشكلة كما لو أننا نسير على درب لا نهتم فيه كثيراً بالمحتوى. وفي المقابل، لقيت المشكلة حلاً بمساعدة مفهوم «الاتجاه» (attitude). والاتجاه أساساً هو ما أطلقت عليه « متغير العملية». فنحن نهتم بـ «كيف» تتكون الاتجاهات، كيف يمكن أن نقيسها، في اتساقها، في جمودها، في عموميتها أو نوعيتها، الخ – وهذه كلها متغيرات العملية. لكننا لا نهتم بماهيتها خاصة. فأي اتجاه قديم سوف يعمل على تحقيق غرضنا، كما هو الحال في دراسة التعلم. وأي عمل قديم سوف يعمل على تحقيق غرضنا – متاهة، أو رافعة يضغط عليها، أو قائمة من مقاطع غير ذات معنى. لذا اختار علماء علم النفس الاجتماعي تلك الاتجاهات التي تخضع للبحث مهما كان هناك من اهتمامات جارية بها – مثل الحرب العالمية، الحركة النازية، حركة السلام، التعصب العنصري، وغير ذلك. وهناك قلة ممن تفكر فيما إذا كان من المجدي أن نسأل عن أي الاتجاهات هي « المهمة» لكي تستخدم في وصف شخص أو ثقافته. ومن المحتمل أن كثيراً من الناس يتعجبون مما إذا كانت تلك الأسئلة تقع حقيقة داخل نطاق علم النفس.

وعلى أرضية هذه الحركة الاجتماعية الهائلة في علم النفس، نستطيع أن نرى بدايات حركة الاختبارات الإسقاطية على أنها مصدر التغير في الاتجاه الذي يرتبط بنجاح الاختبارات الإسقاطية. لكن مما لا شك فيه أن الاختبارات الاسقاطية لم تبدأ كحركة تمرد واعية ضد هذا الاهتمام بالعملية والعكس

صحيح. فاختبار الرورشاخ، كواحد من هذه الأدوات، قد لقي قبولاً هائلاً كما حدث في الولايات المتحدة لأنه أصبح أساساً «موجهاً نحو العملية» (process-oriented)، فلقد أصبح يهتم بـ «كيف» يدرك الناس، بينما يبدي اهتماماً ثانوياً فقط بـ «ماذا» يدركون. وتُحْسب الطرق الكمية وفقا لمقدار الاستجابات التي تتحدد أساساً بالشكل واللون والحركة وغير ذلك. إلا أن الأخصائيين الإكلينيكيين المقتدرين قد وجدوا غالباً أن المحتوى الخاص بالترابط الذي يعطيه المريض كان ذا قيمة بالنسبة لهم في فهم الشخص. وكان هذا هو الحال دائماً مع الإخصائي الإكلينيكي المقتدر. لقد كان عليه أن يهتم بـ «ماذا» يفكر فيه المريض، بالإضافة إلى اهتمامه بـ «كيف» يفكر فيه. وحتى إذا كان تدريبه السيكولوجي الشكلي لا يزوده إلا بمساعدة ضئيلة جداً على هذا المستوى، فهو يعلم أنه لكي يتناول هذا الشخص الخاص، عليه أن يهتم بأفكار المريض وآرائه. وهذا، كما يبدو لي، كان الإسهام الهائل والمستمر للعيادة النفسية والاختبار الإسقاطي في وقت قرر فيه أصحاب نظريات علم النفس اهتمامهم بالمحتوي جملةً. ويحضر إلى ذاكرتي هنا تعليق ذكره لي ذات مرة واحد من أكثر زملائي حدةً، ذهب فيه إلى أنه لا توجد ثمة آراء جديدة ذات أهمية قد ظهرت في الجامعات. فعادة ما تظهر خارج الجامعات أولاً، ثم تتناولها الجامعات تدريجيا بالإيضاح والتفسير. ولا شك أننا لو فكرنا للحظة في رجال مثل ديكارت أو داروين أو فرويد أو أينشتين، لتبين أن هنا بعض الشيء مما يقوله. وقد يصدق هذا التطور على هذه الحالة التي نناقشها. فحركة الاختبارات الإسقاطية قد تطورت بدرجة هائلة خارج التقليد الأكاديمي المحافظ، وفي النهاية، بسبب نجاحها الإكلينيكي، تمكنت من أن توفر الضمان الرصين الذي به نبذ الكثير من علماء النفس النظريين كل مشكلات المحتوى العقلي.

لكن علينا أن نستمر مع ما أعرضه من قصة هذه الحركة. لقد أتى التغير الحقيقي مع التطور الذي جاء به «هنري موراي» وزملاؤه بشأن «اختبار تفهم الموضوع» (التات) Thematic Apperception Test. والآن للمرة الأولى لدينا أداة كان اهتمامها الأولي ليس بالشكل ولكن بالمضمون. فالشخص الذي يقوم بتفسير سجل للتات ينبغي أن يوجه أسئلة، مثل: ما هي الدوافع التي تحرك هذا الشخص؟ ما هي الصراعات التي تجتاحه؟ ما هي أساليب الدفاع

التــي يتخذهــا؟ مــا هــي الخصائص أو المعانــي التي يحملهــا العالم بالنســبة له؟ فلم نعد نهتم أساســاً، كما هو الحال فــي الرورشــاخ، بـ «كيف» يقبل على مهمته، بالرغــم مــن أن البعــض قد حاول تحليــل التات على هــذا النحو. ومما ســاعدنا فــي تحليلاتنــا لذلك المضمون، أننــا قد عولنا بقــوة على التحليل النفســي، ذلك النظــام الوحيد «لعلــم نفس المضمــون» (content psychology) الــذي، بانعزاله فــي العيادة النفســية، اســتطاع مواجهــة الهجوم الكبير للســلوكية فــي المختبر. لقــد حاول موراي فــي نظامــه الأصلي لتحليل التــات أن يزودنــا بحصيلة لفظية هائلــة لتحليــل المحتــوى، ولكــن اعتمدنا – بقليل أو كثير – فــي تحليلاتنا نســبياً علــى بعــض المفاهيــم العامة القليلــة للتحليل النفســي مثــل الجنــس، والعدوان، والعلاقــات بين الوالديــن والأبناء، وغير ذلك. وهذه، وفقا لطريقتي فــي التفكير، مجموعــة جدبــاء مــن المفاهيــم لتنــاول المحتــوى العقلــي، ولكنها مع ذلــك كانت المجموعــة الحقيقية والحية فــي الولايــات المتحدة.

مــا هي الدلائــل التي تثبــت أن هذا الميل للاهتمــام بالمحتــوى العقلي يحمل تأثيــراً آخــذاً فــي التطــور؟ أولاً، ينبغــي ألا نقلل مــن تقدير المقاومــة المحافظة للاعتقــاد بــأن علــم النفــس يمكن أن يكــون على هــذا النحــو. وحتــى تعميمات فرويــد الخاصــة بأهميــة بعــض الصراعــات الأساســية مثــل تلــك الصراعــات المتضمنة فــي عقــدة أوديب تخضع لهجوم مســتمر. وهذا الهجــوم يكون مدفوعاً إلــى حدا مــا بالاعتقاد بأن التعميمــات الخاصة بالمضمون تكون غير ممكنة فــي الحقيقــة. ويذهــب الجدل إلى أنه لا توجد مفاهيم عامة يمكن أن تســتخدم فــي وصف الموقف الإنســاني فــي أي مكان أو زمان فــي التاريخ. ماذا عن «النســبية الثقافيــة» (cultural relativism)؟ يختلــف الأفراد بدرجة شاســعة فيما يفكرون فيــه، وكذلك تختلــف الثقافات. البعــض لديه عقدة أوديب والآخر تختفــي لديه. كيــف نســتطيع أن نقــوم بالتعميم لأي شــيء عــدا العملية التي يصل بهــا الأفراد إلــى أفكارهــم؟ الأفكار ذاتها نســبية تماماً. ربما يســتطيع الفرد أن يكــون علمياً بهــا، ولكــن ليــس علمياً فيهــا. هذا هو الجــدل المحتــدم وليس هناك مــن إجابة عليــه، فيمــا عــدا أن نثبت أنه يمكــن أن يتم بطريقــة مثمرة. فالكثيــر منا مقتنع بالفعــل، مثــلا، أنــه بالرغم مــن التغايــرات الفرديــة والثقافية، فمــن الانجازات العلميــة الهائلــة تركيــز الانتبــاه على إطــار العلاقة بــين الأم والإبــن كعلاقة ذات

أهميــة أولية فــي نمــو الفرد، واســتخلاص نوع مــن التصنيف لهــذه العلاقة وما يأتلـف معها من علاقــة مع الأب.

وفــي خلال ذلك، جرت بعض التطورات الجديدة التي تشجعنا على الاعتقاد أن «علــم نفــس المحتــوى» ربما يكــون ممكنــاً. ولنأخذ على ســبيل المثــال، تقرير البحــث الخــاص عــن «الشــخصية التســلطية» (Authoritarian personality). فقــد يحتــدم النزاع بأن القضايا الأساســية التــي أثارها هذا البحــث هي قضايا فــي علــم نفس المحتوى. يمثل البحــث إلى حد ما تقارباً لمفاهيــم البنيوية للتحليل النفســي مــع بعــض المفاهيم المأخــوذة مــن الأيديولوجية السياســية. وســواء كنا نحبــذ هــذا التقــارب أو لا نحبــذه، فإنــه لا يعنينا كثيــراً حقيقية. فهــو يمثل، من وجهــة النظــر المنهجيــة، خطــوة مهمة للأمــام طالمــا أن أصحابه قــد عولوا على الأيديولوجيــة السياســية بالإضافــة إلــى التحليل النفســي أيضا لكي تســاعدهم علــى تكشــف بنيــة الشــخصية. وحينما ينضــج علمنا إلــى الحد الذي نســتطيع معــه أن نعتمــد ليــس فحســب علــى الأيديولوجيــة السياســية ولكن أيضــاً على الأيديولوجيــات الاقتصاديــة والدينيــة والجمالية وغيرها، عند ذلك ســوف نكون فــي طريقنــا إلى تطويــر علم نفس غنــي حقيقة بالمحتــوى العقلي.

لقــد أســهم بحثنا عن «دافع الانجــاز» (Achievement Motive) كثيراً فــي هــذه النتائــج كأي شــيء آخــر. لقــد بدأنا بمهمة بســيطة نســبياً، وهــي تحديد أنمــاط التخيــل فــي ســجل على نمــط التــات أوضحت وجــود دافــع للإنجاز أو النجــاح. وبعــد أن تمكنا من أن نحدد بثبات هذا البنــد الخاص بالمضمون العقلي، اســتطعنا انتقاء أفــراد تضمنت عملياتهــم التفكيرية قدراً من تلــك البنود وأفراد آخريــن ممــن تضمنــت عملياتهــم التفكيريــة قليلاً من تلــك البنود. لقــد ووجهنا إذن بالســؤال: كيــف اختلف هــؤلاء الناس؟ هل يســلكون على نحــو مختلف؟ نعم، يســلكون علــى نحــو مختلــف. فالأشــخاص الذيــن يتمتعــون بقــدر مــن «المخيلة الانجازيــة» (achievement imagery) يميلــون إلــى التعلــم بدرجة أســرع، وإلى العمــل علــى نحو أفضل، وإلى إقرار مســتويات مختلفة من الطمــوح، وإلى التمتع بذاكرة أحســن عــن الأداءات أو الأعمال غيــر المكتملة، وإلــى إدراك العالم بأبعاد مختلفــة، الــخ. وربما يكــون أكثر أهمية الســؤال: كيف نهجوا ذلــك الطريق؟ كيف يميــل البعــض غالبــاً إلى التفكيــر بدرجة أكبر فــي ضــوء الانجاز؟ وهنــا رجعنا

إلـى الـوراء إلـى العلاقة بـين الأم والابـن ووجدنـا أن التدريب على الاسـتقلال يبـدو مرتبطـاً بدافعيـة الانجـاز. فالأمهـات اللائي عمـدن إلى تشـجيع أبنائهن علـى أن ينمـوا بطريقة اسـتقلالية، وأن يتعلمـوا طريقهم اعتماداً على أنفسـهم، كان أبناؤهـن يتصفـون بدوافع أعلـى للانجاز. لكننا دفعنا بالسـؤال خطوة واحدة إلـى الـوراء. كيف تسـاعد بعـض الأمهات علـى التدريـب على الاسـتقلال أكثر مـن الأخريـات؟ وقـد أثار هذا قضيـة القيم، والقيـم أثارت قضيـة الأيديولوجية الدينية. ثم وجدنا أن الاتجاهات نحو التدريب على الاسـتقلال لا تتوزع عشـوائياً خـلال المجموعـات الفرعيـة المختلفة فـي المجتمع. وربمـا يبـدو أن الوالدين من البروتسـتانت واليهـود كانوا يشـجعون علـى التدريب المبكر على الاسـتقلال أكثر مـن الوالديـن الكاثوليـك، وهذا بدوره قد يتفـق مع نظم المعتقـدات والاهتمامات الشائعة فـي هذه الأديان الثلاث. وإذا كان الأمر كذلك، يمكننا أن نبدأ فـي تتبع بعـض تفاصيـل العلاقة بـين البروتسـتنتية وظهور الرأسـمالية كمـا أوضح ذلك بعمـق «ماكس فيبـر» Max Weber و«تاونـي» R.H.Tawney.

لـذا قادتنـا بحوثنـا إلـى العلاقـة بـين القيـم الدينيـة، والتدريـب علـى الاسـتقلال، ودافعيـة الانجاز، والنمـو الاقتصـادي. ونعتقد أننا بصدد اكتشـاف بعـض الارتباطـات بـين هذه الظاهـرات التـي يمكن تتبعهـا بدرجـة معقولة من الثقـة العلميـة. لكن سـواء نجحنا أم لم ننجح، فـإن النقطة التـي نبرزها هي أنه بالتركيـز علـى بنـد واحد مـن المحتـوى العقلي، ألا وهـو المخيلـة الإنجازية، إنما نقـدم مجموعة جديدة كاملة من المشـكلات فـي العلوم الاجتماعيـة يمكن بحثها بواسـطة علـم النفس.

ولنتوقـف الآن لحظـة ونحـاول أن نتنـاول مـن جديـد مـا قـد حـدث فـي الحقيقـة. تتضمـن «النظرة الجديدة» فـي دراسـة المحتوى العقلي لا الاسـتبطان ولا الاختبارات الإسـقاطية فـي أشـكالها الخالصة. وبدلا من ذلـك، من الأفضل أن أطلـق عليهـا «عينـة التفكيـر» (thought smapling)، وأن اسـتخدم تشـبيه «عينـة الـدم» مـن المختبر الطبي لإيضاح ما يجري فـي ذهني. فكمـا نحتاج إلى عينـة من الدم لحسـاب كرات الـدم البيضاء، فإننـا نحتاج إلى عينـة من الأفكار والآراء لتقديـر حسـاباتنا عـن المخيلـة. وبصفـة عامـة، نحن نحصـل على هذه العينـات بـأن نطلب مـن المفحوص أن يكتب قصصـاً لمثيرات معينـة، عادة لفظية

أو بصرية. وحينما نحصل على عينات من التفكير، علينا أن نتعلم التعرف على أنماط معينة من المخيلات، مثلما يتعلم الطبيب أن يتعرف على خلية دم بيضاء حينما يرى إحداها. ويتضمن هذا قدراً هائلاً من العمل الأولي لكي نستطيع تحديد خصائص المخيلة بعناية ثم ندرب الأفراد على التعرف على ما يبحثون عنه. يتطلب هذا تدريباً، لكن من المحتمل ألا يكون تدريباً أكثر مما يحتاجه الطبيب حتى يستطيع تمييز نمط من خلال الدم عن نمط آخر.

وإذا وضعنا «النظرة الجديدة» إلى المحتوى العقلي في إطار هذه المفاهيم الجديدة، يكون من الواضح على الفور أن لدينا عدداً من المشكلات التي تتطلب حلاً. فمثلاً، توجد مشكلة تحديد العينة: تحت أي الظروف ينبغي أن نحصل على عيناتنا التفكيرية؟ ما هي الإشارات أو الإلماعات cues التي ينبغي أن نستخدمها؟ هل ينبغي أن نحصل على عينات طويلة أو عينات قصيرة؟ ماذا عن حالة المفحوص؟ كيف تؤثر في المحتوى؟ هنا يصبح من الواضح أن الاختبارات الإسقاطية التقليدية تكشف فقط عن شريحة صغيرة جداً من الأنماط الممكنة للمحتوى العقلي. فإلى الحد الذي نبقى فيه داخل الإطار المحدود لبطاقات (التات) التقليدية، نضطر إلى أن نحصل على عينة متحيزة لما يجري في عقل الإنسان.

ومن المشكلات الأكثر أهمية إقرار أي «الفئات» نستخدمها لتحليل المحتوى. ذلك هو لب المشكلة، طالما أننا سوف نحصل نظرياً على نتائج ذات معنى، أو تعميمات تنسحب على مجموعة كبيرة من المواقف، فقط إذا اخترنا الفئات الصحيحة لنبدأ بها. كيف نكتشف الفئات الصحيحة؟ تذخر دراسات العلوم الاجتماعية بتحليلات المحتوى لكل شيء من المقابلات المفتوحة إلى التحليلات التي ترتبط بالغرض العملي المباشر. فالفئات ينبغي أن تكون ذات معنى : فينبغي أن ترتبط بنظرية من النظريات، وينبغي أن تكون «ممتدة المواقف» (trans – situational) – أي تكون قابلة للتطبيق على مواقف أكثر من الموقف الذي كانت تنطبق عليه في البداية. واكتشاف الفئة يتطلب إلهاماً أو حظاً أو عملاً قوياً أو غير ذلك، كما حدث في البيولوجيا لاكتشاف أي الطرق أكثر جدوى من بين طرق كثيرة ممكنة لتصنيف خلايا الدم. ومن رأينا، ارتباطاً بخبرتنا، أن نختار هذه الفئات التي تبدي تحولات هامة كنتيجة

للعمليات التجريبية. ولا أعلم ما إذا كان هذا قاعدة تقييدية لا لزوم لها. وعلى أية حال، فهي تستبعد فئات كثيرة ممكنة، وتبدو على أنها الفئة الوحيدة التي يستخدمها علماء الكيمياء في تحديد تصنيف العناصر.

ويعود بنا هذا إلى الوراء، إلى تيتشنر، نستطيع أن نرى أن «علم النفس البنيوي» (Structural Psychology) لديه قد أخفق لسببين: أولاً- لم تكن «فئات المحتوى» (Content categories) التي اختارها مجدية. فلم ترتبط بالعمليات التجريبية من ناحية أو بأنماط السلوك الأخرى من ناحية ثانية. لهذا السبب أو لغيره من الأسباب، فإنها لم تؤد إلى تطور نظري. لذا كانت فئات خاطئة.

ثانيا — أما السبب الثاني، وهو ذو أهمية منهجية هائلة، فيتلخص في أن تلاميذه قد قاموا بتحديد فئات بياناتهم. فجوهر الاستبطان أن الشخص ذاته يستخدم كمصدر للبيانات وهو «المُحَدّد لفئاتها» (Categorizer) على حد سواء. وينطوي هذا على نقطة ضعف واضحة، وهو عيب استمر في مقاييس الوصف الذاتي للشخصية. فقد يكون لدى الفرد ببساطة فكرة غير كاملة أو غير صحيحة عن أي الفئات تنخرط فيها أفكاره، وربما يكون هذا لأن فئاته مختلفة عن الفئات التي نريد كعلماء أن نستخدمها أو لأنه ربما يسيء إدراك ذاته حقيقةً. وقد كان الإسهام الهائل الذي أتى به كلا من فرويد وحركة الاختبارات الاسقاطية أنهما لم يطلبا من المفحوص إبداء الحكم على أفكاره كما تبدو له. فكلاهما قد سعى ببساطة إلى الحصول على عينة من تلك الأفكار، ثم تركا عملية تحديد الفئات إلى شخص ملاحظ خارجي. وقد كان هذا تقدما منهجياً هاماً، بدأنا فقط في تقدير أهميته ومغزاة.

وإذا كان لعلماء النفس أن يعاودوا دخول ميدان المحتوى العقلي، وأن يشرعوا في تصنيفه وفقا لفئات تحددها نظريات فذة، فإني أتخوف من أنهم قد يرتدوا إلى نظم قد نبذوها من وقت طويل. فمع تطور السلوكية، كنا نفخر بأننا لا نعرف شيئاً عن الدين أو الفن أو التاريخ أو الاقتصاد أو السياسة (عدا أن يكون بطريقة شخصية، أو غالباً فجة). ولا نكون في حاجة إلى المعرفة بهذه الأشياء إذا كنا نهتم فقط بمتغيرات العملية. يمكننا اختيار

موقف عملي – مثلاً، الفأر في متاهة – وما نكتشفه هنا عن كيفية تعلم الفأر اجتياز المتاهة ينطبق بدرجة متساوية على كل مواقف التعلم (بما فيها المواقف الإنسانية). ويمكننا أن نتحمل تجاهلنا لأشياء كثيرة قد فكر فيها الإنسان. لكن إذا كان لعلم نفس المحتوى أن يتقدم، كما أعتقد، علينا أن نعود للحصول على تعليم واسع وعام. ولا شك أنه لا يوجد شيء في تدريبي كعالم نفس يؤهلني لتناول مشكلات في نظم المعتقدات الدينية أو النمو الاقتصادي، وهذه هي صميم المشكلات التي أعتقد أنها سوف تبدأ في الظهور بطريقة متزايدة غالباً في علم نفس المحتوى، ولا نستطيع ببساطة أن نكون ساذجين وندعّي أن بحوث الدارسين في هذه الميادين لا تتضمن شيئاً نفيد منه.

إذا كان تحليلي صحيحاً، نكون على مشارف تطور جديد وهام في علم النفس. وعلينا في هذه الحالة، لأسباب ننشد منها إدخال تحسينات في طرق البحث، أن نعود مرة أخرى إلى بعض المشكلات في «المحتوى العقلي» التي اعتبرت سابقا كجزء أساسي من علم النفس. وفي يقيني أن حركة الاختبارات الاسقاطية تستحق التقدير والثناء لاحتفاظها بالاهتمام بالمحتوى حيا في حقبة انشغل فيها معظم علماء النفس النظريين، ولتزويدها إيانا بالتقدم المنهجي في طرق البحث بما مكننا من تجنب الانجراف في الزقاق المغلق الذي قادنا الاستبطان إليه.

الوعــي، بالذات وبالعالم الخارجي، يقابل فـــي بعـض الأحيان الأحداث «العامــة» بطريقــة تفتــرض أنهمــا متضــادان على نحــو متبــادل. فالصورة التــي تعتمل فـــي التجويفــات الداخلية للدماغ ليســت مكشــوفة لكي يتحقق منهــا الآخــرون كما هــو الحال بالنســبة لومضة الضوء أو لســقوط نجم من الســماء، إلا أنه يمكن توصيلها بطرق متعددة. فرســم بالزيت أو رســم بياني يوضــح كيف أن الخبــرة الخاصة يمكن أن تصير خبرة عامــة. وبدون التمتع بقــدرة معينــة لجعــل النــاس واعــين بوعينا، لن يتيســر أي تواصــل، لأن كل المعرفــة توجــد كخبــرة واعية خاصة يمكــن التعبير عنهــا بطريقة ما.

(٢٨)

الوعي والذات الواعية(*)

هارولد جريير ماك كيردي

(جامعة نورث كارولينا)

لقد سادت فكرة عن الكائن الحي الإنساني على أنه كائن بيولوجي يمكن أن نلاحظه من الخارج على أنه شيء في فضاء. أما الآن، فإننا نفهم الكائن الحي الإنساني على أنه كائن واع بذاته وبما يحيط به.

وحتى إذا كنا نهتم فقط بالتنبؤ بالحركات الجسيمة، لكان علينا أن نهتم بالوعي وبالذات الواعية لأن الكائن الحي الإنساني الواعي – كما يؤكد «آرثر كومبتون» Compton عالم الفيزياء – يستطيع أن يتنبأ بسلوكه بدرجة من اليقين أكبر مما يستطيع عالم الفيزياء أن يتنبأ بسلوك الأشياء التي يدرسها علم الفيزياء. أو إذا كنا نهتم أساساً باللاشعور كما يراه أنصار التحليل النفسي، فإنه علينا أن نهتم بالوعي وبالذات الواعية، لأنه بدون الاعتراف بحقيقة الوعي يستحيل مفهوم اللاشعور ذاته. فمن الناحية التاريخية والمنطقية على السواء تسبق دراسة الوعي دراسة اللاشعور. لذا ينبغي أن تحتل هذه القضية مكانة بارزة في أي كتاب أو عمل علمي عن الشخصية.

وإنه لتحول يثير الدهشة في تاريخ علم النفس – وكما يشير أحد المستعرضين لندوة عن «مشكلة العقل – البدن» بصدد تعليقه على دراسة «زينر» Zener عن «مغزى خبرة الفرد بالنسبة لعلم النفس»، أنه تحول محزن ومؤسف – بحيث أن أي اعتذار يكون مطالباً بطرح قضية الوعي في مناقشة سيكولوجية. إلا أننا ينبغي أن نتحقق كيف تثار القضايا. وقد وضعها هيلجارد بدقة[1].

يُجْمِع علماء النفس إطلاقاً على مكانة الخبرة الخاصة (الوعي) في علم النفس. ويعتقد بعض المتطرفين أنه ليس للخبرات الخاصة أية مكانة في

(*) Harold Grier Mc Curdy: The Personal World: An Introduction to the Study of Personality. Harcourt, Brace & World, Inc.

(1) Ernest R. Hilgard: Introduction to Psychology. Harcourt, Brace and World. Inc., New York. 1957, p. 4.

العلـم، ويعتقـدون أن تلـك الخبـرات تنتمـي إلـى ميدان الفـن أو الشـعر. إلا أن معظـم علمـاء النفس يؤكـدون أن هذه الخبـرات الخاصة هي بدرجـة كبيرة جزء مـن العالـم الحقيقـي مثل أكثـر الأنشـطة القابلة للملاحظـة، ويتقبلـون التقرير اللفظـي لهـذه الخبرات كبيانـات للعلم.

وعلـى هـذه الأرضية ينبغي أن تتم مناقشـة الوعي. لكن لكـي نتجنب اللبس والخلـط ينبغـي أن نقـرر بوضوح أن مـن يهتم جـاداً بالوعي لا يعتبـر «الخبرات الخاصـة» علـى أنهـا أقـل قابليـة للملاحظة مـن «الخبـرات العامـة»، ولا يتقبل «التقريـر اللفظي» أو أية دلائل أخرى لعمليات الوعي كبديل لها. يتمسـك سـكنر، الـذي يقبـل الفصل بين الأحـداث العامة والخاصـة، برفض اسـتراتيجية توحيد التقريـر اللفظـي مع الحدث الـذي يقرره[1]:

التقريـر اللفظي اسـتجابة لحـدث خاص، وقد يسـتخدم كمصـدر للمعرفة بشـأن هـذا الحـدث. ويمثل التحليـل الناقد لصدق هذه الممارسـة أهميـة أولية. لكـن ربمـا نتجنب النتيجـة الغامضة، بقـدر ما يهتـم العلم، بأن التقريـر اللفظي أو أيـة اسـتجابة تمييزية أخري هي الإحسـاس.

ولا استطيع في هذا الصدد إلا أن اتفق مع سكنر.

لكنـه مـن الواجـب أن نبـرز المفارقة بشـأن «العـام» و«الخاص». قـد يتكلم شـخص بثقـة وبصـدق عن مشـاهدته لأشـياء ارتآها فـي الحلم كما لـو أنه قد رأي وجهـه فـي مرآة أو الشـمس فـي السـماء. كل هذه أشـياء قابلـة – بدرجة متسـاوية – للملاحظة بالنسـبة لـه. ينطبق هـذا أيضا على مشـاعره ومقاصده وقراراتـه، رغـم أن هـذه لا يمكـن أن تُصَنّف علـى أنها قابلة للرؤيـة أو حتى على أنهـا «أشـياء». ومـن ناحيـة أخـرى، من المشـكوك فيه مـا إذا كان شـخص آخر يسـتطيع أن يتابع بالضبط وجهة نظر الشـخص الأول مع اعتبار أي من مضامين الوعـي هـذه. وفـي هـذا تكـون أي خبرة مـن الخبـرات التي يمر بها الشـخص خاصة بالنسبة له- الوجه فـي المرآة، الشمس فـي السماء، شأنها فـي ذلك شأن بقيـة الخبرات. لكـن هناك حقيقـة «الاتصال» المدهشـة. فبواسـطة الكلمات أو

(1) B. F. Skinner. Science and Human behavior. MacMillan New York. 1953. p. 282.

الإيماءات أو الحركات والتعبيرات الوجهية أو الرسم أو الموسيقى، نتدبر في أن ننقل للآخرين بعض الوعي بوعينا وحتى، في حالة التكلم، نتواصل بمضامين وعينا الخاصة مع الآخرين لكي نتناولها ونقّيمها. ومن ثم يصير الخاص عاماً، أي يشترك فيه شخصان أو أكثر. هذا الاتصال يعطينا سروراً بالغاً؛ فهو الأساس الضروري لتلك الأعمال العظيمة – وهي العلوم. لكن لن يتوفر ثمة اتصال إذا لم يكن هناك شيء لتوصيله، فكل اتصال ينشأ في مضمون وعي الفرد. والآن، يأخذ بعض هذا الاتصال شكل الإشارة. يستطيع شخص أن يشير إلى الشمس في السماء أو إلى الوجه في المرآة، ويستطيع آخرون تتبع الإصبع المشير ويكتشفون أمامهم شيئاً يتفق مع ما كان يشار إليه. وفي بعض الحالات يكون هناك خلط قليل، ويرى الشخص طائراً بدلاً من الشمس أو إطار المرآة بدلاً من الوجه فيها؛ لكن، مع الإصرار والتركيز، نسعى إلى تبديد هذه الاختلافات. فالإشارة، مع ذلك، لا تكفي عادة لموضوعات الأحلام أو للمشاعر والمقاصد والقرارات. مشكلة الاتصال هنا تكون أكثر صعوبة، لكن من حيث المبدأ هي نفس المشكلة. ربما لا تكون أكثر صعوبة – فجانب كبير يتوقف على حالة الوعي لدى الأشخاص القائمين بالاتصال. فأن نشير إلى الشمس لشخص لا يستطيع الإبصار، يعد مسلكاً عديم الجدوى. وفي هذه الحالة قد تبرز اتجاهات أخرى، فمثلاً، حرارة الشمس يمكن أن يدركها كل من المبصر والكفيف. أما الوجه في المرآة فيبدو كمشكلة أكثر صعوبة.

وبالنسبة للأحلام والمقاصد وغير ذلك، لا تكون المشكلة في الحقيقة هكذا حادة إذا كان لنا أن نتناول شخصاً يكون واعياً بأحلامه ومقاصده ذاتها، فهو يستطيع على الأقل أن تكون لديه معرفة عامة بما تعنيه. لكن إذا كانت مضامين الوعي مضطربة أو غريبة عليه، تصبح مشكلة الاتصال حادة للغاية، أشبه في حدتها، حقيقة، بتوصيل الوجه في المرآة إلى الشخص الكفيف.

وقد نبدي تعجبنا في هذه الحالة بشيء من الرقة أو الغيظ: (آه، أود لو أن تعرف). وباختصار، مشكلة الاتصال هي أساساً مشكلة الخبرة العامة أو المقدرة عليها.

وكم يوجد الكثير من عدم اتفاقاتنا في علم النفس ينبع من تباين خبراتنا

ولم يُتَكشف كلية، ولكن معظمها قد يكون هكذا خارج الوعي. لنأخذ، مثلاً، التصور البصري، أي قوة استدعاء صورة بصرية لشيء ما قد رأيناه من قبل. لقد وجد «جالتون» منذ فترة طويلة، متعجباً، أن هناك علماء عديدين لا يمتلكون هذه القوة، والذين، علاوة على ذلك، يميلون إلى إنكار وجودها لدى أي شخص آخر. «فليس لديهم فكرة عن طبيعتها الحقيقية أكثر مما يوجد لدى شخص أعمي الألوان، لا يدرك ضعفه، من فكرة عن طبيعة اللون. فهم لديهم ضعف عقلي فيما هم غير واعين به». ومن الطبيعي أن نفترض أن أولئك الذين يحظون بإمكانات عقلية وخصائص سَويّة كانوا خياليين. لقد كان لدى «جالتون» ذاته القوة لذا فقد شاء له بصعوبة أن يبدأ البحث. ومن بين علماء النفس المحدثين كانت نسبة العلماء ممن لم يكن لديهم تخيل بصري عالية بدرجة هائلة. ففي دراسة عن العلماء الباحثين الأفذاذ في أمريكا، سألت «روا» Roe بعض العلماء في البيولوجيا والفيزياء وعلم النفس والأنثروبولوجيا أي نوع من التخيل يستخدمونه في التفكير في مشكلات بحوثهم:

وقد اعترف إثنان، من بين تسعة من علماء النفس التجريبيين وأربعة من علماء النفس في ميادين علم النفس الإكلينيكي أو الاجتماعي أو النمو، أنهما يستخدمان ثمة تخيلاً بصرياً في عملهم، وكانا من علماء النفس التجريبيين. وقد اعترف عدد منهم باستخدام التخيل البصري، وربما كان لهذا علاقة بالاهتمام بالتقرير اللفظي، الذي يميز الكتابات السيكولوجية عن التفكير والمشاعر. وقد تقوم دراسة «روا»، رغم اعتمادها على أعداد صغيرة، دليلاً على بعض الجدل المحتدم بيننا بشأن الوعي. فعلماء النفس الذين يتصفون بدرجة عالية من اللفظية أو اللاتخيلية قد يلقون صعوبة في التحقق مما يعنيه التخيل البصري القوي حينما يبغون تخيل شيء ما، وربما تتفق القلة الصغيرة من العلماء الذين يتصفون بالتخيل البصري مع الأكثرية التي تتصف بالقدرة على التلفظ. ومهما يكن من أمر، فقد وجدت «روا» فرقا جوهرياً بين علماء النفس وعلماء الأنثروبولوجيا من ناحية وعلماء البيولوجيا والفيزياء (العلماء الطبيعيين) من ناحية أخرى. وهذا يعني أن نقص التخيل البصري ليس شرطاً لازما لكل عمل علمي ذي مستوى عال، بالرغم مما يذهب إليه «جالتون» من أن التفكير العميق ربما أدى إلى خفض مقدرة التخيل البصري لدى العلماء الذين عرفهم.

لقد أوردت ما يبدو من تباين في الخبرة في مجال خاص نسبياً من الوعي كسبب ممكن لما يدور من خلافات علمية. ومن السهل أن نسوق الكثير من التباينات الشديدة ذات طبيعة أكثر عمومية. إلا أني سوف أسوق واحداً فقط من هذه التباينات، من خارج نطاق علم النفس، حينما توصل «كيرينكوف» Cerenkov لأول مرة للاكتشاف المعروف الآن بـ (إشعاع كيرينكوف) Cerenkov radiation بواسطة تشعيع المياه النقية بواسطة أشعة جاما، لم يكن قادراً على إقناع الكثير من علماء الفيزياء الذين أتوا لرؤية ما كان قد تألق حقيقة. لقد كانوا «متشككين بدرجة هائلة وألمحوا إلى هلوسات بصرية» — فقد كان هناك مبدأ راسخ بأنه ليس هناك من شيء يتحرك أسرع من الضوء، وأن ما توصل إليه كيرينكوف يبدو أنه يقوض هذا المبدأ. لكن التشككية ينبغي أيضاً ألا تُعزَى جزئياً إلى شيء أكثر عمقاً من الحساسية البصرية الأقل حدة من هذا. حقيقة الأمر أن ذرات معينة يمكن أن تتحرك أسرع من الضوء في أوساط معينة (أي، ليس في فراغ) وبالتالي يشع الضوء، وهي ظاهرة لم يعترف بها قبل أن يضطلع كيرينكوف بتجربته. ولنفترض، مع ذلك، أن تجربة كيرينكوف — تحت وطأة هذه التشككية — لم تتكرر ولم تتوسع ، فإنها ربما تثبت موجة من «الهلوسات». وإذا كان ذلك يحدث في الفيزياء، فمن المؤكد أنه يحدث في علم النفس. لذا ينبغي أن نكون على وعي من إنكار حقيقة خبرات الأشخاص الآخرين فقط بدعوى أنها تقع خارج نطاق إدراكنا ونظريتنا.

الدافعية الإنسانية من الموضوعات القليلة في علم النفس التي أبدت مقاومة وعصيانا أكبر على البحث العلمي. فإذا كان تفسير فعل واحد قد يحير جماعة من المتخصصين، فإن تحديد العوامل الشعورية التي تشكل النموذج الحياتي الكلي لأي فرد يقدم تحدياً أكبر. من رأي بعض علماء النفس أن العلم ينبغي ألا يحاول البحث في العالم الداخلي للقصد الإنساني حيث لا نتمكن من ملاحظته خارجيا. وطالما أن ما يفكر فيه الشخص ويشعر به لا يمكن معرفته بكل يقين، فإن علم النفس ينبغي أن يهتم بالعمليات القابلة للملاحظة. ويتمثل القصور الأكبر للدراسات القائمة على هذه الفلسفة في نطاقها المحدود. وتتناول الحفزات الفسيولوجية والعوامل العضوية الأخرى التي تعتبر بسيطة نسبياً جانباً واحداً فحسب من سلوك الإنسان. ومن الصعب أن يتكامل الإبداع ونسق القيم في نظرية جامدة عن الحاجات والدوافع. ويقدم علم النفس الدينامي عند فرويد إيضاحاً للسلوك الكلي، ولكن نظريته في الدافعية، القائمة على الملاحظة الإكلينيكية، تخفق في تناول نزعات تحقيق الذات لدى الشخص السوي.

تقدم دراسة «شارلوت بولر» مثالاً يوضح كيف أن هذين الاتجاهين يمكن أن يتكاملا. لقد افترضت، استناداً إلى ملاحظاتها الإكلينيكية وما تيسر لها من كل المعلومات الأخرى، أربعة أهداف أساسية في الحياة تؤثر بقوة في الفرد في سعيه لتكامل الذات، وطالما أنه يمكن التحقق من صدق نظريتها فحسب عن طريق دراسة الدوافع الحقيقية للناس، فقد اختبرت بكل دقة العديد من الطرق التجريبية في هذا الصدد. ويوضح التقرير التالي كيف أنه، مع الجهد والمثابرة، يمكن تطوير طرق تتناول مشكلات تنطوي على «مضمون عقلي».

(٢٩)

بعض المقاربات التجريبية في دراسة الأهداف الأساسية في الحياة(*)

شارلوت بولر

(جامعة جنوب كاليفورنيا)

من أكثر المشكلات حدة وصعوبة في دراسة الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية – مشكلة كيف أن الأهداف المحددة العديدة التي نسعى إليها في حياتنا اليومية تلتحم مع المجموع الكلي لأهدافنا في الحياة.

هذه بالطبع، كانت القضية التي طرحها وتناولها فرويد بذكاء في وقت اعتبرنا جميعاً أنه من المستحيل تناولها على الإطلاق. وقدم التحليل النفسي، في غضون النصف القرن من وجوده، ثروة هائلة من المادة العلمية التي تجيب على هذه المشكلة.

إلا أن بعضنا قد شعر أنه من الضروري أن يحيد عن الإطار النظري للتحليل النفسي. والسبب في ذلك أنه داخل هذا الإطار بدى من المستحيل تقديم تفسير معقول لظاهرات معينة خاصة بالنمو السوي. من هذه الظاهرات: الطبيعة الأولية للإبداع، وللواقعية الإيجابية، ولبعض نظامنا القيمي.

وبالنسبة لي، فقد قدمت في عديد من أعمالي الأسباب التي أراها ضرورية لهذا التخلي. وبينت أيضا، استناداً إلى كل المعلومات المتعلقة المتاحة، كيف أني قد استخلصت أربع أهداف أساسية في الحياة أطلقت عليها: إشباع الحاجة need – satisfaction، موائمة تحديد الذات self – limiting adaptation، الاتساع الإبداعي creative expansion، الارتقاء بالنظام الداخلي upholding of the internal order. وقد أطلقت على الهدف الغائي الكلي مصطلح «الإكمال fulfillment»، تفضيلاً على مصطلح تحقيق الذات، لأن مفهوم الإكمال يسمح باستيعاب أنماط ممكنة مختلفة من الخبرات الإيجابية.

(*) Charlotte Buhler. Some empirical approches to the study of life's basic tendencies. In L. N. Solomon (Ed.), A symposium on human values. J. humanistic Psychol., 1962, 2, 89-111.

يتضمــن «**إشباع الحاجـة**» أساسـاً ذلـك المجال الـذي يغطيه مفهـوم التفريغ الـذي ذهب إليه التحليل النفسـي. ويشـير إلـى حاجات ملحة بدرجـة أكبر أو أقل مـن أي نوع تتطلب إشـباعاً. وتعني «**موائمـة تحديد الذات**» نزعة لا شـعورية أولية متأصلة فـي الطفل. ويتحقق نموها على المسـتوى الثانوي كسـلوك واع إلى الدرجة التـي قد يخبر فيهـا الفرد التثبيطـات والضغوط والمتطلبات كوقائع سـلبية.

كذلك يعني «**الاتسـاع الإبداعي**» و«الارتقاء بالنظام الداخلي» عمليات لا شـعورية أولية متأصلة فـي الطفل. يبدأ الاتسـاع الإبداعي فـي الحركات الاستكشافية لدى الطفـل الوليد ويصير موضوعا لاتخـاذه كهدف واع وتخطيطاً لإنجـازات من حوالي سن سنتين أو ثلاث سنوات، حينما يبدأ الطفل فـي بناء المكعبات فـي لعبة، وحينما يبدأ فـي الشعور كشـخص مزود بقوة عمل الأشياء وتحديدها.

يشـير مفهـوم «**الارتقـاء بالنظـام الداخلـي**» أساسـاً إلى التنظيـم والتكامل الداخليـين للعمليـات. وهو يبدأ على مسـتوى لا شـعوري وعلى المسـتوى الواعي الثانـوي، ويصيـر عمل النظام مرتبطـاً بالمبادئ والقيم التي يمكـن أن نطلق عليها موضوعـات الضميـر، حيث يلعب تقييـم الـذات self – assessment دوراً كبيراً . ويبـدأ هـذا أيضاً من حوالي سـن سـنتين أو ثلاث سـنوات.

وفـي اعتقـادي، أن كل هـذه النزعـات تعمل داخل كل فرد فـي كل الأوقات، ولكـن بدرجـات مختلفة فردياً، وفـي نماذج مختلفة فردياً، شـعورياً ولا شـعورياً. كل هـذه النزعـات ضرورية للحياة والبقـاء. فكل فرد يحتاج إلى إشـباع حاجاته، وعلى كل فرد أن يتواءم، ويحتاج كل فرد إلى أن ينتج أو يبدع فـي شـكل إنجازات مخططـة؛ وعلـى كل فرد أن يتسـامى بدرجة معينة بالنظام الداخلي على أسـاس مـن التوظيف المتكامل والمتسـق، وعلى أسـاس من اعتبار مبـادئ الضمير.

إلا أن الأفـراد المختلفـين يبدون اختلافهم وتباينهم منذ البداية — وهنا أشـير إلـى الملاحظـات على الأطفال فـي ضـروب النشـاط وغير ذلك مما يكشـف عن الفـروق الأوليـة الأخرى — فهم يبدون ميـلاً أكثر إلى أن يحركوا أنفسـهم إلى هذا أو ذاك مـن هـذه الاتجاهـات . وقـد تقوم المؤثـرات البيئيـة والخبـرات بتزكية أو بتعديـل هذه الميول. ويتمخض عن ذلك «نماذج اتجاهيـة» (directional patterns)

تصبح فيها الاتجاهات ذات الجانب الواحد بدرجة أكبر أو أقل في بعض الأحيان مسيطرة على نحو ثابت. قد يتصف بعض الناس أساساً بأنهم «مُشْبِعون لحاجاتهم» (need – satisfiers). فقد استقروا منذ البداية على السعادة على أساس الراحة والسرور والحب. والشخص الذي يكون متوائماً أساساً، يبدو دائماً متأثراً بقصور الكائن الحي الإنساني في مواجهة القوة الطاغية للظروف والعالم المحيط به. فمشاعر هذه الناس إزاء الضعف الإنساني تستثير فيهم أن يخفضوا من رغباتهم في سبيل الأمان المرتبط بالخضوع لسلطة من نوع أو آخر يرجون منها أن تشملهم بالرعاية والحماية.

وعلى العكس من ذلك، يكون «الفرد المبدع» على نحو متسع واثقاً من قوته، ومن قدرته على التحكم في الظروف، وعلى تحسين وتغيير العالم لكي يلائم حاجات الإنسان.

أما الفرد الذي يكون مهتماً أساساً بالارتقاء بعالمه الداخلي يبدو محكوماً في الغالب بالحاجة إلى «الانسجام الداخلي» (inner harmony)، وإلى «سلام العقل» (pease of mind). وهذا ما يسعى إليه بتبنيه لمعتقدات وقيم معينة. وبواسطة هذه المساعي يحاول توكيد قيمته الذاتية وتقديره لذاته.

ولما كانت كل من هذه الأهداف تتحقق لدى كل الكائنات الإنسانية بدرجات مختلفة، فإن كل فرد يطمح إلى قدر معين من الحب والسعادة والراحة، وإلى الانتماء والتقبل والأمان، وإلى السيطرة والاتساع والإبداع، وكذلك مشاعر الجدارة والانسجام داخل نفسه.

ويبدو أفضل الأشخاص توافقاً، والذين توفر لي دراسة تواريخ حياتهم وشخصياتهم، أنهم يستقرون على توازن سعيد بين أهدافهم في الحياة. وقد صار من المقرر بوضوح، أن الأفراد الذين يشعرون بقوة بتحقيقهم لذواتهم، وبأنفسهم، أنهم يهتمون أساساً بإبداعهم و(أو) بتمتعهم بالحياة. يقدم «أ. ماسلو» أمثلة بارزة لهذا النمط من الأشخاص. فالأفراد الأكثر رعاية لأنفسهم وتكرساً لأنفسهم يميلون إلى أن يكونوا متوافقين و(أو) مهتمين بعمق بنظامهم الداخلي، بسلام عقلهم، وبضميرهم.

أما الفرد العصابي والذهاني، فهو يعاني من سيطرة بالغة لأحد هذه الميول أو لصراعات غير قابلة للفك والحل بين الأهداف أو النزعات في الحياة.

وفيما يلي، نعرض للمسار الارتقائي لهذه الأهداف أو النزعات الأساسية الأربعة. هذه الأهداف أو النزعات، كما ذكرنا، تعمل في كل الأوقات داخل الشخص، رغم ما قد يبدو من تأكيد أحادي على بعضها أو الآخر. بجانب هذا التأكيد الأحادي، نجد أيضاً سيطرة نمائية في المراحل المختلفة من الحياة. نستطيع أن نلاحظ ما يترتب على السيطرة الأولية لنزعات إشباع الحاجات من نتائج لدى الطفل الصغير، والتي تُتبَع باتجاهات توافقية في الطفولة، فإن هذا يتبع ثانية بسيطرة الاتساع الإبداعي في المراهقة والرشد، ثم يتبع هذا بتأكيد على تقدير الذات دعماً للنظام الداخلي في سنوات اليأس. وقد يخبر أفراد كثيرون نكوصاً إلى نزعات إشباع الحاجات المميزة للطفولة الغضة أو إلى محدودية الذات المميزة للطفولة، والتي يفرضها التقاعد وكبر السن عليهم، في حين يبدو آخرون بقدرة على الاحتفاظ باتساعهم الإبداعي.

تمثل الأهداف المنشودة في هذه النزعات جزئياً قيماً حقيقية (factual values)، كما تمثل جزئياً «قيماً معيارية» (normative values) إذا شئنا استخدام مصطلحات مارجيناو.

وسوف أعرض هنا للدراسة التجريبية (الامبيريقية) التي اضطلعت بها لهذه الأهداف الأساسية الأربعة في الحياة:

تعتبر المشكلة المنهجية في دراسة الأهداف والقيم مشكلة صعبة كما نعلم، ارتباطاً بالحقيقة بأن معظم الاستجابات اللفظية الواعية تمثل فحسب معلومات سطحية أو مُغلّفة. وتسعى أكثر الدراسات نجاحاً في هذا الميدان، مثل دراسات «كورت ليفين» وتلاميذه أو تلك الدراسات التي تعول على الطرق الاسقاطية، إلى أن تخلق مواقف تحدث فيها اختيارات تقدم معلومات غير مباشرة بدلاً من الإجابات المباشرة عن الأسئلة.

إلا أنه في اختبار أحد الفروض كالذي يتعلق بهذه الأهداف الأساسية

الأربعـة، يبدو بالنسـبة لي أنـه لا يمكن تجنب الاتجاه الفظـي ولا أرى كيف يمكن أن نجعـل منـه اتجاهاً غير مباشـر كليـةً. أما الاتجاه غير المباشـر الذي سـعيت إليه فـي دراسـة القـرارات الهامة إنمـا تتمخض عنه أنماط مـن البيانات الأولية للغايـة ولا تؤول إلـى بصيرة بالبنيـة الفردية لهذه الأهداف الأساسـية .

وسـوف أعـدد الآن باختصار للطـرق التي جربتها ثم اسـتعرض بدرجة أكبر لمحاولتـي الأخيرة التي تبدو بالنسـبة لي أكثر رجـاءاً وتوفيقاً.

١- لقد سـعيت إلـى الحصول على بيانات تتعلق بسـيرة الحيـاة biography والسـيرة الذاتيـة autobiography ، بدرجـة مـن الوفرة التي تكفـي لتفسـيرها فـي ضـوء «التعيـين الواعـي للـذات» (conscious self –determination). ولقد اسـتخدمت هذه البيانات فـي الطبعة الألمانية من كتابي «النسـق الإنساني للحياة» (Human Course of life). وقـد آل بـي هـذا إلـى افتـراض أطـوار ثلاث للتعيين الواعـي للذات فـي الحيـاة النامية. وأطلقت عليهـا الطور الأولـي، والطور المحدد لتعيـين الـذات، ثم الطـور الثالث وهو طـور تقدير نتائـج الحياة.

وفـي رأيـي أن هـذه البيانـات قد سـاعدت إلى حـد ما على إيضاح تشـكل الحيـاة فـي تتابعهـا النمائـي. ولكنهـا كانت بيانـات غيـر مُرّضية بقـدر ما كان الاهتمـام موجهـاً إلـى النزعـات اللاشـعورية، وتنطبق أساسـاً على النـاس التي تعيـش نوعـاً من الحيـاة المنظمـة مع نفـس الاسـتمرار الداخلي.

٢- ولقـد جربـت «اسـتخباراً عـن الأهـداف» (Questionnaire about goals). وفـي بنـاء هذا الاسـتخبار تلقيت مسـاعدة من إثنين مـن الاخصائيين فـي بنـاء الاختبـارات، وهمـا: « هيرمـان هارفـي» و«رايموند كورسـيني». ولكن كمـا توقعنـا، فقـد توصلنا فقط إلـى تكوينات واسـتجابات سـطحية بالرغم مما توخيناه من حرص شـديد فـي أسـئلتنا.

٣- درسـت سـجلاتي الخاصـة بالعـلاج النفسـي، ووضعـت فـي الاعتبـار المعلومـات التي تكشـف عن أهداف المَرْضَى. ومـن الطبيعي أن يمثل هذا الطريقة الأكثـر صلاحيـة بقدر مـا كان الاهتمام موجهـاً إلى عمق المـادة. إلا أنه إذا كانت التقريـرات الخاصـة بالأهـداف فـي سـجلات الحالات عرضيـة، تبـدو النتائج

المستخلصة الخاصة ببنية الأهداف الأساسية مستندة جزئياً على التخمين.

وهنا الاعتبار التقييدي الآخر الذي يتعلق بسجلات الحالات وهو تناولنا للأفراد العصابيين، ونحن لا نريد أن نقع في الخطأ الذي يشيع عن إقامة افتراضاتنا عن الناس الأصحاء على أساس مادة مأخوذة استئثاراً عن الحالات الإكلينيكية. وكما أوضح «ماسلو» في دراساته للشخصيات السوية، أن قيمهم تبدو مختلفة تماماً عن شخصيات العصابيين.

ولكن، ومع عدم إغفالنا لهذه التحفظات، لا تزال سجلات العلاج النفسي هي المصدر الأكثر أهمية لعمق المادة.

٤- أجريت مقابلات خارج مواقف العلاج النفسي، كتلك التي يستطيع أن يقوم بها الأخصائي الإكلينيكي ولفترة طويلة كافية، حتى نستطيع النفاذ إلى ما وراء المعلومات السطحية، هذه المقابلات ينبغي أن تنظم إلى الدرجة التي تبرز بها الأهداف الأساسية إلى المقدمة.

٥- اقتفاءاً لاقتراح «بول لا زار سفيلد»، صممت استخباراً عن اتخاذ القرارات في الحياة. وقد أدى هذا إلى معلومات تبعث على الاهتمام، رغم ما تتصف به من كل عيوب المادة التلقائية، ومع ذلك، فإني اعتبرها ذات قيمة بالغة.

٦- من بين الطرق الأكثر جدوى من حيث اكتمالها المنتظم وإتاحتها لدرجة من اللامباشرية – استخبار جديد حيث يُطلب من الأشخاص أن يختاروا أهدافاً من قائمة الأهداف المقترحة. وقد تم التوصل إلى قائمة الأهداف هذه في محاولتنا لتصور ما الذي يمكن أن يتمخض عنه تصنيف الأهداف الأربعة الأساسية في ضوء قيم محددة. ويتضمن هذا بالطبع بعضا من تكوين الفروض.

وسوف اقتبس بعض الأمثلة القليلة:

(أ) لديه ضروريات للحياة.

(ب) يلقى تقبلاً في اتصالاته وعلاقاته.

(ج) عدوانياً، يمضي قدماً، ويحاول دفعاً في الأشياء.

(د) لديه معتقدات وقيم ذات قيمة.

لقد استخلصنا من هذا الحشد من المعلومات ستة عشر قيمة من هذه الأهداف الأربعة، أي جميعها أربعة وستون قيمة. تبدو هذه القيم من حيث الشكل في نظام مختلط. يطلب من المفحوص أن يضع علامة على أي من هذه الأهداف في الاختيار من فئات خمسة ممكنة، وهي: «ضرورية»، «مهمة»، «مرغوبة»، «ليست باهتمامي»، «مرفوضة». هذه الأهداف الأربعة والستون تلقى كلها قبولاً بدرجة أكبر أو أقل من الناحية الاجتماعية. ولم أرثمة فائدة في تضمين الأهداف غير المقبولة، على الأقل بقدر اهتمامي بالعمل أكثر مع الأشخاص الأسوياء والذين يقومون بوظائفهم في المجتمع، والذين لا يتبنون أهدافاً غير مقبولة اجتماعياً، وحيث قد يتشككون في كل القائمة إذا قدمنا لهم مثل هذه الأسئلة التي لا تتفق مع توجهاتهم في الحياة.

ومن الطبيعي أن يكون هذا موضوعاً للتغيير إذا اتضحت جدواه. وقد أبرزت هذه القائمة التي طبقت على إثنى عشر فرداً اتجاهات أكثر استثارة للاهتمام:

١- مع كل فرد برزت فئة واحدة من الأهداف بدرجة أكثر تحديداً من الفئات الثلاث الأخرى للأهداف.

٢- الأشخاص الذين يتصفون بالعنف والشدة يعتبرون أشياء كثيرة أنها «ضرورية»، بينما الأشخاص الأكثر استرخاءاً تطلق على أكثر الأشياء أنها «مرغوبة».

٣- في حالة التركيز على الطرفين المتناقضين — الأشياء التي يعتبرها الناس «ضرورية» والأشياء التي يرفضونها — وجدت نماذج محددة.

٤- تتفق عينة الأشخاص الأصحاء بالإجماع على بندين: أن «يُعْطي ويَتَلقَّى الحب»، وأن «تكون لديه معتقدات وقيم جليلة»، واعتبر هذان البندان ضمن فئة أهداف «ضرورية». واعتبر «أن يحصل على إشباع جنسي» إما شيئاً «مهَّماً» أو «مرغوباً»، وليس بأي حال هدفاً «ضرورياً».

٥- وبالإضافة إلى وجود بنود معينة تتجمع معاً، توجد بنود معينة متميزة على نحو فريد للغاية. فمثلا، إعتُبر «أن يعيش حياة بسيطة» أو «أن يقدم العون والغوث» هدفاً «ضرورياً» فقط لدى مفحوص واحد من أثنى عشر فرداً، و«أن يلقى اعترافاً واستحساناً من الآخرين» فقد رفضه بعنف مفحوص واحد فقط من الاثنى عشر وهكذا.

٦- تبين استجابات هذه العينة الصغيرة النموذج التالي: يوجد حشد واضح من الاستجابات التي تبدو مؤشراً لما نطلق عليه «**النسق القيمي البنائي**» (constructive value system) أساساً لدى هؤلاء الأشخاص. ومع ذلك، توجد لدى كل فرد نقاط ضعف معينة تبدو في شكل «التفكير الرغبي» (wishful thinking)، أو «أهداف خداعية للذات» (self – deceptive goals)، أو أهداف تنزع بالفرد للحصول على مكاسب أنانية، أو نزعات تكشف عن الشعور بعدم الأمان والقلق. **يبدو هذا بالنسبة لي صورة طيبة للكيفية التي يقوم بها الأشخاص الأصحاء أساساً بوظائفهم في الحياة، وهي «حسن توظيف إمكاناتهم الشخصية»**.

ومن الطبيعي أن تتطلب هذه التفسيرات معرفة بالأفراد من وجهة النظر الإكلينيكية. ويبدو هذا أمراً جوهرياً، إذا أردنا الحصول على أقص استفادة ممكنة من هذه الاستقصاءات أو غيرها.

والخلاصة، أنه من بين عدد من الطرق المختلفة حاولت الحصول على مادة تجريبية (إمبيريقية) عن الأهداف الأساسية للحياة. وطريقة الاستبيان هذه، والتي تتطلب استجابة حيال أهداف مقترحة — تبدو أكثر الطرق جدوى. وارتباطاً أيضاً باستخدام المقابلة الموجهة إكلينيكياً، أرى في هذا النمط من الاستبيانات أداة جديدة مفيدة في دراسة نسق القيم والأهداف لدى الناس في ضوء دراسة الأهداف الأساسية للحياة.

تقرير عن المنحى التجريبي في دراسة الأهداف الأساسية للحياة (*):

منذ أن نشرت هذه الدراسة عام ١٩٦٢، تطور الاستخبار، الذي يعرف الآن

(*) أعدت المؤلفة هذا التقرير لإلحاقه بهذه الدراسة في المجلد الحالي

بـ «مقياس الأهداف فـي الحياة»، إلى الحد الذي صار معه أداة بالغة القيمة.

وقد تم توسيع الاستخبار الأصلي من ٦٤ سؤالا إلى ٨٦ سؤالاً، وأُجريت دراسات تعتمد على التحليل العاملي لعينتين اضطلع بها «أندرو كومري» (Andrew L. Comrey) و«ريتشارد كولمان» (Richard S. Coleman). وقام «وليام كولمان» (William S. Coleman) بتطوير إجراءات حساب الدرجات، بما تمخض عن «بروفيل» لأهداف الفرد كما يفصح عنها، وهذا ما يتضمنه المقياس المشترك المعروف بـ «مقياس الأهداف في الحياة» (Life Goals Inventory). يمثل بروفيل الأهداف بيانياً توزيع الاختيارات بين إثنى عشر عاملاً مرتباً في مجموعات وفقا للأهداف الأساسية الأربعة. وهذه الإثنى عشر عاملاً، هي: ضروريات الحياة، السرور والحب، والأسرة، الاشباع الجنسي، تقبل حدود الفرد ونواحي قصوره، الخضوع، تجنب العناء والمشقة، النمو الذاتي، القيادة والشهرة والقوة، الدور في الحياة العامة، القيم الأخلاقية، القيم الاجتماعية، وإحراز النجاح.

تبين «البروفيلات» الفردية، التي تكشف عن أهداف مفضلة في مقابل أهداف أقل تفضيلاً أو حتى مرفوضة، نماذج دافعية معينة حينما تخضع للتحليل:

أولاً — حينما نقارن «بروفيلات الأشخاص الأصحاء نسبياً»، نجد بانتظام تفضيلات صريحة يعبروا بها عن (الحب والأسرة)، و(القيم الأخلاقية)، و(القيم الاجتماعية). وإذ يعتمد الفرد على إمكاناته، يكون لديه اعتقاد قوي أو قوي نسبياً في (النمو الذاتي)، ويتصف بـ (تقبل ملائم لحدود إمكاناته)، وباعتقاد ملائم في (إحراز النجاح) . وتلعب (ضرورات الحياة) و(الإشباع الجنسي) دوراً متواضعاً.

أما بقية البنود: (الخضوع)، (تجنب المشقة)، (القيادة)، (الدور في الحياة العامة) — فتتباين على نحو أكثر اتساعاً في توزيعها.

ثانياً — في «بروفيل الشخص السوي نفسياً» لا نجد درجات متطرفة. حقيقة، في حالات الأشخاص الذين يعيشون حياة قائمة على القناعة والرضا والهدوء تميل كل الدرجات إلى أن تتجمع حول الدرجة المتوسطة (الخمسين في المائة).

ثالثا – وعلى العكس، يميل الشخص العصابي إلى أن يكشف عن نماذج من البروفيلات ذات درجات متطرفة سواء ما يتعلق منها «بمطالب الفرد» أو «حدود إمكاناته». وقد توجد توقعات مفرطة تتعلق بالنجاح أو النمو الذاتي، أو القيادة أو الجنس. كما قد يوجد رفض تام للحدود الذاتية، أو توجد حدود ذاتية مفرطة وخضوع. وقد يوجد أيضا تأكيد زائد على القيم الأخلاقية أو على إنكار الذات في ضوء توقع الإشباع الضئيل لضروريات الحياة. وأخيراً ، قد يوجد خوف من الجنس يتضح في درجات منخفضة جداً.

رابعاً – تشيع في بروفيلات الأشخاص العصابيين كثيراً الدرجات المتباينة المتنافرة. فقد ينشد العصابي «النجاح» غير العادي بدون ما رغبه في «تقبل حدود إمكاناته» أو بدون ما «اهتمام بالنمو الذاتي». وقد يبدي خضوعاً عميقاً أو حتى توقعاً بأن يكون قائداً أو عدم الاعتقاد في نجاحه إذا ما طمح في دور يضطلع به في الحياة العامة.

ونسوق مثالين واردين بكراسة التعليمات عن حالتين، فيما يلي:

(*) ل ف ٣٠١ – الاسم المستعار (ب)، سيدة متزوجة تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، وهي أم لثلاث أطفال وزوجة لمعلم للغة الإنجليزية والدراما بإحدى الكليات. وهي إنسانة سعيدة وكذلك تتمتع بصحة نفسية، فتشعر بأن زواجها وحياتها الأسرية مشبعة لها، وأن حياتها طيبة. ولما كانت لا تعمل في أي مهنة، فقد صارت مهتمة بعمل زوجها وتشترك في كثير من مناشطه التي يقوم بها خارج المنهج. وكلاهما يحظى باهتمامات اجتماعية عالية. فزوجها معلم مرموق ويتمتع باهتمامات كثيرة. ويضطلع الزوجان بحياة ممتلئة وفعالة للغاية.

يوضح بروفيل (ب) أن أعظم اهتماماتها تقع في اتجاه حبها وحياتها الأسرية من ناحية وقيمها المعنوية والاجتماعية من ناحية أخرى. وتتصف نزعاتها نحو إشباع الحاجات بأنها متوسطة، واهتمامها بالنمو الذاتي بأنه فوق المتوسط بقليل؛ وبينما يكون اهتمامها بالنجاح والأدوار الهامة في الحياة متوسطاً، نجد أن «مواءمتها مع حدودها الذاتية» أفضل من المتوسط.

ولم تتضح معالم أساسية مميزة للشخصية العصابية، وهي: التباين الهائل في الدرجات وانخفاض مستوى المواءمة مع الحدود الذاتية.

(*) ل م ٢١٩- الاسم المستعار (بيرت)، وهو صحفي وكاتب أعزب يبلغ من العمر ثلاثين عاماً. وهو أيضاً طالب بالدراسات العليا، إلا أنه يتلقى علاجاً نفسياً مع أحد الأخصائيين النفسيين.

يتميز بروفيل هذا الشخص بالزيادة البالغة في مطالبه وفي نفس الوقت يبدي درجات منخفضة فيما هو راغب في أن يقدمه أو يتحمله. وهو ليس مفرط فحسب في توقعاته بشأن النمو الذاتي، ولكن أيضا بشأن القيادة والشهرة وكذلك النجاح. وقد أظهر أيضا مطالب عالية خاصة بالإشباع الجنسي وإرضاء الحاجات الأخرى. وحاجاته للحب والأسرة عالية، ولكن قيمه الاجتماعية أقل من المتوسط مثل ميله إلى تقبل حدوده أو إلى تجنب العناء والمشقة. أما تأكيده على القيم الأخلاقية فهو متوسط.

وقد أيد «الدكتور ألبرت فريمان» هذا التحليل غير المرئي لبيرت. فقد وصف هذا الشاب على أنه «كاتب طموح يريد أن يكون على قمة الحكومة، وهو ينتسب إلى أسرة مرموقة ويتطلع إلى مطالب هائلة تتعلق بالمكانة والدخل».

إن هذه الطريقة لدراسة الأهداف الأساسية في الحياة بتضافرها مع طرق الاختبارات الأخرى وكذلك طريقة المقابلة المتعمقة، يمكن أن تؤول إلى نمط جديد من البصيرة بالعمليات الدافعية.

Buhler, Charlotte: Theortical observations about life's basic tendencies. Amer. J. Psychother., 1959, 13, 561-581.

Buhler , Charlotte: Goals of life and therapy . Amer .J. Psychoanal., 1962. 22, 153-175.

Buhler, Chrlotte: Questionnaire on goals and fulfillments . J. Humanistic Psychol., 1963. 111 . 1.

Buhler, Charlotte & Coleman , W: Life goal inventory: Manul. Los Angeles, 1964.

ثمة حائط من الأيديولوجية أشبه بحائط برلين يقسم العلوم والإنسانيات إلى عوالم مختلفة رغم الأهداف والمطامح المشتركة الكثيرة. وتبدو هذه الأنظمة بلا رجاء على طرفي نقيض: مجموعة تعتمد كلية على الطرق الموضوعية في البحث، بينما تعول المجموعة الأخرى على الخبرة الذاتية. ولكن بالنظرة إلى ما وراء الطريقة إلى مزيد من الأهداف القصوى، يمكننا أن نكتشف بعض مجالات الاتفاق. فكلتاهما مدفوعتان «بروح علمية متفتحة للبحث» تسعى إلى البحث عن إيضاح وتفسير منظمين للظاهرات الطبيعية.

ويمكننا أن نفتح ممراً كبيراً إذا هوجم الحائط من كلا الجانبين. ينبغي أن يتصدى العالِم الإنساني لحل كثير من مشاكله عن طريق طرح فروض محددة تخضع للاختبار بكل وسيلة متاحة، بينما يسعى عالم النفس إلى البحث عن طرق التحقق من صدق الخبرة الواعية. إذا وضعنا جانباً لفترة الافتراض بأنه ليس هناك شيء نفعله إلا العلم، يكون في الإمكان أن ندرك جبهة كلية جديدة للطرق الفنية نستطيع معها أن نتناول الخبرة الإنسانية على نحو أكثر تماسكاً ودقة.

(٣٠)

الإنسانيات في عصر العلم(*)

وبليس هارمان

(جامعة ستانفورد)

طبيعة البحث العلمي:

دعنا نحاول أن نقرر بطريقة أكثر دقة أين تقع حقيقة موضوع الخلاف الأساسي فيما يتعلق بقضايا «الإنسانيات» (humanities) وتلك التي يتصدى لها العلم. من الضروري، أولا، أن نتفحص باختصار طبيعة البحث العلمي، لأني أفترض أن المشروع العلمي قد يتقيد ببعض الأصفاد المفروضة عليه من الداخل التي قد تعيق الوعي به كلية.

ويبدو من المجدي أن نحاول تحديد ما نعنيه بمصطلح «**روح البحث العلمي**» وأن نميزها عن «**الطريقة العلمية**»، كما توجد في أي علم من العلوم. وأعتقد أنه يمكننا أن نتفق بدون ما صعوبة تتعلق بالخصائص الأساسية. ومن المحتمل أن نستطيع تنظيم الخبرة الإنسانية بمساعدة التكوينات الفرضية التي نتوصل إليها بالحدس ونختبرها بالتجريب. ويعني هذا العمل على تطبيق الاختبارات الملائمة على هذه الفروض، وأن ننبذ النظريات التي يثبت الاختبار عدم ملائمتها (يتضمن هذا القيام بالاختبار والتمحيص بواسطة التجريب والملاحظة، وباستقاء خبرة الآخرين بواسطة مراجعتها مع غيرهم من أهل الثقة وأصحاب السلطة، وبالتأكيد على الاتساق المنطقي، وبالاختبار بطريقة حدسية – على سبيل المثال، حينما يطبق اختبار خاص بالتقدير الجمالي ينبغي أن يُظهر أعمق الحقائق بحيث يمكن التعبير عنها ببساطة وكياسة).

شيء آخر، يقوم العالم ببناء نظريات ونماذج تمثل إلى حد ما جوانب الكون التي يمكن إدراكها، ويحدث في بعض الأحيان أن يتوفر أكثر من نموذج واحد ينظم البيانات المتاحة تنظيماً ملائماً. مثال ذلك، نموذجا النظام الشمسي:

(*) W. W. Harman: The humanities in an age of science. Main current in modern thought, 1962, 18, 75-83.

مركزية الأرض geocentric (الأرض مركز النظام الشمسي)، ومركزية الشمس heliocentric (الشمس كمركز)، في اليوم الشمسي كما حدده كوبرنيكوس. لقد قام الاختيار على أساس عوامل متعددة – بساطة، وفطنة، وخصوبة النموذج في اقتراحه لتجارب جديدة. ويمثل المبدأ المعروف غالباً بمدية أكام Oecam's razor – بأن النموذج ينبغي ألا يكون مُحْكماً وتقييديا أكثر من اللازم لكي يتواءم مع البيانات المتعلقة – أحد أسس الاختيار. (في بعض ملاحظاتي التي سوف أشير إليها فيما بعد أذهب إلى أن «مدية أكام» قد أسيء استخدامها في بعض الأحيان بطريقة لم يقصدها الراهب الطيب أبداً – لتسويغ وتبرير نبذ أو عدم تصديق الخبرة الذاتية التي لا تتلاءم جيداً مع النظريات المستندة إلى البيانات القابلة للقياس).

ينطوي هذا الوصف للروح العلمية على مغزى يتعلق بما لا تفصح عنه. فهي لا تدعي أن علماً كاملاً عن الإنسان يمكن أن ينشأ على نماذج العلوم الفيزيائية. وهي لا تقرر أن كل جوانب الواقع متاحة لحواسنا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أي أنك إذا لم تستطع أن تراها أو تتذوقها أو تشمها أو تسمعها أو تلمسها، فهي لا توجد. وتذهب، خلافاً لذلك، إلى أن المرء يستخدم حواسه لاختبار العالم الفيزيقي، وإلى أن الجوانب غير الفيزيقية للواقع كما تتبدى بذاتها تستخدم بطرائق ومسالك أخرى.

فالقيام ببحث وفقا للروح العلمية لا يفترض قبلاً (رغم ما قد يستنتج من عبارة «لورد كيلفين» Lord Kelvin المشهورة) : «أنك حينما تتمكن من قياس ما تتكلم عنه، وتعبر عنه بأرقام، فإنك تعرف بعض الشيء عنه». إن كل الخصائص الكيفية تتضاءل للغاية أمام الخصائص الكمية (اللون يصير طولاً موجياً من خلال اختزاله إلى موجات مخية ذات شدة قابلة للقياس، الحب والكراهية يصيرا تكويناً كيميائياً لإفرازات غددية، وهكذا). وخلافاً لذلك، يذهب إلى أننا نقيس ما نقدر عليه، وندرس الباقي بتواضع استناداً إلى طرق ملائمة لطبيعته. وهنا يذهب «سانت إكسوبيري» St. Exupery إلى قاعدة أكثر وجاهة مما ذهب إليه «كيلفين»: « الحقيقة ليست هي كل ما يقوم عليه الدليل والحجة، ولكن هي ما يكون ضرورياً ومحتماً». فالحقيقة ليست بالتأكيد مجرد ما يكون «قابلا للصياغة الكمية» (quantifiable).

إن الـروح العلميـة الحقـة لا تنطلق من المقدمة بأن القيم هي ببسـاطة نواتج للثقافـات الإنسـانية، وبأنـه ليـس هناك شـيئاً من التكويـن الفطري للقيم فـي الكـون . خلافـاً لذلك، تتبني الـروح العلميـة اتجاهاً يقوم علـى ملاحظة الخبرة الإنسـانية والمشـاركة فيهـا، وإسـناد النتائج بطريقـة اختبارية إلى تلـك الخبرة. ومـا يعلنـه البعض بأن «العلم لا معيـاري» (nonnormative) يمثل ببسـاطة قيداً يفرضـه العلمـاء على أنشـطتهم، ولا يكون متكافئـاً مع «أن الكون غيـر معياري».

لذا، لا تكون الروح الأساسـية للبحث فـي العلم فـي أحسـن حالاتها مناقضة للروح الأساسـية للبحث فـي الإنسـانيات أو مختلفة عنها. فتنظيم الخبرة الذاتية يمكـن أن يقـوم على نفس المبادئ الأساسـية التي يقـوم عليها بناء النظريات فـي العلـوم الفيزيائيـة والبيولوجيـة. ولكـن هـذا لا يعني أن طـرق وتعصبـات العلماء الطبيعيين يمكن أن تنقل على نحو سليم إلى استكشافات الطبيعة الذاتية للإنسان. وإذا فعلنـا ذلـك، فإنـه قد يتمخض عن موقف يذكرنا بما قام بـه «ايدنجتون» الذي صـار ينقب فـي المحيطات بشـبكة ذات بوصـة واحدة ثم أعلن فـي النهاية نتيجته بأنـه لا توجد مخلوقات فـي البحر ذات بُعْد مُسـتعرض أقل مـن بوصة واحدة.

لا شـك توجـد فـروق هامـة، ولكن يوجـد أيضا تشـابه ذو دلالة بـين عبارة عـن العلـوم الفيزيائيـة مثـل « التشـابه يحمل على الصـد، وعدم التشـابه يحمل علـى الجاذبية»، وعبارة عن مبـدأ الحياة فيما يعرف بالمفارقة الهائلة للمسـيحية «مـن يسـعى لإنقـاذ حياتـه يفقدهـا، ومـن يفـدي حياته يجدهـا»، هـذه العبارة الأخيـرة التـي قيمها الشـاعر الإنجليـزي «ا . هاوسـمان» H.E. Housman على أنهـا «الحقيقـة القصوى التي تبقى دائماً والاكتشـاف الأعظم الـذي تحقق أبداً»، تشـبه العبـارة الأولى فـي أنهـا تنظيم جامـع للخبرة الإنسـانية، قابـل للتحقيق بواسـطة الملاحظة والتجريب.

أين، إذن، يكمن موضع الخلاف الرئيسـي الذي يجعل مواقع العالِم السـلوكي والعالِم الإنسـاني تبدو بعيدة عن مواقع الشـاعر أو الفنان أو الفيلسـوف الديني؟ إنهـم جميعـاً ينظـرون إلى نفس الكـون، وتجُـرى بحوثهم، أو ربما تُجـرى، بنفس الروح مـن التفتح العقلي.

يبدو لي أن هذه المشكلة الرئيسية تنسحب على الجوانب الفيزيقية والروحية للواقع، أو إذا شئنا استخدام بعض المصطلحات الفلسفية المبجلة على العوالم الظاهرية واللاظاهرية. (العالم الفيزيائي أو الظاهري هو ذلك الجزء من الكون، متضمناً أشياءاً مثل المجالات الكهربية والنيترونات التي تلاحظ بواسطة فيض الطاقة الفيزيقية التي تتضح بذاتها في الإدراك الحسي. أما العالم اللافيزيقي، فيتضمن تلك العناصر التي تتعلق بعالم الشخص الملاحِظ، والمعلومات التي تفوق إحساساتنا — الهوية الشخصية، «مشاعري»، «إرادتي»، حركة الوقت غير المرتدة إلى الوراء، الخ). من الناحية العملية يميل العالِم، على الأقل حينما يلعب دوره المهني، إلى أن يعمل على أساس الافتراض الضمني بأن للكون الفيزيقي فحسب واقع حقيقي، في حين يعيش الشاعر والصوفي مع كلا العالمين. ويميل العالم السلوكي إلى رؤية القيم على أنها تتعاظم وتكتسب ثقافياً، في حين أن الشاعر قد يراها كامنة في بنية الأشياء.

ولكن إذا كان موضع الخلاف في الحقيقة قاطعاً مثل هذا، لماذا لا يكون هذا قضية تتقرر بالأشكال العادية للبحث؟ فالمشكلات المتعلقة بطبيعة الواقع لا تتقرر من خلال النزاع داخل أنفسنا، ولكن من خلال الاضطلاع بتلك التجارب التي تمكننا من إدراك الطبيعة حقيقةً. والمشكلة الخاصة بما إذا كانت توجد طبيعة إنسانية أساسية، مثل أن الحق والجمال والخير لا يتقرر بالاختيار الفردي المقصود، تمثل ولا شك مجالاً صادقاً للبحث.

الحدود الممكنة للنظرة العلمية:

أود أن اقترح إجابة أولية للسؤال الوارد في الفقرة السابقة، تحدد جزئياً العوامل التي قد تعوق الاتجاه المستمد من الغاية العلمية، وتحدد جزئياً المعوقات التي تبدو أنها تشيع في الإنسانيات:

أولاً ، دعنا نختبر القضية التالية: تميل إلى أن توجد في نظرتنا الحالية للعلم قيود وأصفاد قد تتمخض عن صورة محرفة للواقع. لقد قيَّد العلماء بحوثهم بنظام المعرفة المكتسبة من خلال الإحساسات. (الاستثناء الوحيد من هذا هو المدرسة الاستبطانية في علم النفس). لذا لاقت محاولات باحثين،

مثل (كارل يونج Young)، في تنظيم الخبرات الذاتية للإنسان تقديراً من معظم علماء النفس ذوي الاتجاه السلوكي، ولكن لم يعتبرونها حقيقة داخل نطاق العلم. فهناك شيء واحد يستحق الإقرار، وهو أن العلماء يختارون العمل مع البيانات الحاسية والملاحظات «الموضوعية»، أما الخبرة الذاتية بالتحديد فتقع خارج نطاق العلم. وليس من المنطقي أن نقفز إلى أن الخبرة الذاتية في مجال المعنى والقيم وَهْم وخيال وليس لها صدق في حد ذاتها. وقد يميل البعض إلى الافتراض، ربما أبعد مما نتحقق منه بوعي، بأنه إذا كان العلماء لا يدرسونها، فإنها لا توجد أو ليست مهمة. فالعلماء لا يطرحون أسئلة عن القيم العليا والمعاني العميقة في الحياة، لذا تكون تلك الأسئلة غير ذات معنى ولا رجاء منها.

وثمة اعتقاد أساسي، رغم أنه لا يتضح دائماً بجلاء، يرتبط بالباحثين في العلم والأشخاص العاديين الذين يتبصرون نتائج عملهم: من الممكن وضع حد فاصل بين البيانات الموضوعية والخبرة الذاتية. البيانات الموضوعية هي ما يتسير لنا من خلال حواسنا الجسمية (وامتداداتها التكنولوجية – الميكروسكوب الإلكتروني، الراديو تلسكوب، رسام المخ ، والتكنولوجيات الرقمية الخ)، وأنه على أساس هذه المعرفة «العامة» يمكن عمل تقريرات عن طبيعة العالم الموضوعي قابلة للقياس وذات معنى. لذا، فإنه عن طريق اختبار هذه البيانات الفيزيقية باستخدام طرق العلم (التي تحذو مثال علم الفيزياء)، سوف نتوصل إلى صورة كاملة عن طبيعة الأشياء كما يمكن أن تكون.

ويلحق بذلك الاعتقاد بأنه لا توجد أسباب خارج العالم الفيزيقي. ويتبع ذلك إذن أن حرية الإنسان في اتخاذ القرار وهم وخداع. «فالفرض الذي يذهب إلى أن الإنسان ليس حراً ضروري لتطبيق الطريقة العلمية على السلوك الإنساني. ويعتبر الإنسان الحر من الداخل والمسئول عن سلوك الكيان الحيوي (الأورجانزم) البيولوجي الخارجي فحسب، بديلاً غير علمي عن أنواع الأسباب التي تكتشف في سياق التحليل العلمي. فكل هذه الأسباب تكمن خارج الفرد [1].

(1) B. F. Skinner. Science and Human Behavior. The MacMillan Co., New York.

كذلك يتبع الافتراض بأن الوجود فيزيقي تماماً، الرفض الكامل للنظرة الغائية تفضيلاً للافتراض بأن تطور الكون والإنسان قد أتى بطريقة عشوائية كلية، نتيجة لأسباب مادية؛ وهو إصرار على أنه ليس في تطور العقل ولا في سعي الإنسان يوجد مسوغ لأي مفهوم عن الغرض من الوجود.

ليست القضية إذن أن تستخدم البيانات عنوة لتفضيل هذه الافتراضات، وعلى العكس، يوجد قدر هائل من البيانات المتجمعة علمياً تقف في وجهها. لكن العقل الإنساني يتمتع بقدرة فائقة، وهي انتقائيته للبيانات التي تتوفر لنا، وهي بيانات تتباين مع الافتراضات التي نعتقد فيها بعمق.

نماذج الكون والإنسان:

لا يوجد شيء بطبيعته يتصف باللاعلمية – (أي ليس بالروح العلمية) إذا عمدنا إلى عمل نموذج عن الكون توجد فيه جوانب لا يستطيع الإنسان أن يدركها خلال حواسه، وهي بالتالي جوانب غير «فيزيقية» على وجه التحديد. وفي الواقع، ليس هناك من شيء لا علمي بشأن استخدام نموذجين قد يظهرا، على مستوى واحد من الفهم، على أنهما متناقضان. لقد نشأ هذا الموقف على وجه الدقة في الفيزياء حينما وُجدت صورة موجية للضوء ملائمة أكثر لتنظيم بيانات تجريبية معينة، وأثبتت الصورة الذرية الدقيقة أنها أكثر عوناً على فهم الظاهرات الأخرى.

ففي الفيزياء الذرية والنووية، حيث قد نقترب أكثر من بحث التركيب الأقصى للكون، تكشف النماذج الميكانيكية بوضوح أكثر عن عدم ملائمتها. هنا علينا أن نواجه الاحتمال بأن عقولنا المنطقية، التي تعمل بدرجة هائلة مع رموز ومفاهيم قابلة للتصور البصري، قادرة على إدراك الحقيقة فقط على أساس نماذج غير ملائمة.

وثمة مبدأ هام يتعلق بموقف مماثل إلى حد ما، يتضح في الفيزياء، وهو مبدأ «التتامية» (Complementarity). إذا تكلمنا من ناحية الصورة الموجية للضوء، نجد أن الطول الموجي هو أحد المقاييس الكمية الهامة المستخدمة في وصف موقف معين. ومن ناحية أخرى، إذا تكلمنا من ناحية الصورة الذرية

الدقيقـة تمثـل شـريحة ذات دلالة مـن البيانات وضـع دقائق الضـوء أو الضُوَيِّئَة (الفوتـون). ولنا حرية اسـتخدام أي نموذج من النموذجـين، وقياس الطول الموجي واتخـاذ الوضـع على النحو مـن الدقة التي نرتضيهـا. إلا أن الكميتـين لا تظهرا فـي نفس النموذج، وإذا حاولنا أن نفكر على أسـاس النموذجين فـي وقت واحد إنمـا نرتطـم بموقـف متناقض. أما بالنسـبة لمبـدأ «التتاميـة»، فيقـرر أنه بقدر مـا تـزداد معرفتنا بالطـول الموجي، يـزداد تجاهلنا فيما يتعلـق بالوضع، والعكس صحيـح. فمـا يكـون «حقيقيا» فـي نمـوذج واحد، قد يكـون تملصيـاً، إن لم يكن وهميـاً، فـي الآخر. ومع ذلك، فـإن كلا النموذجين صادقان ومفيدان فـي تمثيل جوانب الواقع بشـكل تسـتطيع عقولنا السـديدة أن تتناوله.

لعلنـا فـي ضوء ذلك وارتباطـاً بعلم الفيزياء، نسـتطيع أن نقترب بشـجاعة أكبـر مـن إمكانيـة التفكيـر على أسـاس نموذجَـيّ الكـون: الأول، وهـو النموذج العملـي الفيزيقي الذي فيه تكـون مفاهيم المكان والمـادة والطاقة والوقت مفاهيم «حقيقيـة»، فـي حين يكـون الوعي مجـرد ظاهرة مضافـة وتكون القيم نسـبية. والثانـي، فهـو النمـوذج الروحـي الذي فيـه يبـدو العقـل والإرادة والحب والحق والجمـال والخيـر «حقيقيا» ولا يصد السـمو بالمكان أو الزمان. أداة الإدراك فـي النمـوذج الأول هـي المملكـة الفيزيقيـة، أي الحـواس، وفـي النمـوذج الثاني هي المملكـة العقلية، أي العقـل العميق.

هكـذا إننـا بحاجة إلى ألا نفرط فـي الاهتمام بمـا إذا كان ما هو «حقيقي» فـي مملكـة واحدة يبـدو وَهْماً فـي المملكة الأخـرى — فامتداد «مبـدأ التتامية» قـد يكون هنـا، كما هو الحال فـي الفيزياء، هـو انعكاس للحقيقـة التي تقرر أن نموذجـاً واحـداً بذاته غير ملائم. نحـن بحاجة إلى ألا نؤخذ بالدهشـة أو الفزع عنـد ظهـور المفارقـات، فقد تعلـم علمـاء الفيزياء معايشـة المفارقات. لـذا، فإن الحتميـة الظاهـرة، حينما يُنظر إلـى العالم من خلال الإطـار العملي المرجعي، لا ينبغـي أن تحـول دون حريـة الاختيار التي تتضح فـي النموذج الآخر. (شـيء من هـذا القبيـل يبـدو لازمـا لإبعادنا عن الوضـع القاصر بـأن «العالم الحـر» الذي نحـاول أن نصونـه تنكـره صراحـة حتمية معظم العلـم المعاصر بتأكيـده على أن الحريـة مجرد سـلوك لـم نجد له سـبباً بعد).

فـي إطـار مرجعي واحد قد يبـدو «الحب» نتاج الحافز الجنسـي، بالإضافة إلـى الغايـة القصـوى الخاصـة بحفظ الجنس البشـري، وهـذا ينبغـي أيضا ألا يمنعنـا مـن النظـر إلى الجنس فـي الإطـار المرجعي الآخر كشـكل أولـي للحب، يُسْتَخدم كمدخل لخبرات الحب التي ارتقت فـي سـلم التطور. بهـذه النظرة قد تبدو خبرة الحب، كالخبرة الجمالية، نتاج جوع أساسـي يتضح فـي تطور الجنس البشـري وفـي حياة الفرد، من أجل الازدياد المضطرد فـي الشـعور والوعي، من أجـل المعرفـة بالقوى الإبداعيـة التي قد توجد فـي الحياة وتنظيمهـا، ومن أجل الرابطـة النفسـية والروحية مع الآخريـن ومع الكون.

إن الاعتـراف بكلا النظامين، الفيزيقـي والروحي، إذا كان هذا يبدو ضرورياً للإحاطـة بـكل الخبرة الإنسـانية، ليس أقل من حيـث الروح العلمية مـن التأكيد بجمـود دوجماطيقـي على أنـه ينبغي أن يكون هنـاك العالم الفيزيقـي وليس أي شـيء آخر. وفـي الحقيقة، قـد تكون القضية أعظـم من هذا.

ولعـل البحث فـي خبـرة الإنسـان الذاتية ينحو إلـى أن يقع بين الكراسـي. فليـس لـدى العلمـاء الإنسـانيين تقليد لهـذا النوع مـن البحـث، وبالإضافة إلى ذلـك، يشـعرون بالغثيان حيـال احتمال عدم تكشـف العلاقات مـع ذوي البصيرة الثاقبـة والباطنيـين أو الجوانيين ومتعاطـي المخدرات.

فالعلمـاء الاجتماعيون، مـن ناحية أخرى، يسـتأثرهم الاهتمام بما يمكن أن يكـون قابـلاً للقياس بعبارات كمية بواسـطة وسـائل مادية، ويميلون إلى الشـعور بعـدم الارتيـاح نحو أي مجـال تبدو فيه إمكانيـة وجود تعريفـات إجرائية قاطعة للمفاهيـم الرئيسـية بعيدة المنال، إن لـم يكن احتمالاً.

لكـن مشـكلة مـن عليـه تقـع المسـئولية فـي أن يفعـل ذلـك؟ هـم العلماء الاجتماعيون أو الإنسـانيون. وتلك هي المشـكلة الأكثر حسـماً فـي سـبيل تطور هـذا النـوع من البحـث. فمـن الأهمية بمـكان أننا بحاجـة إلى نمـط جديد من البحـث، يختلـف بطرق كثيرة عـن البحث العلمي التقليدي، لغتـه أقرب بكثير إلى لغـة الشـاعر منه إلى لغة عالـم الرياضيات، لأن المعرفة التي ينبغي إقرارها فـي هـذا الصدد تتناول المشـاعر والأفكار، ولذا لا تكون الرموز المسـتخدمة موضوعاً

للتناول الرياضي. أما طريقته فسوف تختلف، لأن الباحث ينزع إلى أن يصبح هو أداة البحث.

لعلنا نشهد بعض نماذج هذا النمط من البحث بالفعل في ميدان علم النفس المتعمق، وفي أعمال كارل يونج وغيره. فحالماً بدأ هذا الميدان في بلورة أصوله الإكلينيكية، تطورت بعض طرقه في استخدام وسائل وأدوات ذات قيمة في تكشف المجالات الأكثر بعداً من الخبرة الذاتية، وأظهرت بعض مفاهيمه جدوى بشكل يبعث على الاهتمام. فالاهتمام «بالعالم الجواني الذاتي» psychedelics، إذا استخدم على نحو ملائم، قد يبدو أداة قيمة للبحث. ومن المحتمل أن الاكتشافات الجديدة والمثيرة سوف تنطلق بعد ما نحرر فكرنا من «المنحى الفيزيائي» physiealism الذي صار مسيطراً من خلال ما حققته العلوم الفيزيائية من نجاح هائل.

لا زالـت تواجهنـا حتـى اليـوم المشـكلة القديمـة الخاصـة بقضيـة «الواحـد» أو «القلـة» مقابـل «الكثرة». فالمشـكلة المحتدمة فـي علم النفس الخاصـة بالمناظـرة بـين المنحـي الفـردي (الإكلينيكـي) والمنحـي المعيـاري (الناموسـي) idiographic-nomothetic debate تمثـل أحـد القضايـا الأساسـية التـي تسـعى إلـى المصالحة بـين المتطلبـات المتعارضـة للخاص والعـام، للحـس والمجـرد. ينشـأ الكثيـر مـن التوتر بـين المذهب الإنسـاني والعلـم بنفـس الطريقة. الشـعراء وكتـاب القصة هم ملاحظون حساسـون للمشـاعر الإنسـانية، لا يذهبون أبعـد من وصف الخبرة الحيـة للفرد. وقد يُشـوِّه التحليل السـيكولوجي من مغزاه الشـخصي. ومن ناحية أخرى، يهتم العلمـاء أولاً باسـتخلاص رحيق المعنى الشـخصي من بياناتهـم للوصول إلى نتيجـة تنطبـق علـى كل شـخص. ومـع ذلك، فـإن كل اتجاه مـن الاتجاهين لتناول الخبرة الإنسـانية لا يكشـف عـن الحكاية برمتهـا: فأحد الاتجاهين يعـوزه الدفء الإنسـاني، والآخر تعـوزه العمومية. وتعمل البصيرة المشـتركة علـى إثـراء كلا الميدانين.

(٣١)

العلم والإنسانية والإنسان (*)

هادلي كانتريل وتشارلز بومستيد

(جامعة برنستون)

التكاملية بين العلم والإنسانية:

«إن الدراســة الملائمة للإنسان هي الإنسان، والإنســان فحسب»، هكذا يقرر «جيمــس ثوربــر» James Thurber. لقد صارت حياة الإنســان بتعددها وتعقدها، بســبب التقــدم التكنولوجــي الهائــل، تــزداد اقتراباً مــن بعضها الآخــر، وبالتالي تبــدو المشــكلات الأكثر إلحاحاً هي مشــكلات علاقة الإنسان بالإنســان. ويمكن التوصــل إلى حلــول لتلك المشــكلات بقدر ما نزيد مــن فهمنا لطبيعة الإنســان».

إننــا نقــدر أن العلوم، وخاصــة علم النفس، يمكن أن تَثْــرىَ بدرجة هائلة، إذا كنــا لا نقلــل من قيمة التقدم فــي فهم الحياة الإنســانية الذي حققــه العلماء بما فيهــم علماء النفــس؛ وأن مكونات هذه العلوم تكتســب إمكانية أكبــر وقابلية أكثر علــى التطبيق على مشــكلات الحياة، إذا أولت اهتمامــاً أكبر بالبصيرة التي تتوفر غالباً فــي العلوم الإنســانية. وهنا أيضا يهتم العلماء الإنســانيون أساســاً بطبيعة الخبرة الإنســانية والتواصل الإنســاني بــكل أنواعها المختلفة. ومن ثــم، ينبغي أن يعتبر الشــعر أو الرســم أو الصلاة على أنها بيانات ســيكولوجية شأنها فــي ذلك شــأن تحديــد العتبة الفارقة الحســية فــي المختبر أو قياس نســبة الــذكاء. ومن الأهميــة هنا أن نلاحظ تعريف «قاموس وبســتر الدولــي الجديد» لكلمة «حقيقة» علــى أنهــا: «مالــه وجود حقيقي، ســواء مــن الناحيــة الذاتيــة أو الموضوعية؛ أي حــدث، عقلــي أو مادي؛ واقعة أو خاصيــة أو علاقة، تتضح حقيقتها فــي الخبرة أو قد تســتلخص منها على أســاس مــن اليقين...».

وإذا كان علــى عالــم النفس أن يفيد من العالم الإنســاني، فإن العلم وخاصة علــم النفــس ينبغــي أن يُعطــي للتوجــه الإنســاني أبعاداً جديــدة بتعظيمــه للقيم

(*) H. Cantril & C. H. Bumstead: Science, humanism, and man. In Reflection of the human nature. New York: New York Univ. Press, 1960, pp. 1-6.

الكامنة التي قد يتناولها، وبتمكينه للشاعر أو الموسيقار أو الرسام أن يجد بعض الإلهام والتوجيه في «الحقائق» التي يكتشفها العالِم والتكوينات التي يبتدعها .

تبدو البيانات الأصيلة للحياة الإنسانية، سواء تلك التي يبحثها الشاعر أو العالِم – وهي طبيعة الخبرة والسلوك البسيطة – بعيدة المنال أو على الأقل غير قابلة للإقرار والتسجيل. وكما يقرر «آمييل» Amiel: «أن تتكلم معناه أن تتشتت وأن تتبدد . فالكلمات تعزل الحياة وتحددها في نقطة واحدة، إنها تلمس فقط أطراف الوجود، إنها تحلل وتعالج شيئاً واحداً في وقت واحد». وهنا قد يزودنا التوجه الإنساني في الحقيقة بالمدخل الأوثق للبيانات الخام والوصفية التي ننشدها. «فالشعر الصادق أكثر صدقاً من العلم، لأنه تركيبي Synthetic، ويستحوذ مرة واحدة على ما يستطيع حشد كل العلوم في الغالب أن يتوصل إليه كنتيجة نهائية».

إذن، النقطة الأكثر أهمية للفهم، هي أن اعتبار الخبرة كالخبرة، كما تحدث مستقلة عن أي عرض للوصف أو التحليل، يكون في الغالب صعب المنال سواء بالنسبة للعالم الإنساني أو لعالم النفس. وبالتالي تبدو الخبرة الإنسانية الجارية والساذجة غير قابلة للإقرار والتسجيل والتعبير عنها، ولكن ما نسميهم «بالعلماء الإنسانيين» هم الذين يبلغون هذه الخبرات غير القابلة للتصور والتعبير. ومن ثم نعود إليهم مرة أخرى في محاولة لأن نعلو بأنفسنا إلى مستويات من الخبرة أكثر إرضاءً. توضح هذه النقطة بجلاء فقرة مأخوذة عن «روح الفن» لروبرت هنري:

«هناك لحظات في حياتنا، هناك لحظات في اليوم، حينما يبدو أننا نرى ما هو أبعد من المعتاد – فنصبح بعيدي النظر. بذلك نتوصل إلى الحقيقة.تلك لحظات سعادتنا الكبرى. تلك لحظات حكمتنا العظمى.

«وفي طبيعة كل الناس تكمن هذه الخبرات، ولكن في ظل حياتنا بتشعباتها ليست هناك إلا قلة نادرة فحسب قادرة على الاستمرار في الخبرة، وعلى أن تجد تعبيراً لها .

«في بعض الأوقات قد توجد أغنية تنساب من داخلنا، أغنية ننصت إليها. تملأنا بالدهشة، ونؤخذ بها. وعلينا أن نستمر في سماعها. لكن قلة هي التي تقدر على أن تمسك بزمام نفسها في حالة من الإنصات لأغنيتهم ذاتها. وإذا كانت التبصرية الذهنية تتجلى فينا حينما تكون الأغنية المنسابة داخلنا ذات حساسية أكبر، لكنها تتقهقر وتتحسر في حضرة الذهن المادي البارد. فهذه التبصرية تتصف بالارستقراطية وتأبي أن تربط نفسها بالوضع العادي – فنعود لنصبح ذواتنا الأصيلة. إننا نعيش في ذاكرة هذه الأغنيات التي تكون متاحة لنا في لحظات الصفاء الذهني.

«إنها أبراج خبرتنا، وتعتمل فينا رغبة التعبير عن هذه الإحساسات الصادقة. إنها الأغنية المنبعثة من داخلنا التي تحرك الدافعية لدى أصحاب كل الفنون» [1].

ولما كان الطفل الصغير غير قادر على إقرار طبيعة عالم خبرته في عبارات لفظية، فإن الشخص الراشد كذلك، حينما يقوم بعمله في هذا العالم، لا يستطيع وصف وتسجيل عملية الأحداث التي يخبرها. وفي ذلك تتوفر بيانات توضح أنه حينما يكون هدف الفرد وصف وتسجيل الخبرة، فإن نفس بنية الخبرة وتواترها يكون خاضعاً للتغير. وقد يبدو من المجدي تصور عملية المعيشة على أنها عملية مفردة، موحدة، لا تتجزأ، ولكنها عملية مركبة للغاية لا يستطيع رمز بمفرده التعبير عنها. لذا يكون الوصف بالضرورة تحليلياً وتتابعياً. إننا نغفل بعض الأشياء حالما نبدأ في الكلام أو الكتابة. وباختصار، نحن نتناول بالفعل خيالات أو تجريدات أو مفاهيم تغفل على الأقل بعض الجوانب من البيانات الأصلية. وبالإضافة إلى ذلك، من المعروف أن لدى كل شخص خبرات يشعر بها لا يستطيع توصيلها كلية إلى غيره من الأشخاص.

لذا قد توفر الأوصاف الدقيقة للخبرة الإنسانية التي يأتي بها غير العلماء بروتوكولات من البيانات قد يبدأ بها العالم مهمته ذات الطبيعة متعددة الاختبار والتمحيص في محاولته للوصول إلى مجموعة من التكوينات يستطيع

(1) Robert Henri: The Art Spirit. J. B. Lippincott, Philadelphia.

في ضوئها تلخيص وفهم وتفسير عملية الحياة الإنسانية والتنبؤ بها على نحو أفضل. و بالنسبة للعالم الذي ينشد تصوراً رشيداً لوجودنا، عليه أن يحلل ويصنف ويفيد من التجريدات والمفاهيم – وهي خيالات قد تكون مفيدة ومجدية، ولكنها لا تظل أبداً كخيالات. يقول «هوايتهد»: «حقيقة الحقيقة تجريد، نتوصل إليه عن طريق تحديد التفكير بالعلاقات الشكلية الخالصة التي تبدو على أنها الحقيقة القصوى. يفسر هذا لماذا يرتد العلم، في صورته الكاملة، إلى دراسة المعادلات التفاضلية. وهكذا قد انزلق العالَم الحقيقي الحي من فتحات شبكة العلم»[1].

تتضح وظيفة المفاهيم والتجريدات من ملاحظة «هافيلوك إيليس»: «إن تفكيرنا ذاته يصير متميعاً إذا لم نحصل عن طريق الخيال على مواقع وحدود خيالية نتحكم بها في تدفق الواقع. إنه الفن الخاص، وموضوع التفكير أن نتوصل إلى الوجود بواسطة طرق مختلفة تماماً عن الوجود ذاته. فتصوراتنا وإشاراتنا الاصطلاحية تقوم على وظيفة تخيلية تستخدم في العمل والأداء. إن التفكير في مراتبه الأدنى أقرب إلى العملة الورقية، وفي أشكاله الأرقى هو نوع من الشعر»[2].

ومن الأهمية بمكان ترسيخ مفاهيم «القيمة» (value) و«القيَميِّة» (valuing) داخل نطاق العلم من فترة لأخرى، وهنا ينبغي على علماء النفس أن يولوا آذاناً صاغية لأولئك العلماء الإنسانيين الذين جعلوا من دراسة القيم مهمتهم. فسعياً وراء الأهداف القصوى للحياة، فإن ما نعرفه على أنه العقل أو المنطق أو الذكاء قد يلعب كله دوراً ضئيلاً للغاية، تاركا المشاعر والقيم التي تنفذ إلى صميم الخبرة الإنسانية برمتها. ونورد هنا بعض الملاحظات التي يغفلها «الاتجاه العلميِ» التقليدي:

«حينما تفهم كل شيء عن الشمس، وكل شيء عن الطقس الجوي، وكل شيء عن إشعاع الأرض، فربما لم تتوصل بعد إلى شعاع غروب الشمس» (هوايتهد).

(1) A. N. Whitehead: Modes of Thought. The MacMillan Co., New York, 1938, p. 25.
(2) Havelock Ellis. The Dance of life. Houghton Mifflim, Boston, 1923, pp. 101-102.

«حينما تعلم أن أوراق النبات مليئة بالحامض الكربوني المتحلل، وأنها تهيء الأكسجين لنا، نبدأ في النظر إليها بشيء من اللامبالاة كما لو أننا ننظر إلى عداد للغاز. لقد صارت آلة.. ، ولا يعد انبعاث الضوء الأصيل نقياً» (راسكين).

وكما يعلم كل فرد، أن الخبرة من وجهة النظر الأولى للشخص – من وجهة نظرك – تختلط بالمشاعر وبالنغمات التوافقية للقيم (value-overtones)التي لا تتحدد بالمكان والزمان، حتى رغم استدعائها إلى العمل في ألـ «هنا والآن». هذه المشاعر والنغمات التوافقية للقيم ينبغي أن تتمايز بعناية عما يسميه عامة عالم النفس بالانفعالات، ويشير إليها غالباً كانفعالات تنشأ من الأفعال المنعكسة. فالمشاعر والنغمات التوافقية للقيم في الخبرة هي ما يزود خبرة الإنسان بخصائصها «الإنسانية» المميزة. وهذه المشاعر والنغمات التوافقية للقيم ينبغي أن تتمايز بعناية عن عمليات التفكير الرصين.

جوقة (أوركسترا) الحياة:

حياة كل فرد منا أشبه بسيمفونية. فآلاف الأحداث تأتلف في لحن ما نسميه بالخبرة – أو على نحو أفضل، ما نسميه «الخِبْريّة «(experiencing)، طالما أن الخبرة دائماً متواترة وفي صيرورة. في بعض الأحيان يكون التواتر رقيقاً ومنسجماً، وفي أحيان أخرى يكون فظاً ونشاذا. وقد تتكرر الموضوعات الأساسية من آن لآخر في وسط التواتر المستمر بنغمات توافقية جديدة ومتنوعة. ويذخر مدى الحياة من الميلاد حتى الموت بحركات تتصف كل حركة منها بتأكيد معين، في بعض الأحيان قد يتم اللحن بواسطة آلة واحدة أو آلات قليلة ولكن غالباً ما يتم بواسطة تشكيلة من الآلات حيث يتناغم صوت كل آلة مع اللحن الكلي ويتوه فيه.

إن الموضوعات الأساسية لأية سيمفونية هي حياة قد تتحقق بواسطة وراثتنا الفريدة، لكن النسق النهائي للحن حياتنا يتألف مع تواتر حياتنا. فنحن نبني نموذجاً كلما تقدمنا، وهو نموذج يصبح من الصعب أن نحيد عنه. ونسعى إلى تنقية اللحن من بعض الأصوات التي قد تفسد النسق العام. في بعض الأحيان يكون الإيقاع سريعاً ومرحاً، وفي أحيان أخرى يكون بطيئاً

وتقليدياً. ويميل بعضنا إلى أن يأتلف مع أسلوب يتفق مع الأساليب المألوفة أو التي تلقى قبولاً في وقت معين، بينما يميل آخرون إلى المغايرة والخروج على المألوف. فالسيمفونية التي تؤلف حياتنا تكون سيمفونيتنا الخاصة تفرداً بكل واحد منا. ويسمع الآخرون من آن لآخر أجزاءً فقط منها حينما نسمعها بأنفسنا. وكثير منها يمكن أن نسمعه بأنفسنا فقط حينما نكون مع أشخاص آخرين.

فقد كان لبيتهوفن أو موزارت عبقرية أن يُوَصّل للآخرين سيمفونية كاملة يسمعها هو نفسه. وعلى هذا النحو، يتمتع بعض الأفراد بموهبة نادرة في أن يوصلوا بالكلمات مجموع خبراتهم بطريقة يكون فيها لحدث معين خاصية العمومية، وتنعكس العموميات في أشياء حية محسوسة. أولئك الأفراد يقدمون «إلماعات» و«بصائر» لا يستطيع عالم النفس أن يتجاهلها. ومن الطبيعي كذلك أن يسعى العالِم الإنساني إلى فهم الحياة الإنسانية على هذا النحو. لذا، بالرغم من أن طرق العلم توفر واحداً من أكثر طرائق المعرفة إنتاجية، فإن العلم محدود، على الأقل كما يجري ونفهمه عادة، بطبيعة المشكلات التي يتصدى لها. فعلى سبيل المثال، يبدو العلم عاجزاً عن أن يجيب وحده على السؤال: ما الذي ينبغي أن يكون عليه هدف أو أهداف الإنسان في الحياة؟ وعالم النفس خاصة بحاجة إلى أن يفهم على نحو أكثر دقة وحساسية الدور الذي تلعبه الجوانب الخاصة بالقيم في الخبرة في تحديد أهدافنا ومرامينا، سواء المباشرة أو القصوى؛ وهذا الدور الذي تلعبه في كل السلوك الإنساني ليس محكوماً بالانعكاسات أو المبادئ البسيطة للاتزان العضوي. لهذا السبب، وليس لأي سبب آخر، ينبغي أن نولي اهتماماً بما يتكشف من خلال المسالك الأخرى المؤدية إلى «الحقيقة»، وبطرائق البحث والتنقيب التي تختلف عن طرائق العلم. فمعظم الناس تحقق حياتها وتعلمها وملاحظاتها خارج نطاق مختبر العالم أو تكوينه العلمي. ولهذا، فإن هذه الطرائق لا تنوء نسبياً بعبء الحاجة إلى أن تتسق في ضوء مجموعة قائمة من التجريدات.

ومن المعروف عامة أن بعض الشعراء أو الفنانين أو الكتاب أو غيرهم من الملاحظين يتمتعون بحساسية مرهفة غير عادية للجوانب غير الرشيدة في الحياة. وبالرغم من أن علم النفس قد أخفق في بحث هذه الجوانب المجردة

من الخبرة الإنسانية، وبالرغم من أن الكتاب اللاعلميين قد أرهفوا انتباههم إليها، فإنه يبدو أن هناك فارقاً في الاهتمام بدور المشاعر والقيم، وفي تقدير هذا الدور بين العلماء والعلماء الإنسانيين، على الأقل في الثقافة الغربية.

ولا نقصد في هذا الصدد بالطبع أن نشير إلى الإنسان على أنه «عاقل» rational كلية أو «غير عاقل» irrational كلية، أو إلى أن علم النفس مطالب بأن يتناول استئثاراً العمليات العاقلة، وأن الشعر (من حيث المعنى الكلي) مطالب بأن يتناول المشاعر استئثاراً. ولا نقصد كذلك أن نعطي انطباعاً بأن الشعراء يخبرون مشاعر «خالصة»، بينما يكون العلماء خالين من المشاعر. فكلاً من علم النفس والشعر يكشف عن حقائق هامة عن كل الحياة الإنسانية، بما فيها من جوانب عقلية وغير عقلية. ولكن ما يبديه كلاهما من اهتمام وتأكيد يبدو مختلفاً. ومن شأن الاعتراف بهذه الحقيقة أن يوفر بعض التوازن لأي فرد يهتم بالتعلم من كل من علم النفس والشعر.

الجـزء الثالث

علم النفس والقيم الإنسانيـة

الفصل التاسع

الخرائط المعرفية[1]

لقد أبدى علماء النفس دائماً تناقضاً حيال القيم. فإذا أثرنا قضية الهدف النهائي، فلا شك أنه سوف يستدعي اصطداماً في الرأي. العلم يتناول، كما يقال غالباً، الحقائق، وليس القيم. «هذا الاتجاه - كما يشير «ديوك»- قد تغلغل في علم النفس بواسطة «تيتشنر» الذي في تحمسه لجعل علم النفس أكثر علمية كان يقلد الفيزيائيين التقليديين واستبعد القيم من العلم الجديد وما تنطوي عليه القيم من معان وفوائد.

لا يستطيع أي عالم أن ينفي اهتمامه بالهدف بدون أن يتورط في تناقضات. وحالما يحول اهتمامه من دراسة العمليات الجزئية المعزولة إلى دراسة الإنسان، فإنه يجد نفسه مضطراً إلى الأخذ بأحكام قيمية عن سلوك الإنسان وعن علاقته ذاتها بالناس الذين يحاول مساعدتهم أو دراستهم. يلاحظ «ميس» أن «عالم النفس التربوي يسلك كما لو أنه يعرف ما هو صالح للطفل. ويسلك المعالج النفسي كما لو أنه يعرف ما هو صالح للمريض. ويسوق عالم النفس المهني نفسه كما لو أنه يعرف ما هو صالح للعاملين. وعلى هذا النحو يسلكون في الحقيقة» [2]. وليس من المعقول أن خبرة كوننا بشراً لا تلقي بعض الضوء على ما هو ملائم للبشرية عموماً. وفي الواقع أن الخلافات النظرية في هذا الموضوع لا تصل عادة إلى حيز التطبيق. فما يسعى المعلم أو المعالج النفسي إلى تحقيقه في الفصل المدرسي أو في المقابلة الإكلينيكية هو تقريباً نفس الشيء رغم الاختلافات في الاتجاه الفلسفي.

ومن الواضح أن القيم تفترض قبلاً وجود غاية أو هدف. فالأشياء في حد ذاتها، كما هو واضح من تجارب التعلم، تكون مرغوبة فحسب إذا كانت تخدم غرضاً مفيداً: العصا تكتسب «قيمة» بالنسبة لقردة الشمبانزي حينما تستخدم للحصول على العنب، وهي تفقد الاهتمام بالعنب في الحال حينما

(1) W. F. Dukes, Psychological studies in values. Psychol. Bull., 1955, 52, 24-50.

(2) C. A. Mace. Homeostasis, needs and values. In John Cohen (ed.). Readings in Psychology. London: Allen Unwin, 1964, p. 104.

تخفق العصا في أداء الغرض منها. وفي حالة الإنسان، يؤلف السعي الهادف حقيقة الشخصية، ويحدد الاتجاهات والنزعات المتسقة المرتبطة بالأشياء التي يفضلها نمط سلوكه. فالمفتاح الأكيد لمعرفة الشخص هو فهم نسق القيم لديه. ورغم أن الكتب الدراسية لا تعالج هذه النقطة، فإنه يبدو أن هناك اتفاقاً كبيراً في هذا الصدد. يشير «هول ولندزي»: «هكذا يبدو أن معظم أصحاب نظريات الشخصية عامة يدركون الإنسان كمخلوق غرضي، ولكن حينما لا يؤخذ هذا الموضوع كقضية مسلمة لا يبرز كقضية يحتدم فيها النزاع»[1].

ولا ينبغي أن يؤخذ هذا بمعنى أن إغفال تيتشنر للقيم قد اختفى كلية من علم النفس كما قد يتراءى للبعض. فما يبديه بعض علماء النفس من تخوف هو أن الاهتمام بالقيم سوف يؤول حتماً إلى مشكلات الغرضية التي تقع خارج نطاق البحث التجريبي. فالحصول على إجابات نهائية لأسئلة مثل «لماذا خُلق الإنسان؟»، ليس ميسوراً بالملاحظة والقياس ولكن ينبغي البحث عنها في أنظمة أخرى. وإثارة أسئلة حول طبيعة الإنسان تستدعي جدلاً لا ينتهي يحمل طبيعة فلسفية. إذن هل من الأفضل تجاهل جوانب القيم في الشخصية بقدر المستطاع؟ يلزمنا، أولاً وقبل كل شيء، ألا نسعى إلى الضغط على دراسة القيم إلى نقطة الانفجار. فالسؤال» لماذا خُلق الإنسان؟» يحمل إجابات كثيرة، معظمها متمركز ضمناً في الطريقة التي بها يصمم العلماء السلوكيون تجاربهم ويطبقون مبادئ علم النفس على تلك المجالات المتشعبة مثل علم الجمال والإرشاد النفسي والهندسة البشرية. ثانياً، يتم التوصل إلى القوانين النفسية المرتبطة بالتفكير والعمليات الإنسانية الأخرى على أنها «رواسب سلوكية» (behavioral residue) بعد صهر كل الفروق الفردية. هذه القوانين تصف البشر عامة أكثر من وصفها لهذا الشخص أو ذاك. وقبل أن تستخدم بطريقة ذات معنى في دراسة فرد من الأفراد، ينبغي استعادة بعض المعادلات الشخصية التي ضاعت في عملية التعميم. وليس أقل في الأهمية من بين هذه الاعتبارات «الخرائط المعرفية» (cognitive maps) التي تعمل على توفير الوجهة التي يأخذها كل هذا السعي والكد.

(1) C. S. Hall and G. Lindzey. Theories of personality. New York: Wiley, 1957. p. 539.

إن علماء النفس كجماعة وكأفراد تحركهم أهداف غائية. وإذا كان لنا أن نثبت مدى الحاجة إلى الأهداف القصوى لمهنة علماء النفس، يكفي للتدليل على هذا ما يعرف بـ «المعايير الأخلاقية لعلماء النفس» التي أصدرتها الجمعية الأمريكية لعلم النفس» (APA). ومن المقترح لتدريب طلاب علم النفس أن يسجلوا كل الأحكام القيمية الأساسية الصريحة والضمنية التي تظهر في القسم الثالث الخاص بـ «المعايير الأخلاقية في التدريس».

ورغم أنه من الممكن أن يتمركز المحور الأساسي لمقاومة تقبل القيم (التي سيرد ذكرها) غالباً حول مشكلات المنهج أكثر من أن يتمركز حول وجود القيم في العلم، فمن المحتمل أن يُعَبّأ تطرقنا لأهداف نهائية بتشويش فلسفي. ويمكن أن تضيف مناقشة هذا الموضوع في القسمين التاليين عمقاً كبيراً لفهمنا لمسئوليتنا الشخصية والمهنية.

(٣٢)

علم النفس – الصيرورة واللاصيرورة(*)

ج. تيرنر

(جامعة أونتاريو الغربية)

يذخر علم النفس بالمحرمات، وأحد هذه المحرمات ما يتعلق بالأهداف «القصوى أو الغائية» (Ultimate aims).

مثل هذه الموضوعات الدقيقة تُستبعد عادة من الكتابات المتخصصة في علم النفس ومما يجري من حوار ونقاش بين علماء النفس، وعلينا ألا نذهب بعيداً للبحث عن أسباب ذلك. وأكثر ما يتضح في هذا الصدد شيوع المناخ الفلسفي الخاص بالوضعية المنطقية أو الامبيريقية العلمية، مع إنكاره للغيبيات، وهو إنكار لا طائل تحته. وهنا نجد أن أكثر المتحمسين له يعمدون إلى تجنب الأهداف الغائية على أساس من الاعتقاد الشخصي، وآخرون يلجأون إلى ذلك على أساس من اللامبالاة بمثل هذه القضايا الكبيرة، أو من عجزهم عن التوصل إلى حلول لها. ولا يزال آخرون ربما يعرفون أين يقفون ولكن يعتبرونها كقضية شخصية، أو قد يخفقوا في تناول المحرمات بالاحترام. ومهما كانت الأسباب، فإني اعتبر مؤامرة الصمت هذه على أنها مأساة، ولذا سوف أجعل هنا من قضية الأهداف والغايات موضوع اهتمامي الأول.

بما أن الأهداف الغائية أو القيم تلقى ذلك الاهتمام الضئيل، فإني أستطيع أن أذهب إلى القول بأننا بدونها قد تردينا في حالة من الضياع سواء في حياتنا المهنية أو الخاصة: إلى أي مدى يستطيع السيكولوجي الإكلينيكي الذكي أن يقوم بمهمته بدون أن يتملكه تعجب وبعمق عما يحاول أن يفعله؟ هل مهمته أن يساعد على محو الأعراض غير المرغوبة، أو أن يختزل الألم النفسي، أو أن يعمل على تحسين الكفاية، أو أن يستعيد مستوى سابق للوظيفة، أو أن يسهم في النمو أو الاستقلالية، أو ماذا؟ هل يرى الصحة النفسية على أساس إيجابي، وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الحالة المرغوبة التي يهدف إليها؟.

---

(1) G. H. Turner: Psychology- Becoming and Unbecoming. Canad. J. Psychol., 1960, 14, 153-165.

ولا تختلف عن ذلك مشكلة الأخصائي في علم النفس الصناعي. هل وظيفته أن يساعد على تحقيق أهداف عميله أو على زيادة الإنتاج والكفاية، أو على تحسين العملية الإدارية، أو على مشاركة العميل بتصوراته الخاصة، أو على المساعدة في تحقيق الأهداف الموجهة اجتماعياً، أو ماذا ؟ يستجلي القسم الرابع عشر من دستور «الجمعية الأمريكية لعلم النفس» هذه المشكلة بوضوح هائل باقتراحه أن يقوم طلاب الدراسات العليا في علم النفس الصناعي بتنمية وعيهم «بحقائق» العمل والحياة الصناعية. وإذا كان لي أن أفسر هذه العبارة تفسيراً صحيحاً، فإنها تعني أنه لكي تكون مُوجهّاً ناجحاً ينبغي أن تعرف أهداف عميلك وأن تساعده على تحقيقها — وهو اقتراح برئ كما يبدو لي ! ويواجه المدرس بالجامعة والإداري صعوبات مماثلة. هل يُعّدل من برامج الدراسات؟ ولأي هدف؟ هل الهدف هو إصلاح المنهج المحوري، أو تنمية المهارات الموجودة، أو تخريج علماء، أو ماذا ؟ .

دعنا نلمس عصباً أكثر حساسية ونُقرّب المشكلة إلى أذهاننا. كيف نستطيع تنظيم حياتنا الخاصة ونحقق لها الصحة والاستقرار إذا لم تكن لدينا أهداف أو قيم نمتطي صهوتها، إذا وطأنا أرض النشاط بلا هدف أو قصد؟ فبدون وجود نظام هرمي للقيم تكون الحياة فوضى وبلا معنى. وبدون الوعي بقيمنا، كيف يمكن أن نتقبل المسئولية بالنسبة لها ونتجنب أن نصير عبيداً لما قد تباشره المؤثرات الثقافية الهابطة فينا؟ وإذا توفرت لدينا مرغوبية الوعي بالذات، وتكامل وائتلاف الفكر والمشاعر والعمل، فإن المشكلات المهنية والعلمية والأكاديمية والخاصة تبدأ في أن تتبلور في مشكلة واحدة، ألا وهي : ما هي أهدافنا القصوى؟ وكيف يمكن أن تتجسد في حياتنا الخاصة والمهنية؟.

ولكن ما الذي نهتم به في الوقت الحاضر؟ إذا كنا نتجنب الدخول في مجادلات حول الفلسفة أو حتى حول الدين، فإننا سوف نعترف صراحة بمطالب الأهداف القريبة البسيطة والمألوفة مثل زيادة الإنتاج والكفاية والربح، أو على نحو أفضل تحسين العلاقات بين أصحاب العمل والعاملين، أو تحسين التوافق الشخصي، أو تيسير عملية التطبيع الاجتماعي، أو رفع المستويات في المهنة، أو تدريب علماء بمستوى أحسن، وأفضل من هذا كله، الإضافة إلى المعرفة أو تطوير علم النفس كعلم وكمهنة. وإذا كانت هذه الأهداف تحظى

بالاحترام، فإنها تلقى أيضاً نوع من عدم الرضا. فهي كلها تترك السؤال بلا إجابة، فلماذا الحيرة؟ فإذا كنا نقف بعجز أمام قوة الله أو الشيطان أو الدولة أو الإنسان الكامل أو غير ذلك من البدائل الغائية، فإن ذلك يعني أننا نعترف أننا لا نعرف ما نفعله، أو إذا كنا نعرف، فإننا لا نعبر عنه.

ومن شأن مفهومنا الكامل عن الإنسان أن يزودنا بخريطة معرفية أساسية تتلاءم فيها كل خرائطنا الصغيرة إذا كان لنا أن تكون لدينا نظرة متماسكة للحياة. ولكنه لم تتوفر لدينا نماذج شاملة، كما أن الأجزاء والشذرات التي تؤلف الأحكام الاتفاقية إنما تتصف بافتراضات غامضة وبعدم اتساق وبمغالطات جسيمة وبصدق مشكوك فيه. وإذا لم نكن هكذا على بيّنة من طبيعة الإنسان، فكيف نتأكد - كمرشدين وموجهين ومعالجين ومعلمين - من أننا نفعل كل ما هو أفضل بالنسبة له؟ كيف نكون على يقين من معرفتنا بأفضل الأسئلة التي نطرحها عن طبيعة الإنسان موضوع دراستنا؟ فمن الصعب أن نجد إجابات جيدة لأسئلة رديئة.

لا تظن أن هذا ليس من عملنا، أو أنه يمس فقط اهتمامات أصحاب النظريات التأملية في الشخصية. هل نتخلي عن مشاركتنا في رسم السياسة؟ هل نحن راضون بإصلاح قرارات الآخرين؟ إذا كان هذا ليس من عملنا، فما هو إذن؟ .

ثمة اعتراض يتراءى للكثيرين يتلخص في أن هذا لا ينطوي على أهمية مباشرة بالنسبة لنا كعلماء، لأن علماء النفس لا يعرفون بدرجة كافية كيف يقدمون صورة متكاملة عن الإنسان. وتتحدد إجابتهم هكذا «أعطنا مائة سنة أو أكثر ليكون لدينا شيء ذات أهمية نستطيع أن نقدمه». إن تجاهل ذلك لهو أمر سهل، ولكن مناقشته في هذه الحالة تكون أكثر إقناعاً إذا لم تضع في الاعتبار تلك الحقيقة بأن نفس عالم النفس يعيش الحياة الحقيقية لشخص حقيقي بالمنزل وبالمجتمع وبين زملائه المهنيين، ويناضل من أجل ما يعتقد أنه صواب، ويشق طريقة في عالم حقيقي، وذلك على أساس من افتراضات حقيقية حول طبيعة الإنسان.

فاجتيازنا للشوط كله وتحديدنا لهدفنا النهائي سوف ينتهي بالطبع إلى لا شيء سوى إلى كلمات إذا لم نكن في نفس الوقت نتتبع خطواتنا ونحدد في نظام هرمي أهدافنا؛ ومن هذا النظام الهرمي للأهداف فحسب تنشأ أية تضمينات واضحة للسلوك، والتي بها يمكن تقييم السلوك على نحو منظم. وبذلك يكون الشخص السوي الذي يتصف ذهنياً بالحيوية والنمائية واعياً بأهدافه، مهيأً أبداً بالحاجة إلى تعديلها وإلى تغيير سلوكه، ومن ثم يحقق أهدافه على نحو أفضل.

وإذا كان القارئ يتوقع منا أن نصل إلى اتفاق حول الأهداف، فليس هذا بمعقول، بالرغم من أن الكثير من اختلافنا، كما اعتقد عن يقين، يرتبط بمعاني الكلمات أكثر من أن يكون اختلافاً حقيقياً. أي حواجز هائلة يمكن أن نقيمها في وجه التواصل الفعال؟! أي خطأ في التعبير يمكن أن نأتي به؟! يستطيع المرء بكل اعتزاز أن يعترف بالتردد أو الخلط. ولكن ما الذي يمكن أن يقال عن أولئك الذين ينكرون المشكلة أو يتجاهلونها؟.

إذا كان لنا أن نقبل مسئولية اتخاذ القرار، مهما كان أولياً، فإن الأسس النهائية التي نقيم عليها حياتنا قد لا نشكلها بعمق طالما أن الإجابات متضمنة بالفعل في سلوكنا. فلكل فعل من أفعالنا هدف معين نتبناه. ولكن هل هناك ما هو أصعب من أن يكشف المرء عن افتراضاته ويجعلها صريحة؟ وأكثر من ذلك، فإن القيم التي نأخذ بها، والغايات المتضمنة في سلوكنا، لا تفترض نوعاً من الوجود المستقل. وعلى العكس، فهي تتغلغل في نظرة الإنسان، وفي تصوره لطبيعة الوجود ولمكانة الإنسان فيه: ما طبيعته، ما الذي يحتاجه، إلى أين هو ذاهب، كيف تكون مسئوليتنا نحوه؟ تحدد إجابتنا على هذه الأسئلة الترتيب الهرمي لأهدافنا.

ولعلي أسلم بأن معرفتنا محدودة وبأن مفهومنا عن الإنسان ينبغي أن يتبلور مع افتراضات مستعارة أو مستحدثة. ولكن مما لا شك فيه أنه ينبغي أن نسعى باستمرار إلى الربط والتكامل بين تلك المعلومات كلما توفرت لدينا. ومما يبعث على السخرية بالنسبة لعالم النفس أن يكرس حياته لمهمة بناء الأسس التجريبية (الأمبيريقية) للمعرفة الخاصة بالإنسان، بينما يعيش حياته

على أساس مسلمات لا تضع في الاعتبار المعلومات المتوفرة بالفعل في علمه.

ولعلنا لا نقع في هذا الخطأ، وفي المقابل أن تكون مهمتنا إلقاء الضوء على طبيعة الإنسان. وعلينا في ذلك — كأشخاص عمليين وواقعيين — أن نتكرس تماما للتعرف على تلك الآراء المتعلقة بالإنسان والتي نعتقد أنها أكثر صلاحية. إننا مطالبون — كعلماء نفس — أمام أنفسنا وأمام الآخرين أن نحدد أي الافتراضات التي نُعُّد أنفسنا للعمل على التحقق منها، وذلك بغية إيضاح فكرنا وإعطاء وجهة أكثر اتساقاً لعملنا، وكذلك بالنسبة لعملائنا لكي يتأكدوا من ثقتهم فينا حينما يلجأون إلينا.

إذا فعلنا ذلك، سوف نجد أننا لا نعد بعد نعلن عن المعرفة من أجل ذاتها. ولا نعد نعتبر علم النفس كفاية في حد ذاته — كطريقة للتفكير زحفت إلى كتبنا الدراسية وإلى مقالاتنا لتناقش، مثلا أهمية علم النفس في التدريب والاختيار السليم، أو الخطر من علم النفس بالتخصص المبكر فيه، وغير ذلك- تلك فحسب طريقة للكلام، ولكنها قد تكون طريقة سيئة. فالمبالغة غير المقصودة تؤدي بسهولة إلى تأليه غير مقصود. وبينما لا يزال يوجد تساؤل كبير حول فاعلية علم النفس كوسيلة، فمن الصعب أن نجرؤ على تحويله إلى غاية.

إن الإنسان قد يحتاج قدراً من الأشياء، ولكن الشيء الوحيد الذي يحتاجه بالتأكيد هو نظرة سليمة إلى نفسه، وهي نظرة تكون متسقة مع معرفته الكاملة بنفسه وبعالمه ومتغلغلة فيها. هنا يكون دور علم النفس ملائماً وفعالاً. فالعالَم لا يدور لكي يلائم علم النفس. وتشتق دراسة علم النفس تلك الأهمية من قوته في إسهامه في معرفتنا الخاصة بالإنسان وبآفاق تقدمه وإبداعاته.

ومن المستحسن هنا أن نُذكّر أنفسنا بأن علم النفس ليس إطلاقاً بالمصدر الوحيد للمعرفة عن الإنسان وعن الآفاق المتعلقة به. وكم من السهل أن ننحني إجلالا للعلوم الطبيعية، ونهمل العلوم الاجتماعية الأخرى، ونغفل الفلسفة والمصادر الفنية في الأدب والتاريخ والفنون. ولكن كم يعتبر هذا اتجاهاً ينطوي على عدم الحكمة وسوء التقدير. فالأنظمة الأخرى ليست مجرد « مصادر

مفيدة لفروضنا» ولكنها تعد مصادر لمعظم مفاهيمنا وتقريبا لكل أفكارنا الجديدة. ومن أين نحصل على المسلمات التي بها ندير حياتنا؟.

يتطلب ذلك إيضاحاً أكبر. وسوف أقتصر على إقرار افتراض بأنه لن ينقضي وقت طويل إلا وسيصبح لعلم النفس والعلوم الإنسانية لغة تعبيرية أفضل، وحتى في المؤسسات العلمية قد يقوم علماء النفس أنفسهم بتدريس الفلسفة لطلابهم لنفس الأسباب التي من أجلها يدرس الإحصاء، وخاصة لأنه توجد مهمة خطيرة لا يمكن تركها لأقسام أخرى.

وفي هذا الصدد كنت مهتماً باكتشاف أن المشكلات العملية المشتركة يمكن أن تجذب معاً ثلاثاً من العلماء – عالم في الدين وعالم نفس وطبيب نفسي، بهدف أن يضطلعوا بمهمة جادة تدور حول مقارنة وجهات نظرهم عن الإنسان واستنباط نقاط التشابه والاختلاف بينهم، مع التركيز على التطبيقات العملية في مجالات الإرشاد والعلاج. لقد نشرت النتائج في ندوة بعنوان «ما هو الإنسان، إذن ؟» (what , then , is man). لقد أثار دهشتي ذلك النجاح الواضح وتلك البادرة المشجعة بأننا قد نسير في تطور وتقدم. فإذا كان لعلماء الدين وعلم النفس أن يتعاونوا بفاعلية في سبيل التوصل إلى حلول لبعض المتاعب والمشكلات، فينبغي ألا يكون من الصعب على علماء النفس أن يتصلوا ببعضهم الآخر إذا كان لهم أن يعقدوا العزم حقيقة على التصدي لمشكلات الإنسان.

من الصواب أن نتذكر، عندئذ، أن علم النفس لا يستطيع أن يدعي لنفسه مكانه الصدارة الوحيدة في دراسة الإنسان. فبالإضافة إلى ذلك، ينبغي أن تكون لدينا الشجاعة لنؤمن بأن هناك أكتافاً أخرى بجانبنا تحمل المسئولية وتدفع العجلة، هناك الكثير مما يتوقف علينا ويكون مرهوناً بنا، ولكن – لحسن الحظ – ليس كل شيء.

وربما نتوقف أيضا للتبصر عجباً كيف أن الوظائف المعرفية للإنسان عظيمة بحيث تخفف من وطأة الأشياء المفجعة في خبرة الإنسان، وكيف نكون على استعداد للتسليم بأن العلم والمعرفة والحكمة هي كل ما يهمنا في الحياة.

وكمــا نعتــرف فــي علم النفــس بتلك المآخذ التي تتمثل فــي تجزئــة الفرد بهدف الدراســة، علينا أن نعترف أيضا بخطورة تجزئة الحياة من أجل العيش فــي هذا العالــم، كمــا نفعل حينمــا نعمل كما لو أن المعرفة هي كل شــيء. لــذا حينما نعود إلــى وضــع علم النفس فــي هذا الصدد، علينــا **أن نضع في الاعتبار علم النفس داخل العلم، فـي سياق المعرفة الإنسانية، داخل سياق الحياة الإنسانية.** فلا يكفــي فحســب وجــود من يعمل فــي مزرعــة العنــب، ولكن توجد أشــياء أخــرى ينبغي عملهــا بجانب دراســة العنب. ربما نســتخدم هــذا الوصف المجــازي لتلخيص كل مــا ذكرته وأيضــا لتغطية كل ما أخطــط الآن لإضافته.

ملاحظتــي التاليــة، إذن، تتحــدد فــي أنــه يبدو أننــا لا نعطي للإنســان ما يســتحقه مــن احتــرام إذا اعتمدنــا فــي أحكامنا علــى النظريات الســائدة. فلا شــك أننــا لا نعطــي إلا اهتمامــاً ضئيــلاً لخصالــة الرفيعــة ولإنجازاتــه الفــذة. وإذا كان لنظريــة فــي الشــخصية، أن تَلْقــىَ قبــولاً عامــاً، فتوفر إطــاراً مرجعياً للحيــاة وللتنظيــم الانتقائــي للخبرة وللملاحظــة العلمية المنظمــة ، فإني أتفق مع «برونفينبرينر» (Bronfenbrenner) وآخرين من شــاكلته ممن يشــعرون أن نضج علــم النفــس كعلــم مرهــون أساســاً بما نضطلــع به من أعمال فــي هــذا الميدان لمســتقبل هذا العلم.

وبقــدر ما يمضي التنظير فــي هــذا الصدد، يتملكني بعــض من عدم الرضا حيــال الافتراضات القَبْليــة التي يُعّول عليها. ولعلنا نقرر منــذ البداية أن معظمنا يبــدو أنــه مــن «التجريبيــين المعرفيــين» (epistemological empiricsts) الذين يهتمــون أساســاً بتتبــع كل المعرفة المتعلقة بالخبرة الحاســية، كما لــو أن البيانات الخاصة بالخبرة توحد نفســها فــي مبــادئ أو مفاهيم أو تعميمــات مترابطة. ولا يوجــد للتأمــل الــذي لا يتعلق بحقائــق الملاحظة أو الذي لا تحكمــه هذه الحقائق مــكان فــي علــم النفــس، ولكن لا ينبغي ألا ندع حماســنا فــي ســبيل الموضوعية يعمينــا عــن الحقيقــة بأن الشــخص الملاحِــظ الفعال هو الــذي يــدرك البيانات الحاســية ويفطــن إليهــا، ويقــدم الأطر المرجعيــة التــي بدونها لا يكــون للحقائق معنى. وما اعترض عليه هو أن الإنســان لا يأتي بشــيء للموقف الذي لم يكتســبه مــن خــلال الملاحظات الســابقة. هــذا واحد فقط مــن التوجهات التــي أدت إلى اختــزال النشــاط النفســي، والتــي أدت كذلك بتفكيرنــا إلى أن يتجزأ وينشــطر،

والتي جعلتنا نخفق في تقدير إمكانية وجود وضع وسط معين (وسط فاضل)، مثل الجمع بين التجربية (الامبيريقية) والعقلانية.

وإذا مضينا بهذه الفكرة أبعد من ذلك قليلاً، ينبغي على سبيل المثال أن نتوقف عن ادعاء أن البصيرة العلمية يمكن تحقيقها باقتفاء مسار منطقي من التعقل الذي يتبع سلسلة من الملاحظات. فلا تنشأ نظريات العالِم تلقائياً من البيانات ولا من تطبيق أساليب منطقية للتفكير. فإسهاماته النظرية تقوم ليس فقط على تلك الإنجازات العقلانية القابلة للتدريب، ولكن أيضاً على المصادر اللاعقلانية والغامضة بعد عن حياته النفسية. ولا يعتبر التدريب العلمي على الإجراءات التحقيقية (مثل اختبار الفروض) ضماناً لانطلاق الإبداع العلمي لتطوره.

وإذا اتفقنا مع المدرسة التجربية (الامبيريقية) المتعمقة، نجد بصفة عامة «النظرة الواحدية المادية» (materialistic monism) التي تذهب إلى أن كل الأحداث النفسية، من حيث المبدأ، قابلة للاختزال إلى أحداث فيزيقية. وهذه النظرة تحمل في ثناياها إلى حد بعيد «قانون الاقتصاد» (parsimony)، أي القلة من غير إقلال. وهي تتطلب منا أن نتقبل أن العمليات النفسية ذاتها التي بها نتفطن إلى العالم المحيط بنا يمكن اختزالها إلى الأشياء أو الموضوعات التي يمكن إدراكها وفهمها. ويؤدي ذلك إلى تصعيب معالجة الوعي، وإلى أن يكون مثالاً آخر للميل إلى الاختزال من النشاط النفسي الإنساني. فللثنائية مشكلاتها، ولكن هل هي أكثر جسامة من المشكلات الكامنة في النظرة الواحدية؟ إن الثنائية قد تبعث على الانزعاج والضيق، ولكنها تشدني لكونها أكثر واقعية.

نظرياتنا أيضاً، هي في معظمها، آلية بعد أن قدم «كتشوم» (Ketchum) مقاله الرائع المقنع في مجلة Canadian Psychologist عن مزايا «الآلية». وقد يبدو من الحماقة أن نتخذ موقفاً بشأنها. لكنه وقع في خطأين: الأول، هو إشارته إلى زملائي ممن يشايعونني من علماء نفس تحقيق الذات الغائيين على أنهم قبيلة، ولا أعتقد أنه يقصد من ذلك الثناء. ومن تلك اللحظة، أيقنت أن الآلية لا يمكن أن نسمح لها أن تستمر دون تحدي. لا شك أن هناك

سراً غامضاً يتعلق بالآلية بدرجة كافية لدى أي فرد، كما أنه لا شك أن الآلية ضرورية كافتراض منهجي، ولكن لماذا تبدو كافتراض غيبي؟ الخطأ الثاني، كما أشعر، هو افتراضه أن «المنحى الحيوي البيولوجي» (biological vitalism) هو البديل الوحيد للآلية. المنحى الحيوي قد يكون أو لا يكون بعد توجهاً بغير ذات بال، ولكن من الضروري العمل عل أن نمعن النظر في منحى الانبثاقية» (emergentism) و«الوجودية» (extistentialism)، وماذا يضمن بأنه سوف لا يكون هناك غيرها؟ .

ولنتناول إيضاحاً آخر، وهو ما يجري من اعتراض شديد لمنحى «الحتمية» (determinism) وحرية الإرادة. فالأشخاص الذين يشعرون بأن إحساسهم بالحرية والمسئولية ليس وهماً، يتملكهم الانزعاج من ادعاءات أنصار الحتمية العلمية. ويبدي العلماء الاجتماعيون اضطراباً حيال متضمنات مبدأ حرية الإرادة، إلى الحد الذي يدفعهم إلى أن يضيفوا إلى قائمة متغيراتهم واحداً يبعث على المنازلة والحرب، ولكن لا يكون قابلاً للضبط أو السيطرة من حيث المبدأ. فهم ينزعون إلى الشعور بأنه إذا كان لهذا النوع من الأشياء أن يستمر، عليهم أن يحزموا أمتعتهم ويعودوا إلى منازلهم – وهو قرار، أن يكونوا على استعداد لأن يتخذونه بكل ثقة ومسئولية. ومن الواضح أنه توجد بعض الصعوبات هنا تحتاج إلى حل. ولكن القضية تبدو مهمة لأسباب أخرى. فلا يستطيع أحد أن يعطي تقييما جامعاً وشاملاً للإنسان بدون أن يرتطم بهذا الموضوع. أضف إلى ذلك، أن النظرة التي يتمسك بها عالم النفس التطبيقي أو غيره من الممارسين الذين يتصدون للمشكلات الإنسانية تؤدي إلى التأثير في اتجاهه أو فهمه أو معالجته أو نصيحته.

لم يبد أصحاب الحتمية العلمية انزعاجاً وقلقا مثلما أبدوه حينما أصبحوا على وعي تام بوجهات نظر دعاة حرية الإرادة السوفسطائيين الذين لم يروا في الإنسان حرية نفسية غير محدودة في ظل كل الظروف، وإنما حرية محدودة؛ وإذا كانت ذات أهمية بالغة فإنها تكون في ظل ظروف معينة- وكل هذا في إطار حتمية ضرورية للغاية. لذا لا تكون حرية الإرادة متعارضة مع الحتمية ولكن تواكبها وتعليها، ويكون الخصْم الحقيقي للحتمية هو اللاحتمية. هذه الآراء قد أُحْكمت وأُتقنت بسفسطة فلسفية وسيكولوجية أكثر مما يمكن

أن أعرض له، على يدي «فيذر مايلوكس» F. Mailloux في دراسة له في «المجلة الكندية لعلم النفس» تستحق قراءة عميقة. واتخذ «فيجل» (Fiegl) نفس الموقف في دراسته المختصرة عن هذه المشكلة في مجلة «السيكولوجي الأمريكي» (American Psysholologist). ولكن استبدال اللاحتمية بحرية الإرادة كخصم حقيقي قد جعل من الصعب أن يكون له تأثير في تهدئة أعصاب صاحب المنحى الحتمي. وهو في ذلك يستطيع لفترة أن يلجأ محتكماً إلى محافل العلوم الطبيعية. عندئذ يتوصل إلى الاكتشاف غير الرصين بأن علماء الطبيعة – من بين الناس جميعاً – هم خير مثل جدير بالاحترام العلمي، فقد أدخلوا ذلك المبدأ المتمرد الفظ الخاص باللاحتمية، خاصة فيما يتعلق بسلوك أدق الجزئيات والذرات، ولكنه ينطوي مع ذلك على مزايا كاملة. الحتمية العلمية إذن هي في معضلة مزدوجة، وعليها بالتالي أن تتوصل إلى نوع من السلام مع الحرية، ومع اللاحتمية.

ومن حسن الحظ، أن علماء النفس قد بدأوا في الاعتراف بهذه المشكلة، وفي أن يفعلوا شيئاً بشأنها. يقترح «بول ميهل» (P.Meehl) ثلاث اختيارات أمامنا في هذا الصدد:

الأول، ويطلق عليه «**الحتمية المنهجية**»(methodological determinism)، وهو ذلك الاتجاه الذي يدفعك إلى البحث عن قوانين في مجال السلوك الإنساني، وإلى أن تتوقع التوصل إليها. وإذا وجدت قوانين راسخة بقوة، فسوف يمضي كل شيء على خير ما يرام .وإذا كان لك أن تتوصل إلى قوانين احتمالية، فسوف يكون هذا عظيماً بقدر ما سيكون مفيداً. ومن الواضح أن الإنسان يستطيع أن يتوصل إلى كل هذا، وإلى حرية الإرادة أيضا.

النمط الثاني، ويطلق عليه «**الحتمية التجريبية**»(empirical determinism). هنا تبدو النظرة الأصعب لأنه إذا كان افتراض الحتمية قد استبعد أشياءاً حسنة وفي نفس الوقت قد أوجد بالفعل نظاماً هائلاً في السلوك، فإن التوقعات الواضحة ترجع في الغالب ولا شك إلى معلومات غير كاملة، وبالتالي فإن الافتراض في هذه الحالة يتحقق تجريبياً ويرسخ إلا إذا ظهرت بيانات أخرى مضادة قوية. أصحاب هذه النظرة يمكنهم على الأقل أن يجلسوا ويتكلموا عن حرية الإرادة بدون ما انفعال.

الفئة الثالثة والأخيرة، وهي «**الحتمية الغيبية**» (metaphysical determinism). يتمثل هذا ببساطة في القضية التي تذهب إلى أن كل الأحداث النفسية تقع وفقا لقوانين كونية عامة تتماسك كافتراض قبلي غيبي لا يعتمد بأي حال على البيانات التجريبية. وهؤلاء الذين يتمسكون بهذه النظرة هم أولئك الذين عليهم أن يعترفوا، إذا كانوا متسقين، بدون ما فخر أو خجل بأنهم قد يكونوا سعداء في الحياة ومسرورين لكونهم جزءاً من الحياة ولكنهم لا يتخذون موقفا يستطيعون منه أن يُقَيّموا أو يلوموا أنفسهم على ما يفعلونه أو مالا يفعلونه، والذين ينبغي أن يكونوا على استعداد للاعتذار إذا تكلموا بسبب عادات متأصلة، كما لو أن أي شخص ينبغي أن يفعل أي شيء.

إننا مطالبون بالتوصل إلى حل في هذا الصدد بطريقتنا الخاصة. وأود فقط أن أقرر أنه إذا كنا جميعاً نتكلم ونعمل كما لو أنه يوجد لدينا قدر يسير من الحرية، وإذا كانت الحياة تبدو لكثيرين كدعابة أو أضحوكة رديئة لو لم تكن لدينا بعض الحرية، فإني بالأحرى أتمنى أن نكون على درجة كافية من الأمانة والاتساق حينما نمضي إلى ما وراء نتائجنا ونحكي قصتنا القصيرة عن الإنسان. وذلك مما قد لا يغير قيد أنملة من مستوى الثقة لأي فارق إحصائي واحد. من ناحية أخرى، قد تؤدي إلى جعل نظرتنا أكثر انسجاماً مع سلوكنا وخبرتنا، وكذلك إلى أن يكون لدينا تأثير مرغوب على اتجاهنا نحو الكثير من المشكلات العملية.

ولعل النقطة الأكثر أهمية والجديرة بالاعتبار بشأن التجريبية والنظرة الواحدية المادية والآلية والحتمية، وبشأن عدد من المسلمات أو الافتراضات القبلية الأخرى الكامنة وراء ما نأتي به من تنظير عن الإنسان، هي أنه لا الفلسفة ولا العلم يستطيعاً أن يستوضحا ضرورتها. فهي تمثل تفضيلات، وليس نوعا من الحقيقة القصوى. وإذا كانت تؤثر في تحديد طرق دراستنا وفي تقييد تنظيرنا عن الإنسان، فقد نتخلى عنها أو نُعَدَّلها كما نريد. وعلينا أن نقاوم الضغط الاجتماعي طالما أن علماء النفس، شأنهم في ذلك شأن الآخرين، يفرضون ضغطاً هائلاً من شخص على الآخر بهدف المسايرة. لذا دعنا نتخلى عن الفكرة التي تذهب إلى أن القليل الذي نعرفه هو المقياس الكامل عن الإنسان، وإلى أننا نكتب عنه بلغة تعطيه بعض ما يستحقه من

فضائلـه العقلية والانفعاليـة والمعنوية كاملة. فالصورة ينبغي أن تكون متسـقة مع معرفتنـا العلمية ولكن ليسـت محـدودة بها.

وثمـة ثلاث قضايا عامة أخرى تشـيع فـي النظرية السـيكولوجية، أرى أنها ليسـت بـذات قيمة، لأنهـا لا تبـدو ذات أهمية منهجيـة وتخلق صعوبـات نظرية وعمليـة، ومـن ثم تؤثر فـي التقييم العام للإنسـان. أحد هـذه القضايا يمكن أن نتتبعـه حتى ديـكارت، أما الآخرتان فترجـع أصولها أكثر إلى التطـورات الجارية فـي علم النفس.

أولـى هذه القضايـا وأقدمها يتمثل فيمـا تأصل فينا من عـادة تجعلنا نعمد إلـى تجزئـة مفحوصنا الإنسـان إلى عدد مـن العمليات المنفصلـة، نعزلها بهدف القيـام بدراسـة أكثـر ملائمة. أننا نغفل فـي دراسـتنا للعمليات النفسـية – كما يذكـر «سـنيج» (Snygg) – المبـدأ التوحيـدي، وهـو الشـخص الذي فيه تسـتقر تلـك العمليـات، ثم نتعجـب بعد ذلك لماذا لم نسـتطع التوصل إلـى العمليات لكي تتـلاءم معاً فـي صورة معترف بهـا عن الكائن الحي الإنسـاني.

إن نزعتنـا إلـى تجزئـة موضوع دراسـتنا إلى شـذرات لا تبـدو بوضوح أكثر مثلمـا تتجلـي فـي الانشـطار المفجـع لعلمـاء النفـس ولبنـاة نظريتـه إلى ثلاث معسـكرات: المتحمسـين التجريبيين – الفسـيولوجيين، والمتكرسـين على دراسات علـم النفـس الاجتماعـي، وإتباع ديناميـات الشـخصية. وقد أدى هذا التقسـيم إلـى قـدر كبيـر من سـوء الفهم، وإلـى التنافـس والتنـازع. ومما لا شـك فيه أن كل واحـد قـد تملكتـه نزعة إلـى أن ينظر باسـتخفاف إلى الآخريـن، وبالتالي لم تكـن محـاولات حل الخلافـات ناجحة تماماً، من المحتمل بسـبب مـا كان يعوزها بوضـوح من أسـاس نظري للوحـدة – على الأقل إلى أن جاء المعالجون النفسـيون الوجوديون فـي أوروبا. فهم يعتبرون الفرد على أنه «كل موجود» فـي وقت واحد وبـلا اجتـزاء من حيـث الجوانـب البيولوجيـة والاجتماعيـة والشـخصية لعالمه. وبـدلاً مـن أن يلجـأوا إلـى المفاضلة واسـتفراد مآثـر أحدها على الآخـر، فإنهم يصـرون علـى أنه لا يمكن إغفال أي جانب من هذه الجوانب. ويسـتطيع أي قارئ لكتـاب «روللـو ماي» عن «الوجـود» (Existence) أن يقف على أن ما يسـتخدمونه مـن مصطلحات على التوالـي، وهـي: Umwelt, Mitwelt, Eigenwlt، إنما تعني

أساساً، ما يطلق عليه «نوتان»، الجانب النفسي – جسمي، والجانب النفسي – اجتماعي، والجانب الروحي. وقد يبدو هذا كاقتراح متطرف، إلا أنه سواء ربط مناصرو الجانب البيولوجي Umweltrs أنفسهم بما يُدرك خطأً على أنه السلالات الصغيرة أم لا إنما يظل الموقف واضحاً. ولا شك أنهم ملزمون أن يفعلوا ذلك وإلا أصبح من المتعذر إقامة الروابط بين الجوانب المختلفة.

ومن الافتراضات الأساسية المتضمنة أيضاً في الكثير من الأنظمة السيكولوجية افتراض نسبية القيم. ولا يتضمن هذا فحسب تلك الحقيقة بأنه توجد اختلافات واضحة بين المجتمعات فيما يتعلق بمفاهيم الصواب والخطأ، ولكن أيضا الاعتراض الأساسي بأنه «توجد قيم كونية عامة»، إلا إذا ظهرت ثقافة عامة في التاريخ.

وإذا كنا على استعداد لاعتبار «الأنسجة السليمة» (healthy tissues) و«الأنا القوية» (strong ego) على أنها أفضل من الأنسجة المتمزقة والأنا الضعيفة، فإنه يمكن تخطي الفجوة بين الحقيقة والقيمة وإقامة الجسور بينهما، ويصبح من الواضح أن الافتراض الأساسي الخاص عن «القانونية الكونية» (universal lawfulness) يحمل معه الافتراض الخاص بالقيم الكونية. ونعلم أن الناس في الثقافات المختلفة تشبع حاجاتها بطرق مختلفة بدرجة شاسعة. ولكن إذا كانوا يشبعون نفس الحاجات الأساسية، وإذا كان إشباع الحاجة يعتبر قيمة، فإن هذه القيم ينبغي أن تعتبر إذن قيماً عامة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإننا لن نستطيع أن نخرج بمعنى لا من علم النفس ولا من الأخلاق الإنسانية.

ولا يمثل هذا إطلاقاً نقطة بسيطة، لأن نسبية القيم – من حيث كونها البديل الوحيد للأخلاق المسيحية – تفترض أن عدم الاستحسان الاجتماعي بالنسبة لغير المتدينين هو العامل الوحيد الذي يوضع في الاعتبار في تقويم سلوك الفرد. ولا نستطيع ألا نتبصر عقلانياً التأثيرات الاجتماعية على النظريات التي تطرحها، وأن نشجع نتيجة مثل هذه- ففي تقديري أن كلاهما ينطوي على قصور وعدم مسئولية.

وإذا احتفظنا بتصور القيم على أنها نسبية يعني تقبل الضمير كمفهوم

فرويدي أساساً، كاستدخال للمعايير الوالدية. ولا نستطيع بالطبع أن ننكر حقيقة الضمير الفرويدي، ولكن نسـتطيع أن ننكر اسـتئثاره بالموقف، خاصة وأنه لا يمثل إطلاقاً البديل الوحيد للضمير. يشـير «روجرز» إلى، ويسـلم «ماسـلو» بشـجاعة بـ، «ضميـر داخلي»، وهـو تكوين فرضي ينطـوي على صدق تجريبـي هائل وعلى مفاهيـم نفسـية جيدة كثيـرة تلقي تقديراً كبيـراً. ومن الناحية الفلسـفية، أعتقد أن هذا يمثل تفضيلاً «للمدرسـة الحدسـية الأخلاقية»، (ethical intuitionism) على «المدرسـة التجريبيـة الأخلاقيـة» (ethical empiricism)، وهو تفضيل أميل إليـه لنفـس الأسـباب التـي تجعلني أتقبـل عمومية القيم الإنسـانية الأساسـية. لكـن هذا موضوع آخر قد خضع للمعالجة المتعمقة بواسـطة المعالجين النفسـيين الوجوديـين بمفهومهـم عـن «الذنب الوجـودي» (ontological guilt)، وهو شـكل مـن الذنب ينشـأ على الأقل جزئيـاً من إضاعـة وتبديد إمكانات الفـرد الكامنة. وهـم يتكرسـون على تقـديم التدعيـم الدنيوي القـوي لذلك الموقـف الذي جرى الدفـاع عنـه فـي علم النفس – وهـو موقف بسـيط ولكنه هام للغايـة، ونعني به «عمومية القيم الإنسـانية».

والنقطـة الأخيـرة التـي أود أن أتناولهـا تتعلـق بجانـب صعـب علـى وجـه الخصـوص مـن حيـاة عالِـم النفـس، ألا وهـي أن عالـم النفس هو نفسـه يمثل فـي الحقيقة جزءاً من موضوع دراسـته. ونتيجة لذلك، إذا كان للسـيكولوجي أن يحتفـظ بتكامـل عقلي وانفعالـي، فإن كل مـا يتعلمه عن الإنسـان ينبغي أن يجد طريقـه إلـى التطبيق فـي حياته ذاتها. فـي معظم الأنظمة العلميـة الأخرى، قد تقـدم النظريـات الجديدة أو التصورات الجديدة تحديـاً عقلياً حقيقياً، ولكن هذا لا يمثـل إلا جانبـاً فحسـب من المهنة ولا يؤثـر إلا على الجانب الفنـي (التقنيات) فحسـب مـن أفـكار الـدارس وأفعاله. أمـا عالم النفـس، فهو مطالب بـأن يعدل باسـتمرار ليـس فحسـب من موقفـه النظـري ولكن بأن يأتي فـي نفـس الوقت بتوافقات ملائمة فـي نظرته الكلية للحياة وفـي أسـلوب حياتـه. وإذا كان يتبني فلسـفة غيـر مباشـرة، فعليه أن يغير بعض سـلوكه.

هـذا الموقف يفـرض على عالم النفس بإلحاح وجدية بأن يضع فـي الاعتبار الأفـكار الجديـدة- الإنسـانية والإيجابية، وهي ولا شـك مدعاة للعناء والمشـقة. ولكن إذا لم يفعل ذلك، فهو إما أن يكون شـخصاً مختلاً، أو إنسـاناً مخادعاً. فكل

الدلائل تشير إلى ضرورة تركيز الاهتمام على مقاصدنا ومرامينا ومعتقداتنا الشخصية، وعلى سلوكنا الشخصي. ومن الضروري بالنسبة لعالِم النفس، أكثر من أي شخص آخر، أن يولي اهتماما فائقاً بنموه الشخصي السوي من حيث أنه الأساس السليم الوحيد لتقديم أية مساعدة للآخرين.

والخلاصة، ثمة نظرة متفائلة للغاية تسيطر على تفكيري من حيث مستقبل علم النفس، ليس ببساطة فقط استناداً إلى منجزات الماضي ولكن بسبب الإمكانية الهائلة التي لا تزال كامنة في الاتجاه العلمي نحو فهم الإنسان ومشكلاته. ويقيني الشخصي، مع ذلك، أن إمكانات علم النفس، كعلم وفن على حد سواء، سوف تتحقق كلية إذا كنا على بَيِّنة أكبر بالأهداف القصوى التي نعد أنفسنا للعمل من أجلها، وإذا كنا نعمل في بحوثنا على أساس «التوجه نحو المشكلة» (Problem-oriented) أكثر من اهتمامنا «بالتوجه نحو الطريقة» (method-oriented)، وإذا كنا أقل نزعة إلى فرض استنتاجاتنا التي نتوصل إليها بشأن طبيعة الإنسان على الافتراضات القبلية التي تكمن وراء مناهجنا في البحث وعلى نطاق من المعلومات متقيد بمجالنا. بقول آخر، نحن مطالبون بالتخلص من المزالق المنهجية والفلسفية التي جعلتنا متورطين بالفعل في حبائلها. ولكن ماذا عن هذه المزالق والحبائل، وما الذي يمكن أن نفعله بشأنها؟ فقد قدمت بعض المقترحات التي اخترتها من بين العديد مما قدمه الآخرون: لقد تحدد انتقائي بطبيعة الحال وفقا لاتجاهي الخاص الذي يمكن وصفه بأنه إتجاه إنساني يسير على درب «ماسلو» وبتأثير من المدرسة الوجودية. وعلى أية حال، فقد أوضحت في أي اتجاه أسير، وعذري في ذلك ليس في أنك ملزم بأن تأتي معي، رغم أني أسعد كثيراً بالصحبة، ولكن في أنه من واجبك أن تدع الآخرين يعرفون إلى أين أنت ذاهب. وإذا كان الوصول أمراً غير مضمون، فهو لا يمثل عذراً يبرر الإخفاق في الكشف عن الوجهة المقصودة.

(٣٣)

نحو مسئولية علمية ومهنية(*)

م. بريفستر سميث

(جامعة كاليفورنيا)

كيف تترابط المسئولية والقيم؟ بالنسبة للقيم أعني معايير الاختيار، الضمنية أو الصريحة، لدى الشخص، بقدر ما تكون محكومة بالالتزامات أو المتطلبات. وترتبط القيم ارتباطاً وثيقاً بالغايات أو الأهداف، ولكن ذلك لا يعني أن كل الأهداف قيم - فأكل السبانخ مثلاً، بالنسبة للطفل الأمريكي، يصبح محملاً بالقيمة أكثر من أكل البوظة (الأيس كريم). أما **المسئولية**، فتتناول علاقة سلوك الشخص بقيمة. وقد تتضمن كذلك نوع القيم التي يلتزم بها الشخص. ولتبسيط مهمتي، سوف افترض أن معيارنا الجديد الخاص بالأخلاق يكشف أننا على اتفاق طيب بشأن عدد من القيم التي تلقى قبولاً بصفة عامة. وفي رأيي **أن مشكلاتنا الأخلاقية ترتبط بعلاقة قيمنا بما نفعله حقيقة كعلماء نفس أكثر مما ترتبط بما تكون عليه قيمنا بالفعل.**

ووفقاً للمصطلح الذي أقصد استخدامه في هذا الصدد، يتصرف الشخص بمسئولية إلى الحد الذي يتفق فيه سلوكه على الأقل مع الشروط التالية:

أولاً — أن يكون واعيا بالسياق القيمي الذي يعمل في نطاقه، وتخضع أهدافه للفحص الواعي، ويرتبط سلوكه صراحة بقيمة.

ثانيا- أن تتم اختياراته في ضوء فهم ملائم لنتائجها المحتملة التي يستطيع أن يتوصل إليها. وتخضع العلاقات التي يفترضها بين الوسائل والأهداف للفحص الناقد ولا تؤخذ كقضية مسلمة.

ثالثا — أن يكون مستعداً لإصدار أحكامه في ضوء اختياراته للأهداف والوسائل، وأن تكون لديه المرونة لإعادة النظر في كل منها.

---

(1) M. B. Smith: Toward scientific and professional responsibility. Amr. Psychologist, 1954, 9, 513-516.

بقول آخر، هو يضطلع بالمسئولية بالنسبة لقراراته وأفعاله.

وإذا كانت هذه الملاحظات سليمة، فربما تكون مؤشراً لوجود اتفاق حقيقي بشأن اعتبار «**المسئولية كقيمة في حد ذاتها**». إلا أن الدوافع الشخصية والصراعات بين القيم، كما نعلم، غالباً ما تقف في طريق التصرف المسئول. وإذا كان البعض قد تناول مصادر اللامسئولية في الموقف الاجتماعي لعلم النفس، فسوف أتكرس في هذه الدراسة على تفحص بعض أشكالها، وأتناول ثماني خطايا، فانية أو صغيرة.

التثبت على الوسائل:

يستطيع المرء أن يجد بسهولة في أنشطة علماء النفس أمثلة من نوع «الاستقلال الوظيفي للدوافع»، حيث يؤدي التركيز الضيق على الوسائل إلى سلوك قد يعوق «قيم الهدف» (goal values)، أي القيم الكامنة في الهدف، من التقدم نحو وجهتها المنشودة. ولنتناول، على سبيل المثال، زخارف العلم. هل نتتبع حقيقة تقدم الفهم بأن نسائل أنفسنا من وقت لآخر، أو هل نبتعد بحماسنا غير الواعي جانباً عن الوسائل المتبعة، أو أدوات البحث، أو ما هو متعارف عليه من تحليل إحصائي؟ قد يتمخض الولع بموضوعات وطرق الدراسة عن اتجاه شائع يأخذ باهتمامات ذات أهمية أقل من أن ينتج عن الإخفاق في الاحتفاظ بنظرتنا مستندة إلى أهداف داخل السياق الأكبر الذي يعطي أهمية لأنشطتنا العلمية. وقد يكون التركيز على الجزئيات البسيطة هو الأسهل بالنسبة لنا بسبب السذاجة التي بها يحدد «الحس العام» وطلاب الكليات المشكلات بالنسبة لعلم النفس. ويعتبر الإصرار الواعي على صياغة أسئلتنا بطرق تسمح بالاضطلاع ببحث علمي، مجرد خطوة على طريق الحبك العلمي.

فالوسائل يمكن أن تصير غايات سواء من الجانب المهني أو الجانب العلمي لعلم النفس. فمثلاً، هل التقليد الجاري في تفسير الرورشاخ يظل قائماً مهما كان الحال، كيف يكون جدول التغذية أو الاتجاه المتسامح مقدساً؟ إن الحرارة تميل إلى استبعاد الضوء حينما تؤخذ الوسائل كغايات في حد ذاتها. ومن حسن الطالع أن الاستقلال الوظيفي على هذا النحو يكون مبدأً ناقصاً، كذلك

يكـون مـن النادر التخلـي عن أهـداف العلاج الفعال أو التشـخيص أو التنشـئة، رغـم أنها تكون كامنة فـي بعـض الحالات. **فالنظـرة الواضحة للوسـائل كوسـائل – أي فـي علاقتهـا بالأهداف- هـي الضمان الأفضل ضـد التثبت عليها.**

مطلقية الوسائل:

يرتبط الشكل الثاني من أشكال اللامسئولية فـي القائمة التي أتناولها فـي هـذه الدراسـة بالشـكل الأول، بـدون ما تحديد قاطـع بينهمـا. وأعني بمصطلح «مطلقية الوسـائل» (absolutism of means) فرض علاقة غير متغيرة أو جامدة أو حمقـاء تـؤدي إلى إغفال الحاجة إلى تقييم ملائمة الوسـائل للغايات. وتتضمن الأمثلـة التي تحضرني فـي هذا الصدد، وهي أمثلة موضع جـدل، اهتماماً واعياً بالوسـائل بـدلا مـن التثبت الأعمى. ولكـن النتائج قد تكون متشـابهة كثيراً. فمن خلال الإصرار على أن الأشـياء أبسـط مما هي عليه، يجعل عالم النفس يعفـي نفسـه من الاختيار المسئول.

ولنتنـاول المبـدأ الأول للعمليـة الجماعيـة الديموقراطيـة. توضـح البيانات المؤثـرة أنـه حينمـا يلجـأ المعلـم أو القائـد أو الإداري إلى دفع أعضـاء الجماعة وفقـا لمصادرهم، فإن التغيرات التي تحدث فـي معلوماتهم واتجاهاتهم وسـلوكهم والتـي تنبع مـن الداخل تنطوي على ثبات وأهمية شـخصية لا يمكن تحقيقها من خـلال الإجـراءات التسـلطية أو المفروضة من أعلـى. ويمثل هذا اكتشـافاً هاماً. ولا يتبـع هـذا، مع ذلك، أن التدخل التسـلطي قـد لا يكون ضرورياً فـي الغالب، ولا يعنـي أن الطـرق الديمقراطيـة قد لا تسـتعمل فـي خدمة أهـداف معقولة. فمـا يعتبر لا مسـئولية، لأنـه يسـتبعد الاختيار التمييـزي حينما يكـون الاختيار مطلوبـاً، هـو أن نفـرض ذلـك على الطريقـة ذاتها بما يـؤدي إلى إغفـال البحث فـي مـدى ملائمتـه للهـدف أو ملائمة الهدف نفسـه. مـن الخطـأ أن نفترض، مثـلا، أن العمليـة الجماعية الديمقراطية كما يسـتخدمها خبـراء الإدارة تضمن تلقائيـاً نتيجـة ديموقراطيـة تحتفظ بأفضل اهتمامـات العاملين والرؤسـاء على حد سـواء. فالكثير من الممارسـات قد صارت أكثر معقولية باسـم الديمقراطية.

وعندما ترتفع إلى مسـتوى العقيـدة (الدوجما)، فإن الطريقة غير المباشـرة فـي العـلاج النفسـي قد تبـدي أوجه نقص مماثلـة. فإلى الحد الـذي يكون معه

المعالـج واعيـاً بدرجـة وطبيعة تدخله، يسـتطيع فقط فـي هذه الحالـة أن يوجه دوره فـي العلاج بمسئولية.

إن الطريقـة الحمقـاء التـي تقـوم علـى إقـرار العلاقـة بين ما هو «بسـيط ومركـب» قـد تجعلنـا نتجنـب، أو نتخلـص من، مسـئولية إصـدار الأحـكام أمام ذلـك التعقيـد. وحتـى إذا كانـت محاولاتنا التي تسـتند إلى مبادئ بسـيطة تبدو صادقـة، فـإن تطبيقهـا على مواقـف حقيقية معقدة سـوف يتطلب منا ولا شـك بأن نأتـي بأفضل الأحـكام وأكثرهـا صراحة.

مطلقية الغايات :

هنـا انتقـل إلـى قضيـة أخـرى موضع جـدل ومناقشـة. لقد سـاعد علماء النفـس وغيرهـم مـن العلمـاء الاجتماعيين على تقويـض الموقف المطلـق للغايات والقيـم التقليديـة التي تلقى سـنداً دينياً. وربما نكون على اسـتعداد بدرجة كافية لأن نتكشـف التنصل من المسـئولية حينما يلجأ الأشـخاص إلى تبرير اختياراتهم بالركـون إلـى تدبير للأشـياء فـوق البشـر، أو إلـى أسـاليب ثقافتنا التـي تبدو كأسـاليب ملائمـة للإنسـانية. إلا أن البحـث عن القيم لسـد الفجـوة التي تركها علـم اللاهـوت قـد ظل غالبـاً كما هـو بحثاً عـن مطلقات أخرى تحمـل نفس ما كان يشـيع مـن قبـل. ولقـد قـدم علماء النفـس، أو فرضـوا من جانبهـم، قيمهم الجزئية كمطلقات مباركة باسـم العلم. ويحضرني فـي هـذا الصدد مثال مفهوم «التوافـق» الـذي يؤكـد «أن نكون الـكل وغايتنـا الـكل» (be-all-and-end-all)، وهـو مثـال قد تردى فـي سـمعة سـيئة. فلا شـك أنه ليـس من غير المسـئولية بالنسـبة لعلمـاء النفـس أن يفضلـوا التوافـق ويسـعوا إلـى تنميتـه، وإنمـا تأتي الصعوبـة حينمـا نضلل أنفسـنا والآخريـن بأن العلم يمنح سـلطته وفقـا لالتزام ينبغـي التوافـق معه. فالعلم بطبيعـة الحال لا يمكن أن يقوم بذلـك، والادعاء بأن فـي مقـدوره ذلك إنمـا يقف حائلاً دون تكشـف المعاييـر البديلة.

إن اختيار الغايات مسـألة شـخصية، يتـم التدريب عليها بمسـئولية أو بغير مسـئولية، أو يتـم التخلـي عنهـا تفضيـلا لتقليد أو لمجرد المسـايرة. إننـا كعلماء لدينـا مقـدرة خاصـة بهـا نسـتطيع أن نخضـع مجـال هام مـن الحقائـق وفقا

لاختيــار الغايــات — وهــي حقائق عــن النتائــج الجانبيــة والآثار التــي تعود على اختياراتنــا. فالشــرك المنصــوب لنــا، والذي علينــا أن نتجنبه، هــو إغفال عنصر الاختيــار الشــخصي الــذي يبقى طالمــا بقيت الحقائــق بداخله.

الهروب إلى النسبية أو «حيادية القيم»:

إذا نظرنــا إلــى العلـم على أنه لا يتمســك بالمطلـق، قد يدفع علمـاء النفس إلى أن يقيموا ســلاماً مع أنفســهم بواســطة رفع شــعار عالِـم الأنثروبولوجيا عن «النســبية الثقافيــة»- القيــم فرصــة للتهذيــب والتعليــم نقبلها عــن طيب خاطر كمــا نتقبـل آداب المائـدة. أو قــد ينكرون بســطحية أن مجالات الحقيقــة العلمية والقيمــة لا تتفــق مــع بعضها. لكن عالــم النفس لا يســتطيع أن يتوقف عن الأخذ باختيــارات كعالــم أو معلـم أو معالــج أو إخصائي فــي الهندســة البشــرية. هذه الاختيارات قد تكون ســديدة أو غير ســديدة، مقصودة أو غير مقصودة، مســئولة أو غيــر مســئولة، ولكنهــا تتم وتــؤدي إلى نتائج معينــة. وينطوي تقبـل قيم ثقافة الفــرد كمــا هي وبدون تفحــص على اختيــار محافظ، ويرفع صــوت عالم النفس لكــي يتناغــم مع المســايرة الكليــة- وذلك اتجــاه قد لا يكــون إطلاقــا على المدى الطويــل محافظــاً لقيمنــا التقليديــة. ومن شــأن الزعم بعلــم متحرر مــن القيم، حيــث يتجــاوز الإصــرار علــى الاهتمــام المنظـم بحقيقة اتفاقــه أو عــدم اتفاقه مــع رغباتنــا، أن يعوق عناصر القيم فــي اختيار المشــكلة، وفــي تحديــد البحث، وفــي الإطــار التصــوري له، وفــي اتخــاذ قرار حينمــا تكــون النتائج ســلبية، أو حينمــا تكــون النتائــج قابلة لإقرارها فــي تقريــر البحث، وهكذا إلى مــالا نهاية. إننــا، حينما نعرف فحســب ما الــذي نختاره، وحينمــا تكون القيم المتضمنة فــي اختياراتنــا فحســب صريحة، فإن القرارات التي نتخذها تصير قرارات مســئولة.

عزل القيم المتصارعة :

قد يكون لبعض الوســائل التــي نقررها، وكذلك آخــرون، بالفعل جاذبيتها لأنها تُســتخدم لعزل القيــم المتصارعة عن بعضها الآخــر. فالإصرار علــى حيادية القيم، مثــلاً، قــد يؤدي إلى حصــر الصراع بين القيم الكبري لــدى عالِم النفس الذي ينبغي أن يعتمد، كســند لعمله، على مصادر ليست متساوية فــي مدى استثارتها للاهتمام.

قد يكون العزل – وهو «حيز مقيد منطقياً» – وسيلة ضرورية في مجتمع أو شخصية أقل تكاملاً أو نضجاً، ولكنه يستبعد التفاعل المنتج الذي فيه قد نحقق ابتداع وسائل جديدة للحل وتشذيب قيم راسخة من قبل، والتي يمكن منها أن ينشأ اتفاق عملي قائم على الأساسيات والأولويات. والصراع، بعد كل ذلك، مسألة جادة وقاسية يصعب مواجهتها، وأصعب من أن نتحملها، والأكثر صعوبة في الحل. وبقدر ما نكون أكثر قدرة على مواجهة البدائل في اتخاذ اختياراتنا بإنصاف، بقدر ما يقل احتمال تعرضنا للصراعات الأساسية التي تفوق قوانا.

دليل وفاء الضمير:

من الاستجابات التي يقوم بها كثير منا نحو الصراعات القيمية في العلم والمهنة وكذلك في الحياة الشخصية ما يعرف بوفاء الضمير. فكثيراً ما تتوفر لدينا كعكة طيبة ونتوفر على أكلها أيضا، ولكننا قد لا نتناول إلا قطعة صغيرة وغير مغذية. وقد يعتبر تقيدنا بين التزاماتنا نحو البحث ونحو واجباتنا التدريسية أو المهنية أو الإدارية مدعاة لإخماد الضمير بكتابة مقالات بحوث صغيرة – ليست جيدة وليست بذات أهمية، ولكنها لا تنتقص كثيراً من مزاولة التزاماتنا الأخرى. وقد نعمل في برنامج خاص ببحث تطبيقي لإرضاء العميل بتقديم دراسة منهجية تدخل في محراب العلم. وبإبداء التردد أو الصراع بين التعلق بالعلم وبين مسئوليتنا كمواطنين، فإننا نعمل كما لو أننا نقوم بدراسة صغيرة عن التعصب مثلا قد تبين أننا نسير على الطريق الصحيح.

ومن الواضح أن النتائج الحميدة تتأتي من هذه التوفيقات أو المصالحات. ولكن إذا كنا أكثر اكتمالاً في أنفسنا كعلماء وكمهنيين وكمواطنين، فربما نعمل على تقدم قيمنا بفاعلية أكثر. والكثير من البحوث التي تجرى من أجل الوفاء بتلك المسئولية الاجتماعية قد لا يتحقق كذلك. وغالبا ما يكون الموضوع الذي يؤخذ للتوفيق أو المصالحة غير استراتيجي سواءً بالنسبة للتقدم العلمي أو بالنسبة للعمل الاجتماعي. وغالباً ما يكون الجهد الذي يبذل في البحث غير كاف لتحقيق ما هو أكثر من الدليل، أو ما هو أكثر من النتائج «المتوقعة». وإذا أمكن مواجهة الصراع بحكمة، فربما يكون الفرد إذن في موقع يختار منه بين قيامه بجهد أكثر طموحاً أو بلا شيء على الإطلاق. فربما يقرر الفرد أن يهتم

بمزايا البرج العاجي بدلاً من أن يتحسر على عزلته، أو أن يلعب دور العالم والمواطن في ظروف منفصلة، وليس في وحدة مترابطة. أو ربما يعود الفرد إلى نفس المصالحة أو التوفيقية على أنها الحل الأكثر ملائمة وإرضاءاً. وفي كل الأحوال، ينبغي أن يكون القرار موضع اعتبار.

التزمت وضيق الأفق:

في الواقع أن تورطنا في معظم الأزقة المغلقة التي كشفنا عنها، هو نوع من خطايا أو أخطاء العلماء — من نقص الكفاية المعرفية التي تجهض القرار الواضح والملائم. وقد يؤدي ضيق آفاقنا الخاصة كعلماء نفس إلى تقييد نطاق الاختيار الملائم. فعلى سبيل المثال، قد تؤدي شهرة نظرية «التمركز على الإدراك» (perception-centered) في علم النفس الاجتماعي، بدون قصد، إلى أن ننشغل بالإدراكات الاجتماعية على حساب الحقائق الاجتماعية. في هذه الحالة تكون الحقائق خارج نطاق جُعّبة علم النفس، بينما يكون من السهل علينا أن نؤكد على نظرة الناس إلى الحقائق. ومن الأهمية بمكان في إدراكات الناس، أن مثل هذا الوصف الجزئي يشير بوضوح إلى أساليب العلاقات العامة للإنسان أكثر من أن يشير إلى المقاييس المباشرة لمواجهة المواقف غير الملائمة. وفي الحقيقة أن برامج الحرب النفسية والعلاقات بين العاملين تعتمد على ذلك، حيث يؤدي التحايل بالمظاهر إلى عدم إخلال بالوضع الراهن. وربما ينسحب هذا أيضا على أساليب العلاج النفسي الذي يركز على تغيير إدراكات الشخص لذاته.

وفي الحالات التي نسعى فيها إلى تطبيق المعرفة السيكولوجية على عالم الأشياء والموضوعات حيث يكون الجانب السيكولوجي واحداً فقط من جوانب متعلقة متعددة، يبدو التزمت وضيق الأفق خطراً حقيقياً. فعلماء النفس يستطيعون إسداء الكثير من الخدمات الإرشادية الصادقة في مجالس السياسة العليا إذا كانوا أقل ميلاً لاعتبار العوامل التي نعرفها في علم النفس على أنها العوامل الوحيدة الهامة. مشكلات التواصل وفشلها، مثلا، تبدو لنا كمشكلات نفسية أساسية، ونترك للعلماء السياسيين مشكلات تصارع القوى بين التكوينات الاجتماعية المنظمة.

ولكن إذا كنا نصف التواصل الأفضل على أنه ترياق لكل مواقف تصارع القوى، فإننا في هذه الحالة نقدم نصيحة فجة وغير مسئولة. وإذا «كانت الحروب تولد في عقول الناس»، فإن التوترات الفردية والصراعات وسوء الفهم تُؤخذ بالمعني السياسي فحسب كما تقع في سياقات اجتماعية منظمة. وتتطلب التوصيات المسئولة في السياسة من عالم النفس فهماً لمكانة إسهامه المحدد بين إسهامات العلوم الاجتماعية الأخرى. فمعرفة حدودنا يزيد من قوتنا الحقيقية.

الغرور المهني:

من الأشياء التي لا تزال جديدة بالنسبة لعلماء النفس أن يجدوا نصائحهم بالنسبة للموضوعات العملية الهامة موضع اعتبار وتقدير. وربما يكون من الأفضل أن نتذكر الجوانب المحدودة لمجالنا التي مهدت بالفعل طريقنا وكسبت لعلم النفس آذان الرجل العملي: اختبارات الاستعداد، الإرشاد الإكلينيكي وغيرهما قليل، ولكن لا يوجد واحد من هذه المجالات يتناول الجانب النظري للعلم. إننا كعلماء لا نزال نتلمس طريقنا — وربما كمهنيين أيضاً. وحينما نخضع للإغراء عن طريق خيالات القوة لكي نحاول وضع العالم في نظام، فإننا نكون بحاجة من حين لآخر إلى جرعة من التواضع العلمي. فالاتجاه المتصلب الذي يصر على الشك المنظم في حالة غياب التأييد والبرهان، ويتمسك بالقضايا القائمة في إطار من الإختبارية — يظل إسهامنا الخاص. ونحن لا نستطيع أن نتجاهل وظيفتنا كعلماء يتصدون لمواجهة المشكلات مهماً كانت كبيرة. **فمسئوليتنا ينبغي أن تقاس بكفاءتنا وأهليتنا**.

تتوجه إستراتيجيتي في هذه الدراسة إلى تركيز انتباهنا على متضمنات المسئولية على افتراض أنه **إذا كانت المسئولية قيمة نتشارك فيها بالفعل، فإن «الصراحة» و«الوضوحية» بشأنها تجعلنا نتصرف بمسئولية كعلماء نفس.** فالصراحة والوضوحية بشأن علاقة القيم — بما فيها هذه القيمة (المسئولية) — بسلوكنا تتأكدان كشرط ضروري، وإن كان غير كاف، للتقدم الرصين صوب الأهداف القيمية.

الفصل العاشر

الشخصية الحكيمة (*)

تذخر المحادثات العادية ببعض المفاهيم التي يستخدمها كل فرد ويفهمها بوضوح، ولكنها قد تستعصي للغاية على التحليل. لقد أخفق مربون قليلون في إبراز موضوع «التربية الحرة» liberal education ، ولكن لا زالت قلة أقل تتفق على ما يعنونه بهذا المفهوم. «الديمقراطية» كلمة أخرى تحمل الفكرة العامة عن الحرية والتسامح والمساواة، ولكنها تستخدم بمرونة تتلاءم حتى بالنسبة لأصدقائنا في المجتمعات الاستبدادية.

ويشيع في مجال سيكولوجية التوافق موقف مماثل. من الذي لا يستطيع أن يعترف بالشخصية الناضجة ، ولكن – في نفس الوقت – من الذي يستطيع أن يحدد مفهوم «النضج» على وجه الدقة؟ لقد أكدت المحاولات المبكرة على فكرة «المسايرة» (conformity). فعادة ما يسلك الأشخاص ذوو المشكلات الانفعالية بطريقة تبدو منحرفة بالنسبة للشخص الملاحِظ. وحتى مصطلحات «السواء» و«حسن التوافق» تفترض نوعاً من «السلوك الاتفاقي» (conventional behavior) يرتضيه أصحاب هذه المصطلحات. ويعترض معظم علماء النفس على أي صياغة للسؤال الذي يعتبر الشخصية الحكيمة أو السوية دالة للبيئة أكثر من أن تكون دالة لشيء معين داخل الفرد.

لقد كان للتحليل النفسي التأثير الأكبر على نظرية الشخصية. لقد اعتبر فرويد الإنسان كضحية ترزح تحت وطأة ثلاث فئات من القوي المتصارعة: الحفزات الغريزية، والضمير، ومطالب الواقع. ويتحقق للفرد النضوج حينما يصل إلى الحد الذي يكون فيه قادراً على خفض الصراع إلى الحد الأدنى. لقد اهتم (هنري موراي) بعدد كبير من الحاجات النفسية مؤكداً على «نموذج الحاجة» (need-pattern) الذي تتضح فيه الحاجات، بينما أبدى (سوليفان) و(هورني) اهتماماً أكبر بالمؤثرات الاجتماعية. ويركز (إريكسون) على الإحساس

(*) Wholesome personality

بالهوية أو على إجابة الفرد عن السؤال (من أنا)، تلك الإجابة التي تحدد كيفية ارتباطه بالعالم الخارجي وبالأشخاص الآخرين.

ولقد أكد (أولبورت) وآخرون قليلون دائماً على دور «السلوك الغَرَضي» (purposive behavior)، وكان لنشأة الوجودية أكبر الأثر في إحياء الاهتمام «بالمكونات القصدية» (intentional components) في الشخصية - تلك المكونات التي طالما أغفلها علم النفس. ويعتبر (ماسلو) المستوى الأعلى للحاجات على أنه يتألف من «حفز إستغراقي» (consuming urge) لأجل تحقيق الذات وتوظيف إمكانات شخصية الفرد. في الفصل الثامن من هذا الكتاب، تقرر (شارلوت بوهلر) أربعة نزعات أساسية أكتشفتها في سعي الفرد إلى «إكمال الذات» وإزكائها (self-fulfillment).. ويتكلم (فرانكل [1]) عن حاجة المرضي العصابيين إلى أن يجدوا معنى مستحقاً في الحياة. فما يحتاج إليه الإنسان حقيقة ليس هو «استعادة الاتزان» (homeostasis)، ولكن ما أسميه «بالديناميات الراقية»، أي ذلك النوع من التوتر الملائم الذي يحتفظ بالفرد موجهاً بثبات نحو تحقيق قيم محددة، نحو إقرار معنى لوجوده الشخصي، وهذا أيضا ما يضمن ويعزز صحته النفسية، بحيث أن الهروب من أي موقف ضاغط سوف يؤدي إلى وقوعه في الفراغ الوجودي (ومن المشكوك فيه أن حياةً كهذه تكون ذات معنى). ويرى (ماورر) و(ساذ) علاقة وثيقة بين الصحة النفسية والعيش في سبيل التزامات معنوية وأخلاقية.

ومن بين المحكات الأكثر شيوعاً عن الشخصية الحكيمة: الإدراك الموضوعي للذات وللواقع، وتقبل الحدود الشخصية، والقدرة على منح العطف والود وعلى تلقيهما، وإكمال أو إزكاء إبداعي للذات creative self- fulfillment، وإحساس بالمسئولية، وفلسفة ناضجة للحياة. ومن الواضح أن أي مناقشة شاملة للشخصية الحكيمة لا يمكن أن تخفق في إثارة أسئلة تتعلق بالقيم الشخصية والسلوك الأخلاقي.

---

(1) V. E. Frankl: Dynamics, existence and values. J. existential Psychiat., 1961, 2, 5-16.

لقـد كان للمـرض النفسـي منذ وقت طويـل مهنة تهتم بـه وتبعث على الاهتمـام. ففـي سـياق تاريخه وجد نفسـه مرتبطاً بأسـباب متشـعبة مثل التدخـل الغيبي والتلبس الشـيطاني والمرض الجسـمي والصراع اللاشـعوري.

ويسـتوي فـي هـذه التملصيـة مفهـوم آخر يرتبـط به، وهـو مفهوم السـواء. ولمـا كان هـذا المفهـوم مشـتق أصـلا مـن القاعـدة الإحصائية الخاصـة بالمسـايرة لمعاييـر معينـة من السـلوك، فقـد اكتسـب بالتدريج معنـى أكثـر عمقـاً. يقـول (رويسـي) فـي تعليقـه علـى اسـتبعاد العِلّية النهائيـة فـي الفيزيـاء الكلاسـيكية: «إذا كان مفهوم المعيـار مقيداً بعمق بتصميـم الشـيء (الغـرض، السـبب النهائي)، فقد كان من السـهل عزله بواسـطة إجـراءات إحصائيـة خالصـة تقدم المتوسـطات. والمتوسـطات الآن تبـدو مفيـدة للغايـة، ولا يكـون الخطـأ متعلقـاً بالإحصـاء، لكـن بسـلامة الإجـراءات الإحصائية المسـتخدمة، فإنهـا تسـلم بمعايير فقط علـى أسـاس الافتراض بـأن معظم الناس (المتوسـط) سـوف تعمل وفقا للتصميـم الفطـري للطبيعة (السـوية)[1]».

وفـي هـذا الصـدد يخلص (شـوبان) إلـى نتيجـة تقـرر أن «الطريقة الوحيـدة لمواجهـة هـذا التحدي هـي التسـليم صراحةً بمبدأ أساسـي عن القيمـة. ويـدور الجـدل الأساسـي حـول أن السـلوك يكـون (إيجابيـاً) أو (متكامـلاً) إلـى الحـد الـذي يعكـس الخصائص الفريـدة للإنسـان. ولقد انقضـى وقـت طويل كان يُنظر فيه إلى السـلوك السـوي فـي ضـوء مجرد غيـاب المرض.

(1) J. E. Royce, Personality and mental health (rev. ed.). Milwaukee: Bruce, 1964. p. 49.

(٣٤)

نحو مفهوم للشخصية السوية(*)

إدوارد جوزيف شوبان

(كلية المعلمين بجامعة كولومبيا)

لقد كان جُل اهتمام الممارسات الإكلينيكية والعلوم السلوكية منصباً على الجوانب المرَضَية في دراساتها لديناميات الشخصية والسلوك. وبينما بقيت نقاط هامة كثيرة موضعاً لمزيد من البحث والدراسة، فقد توفرت معلومات تجريبية كثيرة ونظريات قيمة تتعلق بمفاهيم الشخص المنحرف والمريض، والعصابي، والمضطرب، وسيء التوافق. وعلى العكس من ذلك، لا توجد إلا معلومات قليلة ووضوح تصوري أقل عن طبيعة «السواء النفسي» (psychological normality). وفي الحقيقة، هناك من يذهب حتى إلى أنه لا يوجد ذلك الشيء الذي نسميه بالإنسان السوي، يوجد فحسب أولئك الأشخاص الذين يديرون علاقاتهم البينشخصية بطريقة يكون معها الآخرون مدفوعين بقوة إلى تجنبهم، حتى ولو أدخلوهم إلى مستشفى للأمراض العقلية أو السجن، على عكس الأشخاص الذين لا يستثيرون مثل هذه الدرجة من النبذ الاجتماعي.

هذه المناقشة تنطوي على خاصيتين: الأولى أنها تتخلص من المشكلة عن طريق توزيع الناس ببساطة على «مُتَّصل» بُعْد المرضية. إن كل الناس غير طبيعيين بدرجة ما، فإن بعضهم يكون أكثر من الآخر على هذا البعد.

أما الخاصية الثانية، فتتشابه مع الفكرتين الأساسيتين المتعلقتين بالسؤال الخاص عما يؤلف السلوك السوي أو اللاسوي: التصور الإحصائي للشيء العادي أو المتوسط، وفكرة النسبية الثقافية. فإذا كانت «المرَضَية» (pathology) تُفهم على أساس الحد الذي يكون فيه الفرد متحملاً من زميل له، فإن أي فرد يمكن وصفه نظرياً في ضوء بعض الدلائل التي تعكس درجة التقبلية الموجهة إليه. ويتمخض التوزيع الناتج بدقة عن تنظيم أو ترتيب كمي للناس

(*) E. J. Shoben, Jr. Toward a concept of the normal personality. Amer. Psychologist, 1957, 12, 183-189.

يمتد من أقلهم إلى أكثرهم مرضية. وعلى هذا النحو، إذا كانت الأوضاع على هذا «المتصل» (continuum) تعتبر دالات لتقبل الفرد أو تجنبه من الآخرين، إذن يمكن تحديدها فحسب بالرجوع أو بالإحالة إلى جماعة معينة. وينطوي ذلك على تضمينات ذات شقين:

الأول، ويذهب إلى أن مفهوم المرَضَية نسبي بالضرورة، يختلف من جماعة لأخرى ومن ثقافة لأخرى.

الثاني، وفيه تتحدد درجة المرَضَية على أساس اتفاق درجة المسايرة مع معايير الجماعة. فبقدر ما يزداد سلوك الفرد مسايرة لمعايير الجماعة، يقل احتمال تعرض الفرد للانحراف الاجتماعي، في حين أنه كلما ازداد انحراف السلوك عن القواعد، يزداد احتمال النبذ إلى حد الإيداع بالمؤسسات أو المصحات.

المفاهيم الإحصائية والنسبية للسوية:

إلا أنه من المشكوك فيه أن مثل هذه القضايا والمشكلات تتضح تماماً بواسطة هذه الآراء الإحصائية أو النسبية الثقافية. هل من المفيد أكثر أن نعتبر السوية أو السلوك المتكامل على أنه يعكس فحسب حداً أدنى من المرضية، أو هل من الأفضل الاهتمام بالجانب القوي في الشخصية، وهي الجوانب الإيجابية للنمو الإنساني؟ يتبدى هذا السؤال على وجه الخصوص حينما نهتم بعملية التطبيع الاجتماعي أو بأهداف ونواتج علم النفس المرضي أو الجهود التأهيلية المختلفة.

ويبدو من غير المحتمل أكثر أن نعتبر أن الأسرة ودور العبارة والمدرسة والوكالات الأساسية للتطبيع الاجتماعي توجد من أجل الإقلال من السمات المرَضَية المحتومة إلى الحد الأدنى لدى أعضاء الجماعة موضوع التنشئة والنمو. وبالأحرى، قد يسعى الآباء ورجال الدين والمربون إلى الإصرار على أن وظيفتهم تنحصر في تيسير نوع ما من النمو الإيجابي، والاكتساب الارتقائي لتلك الخصائص – بما فيها من مهارات ومعلومات واتجاهات – التي تسمح بدعم أساليب للحياة أكثر إنتاجية وإيجابية وإشباعاً. وعلى هذا النحو، بينما

يتقبل المعالجون النفسيون أحياناً الأهداف المحدودة التي تسعى ببساطة إلى محاولة كف العمليات المرضية. هناك ولا شك معالجون نفسيون ممن يتخذون موقفاً يعتبر أن قيمة العلاج تتحدد على أساس القَدر الذي يسهم به في إزكاء قدرة المريض على تحقيق إشباعات الكبار أكثر من أن يتحدد بكفايته الخاصة على اختزال الأعراض أو على الإقلال من الدفاعات المرضية.

وثمة اهتمام عام لوجهة النظر هذه يبدو أنه قد نشأ في ميدان الصحة النفسية العامة. إذا ابتدأنا بالتركيز على العلاج، نجد أن مفهوم «الصحة النفسية المجتمعية» (community mental health) يجنح نحو الجانب الوقائي مع الاهتمام بتحديد مقدمات الاضطراب النفسي وبخفض معدلاته عن طريق مكافحة محدداته وأسبابه. وتعتبر شهرة علم تحسين النسل eugenics أحد المعالم الإيضاحية لهذه الاهتمامات. لكن ثمة نوع من عدم الرضا عن كل فكرة تفسير الحالات النفسية على أساس تشابهات المرض.

وربما يمكن فهم النماذج السلوكية سيئة التوافق، والعصاب- وربما إلى حد أقل — الذهان، على أنها أساليب لحياة مضطربة وغير فعالة ودفاعية أفضل من أن نفهمها على أنها أشكال للمرض. ونتيجة لذلك، يبدو ثمة ميل ينظر إلى مشروع الصحة النفسية العامة على أنه تركيز على النمو الإيجابي مع الاهتمام بالوقاية والعلاج من المرض باعتبارهما مبدأين حيويين ولكن ثانويين.

ولكن مما يتألف النمو الإيجابي؟ وفي هذا لا نلقى ثمة عون كاف إذا اعتمدنا على المفهوم الإحصائي للمتوسط. قام «تييجر وكانز» على سبيل المثال، بدراسة أجريت على طلاب جامعيين، وفيها تم تقديرهم وترتيبهم وفقا لأربعة عشر سمة مختلفة من سمات العُصابية. وقد أدى توزيع هذه السمات اعتداليا إلى الإيحاء بأن المفحوصين الذين كان تقييمهم منخفضاً ينبغي اعتبارهم «غير أسوياء» (غير عاديين) شأنهم في ذلك شأن المفحوصين — وفقا لهذا المعيار الإحصائي- الذين جاء تقييمهم مرتفعاً. هذا التصور قد يقدم نموذجا كمياً مصطنعاً فقط على حساب التناقض الذاتي والتعسف غير المجدي للفئات العادية من الأشخاص. وحتى في الحالة التي يبدو فيها لأول وهلة أنه لا تنشأ

ثمة مشكلة، فإن المشكلة تظل كما هي. السلوك الإجرامي، مثلا، يتوزع على شكل حرف «ل» مع تركز معظم الحالات عند نقطة الصفر من حالات الإجرام، وتمتد إلى حالات قليلة نسبياً من المجرمين ذوي السوابق الكثيرة. وهنا نجد أن قلة من الأخصائيين سوف تذهب إلى أن السلوك العادي في هذه الحالة ليس هو أيضاً الأكثر «إيجابية». ولكننا قد نشك في أن التكرار الصرف للسلوك الخاضع للقانون يرتبط ارتباطاً ضئيلاً بطبيعته التكاملية المعترف بها. وإذا كانت مسايرة القواعد الاجتماعية تعتبر بصفة عامة أكثر مرغوبية، فليس هذا بسبب معدل حدوثها ولكن بسبب نتائجها بالنسبة للمجتمع والفرد.

لذا يتضح التركيز الإحصائي على «العادي» أو «السوي» كمحك للتوافق الإيجابي أو للسوية قائم على مفهوم نسبي اجتماعياً ومتضمناً لمحك المسايرة. وتعتبر مصطلحات «العادي» أو «الأكثر تردداً» أو «المتوسط» غير ذات معنى بدون الإحالة إلى جماعة معينة. وفي هذه الحالة تبرز مشكلتان:

المشكلة الأولى: نعتبر المسايرة في حد ذاتها، كما يوضح التاريخ، موشراً غامضاً للسلوك. وإذا كان التجديد يعد أمراً ضرورياً للإحياء الثقافي شأنه في ذلك شأن التقليد والمحافظة، فإن المسايرة غالباً ما تعني التسليم بظروف تقوض النضج والنمو الإيجابي للإنسان بدلاً من ترقيته.وعلى مستويات شخصية أكثر، تبدو المسايرة في بعض الحالات مرتبطة بدرجة ما بعمليات الشخصية التي قد تتصف بأنها عمليات مَرَضية.

المشكلة الثانية: تثير التصورات النسبية للسوية عدة تساؤلات جادة بالنسبة للجماعة المرجعية التي يمكن على أساسها قياس أي فرد. لقد أوضحت «بندكت»، على سبيل المثال، أن السلوك الذي يبدو غير سوي في ثقافة قد يكون مقبولاً تماماً في غيره من الثقافات، وأن أشكالا معينة من اللاسوية التي تحدث في بعض المجتمعات قد لا يكون لها وجود في مجتمعات أخرى، وأن السلوك الذي قد يعتبر سوياً تماماً في جماعة قد يعتبر مَرَضياً للغاية في جماعة أخرى. مثل هذه الملاحظات، مع أنها مقبولة شكلاً، يمكن أن تؤدي على الفور إلى استنتاجين باعثين على الإزعاج والقلق: الأول، أن جندي العاصفة ينبغي أن يعتبر على أنه النموذج الأصلي للتوافق التكاملي في الثقافة

النازيـة، وأن أعضـاء المكتـب السياســي poliburo هـم أفضل من يمثل السـوية الإنسـانية وفقـا للأسـلوب السـوفيتي، وأن المراهـق الأكثـر إجراماً فـي عصابة جانحـة هـو أكثـر أعضاؤها نمـواً من الناحيـة الإيجابيـة. أما الاسـتنتاج الآخر، فهـو أن أي حكـم تقييمي للثقافات والمجتمعات ينبغـي أن يعتبر حكماً غير ملائم. فـإذا كانت السـوية يجري فهمها فحسـب فـي ضوء المسـايرة لمعاييـر الجماعة، فـإن الجماعـة ذاتها ينبغـي أن تكون خـارج التقييم.

لـذا، فـإن ما قد يشـيع فـي بعـض الجماعـات من شـك وعدم ثقـة، ومن إحسـاس بالتفاهـة والإتكالية، ومـن إقصاء وتنكيل يميز المجتمعات الاسـتبدادية – قـد يؤخـذ منطقياً فحسـب كمعايير يمكن فـي ضوئها تفسـير سـلوك الفرد، وليس كمؤشـرات لنزعات غير سـوية فـي الثقافـات ذاتها.

يذهـب «فيجروكـي» Wegrocki، فـي نقده لهـذه المبادئ النسـبية، إلى أنه ليـس نمط السـلوك ولا الأفعال الحقيقية ذاتها هي التي تحدد خاصيتها السـوية أو المرضيـة، ولكن وظيفة السـلوك. فما يسـميه بـ «جوهـر اللاسـوية» يكمن فـي ردود الأفعـال التـي تمثـل حيـلاً هروبيـة مـن الصراعات والمشـكلات بـدلاً من مواجهتهـا. هـذا التحديد، الـذي يتضمن أن أشـكال التوافـق الإيجابية هي تلك التي تواجه الصراعات والمشـكلات غالبا بطريقة مباشـرة، يبدو متخلصاً أساسـاً من الصعوبات الكامنة فـي التصورات الإحصائية وفـي فكرة النسـبية الثقافية. ولكنـه يمثل صعوبات فـي حد ذاته.

مثـال ذلك، مـاذا تعني «مواجهة» المشـكلة أو الصراع؟ على أي أسـاس، عدا المحـك الأخلاقـي الأكثر تعنتـاً، يمكن الدفاع عن هـذه المواجهات علـى أنها أكثر إيجابيـة مـن التهـرب؟ وأخيـراً، هـل لهـذه المواجهة لمشـكلات الفرد أيـة علاقة بموضـوع المسـايرة ممـا قد يسـاعد علـى إيضاح القـرارات التـي تتعلـق بتقبل معاييـر الجماعـة أو رفضها؟ .

تتطلـب الإجابـة على هذه الأسـئلة تبصـراً ببعض مشـكلات «القيمة». عند هـذه النقطـة تتلاقي وتتفاعـل العلوم السـلوكية وعلـم الأخلاق، ويبـدو من غير المحتمـل أن أي تصـور للسـوية يمكـن أن يتطـور بعيـداً عـن بعـض الاعتبـارات

العامة التي تعتبر أخلاقية معنوية أساساً. وإذا ما حدث استبعاد للأفكار النسبية الخالصة عن السوية، يصبح من الصعب تجنب بعض الاهتمام بقضايا السعادة والسلوك القويم (أي السلوك الذي يؤدي إلى أكبر درجة من الرضا الإنساني) - تلك القضايا التي تمثل المجال التقليدي للتفسير الأدبي للخبرة الإنسانية، ولرجل الدين وللفيلسوف الأخلاقي. ويتمثل التحدي الأول هنا في تقديم أساس معقول وطبيعي لمفهوم التوافق المتكامل الذي يكون «متسقاً مع موقف وإسهامات العلم التجريبي (الإمبيريقي) ومع ما قد جمعته الإنسانية من حكمة خلال تاريخها .

الجوانب الرمزية والاجتماعية للطبيعة البشرية:

والطريقة الوحيدة لمواجهة هذا التحدي تكون بالتسليم صراحة بمبدأ رئيسي عن «القيمة». ويتمثل الجدل الأساسي الذي طورناه هنا في أن السلوك يكون «إيجابيا» أو «متكاملاً» إلى الحد الذي يعكس الخصائص الفريدة للكائن الحي الانساني. ولا شك أنه توجد طرق أخرى بها نتوصل إلى مفهوم ملائم عن السوية.

ومع ذلك ، فإن هذا التأكيد يتسق مع مضمون التطور العضوي، ويتخلص من مغالطة مبدأ البقاء للأصلح في أشكاله المختلفة، ويسمح باستخلاص محكات محددة أكثر للتوافق الإيجابي من الخصائص المحددة للإنسان والمميزة لتفرده وأصالته. ولا تكون ثمة حاجة لافتراض عدم الاستمرار داخل «مقياس تطور الجنس البشري» (polygenetic scale). إلا أنه يبدو من الواضح أن الإنسان، بينما هو كائن حي بالتأكيد، يصعب وصفة على أنه «لا شيء إلا» حيوان، وأن سويته أو تكامله تبدو أكثر اتساقاً في تحقق إمكاناته الفريدة مما هو في نمو تلك الإمكانات التي يشترك فيها مع الكائنات الحية دون المستوى البشري.

ومن أهم هذه الإمكانات الإنسانية الفريدة، كما أوضح «كاسيرر ولا نجر» **المقدرة الفذة على «الترميز»**. فأبرز ما يميز الإنسان هو الاستخدام المتعاظم «للغة الغنية بالمضمون» أو «اللغة الخِبْرية» (propositional language). وإذا

كانت هناك كائنات حية أخرى، وخاصة الكلاب والقردة الراقية، تستجيب للرموز، فإن ملكتهم على الإتيان بذلك تكشف فقط عن قدرة للاستجابة لمثيرات فورية ومباشرة. أما الإنسان، من ناحية أخرى، فيستخدم الرموز بناء على تصاميم وخطط، كنظام مفتوح لجمع الأحداث الماضية، ولتناول الأشياء التي لا تكون حاضرة مادياً، ولتوجيه الخبرة، والنظرة صوب المستقبل. يتوصل «جولدشتين» إلى نفس المنطقة عن «**الاتجاه نحو مجرد الممكن**»، أي القدرة على تناول الأشياء التي تكون متخيلة فحسب أو التي لا تكون جزءاً من الموقف المباشر الحسي — العياني. هذا «الاتجاه نحو الممكن» يكون مضطرباً لدى المرضى الذين يعاق كلامهم بسبب إصابات الدماغ. لذا لا يكون مرضى «الحُبْسة» (aphasia) قادرين تماماً على أن يقولوا أشياء، مثل، «الثلج أسود» أو «القمر يضيء في وضح النهار»، كذلك يبدون عجزاً في ادعاء تمشيط شعرهم أو أخذ كوب من الماء، رغم أنهم يستطيعون أداء هذه الأفعال حقيقة. مثل هؤلاء المرضي يبدو أنهم قد فقدوا المقدرة الإنسانية على «التفكير في الأشياء» وكذلك «التفكير بالأشياء» مباشرة.

إن قدرة الإنسان «الرمزية» هي التي تجعله المخلوق الوحيد الذي يستطيع التعامل مع الأشياء في حضورها وغيابها، و«التطلع إلى ما هو مستحيل». فالكلام الغني بالمضمون أو الكلام الخَبِري (propositional speech) يمكّنه من التعلم ليس فحسب من خبرته الشخصية ولكن أيضا من خبرة الآخرين وفي أوقات وأماكن أخرى، ومن التنبؤ بنتائج سلوكه، ومن أن تكون له مُثله وقيمه. هذه الخواص الرمزية الثلاث — الاستعداد للاستفادة من الخبرة، بما فيها خبرة الآخرين، عبر الزمن، والمقدرة على التبصر وبعد النظر، وعلى الضبط النابع من الداخل للسلوك من خلال توقع نواتجه، والقدرة على تخيل عوالم أخرى يُقَرِّبها إلى قلبه — تؤلف المجموعة الأساسية للإمكانات الإنسانية الفريدة المحددة.

أما المجموعة الثانية لتلك الإمكانات، فتبدو مرتبطة بتلك الحقيقة، وهي «الفترة الطويلة من الاعتماد الكلي» الذي يميز مراحل المهد والطفولة. هذا الطور من النمو، ارتباطاً بالوصاية المفروضة على الطفل الصغير بسبب عدم اكتمال نضجه البيولوجي النسبي، قد يطول كلما أصبحت الثقافات أكثر

تعقيداً. لذلك يستطيع الأطفال في المجتمعات الأكثر بساطة أن يحققوا درجة أكبر من الاستقلالية في سن مبكر عن الأطفال في مدنيات أثر تعقيداً، حيث تؤدي الحاجة، مثلا، إلى تعلم مهارات حياتية معقدة ومتخصصة إلى إطالة فترة الاعتماد حتى المراهقة أو حتى إلى المرحلة المبكرة من الرشد. ومع ذلك، تتجلى النقطة الأساسية في أن الطفل الإنساني في كل الأوضاع الثقافية، خلافاً للصغار من أي نوع آخر من الكائنات الحية، ينبغي أن يقضي وقتاً طويلاً، فيه يتم توسيط إشباع معظم الحاجات الأساسية بواسطة شخص آخر، ويعتمدون على علاقتهم بشخص آخر أو بالآخرين المعنيين.

فالأطفال الصغار خلال مراحل نموهم المبكرة والأكثر تكوينية يخبرون «الحالة الإنسانية» وفقا لشرطين أساسيين للحياة الإنسانية: الشرط الأول، ويفرض أن بقاء الفرد وإشباع حاجاته وشعوره بالرضا يتضمن عنصراً حتمياً من الاعتماد على الأشخاص الآخرين. أما الشرط الثاني، فهو أن الاستقلال الذاتي النسبي والسلطة والقوة التي تميز أشخاص الوالدين وغيرهما ممن يرتكن إليهم الفرد في طفولته، دائماً ما يتم إدراكها بدرجة أكبر أو أقل إرتباطاً بالمسئولية وبنوع من الغيرية. أي أن التمتع بمزايا الكبار وبمكانتهم يميل إلى حد ما أن يحدث ارتباطاً بالتقبل لمسئولية التوسط بطريقة ما لإشباع حاجات الآخرين. ويبدو أن «ماورر وكلوكهوهن» يتكلمان عن نموذج مماثل حينما يصفون عملية التطبيع الاجتماعى على أنها تقدم من الاعتمادية إلى الاستقلالية لدى الأطفال إلى إمكانية الاعتماد dependability لدى الكبار.

وبالإضافة إلى ذلك، تميل هذه العلاقة التبادلية بين الاعتماد والمسئولية إلى أن تحدث على مستويات الكبار وكذلك بين الأطفال والآباء، بدرجة من التبادلية كوظيفة جزئية لتعقد الثقافة. وفي المجتمعات الأبسط، قد يضطلع عدد صغير نسبياً من الأشخاص بمسئولية أولية نحو كل حاجات الجماعة بالإضافة إلى المتطلبات الأساسية للحياة. أما بالنسبة للمجتمعات المتمدينة، فإن التخصص الذي فرضته التكنولوجيا ونموذج الحياة الحضرية يعني أن كل شخص راشد يكون معتمداً على غيره بطريقة ما، وأنه بالتالي يكون مسئولاً بشكل ما عن رعاية مصلحة غيره من الكبار. إلا أن الاختلاف بين الثقافات الأبسط والأكثر تعقيداً يمثل درجة واحدة فقط. أما النقطة الأساسية، فهي

أنه من خلال المجتمع الإنساني يعتمد الناس بطريقة أو بأخرى على بعضهم الآخر سواء في المواقف المألوفة بين الوالدين والأبناء أو في سياق معيشة الكبار. هذا النمط من «الاعتماد المتبادل» يعطي للحياة الإنسانية خاصية اجتماعية لا نجدها في المملكة الحيوانية. وحتى بين الحشرات الاجتماعية المعروفة، تبدو نماذج المعايشة والتكافل التي نجدها بينها هي نتيجة لتقسيم محدد فطرياً للعمل أكثر من أن تكون تحقيقاً لإمكانية تبادل المسئوليات بين بعضهم الآخر.

في هذه النقطة الخاصة بتحقيق الإمكانات الإنسانية الفريدة المحددة يمكن أن نتبصر بمصادر التصور الحقيقي للتوافق الإيجابي. فمن ناحية الخاصية الرمزية والاجتماعية للحياة الإنسانية، يبدو من الممكن استكشاف الإمكانات التي يتمخض تنميتها عن شيء مختلف عن مجرد غياب المرض والتي تشكل معياراً يمكن به قياس درجة التكامل في الأشخاص. وإذا كان لنا أن نتقبل هذا المبدأ، فإن علينا أن نسعى إلى بناء «**نموذج معياري**» (normative model) أو «**نموذج مثالي**» (ideal model) للشخص السوي أو للشخص النامي بطريقة إيجابية، أو المتوافق بطريقة تكاملية، أو للشخصية السوية.

نموذج التوافق التكاملي (A model of integrative adjustment) :

يبدو في المحل الأول أنه كلما نمت المقدرة الرمزية التي تهب الإنسان بصيرة، كلما صاحب ذلك تزايد في قدرته على ضبط سلوكه تقديراً لتوقع نتائجه بعيدة المدى. الشخص السوي هو، أولاً وقبل كل شيء، ذلك الشخص الذي تعلم أن يحقق أعظم إشباعاته أو إرضاءاته في مواقف كثيرة بواسطة التخلي عن الفرص الآنية المباشرة الداعية للراحة واللذة، وذلك في سبيل إثابات مُرْجَأة أعظم. فهو يعيش وفقاً لما يسميه «بول إلمر مور» — عالم اللاهوت - بـ «قانون المطابقة» (law of contingness):

... تبرز ثمة حقيقة بسيطة وقاسية تقرر أننا ، سواء في العالم الفيزيقي أو العالم العقلي أو العالم الروحي، لا نستطيع التوصل إلى شيء بدون أن ندفع الثمن المطلوب. والشخص الأحمق هو من يتجاهل العناية الإلهية التي تحرس

قانون المطابقة هذا، والشخص الشرير هو من يعتقد أنه يعلو في الحكمة على هذه العناية.. فكل تقدم الإنسان مرهون بإخضاع اهتمام معين أو قيمة معينة لاهتمام أو قيمة أعلى.

وقد توصل «ماورر وأولمان» إلى نفس النقطة في مناقشتهما استناداً إلى نتائج بحثية رصينة، إلى أن السوية تنتج في معظمها من القدرة المكتسبة على إخضاع حَفْزات impulses الفرد للضبط من خلال الدلائل أو «الإلماعات الرمزية» (symbolic cues) التي يقدمها الإنسان لنفسه في سياق تقدير نتائج أو مترتبات سلوكه. فمن خلال «الترميز»، يتم جذب النواتج المستقبلية لأفعال الفرد وسلوكه إلى حاضره النفسي، ونتيجة لذلك تتزايد قوة عوامل الإثابة أو العقاب الأكثر إرجاءاً، وبالتالي يحقق التأثير الكفيّ أو التيسيري بعيد المدى دوره في ضبط السلوك البدائي.

يعني هذا التزايد في الضبط الذاتي تضاؤلا في الحاجة إلى الضبط من الخارج بواسطة السلطة الخارجية، ومن ثم تصبح المسايرة موضوعاً بغير ذي أهمية نسبياً. فالشخص المتوافق توافقا تكاملياً إما أن يساير معايير جماعية لأن تقبلها يؤدي إلى أكثر النتائج إثابة وأبعدها مدى بالنسبة له، أو أن يتمرد على السلطة، سواء كانت سلطة الأشخاص أو القانون أو العادات، استناداً إلى أسس معقولة. هذا الشكل المعقول من المتمرد ينطوي على شيئين:

الأول، ويتمثل في اقتناع أمين بأن القواعد (أو واضعي القواعد أو الحكام) قد تكون في بعض الأحيان غير عادلة، وبأن إدخال الفرد لقيمه الخاصة من المحتمل أن تؤدي إلى حالة باعثة أكثر على الرضا. فنقد السلطة مثلا يكون مختلفاً تماماً عن أشكال التمرد التي تحدث نتيجة لحاجات أصيلة لتحقيق الذات أو لرغبات من أجل القوة أو كتعبير عن «عدائية إبدالية» (displaced hostility). يتمثل البعد الأساسي للاختلاف فيما يلي: الأمانة أو الشرف كما تتناقض مع الخداع أو النصب. الشخص السوي يكون نسبياً واعياً تماماً بدوافعه سواء في مسايرته أو تمرده. ومن ناحية أخرى، يميل الشخص صاحب التمرد المرضي إلى خداع نفسه وخداع الآخرين بشأن أهدافه ومراميه. فما يبديه من أسباب عن عدم مسايرته تمثل تبريراته لدوافعه وأهدافه- وتبريراته

هـذه هي فـي حقيقتها إسـقاطات من داخله. هـذا النوع من انهزاميـة الذات أو «تخييـب» الـذات self – defeating، ومـن الخداع الهـدام اجتماعياً يتضح بجلاء فـي الممارسات الإكلينيكية.

أمـا الخاصية الثانية المتعلقة باللامسـايرة nonconformity لدى الشـخص السـوي، فهـو أنها ترتبط بتقبل أساسـي للنتائـج المحتملة. فهـو إذ يضع المخاطر فـي الاعتبـار مقدمـاً، لا يبـدي ميلا إلـى التخلي عن سـلوكه التمـردي إذا ألقى بالمتاعـب أو المشـكلات جانبـاً. وإذ يحتفـظ «بقانـون المطابقة»، يكون راغباً فـي أن يدفـع الثمـن عن سـلوكه وفقـا لقيمه الخاصة. هكـذا جعل «جون إرسـكين» Erskine هيلـين طروادة تقـول لأبنتها هيرميون: «نحن لدينا الحـق لنقود حياتنا، ولكـن ذلـك الحـق يتضمن حقـاً آخر – وهـو أن نعانـي النتائج..... أفعـل كل ما فـي وسعك، وإذا وقعت فـي خطأ، فلا تخفـي شيئاً، وكن مسـروراً من أن تعاني مـن أجله. وتلك هي الأخلاق». لكن التفسـير النفسـي لهذه الحكمـة غير ملائم: فافتـراض مسـئولية الفـرد عـن أفعالـه هـو أحـد الخصائـص المميـزة للتكامل الشخصي[١].

إن المسـئولية الشـخصية والضبط الذاتي يشـتقان كجوانب للتوافق التكاملي مـن المقـدرة الرمزيـة لدى الإنسـان، وهنـا تتأكـد الخاصيـة الثالثة للمسـئولية البينشـخصية والتي يمكن اسـتنتاجها من طبيعته الاجتماعيـة. فإذا كان الاعتماد المتبـادل جزءاً أساسـياً من الحياة الاجتماعية الإنسـانية، فإن الشـخص السـوي بالتالـي يصبـح هو ذلك الشـخص الذي يسـتطيع أن يعمل فـي علاقته بالآخرين بطريقـة يُعتمـد فيهـا عليه وفـي نفس الوقت يعتـرف بحاجته إلـى الآخرين. قد تكمـن جـذور ذلك – كمـا يذهب ماكيلانـد – فـي إدراكات الدور التـي يتعلمها الأطفـال فـي سـياق نموهـم مـن إدراك أشـخاص الوالدين والأعضـاء الآخرين

(١) يعتبر تصور المسئولية على هذا النحو تصورا غير حتمي. فالمرء – كما يشير «فينجاريت» Fingaretta – يستطيع أن «يفهم» سلوكه أو سلوك الآخرين، من حيث تقريره أو التبصير به بطريقة رشيدة، بواسطة العملية الاسترجاعية لخبرات الماضي. والمسئولية، من ناحية أخرى، ليست استرجاعية في وجهتها ولا تفسيرية في وظيفتها. إنها موجهة نحو المستقبل وتشير إلى إعتبار الفرد مسئولاً عن سلوكه وما يترتب عليه من نتائج. وهكذا لا تكون المسئولية مصطلحاً منطقياً، يتضمن العلمية، ولكن مصطلحاً سلوكياً واتجاهياً، يصف مجموعة من الافعال الإنسانية.

المعنيين في عملية التطبيع الاجتماعي. فبإدراك هؤلاء الأشخاص كنماذج يتوحدون معها، فإن الفرد المتوافق بطريقة تكاملية «يريد أن يكون» نفسه شخصاً جديراً وغيريًا من حيث إمكانية الاعتماد عليه، ومن حيث عمله من أجل مصلحة الآخرين بقدر ما يستطيع أن يدركها على الوجه الأحسن. ومن ثم لا تعني الغيرية في هذا الصدد شيئاً عاطفياً. فهي تتضمن ولا شك وضع ودعم قواعد منظمة وفرض حدود سلوكية، على شريطة أن تكون هذه الخطوات فحسب مدفوعة بميل إلى مساعدة الآخرين، وأن تعبر عن اهتمام وصدق أكثر من أن تعبر عن مجرد ضيق شخصي أو مكاسب نفعية أو عن القوة المستمدة من «مكانة عالية».

وعلى هذا النحو، يتضمن الاعتراف بحاجات الفرد إلى الآخرين أنها مقدرة متعلمة على تكوين علاقات بينشخصية وطيدة وعلى الاحتفاظ بها. يشير «إريكسون» إلى هذا الجانب من الشخصية السوية على أنه اتجاه «الثقة الأساسية» (basic trust attitude)، وهو مفهوم لا يبتعد كثيراً عن مفهوم القدرة على الحب. وربما تكمن أصول هذه القدرة في الخبرة الطويلة أثناء الطفولة من خلال إشباع الحاجات التي كثيراً ما ترتبط بوجود شخص آخر، مماثل لشخص الوالدين. بهذا الارتباط وبعملية التعميم، يُكَوِّن الفرد شعوراً وجدانياً إيجابياً نحو الآخرين. ولكن مع تطور نمو الطفل، يتعلم بالتدريج أن سلوك الآخرين هو «سلوك توسيطي الحاجات» (need-mediation behavior) يتثبت فحسب في سياق من المتبادلية، بواسطة دخوله في علاقة من التبادل مع الآخرين. وإذا لم يكن هذا النوع من التبادلية مطلوباً منه، فمن المحتمل أن يطول اعتماده إلى ما هو أبعد من مرحلة مستواه البيولوجي للنمو ويحدده تعقيد ثقافته على أنه ملائم. أما إذا كان مطالباً بإبداء هذه التبادلية في وقت مبكر، فمن المحتمل أن يتطور لديه أسلوب مؤداه أن العلاقات البينشخصية هي بالضرورة موضوعات لتبادل المصالح والمتاجرة فيها، وبالتالي يكون الاتجاه، بدلاً من الثقة الأساسية، هو الاتجاه الرامي إلى الأخذ بأكبر قدر ممكن وإلى العطاء بأقل قدر ممكن.

إن إخضاع هذه الفروض للبحث والتأمل يلقي قدراً كبيراً من الضوء على محددات إنسانية ومقومات إيجابية للحياة الفعالة وللسلوك الإيجابي

كالصداقة والسعادة الزوجية والأبوة المؤثرة والتعبيرات الدالة على التكامل الشخصي الفعال المرتبط بالعلاقات مع الآخرين.

ولكن لا يزال هناك اتجاه بينشخصي آخر يتعلق بتصور إيجابي للتوافق يختلف إلى حد ما عن التصور الذي يأخذ بالعلاقات الودية والشخصية. فثمة إحساس يشعر معه كل فرد، حتى ولو اعتبر نفسه غير محظوظ أو غير سعيد، بأن إنسانيته الأساسية تعزى إلى الجماعة التي مكنته من أن يرقى على طفولته العاجزة. وحتى السمة الأساسية المميزة للإنسان وهي الكلام ذو المعنى، كما تبين الدراسات التي أجريت على ما يعرف بالأطفال المتوحشين ضمن أدبيات علم الأنثروبولوجيا (وهم الأطفال الذين عثر عليهم في غابات يعيشون مع الحيوانات وبلا وجود إنساني) ، لا تصبح قابلة للاستخدام بدون ما استثارة وتوجيه من الآخرين. ومن ثم ينشأ نوع من الالتزام على الفرد يصير معه رصيداً وقوةً للمجتمع بدلاً من أن يكون عبئا عليه. «يشير «آدلر» جزئياً إلى هذا الالتزام في تطويره لمفهومه عن «الاهتمام الاجتماعي» (social interest) كدالة للسوية. وإذا كانت هذه الفكرة تتضمن ولا شك تعلم الولاء للمجتمع والتواد الشخصي، فإنها تفوق أيضا الحدود الإقليمية للجماعات الاجتماعية مكاناً وزماناً. فبسبب مقدرة الإنسان الرمزية التي تمكنه من أن يفيد من سجل التاريخ الإنساني ومن أن يتوقع المستقبل، وبسبب أن نموذجه في الاعتماد المتبادل الاجتماعي وخاصة في المجتمعات المتمدينة يتعدى حدود الوحدات السياسية والعلاقات ا لودية المحدودة، يبدو من المعقول أن نتوقع أن الشخص النامي إيجابياً يسلك على نحو يسهم في سبيل المصلحة العامة للإنسانية، ويتخذ منها إطاره المرجعي الذي يتجاوز جماعته أو أسرته.

وهنا تدخل الأيديولوجيات، ولكن ليس ثمة حاجة لأن نتشكك بشأن خصائص السياسة والقيم التي تتعلق بالفرض الذي يقرر أن الاتجاهات الديمقراطية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتكامل الشخصية. فالديمقراطية تتضمن اهتماماً بالآخرين، وتقديراً وتفضيلاً للأشخاص فوق الأشياء، ورغبة أصيلة في المشاركة في علاقات متبادلة مشبعة مع فئات كثيرة من الأشخاص بما في ذلك الأشخاص التي لا يكون لدى الفرد عنهم إلا معرفة ضئيلة.

يعنـي التخلـي عـن الاتجاهـات الديمقراطيـة بهذا المعنـى النفسـي تقييداً لإمكانيـة الفـرد علـى الصداقـة، وينطـوي على اتجاهات نفسـية سـلبية قوامها الخـوف من الآخرين، وتقدير للأشـياء التي توحي بالقوة فوق الآخرين، والشـعور بالتهديـد والقلق الوجودي، وبالتالي تمثل خطورة تهدد الإثابة البينشـخصية التي تنبـع من اتجاه الثقة الأساسـية. وهكـذا يعني الاهتمام الاجتماعـي الديمقراطي أنـه ببسـاطة هو الطريق المباشـر الأكثـر إلى تحقيـق المقدرة الإنسـانية المحددة المتأصلة والمشـتقة من الخاصية الرمزية للإنسان، ومن حتمية حياته الاجتماعية، بقـدر مـا هو التوجه الذي يمكـن أن يوفر الضمانات الأكثر أمناً لتحقيق إنسـانية الإنسان.

وأخيـراً، تفتـرض قدرة الإنسـان على أن يتبنى «اتجاهاً نحـو مجرد الممكن»، أن الشـخص السـوي غنـي بالمثل والمعاييـر والقيم التـي يحاول أن يعيشـها حتى ولـو تعـدت عالمـه المحـدود. فالتوافـق الإيجابـي لدى الشـخص السـوي لا يقوم علـى تحقيـق الكمال ولكن على السـعي إلى العمل وفقا لأحسـن مبادئ السـلوك القـويم. هـذه الفكـرة تتضمـن، مـن الناحيـة الإجرائية، حـداً أدنى مـن التباين بـين مفهـوم الفرد عن ذاتـه والأنـا المثالية لديه. ويميل الأشـخاص الذين يتسـع لديهـم هـذا التبايـن بدرجـة هائلة (فـي الجانب المثالـي بطبيعة الحـال) إلى أن يُعَرِّضـوا أنفسـهم لإحباطات شـديدة تتعلق بعدم مقدرتهم علـى تحقيق أهدافهم وبانخفـاض تقديرهـم لذاتهـم. ومن ناحية أخـرى، يميل الأشـخاص الذين يكون لديهـم هـذا التبايـن منخفضـاً إلـى أن يبـدون بتوافـق أقـل تكاملاً إما بسـبب إخفاقهـم فـي تحقيـق مقدرتهـم على تصور أنفسـهم كمـا ينبغي أن يكونـوا ، أو بسـبب المبالغـة القائمـة على خداع الذات فـي تقديرهم لأنفسـهم.

هذا النموذج الخاص بالتوافق التكاملي كما يتميز بضبط الذات، والمسـئولية الشـخصية، والمسـئولية الاجتماعية، والاهتمـام الاجتماعـي الديمقراطي، والمثل العليـا — ينبغـي أن يعتبر فحسـب فـي شـكله الأولـي الاختباري. فهـو ينبغي أن يأخذ فـي الحسـبان بعض الاعتبارات الواقعية. فهو يسـتبعد التصور المسـتحيل عن الشـخص السـوي بأنه ذلك الشـخص الـذي يكون سـعيداً دائمـاً، خالياً من الصـراع، وبـلا مشـاكل. وبدلاً مـن ذلك، يفترض أنـه قد يقلل من مثله؛ فبسـبب الجهـل، أو بسـبب الحدود المقيدة التي يعيش فـي إطارها فـي مجتمع معقد، أو

بسبب قوة الضغوط المباشرة، قد يتصرف في بعض الأحيان على نحو يثبت أنه قصير النظر أو مخادع لذاته. ونتيجة لذلك، فهو قد يعاني خبرة الذنب في بعض الأحيان؛ ولأنه يحاول أن يكون واعياً تماماً بالمخاطر التي يتخذها، فإنه من الصعب أن يخلو تماماً من الخوف أو الضيق أو القلق.

أما الشخص الذي يتفق مع هذا النموذج، من ناحية أخرى، فمن المحتمل أن يكون هو ذلك الشخص الذي يتمتع بدرجة عالية متسقة نسبياً من تقدير الذات، والذي يستثير في الآخرين ردود أفعال إيجابية ودافئة. وفوق ذلك، هو ذلك «الشخص الذي يتعلم الحكمة» بدلاً من قسوة العداوة أو الانسحاب المرتبط بالخوف المرضي حالماً يواجه بالفشل أو المعاناة. فالشعور بالذنب، على سبيل المثال، يصبح تحدياً لأمانته، خاصة مع نفسه ولكن أيضا مع الآخرين، ويرشده إلى الرغبة في تعديل سلوكه، وفي بذل مزيد من الجهد لكي يعيش مُثُله، بدلا من الحاجة إلى الدفاع عن نفسه بميكانزمات (آليات) الحيل اللاشعورية، مثل التبرير أو الإسقاط. وأخيراً، يسمح هذا النموذج بتباين واسع في الأنماط السلوكية الواقعية التي قد يندمج فيها الأشخاص الأسوياء، كما يسمح أيضاً بمدى واسع من عدم الاتفاق بينهم. فالتوافق التكاملي لا يقوم على ملائمة ومسايرة الفرد لأنماط سلوكية مقررة، ولكنه يقوم على الدرجة التي بها تحقق جهوده الإمكانات الرمزية والاجتماعية التي تميزه كإنسان.

ثمة جانب آخر للشخصية السوية نادراً ما اهتمت به كتب علم النفس، وهو عنصر «التلقائية» — أي شجاعة الفرد ليكون هو نفسه. يتمثل الجانب الأساسي للتلقائية في اليقظة المتعودة لما يشعر به الفرد بالفعل. فبدلاً من القلق الغامض الذي تصاحبه انفعالات قوية، تعتبر المشاعر الإيجابية القوية جانباً متكاملاً من التوظيف النفسي السوي.

وفي الدراسة الحالية الفذة، يزيح المؤلف الستار ليكشف عن الحياة الداخلية المفعمة بالحماس لدى «الشخص الأصيل» أو «الشخص الصادق» (authentic person) الذي يشعر تماماً بسلام مع نفسه.

(٣٥)

الإحساس بالذات (*)

كلارك موستاكاس

(معهد ميريل بالمر للنمو الإنساني والحياة الأسرية – ديترويت، ميتشيجان)

عندما جلسـت مرة إلى طفـل، قابلته والحيرة الشـديدة تتملكني، محاولاً أن استوعب بقـدر الإمكان كل كلمـة وكل حركة تصدر عنه، وسـاعياً عـن عمد إلى فهـم المعنـى الحقيقـي لتعبيره. لقد اسـتخدمت كل قـواي ومصـادري لكي أفهم، مـن خـلال أسـاليبه المتعددة ومـا وراءهـا، تحريفاته للواقـع، وأحـاول أن اتبصر بمقاصـده ومشـاعره الأساسـية. لقد كانت جهـودي موجهة نحو مسـاعدته على التخفـف مـن توتراته الداخلية، وعلى تحقيق إحسـاس لديه بالانسـجام الداخلي inner harmony وبالتكامـل الشـخصي. وكانـت توجيهاتـي التـي بذلـت فيهـا قصـارى جهـدي قائمة علـى التفهـم والتوضيح، وعلـى قول الكلمـات الصحيحة فحسـب التي تنقله إلى مسـتوى أعلى من الراحة أو الفهم. وإذ سـاعدته فحسـب علـى أن يـرى كيف أنه، فـي تعبيـره عن رغباتـه واهتماماته وأسـاليبه، قد تخلى عـن وراثته ومصيره الفريدين، وإذ سـاعدته فحسـب علـى أن يتحقق من أنه ذات جديـرة، فإنـه – وحتى فـي حالة افتقاده لأي شـيء آخر – لا يـزال يوجد كذات، وأن هـذا الوجـود لا يمكـن اسـتبعاده بأي حـال من الأحـوال. فـأن يتحقق، وأن يفهـم، وأن يـرى، بوضوح أكبـر وبمعنى أعمق وببصيرة أعظـم، وأن يجمع الأجزاء معـاً فـي كل متكامـل، وأن يُقدّر مـا أراه – تلـك كانت بعض تغيرات الشـخصية التـي ميزت عملي كعلاج نفسـي ناجح أو فاشـل.

ولكـن ما الـذي تم إيضاحه؟ وما الـذي تم فهمه؟ وما الذي يقدمه اكتشـاف الحلقـات المفقـودة وجمـع الأجـزاء المتناثـرة؟ ومـا الذي يبينـه اختبـار العلاقة؟ هـل هو الذات فحسـب فـي سـعيها الـدؤوب إلـى فهـم ذاتها؟ هل هو فحسـب سلسـلة الاسـتجابات والتفاعلات والمؤثرات؟ هل هو فحسـب سلسلة غير ممزقة مـن الترابطـات والأحـداث؟ هـل هو فحسـب تنظيـم لعناصر منفصلـة؟ هل هو فحسـب إيضاح لما يقولـه ويفعله، لعاداتـه واتجاهاته، لاسـقاطاته ودفاعاته؟ هل

(1) C. Moustakas. The sense of self. J. Humanistic, 1961, 1 (1), 20-34.

هذا كائن حي إنساني يشترك مع غيره من الكائنات الحية الإنسانية؟ هل هذه حياة تعيشها كاملة من حيث المعنى الإنساني؟ هل هذه ذات تنمو كذات ارتباطاً بمصادر داخلية واتفاقاً مع الطبيعة والذوات الأخرى؟.

مما لا شك فيه أن المواهب الإنسانية الفريدة الخاصة بالمنطق والتعقل ذات قيمة هائلة في إيضاح الأفكار، وفي فهم الأسباب والدوافع الأساسية، وفي حل المشكلات، وفي استكشاف المعاني الدفينة، وفي مواجهة التحديات واتخاذ القرارات. لكن التعقل والمنطق فحسب جوانب من الإنسان الذي ينخرط في أنواع معينة من التفاعل مع الكون. وماذا عن خبرة الألم والمعاناة، والحب والجمال، والشمس والنجوم والجبال والبحار؟ ماذا عن الإيمان والله؟ والطعام الذي أتقاسمه مع أخي، أو الجولة التي أقوم بها في صمت ضوء القمر، أو الألعاب التي ألعبها مع أولادي؟ وماذا عن الدموع التي أذرفها والبهجة التي تغمرني مع من أحب؟ ووحدتي وإحساسي عند ابتعادي حتى حينما أكون جزءاً من حياة الجماعة؟ ألا يوجد الكثير من الخبرات الإنسانية وراء المنطق والعقل تعطينا الشجاعة لكي نعيش معانيها، ولكي نحتضن الآخرين، ولكي نشترك في رحلة، وذلك قبل أن يوجد أي فهم أو بصيرة أو إيضاح، وقبل وجود أي معرفة أو إدراك منفصلين؟ فالفرد الذي يشترك في الموقف الإنساني، يتكشف الحياة، حيث تكون الذات منضوية فيها- وتلك هي اللحظات المنعزلة من التأمل الذاتي الهادئ، ومن الخبرة الذاتية الخاصة، وهي اللحظات التي ألتقي فيها حقيقة بجاري الذي تربطني به اهتمامات وعلاقات وطيدة، وهي اللحظات التي أشعر فيها بأنني متعلق بورقة ساقطة من أوراق الشجر، بزهرة وحيدة في يوم تساقط فيه المطر، بالرعد والرياح والأمطار، حينما تستجلب إحساساتي عالماً متكاملاً من الإنسجام والألوان والأشكال، حينما يرتبط الكل بالكل، وينتمي إلى الكل ويبقى كما هو. يعبر «وليام ووردسوورث» عن ذلك الإحساس بالذات في الشعر التالي:

لقد أحسست

وجوداً يقلقني مع البهجة

فكراً ساميًا، وإحساساً رفيعاً

بشيء متمازج بعمق أكبر،

موطنه هو ضوء شمس الغروب،

والمحيط المستدير، والهواء الحي،

والسماء الزرقاء، وفي عقل الإنسان –

حركة وروح، تدفعان

كل الأشياء المفكرة، كل موضوعات كل الفكر،

وتدور خلال كل الأشياء.

هــل خبــرات مثل هــذه لا تكــون مهمة فــي حضور الــذات؟ ومع ذلــك، أين الفهــم والإدراك، أي مفهــوم أو تعريــف أو مناقشــة عاقلــة، وأي مقالــة معبــرة تســتطيع أن توصــل عظمــة ومهابــة الخبــرة الكلية حيث يكون الإنســان إنســاناً، الشــجرة شــجرة، والفجر فجــراً؛ ولكن كل عنصر يندمج فــي الآخــر، وكل جانب يعطي معنى للآخر، وهي فــي وحدتها وتكاملها تخلق شــيئاً جديداً تماماً، شــعراً حياً؟ .

منــذ عدة ســنوات، شــهدت ميتشــجان شــتاءاً قارســاً تعــدت البــرودة فيه معــدلات درجــة الحــرارة، حيــث عمت الثلــوج والجليــد والصقيع. فــي أحد أيام هــذا الشــتاء البــارد والعاصــف، اضطرني عنــف ضجة الريــح المزمجــر إلى أن أمكــث بالمنــزل. وبعد يومين من هذا الأَسْــر، بدأت أشــعر بالكآبة وباللاإحســاس نحــو لعــب الأطفــال وبالأحداث التي تجري مــن حولي. لقد بدى كل شــيء باهت اللــون، خافت الصوت. لقــد كنت على حافة القنوط واليأس، وفــي ظلال الحياة، وشــعرت بأننــي قد وقعت فــي شــرك العاصفــة العنيفة فــي الخــارج. لقد أتى الريــح مختــالاً عبر الجــدران، صافعــاً للنوافذ، محدثــاً صدى مدوياً فــي أرجاء المنــزل. إلا أن هــذه الذبذبــات الســمعية قد دخلت بعمق فــي وعــيِ. لقد تعلمت

أن المـكان الأكثـر أمانا فـي جو العواصـف الثلجية هـو الراحة الدافئـة بالمنزل. وقـد تراجعـت عـن هـذا لمدة يومـين علـى الأكثر، ليـس بـدون اختيـاري، ولكن بسـبب التقليـد والخـوف. لقد كنت منزعجـاً من أن الريـح العاتية قـد أجبرتني علـى البقـاء بالمنـزل ومن أنني قـد أذعنت لهـا بالطريقـة العاديـة والذكية. لكن كان هنـاك شـيء خاطـئ. فقـد كانت المناظـر العادية بالمنـزل تبعث علـى الكآبة والانقبـاض! لقـد رأيت الأغطية فحسـب وأحسسـت بالملل والضجـر من الحياة السـاكنة. وبقدر ما كنت أفكر فـي موقفـي هـذا، بقدر ما صـارت تتملكني أكثر مشـاعر الضيق والقلق. لقـد أخذت تغمرني من الداخل مشـاعر متدفقة عارمة. وقـررت مواجهـة الريـح. إننـي لـم أواجه من قبـل مثل هـذه العاصفـة الثلجية، ولكنـي قررت فـي هذه اللحظة – عن اختيار – أن أدخـل هذه المعمعة، وأن أدلف خـارج المنزل.

وفـي الحـال خبرت شـعوراً باعثـاً علـى البهجة والإثـارة. لقـد كان اندفاع الريـح البـاردة والمعربـدة يجذبنـي إلى التقهقـر والتراجع فـي كل اتجاه . وفـي لحظة وجدت نفسـي فـي لسـعة البرد ومدفوعـاً إلى الوراء. وصـرت متردداً هل اسـتطيع التحـرك قدماً إلى الأمام، ولكني ثَبَّت نفسـي على الأرض، ووقفت فـي طريـق الريـح وتقابلنـا وجها لوجه. ولقـد عرفت لأول مـرة المعنـى الكامل للريح القاسـية، وأحسسـتها فـي كل مسـام جسـمي. ووقفت بحـزم، وبـدأت تدريجيا وببـطء التحـرك إلى الأمـام رغم الريـح العاصفـة العنيفة التي صـارت تعترض طريقـي. وتسـاقطت الدموع من وجهـي. لقد كانت خبرة مؤلمة، ولكنها فـي نفس الوقـت باعثـة علـى الانتعـاش والبهجـة. لقـد كانـت بـاردة، ولكني كنت أشـعر بالـدفء من شـحنة قويـة من الانفعـال. لقد شـعرت بالحيوية حينما اسـتكملت رحلتـي. وكلمـا قابلتني الريح وحركتني، صـرت واعياً بالجو كله. لقد كنت أشـبه بدينامـو قـوي، مشـحونا بأصـوات واضحـة رنانة تمجـد الفضائل الكونية فـي الطبيعـة. لقد صارت إحساسـاتي مغمـورة فيها كلية. لقد صـار ضجيج الفرقعة والتكسـير يمـلأ كل مـكان، إلا أنه كان لكل صوت نوعيته الفريـدة وكان نقياً، رغم العاصفـة المندفعـة والكاسـحة، إلـى الحد الـذي اسـتطيع معـه إدراك كل نغمة علـى حـدة كوحدة متميزة. وصرت أسـمع، وأخبر سـلاماً ومتعة من الداخل فـي خضـم التحطيـم الشـرس الذي مـلأ الجو. وشـعرت بعـدم الخوف تمامـاً. وما

يبعث على الغرابة أني قد صرت أتيه بنفسي عجباً، وفي خيلاء، كلما سرت إلى الأمام في عالم مشحون بالهياج والعنف. لقد كانت لحظة للتأمل والإلهام وانتصاراً داخلياً على الخرافة والخوف. فلأول مرة في حياتي أفهم في الحقيقة معنى العاصفة الثلجية من خبرتي الشخصية المباشرة. وكان ما حولي هو عناصر لامعة وحادة، وأصوات نفاذة أستطيع رؤيتها وسماعها والإحساس بها بدون مجهود. ولقد كان كل شيء مفعم بالحياة والجمال. وانطبعت في نفسي عظمة وعمق هذه العاصفة. لقد بعث لقاء الريح في نفسي إحساساً بالانتعاش والجدة، وأوقفني على كل ما أتمتع به شخصياً من مصادر هائلة للطاقة والقوة.. وعدت إلى المنزل. لقد غدى كل شيء متألقا وجميلاً. وصرت ألعب بشغف مع أطفالي، يدفعني حماس وحمية لا حدود لهما. وتراءى لي أن التعب لم ينل مِنّي. وأخذت أقوم ببعض الإصلاحات والرسوم، وأساعد في إعداد طعام العشاء، وفي استحمام أولادي، وفي إيوائهم إلى الفراش. وقضيت أمسية ممتعة في القراءة وفي التحدث مع زوجتي. لقد وجدت، من واقع هذه الخبرة العنيفة، متعة جديدة في الحياة، طاقة جديدة، تفرداً وجمالاً. وقهرت سُباتي وفتوري، واكتشفت في نفسي تجاذباً حيوياً مع كل شيء ألمسه. فكل شيء كان كئيباً ومألوفاً أخذ رونقاً خلاباً. لقد تحققت كيف أنه من الخبرة القاسية المضطربة العاصفة يأتي إحساس بالبهجة والسلام والوئام الداخلي، ومعه يتأتى التعرف على المظاهر الحيوية للحياة، وكيف أنه من الصراع الأولي يأتي إحساس بالحيوية الفردية، وشعور بالانسجام وبالقربي مع ريح غاضبة.

ذلك بعد من الأبعاد قد تسميه **البعد الروحي أو الخفي أو الجمالي أو الإبداعي، أو ببساطة كون الإنسان إنساناً**. هنا أتكلم عن قوى غير معروفة في الإنسان تمتزج مع قوى غير معروفة في الكون تجعل الظاهرات تقع على النحو الذي تبدو عليه، وتجعل الحقيقة والواقع مندمجتان معاً لتجعلا ما هو غير متنبأ في الفرد يلتقي مع ما هو غير متنبأ في الشخص الآخر. عندئذ يحدث انفتاح للذات حيث يقوم الفرد بما هو غير متوقع وغير متنبأ، وحيث يصير مولوداً جديداً، فيدرك ويحس ويَخْبُر بطريقة مختلفة تماماً.

كيف يستطيع الفرد أن ينمي مصادره الكامنة ومواهبه الدفينة؟ كيف يستطيع أن يواجه الآخرين بإحساس ذات معنى عندما يكون مضطراً إلى

المسـايرة، وإلـى التنافـس والإنجـاز والتقييـم، وتحديد الأهداف؟ كيـف يمكن أن تأخـذ فردية الشـخص شـكلاً فـي موقـف حي، حيث يكـون واقعـاً تحت ضغط الاتصـال وفقـا لطـرق محـددة، ولمعاييـر ومسـتويات عاديـة، ولتحقيـق مطالب نمائيـة معينة؟.

أننـا نعيـش فـي عصر الفكـر والتعقـل، فيـه تكون الـذات منظومـة self-system: «**منظومـة الـذات**» هـي سلسـلة من التعقـلات والمفاهيم التي تسـتخدم فـي الوصـف والتحدد، وفـي هـذه المنظومة تسـتخدم المهـارات بهـدف الفائدة والتوظيـف، وفيهـا تكـون الخبرات أنسـب مـن الحقائق المجـردة، ويكـون الرمز أكثر واقعية من الشـخص أو الشـيء الذي تم ترميزه. نحن نعيش فـي عصر من الراحـة، مهيأ للاسـتيعاب والاسـتهلاك، فيه يكـون من الأفضل الالتـزام بالهدوء وبالنظـرة البعيـدة حينمـا تكـون هناك صيحـة مدوية مـن أجل العدالـة والحق، حينمـا يكـون من الأفضـل أن نقف على حافـة العلاقات الحقيقيـة، لأن المواجهة الصادقـة غالبـا مـا تجلـب الألـم والمعاناة والحـزن، وكذلـك البهجة والسـعادة. نحـن نعيـش فـي وقت يكون فيـه الصوت الهـادئ والرصين والعاقل هـو الطريق الحقيقـي للوجـود، وفيه تكـون تلقائية الاسـتثارة والمتعة والسـلام الداخلي، وفيه يكـون الحماس والحميـة الانفعالية؛ وفيـه تخضع الصيحات السـاخطة من أجل العدالـة وتأكيـد حقـوق الفـرد للتفسـير والتبريـر والتشـويه بواسـطة الأدعياء علـى أنها علامـات لعدم النضـج أو العـداوة أو الأهداف الأنانية أو كإسـقاطات للحاجـات الَفَميّة أو الحرمان الجنسـي.

نحن نعيش فـي عصر الآلات والمبتكرات والأساليب والإجراءات التكنولوجية، فيـه يسـتطيع الفرد أن يحصل على قائمة بأنسـب طرق الـكلام والتواصل والعمل، وكذلك بالسـلوك غير الملائم لأي موقف فـي الغالب.

نحـن نعيش فـي عصر التوافـق، حيث يكـون الفرد مضطـراً، إذا لم يتكيف عـن طيـب خاطر، إلى أن يخضع لأسـاليب الجماعـة وتفضيلاتها، إما بالسـلطة أو بالاقتـراع العـام. ولا يعـد إجماع الآراء ببسـاطة أمـراً عمليـاً أو ملائماً. فمن غيـر بـد أن تخلـق الفـروق الفردية أنشـقاقاً داخـل الفـرد، تصدعاً بين نفسـه والآخريـن. عندئـذ إما أن تكون الجماعـة أو يكون الفرد مريضـاً، ولكن لابد وأن

كلاهمـا سـوف يعاني. ولا تسـتطيع الجماعـة ولا الفـرد أن يَخْبُرا نمـواً وتقدماً على الوجـه الأكمل بـدون الآخر.

ليـس هناك من سـبيل لتحقيق الإمكانات الكلية فـي حيـاة الجماعة إذا كان هنـاك مـن الأفـراد من يلقـى نبذاً أو إهمـالاً، أو هنـاك ما يحد مـن طاقاته إلى أقـل ممـا هـي، أو يعُامَل على أنه مـن مرتبة أدنى أو على أنه غيـر مقبول. وبقدر مـا تنتشـر الإرادة والنوايا السـيئة والمشـاعر المرضية، بقدر ما يجد كل شـخص فـي الجماعـة نفسـه معاقاً وعاجـزاً عـن أن يحول مصـادره المتاحة إلـى تعبير إبداعـي وتحقيق خـلاق، أي يجعلهمـا حقيقة واقعة.

فالإنسـان لا يسـتطيع أن يحمـل فـي قلبه مـن الأفكار والمشـاعر والمقاصد والنوايـا الشـريرة بدون ما يورط نفسـه فـي ذات الوقت ويقيدهـا داخل مراميه أو أغراضـه أو وجهاتـه. وفـي ذلـك ينبغـي أن يتصدي الإنسـان لحالـة الرفض هـذه حتـى تسـتطيع حيـاة الجماعة أن تتضمـن وتسـتوعب عمق الـروح والولاء والمشـاركة الحقيقية. لذا يجب التصدي أولاً للمشـكلات والمنازعات الشـخصية، وللتحـدي المفروض على الفرد فـي مواجهـة الجماعة، وإلا فإن الانشـقاق داخل الجماعـة قد يعوق كل إنسـان مـن أن يحصل على إحسـاس بالتكامل وإحسـاس بكونـه كلاً متكامـلاً. ويمكن لنا فحسـب أن نحقق مسـتوى عاليـاً وراقياً من حياة الجماعـة إذا تعلمنـا أن نعيـش مـع الشـخص المختلـف، إذا اعترفنـا بحقه فـي الوجـود، واحترمنا مشـكلاته التـي يبديهـا أو الصعوبات التي يخلقها. فالمسـائل الشـخصية ينبغـي أن تتوطـد أولاً ، ثـم تتبعها الحيـاة الاجتماعية.

وهنا تتملكنا مشـاعر عـدم الرضا حيال الحركات والعـادات والأهداف غير ذات المعنـى للحيـاة اليوميـة الحديثة، وحيـال الاغتراب الذي ينتج عـن كون المرء جـزءاً مـن وجـود آلي يتسـم بالخُـواء، أو عن تكريـس طاقاته لدراسـة غير ذات معنـى يحـاول بها أن يحقق لنفسـه فهمـاً أو وجوداً، بدلاً من أن يعيش فـي وجود مسـتحق وتحقيـق ذاته تفاعلاً مـع متطلبات وتحديـات مواقف الحياة.

الفصل الحادي عشر

التوجه القيمي في الإرشاد النفسي(*)

الحريـة الأساسـية فـي الديمقراطية هي حريـة التحديد الذاتـي والتوجيه الذاتـي. فلـكل فـرد، عـل الأقـل مـن الناحيـة النظرية، حـق مقدس فـي تنمية إمكاناتـه كمـا يشـاء طالمـا لا يتداخل ذلك مع نفـس حقوق غيره من الناس. فـي المجتمعـات المركبـة، يوجـد اتفـاق ضئيل بشـأن الأهـداف القصوى التي يسـعى الفـرد والجماعـة ككل نحو تحقيقها. ومقابل ذلك، يواجه كل شـخص بمدىً هائل مـن الأنظمـة التـي عليـه أن يختار منهـا نظاماً يبدو لـه على أنه الأكثـر صدقاً.

ومـن شـأن احتـرام حق كل فرد فـي تقريره مصيـره أن يخلق موقفـاً صعباً للأخصائي فـي ميدان التوجيه والإرشـاد النفسـي. كيف يكون صادقاً مع نفسـه ويظـل علـى أصالته إذا أخفى نظامه القيمي فـي المقابلة الإرشـادية، ومن ناحية أخـرى كيـف يتحفظ ضد فـرض فلسـفة للحياة على عميـل قليل الحيلـة؟ تبدو أحـد الحلول فـي ذلك فـي إنـكار دخول قيم المرشـد النفسـي بأية طريقة فـي هـذه العلاقـة المهنية، فهـو – كعالم مدرب – يقـوم بمجرد تطبيق الطـرق الفنية الموضوعيـة المختبرة فـي حل المشـكلات الشـخصية بدون ما تأثير فـي أغراض العميـل وأهدافه.

لقـد ظـل هـذا الرأي سـائداً لسـنوات طويلـة، لكنه قـد صار مـن الواضح أنـه ليـس هناك مـن أحـد يسـتطيع أن يتجنـب توصيـل معتقداتـه الأولية على الأقـل على المسـتوى غير اللفظـي. فالأحكام القيمية – كما يشـير وليامسـون – تكـون متضمنة حتى فـي تركيبة الموقف الإرشـادي وفـي اختيار الطـرق الفنية. فاختيار المرشـد النفسـي فـي هذه الموضوعات يكون موجهاً بما يعتقد أنه ينبغي أن يكـون نتـاج الإرشـاد. وفـي هذه المشـكلة تتجلـى بقـوة وجهة نظـر «جاردنر ميرفـي»[1]: .. إذا كان مـن يقـوم بالتوجيه شـخص كامل، ذو أصول حقيقية فـي الثقافـة الإنسـانية، فإنـه لا يسـتطيع أن ينقـل بطريقة مباشـرة أو غير مباشـرة

(*) Value Orientation in Counselling.

(1) G. Murphy. The Cultural context of counseling. Personnel Guid. J., 1955, 34, 4-9.

لكل عميل ما يراه ويشعر به هو نفسه، والمنظور الذي يعيش به حياته» . فالمعتقدات الشخصية التي ينظم حولها الشخص حياته تفترض وجود عناصر غير رشيدة، ومن المحتمل أن يؤدي أي تحدٍّ لصحتها حتى بطريقة غير مباشرة إلى استدعاء اتجاه دفاعي. ويفترض أن يتصف المرشد النفسي، بفضل تدريبه المهني، بالتحكم الكامل في مشاعره الواعية، ولكن كثيراً جداً أن نتوقع أنه يتجنب كل خداع لا شعوري لردود أفعاله.

ويفرض مجرى سير العمل الذي ينبغي أن يقوم به المرشد تحدياً أكبر كلما أدت الصعوبات السطحية البادية في المقابلة المبدئية إلى مشكلات تتعلق بالوجهة التي يتخذها الفرد في الحياة، متضمنة المشكلات الأخلاقية والمعنوية. وإذا لم يستوضح المرشد نسقه القيمي الخاص إلى الحد الذي يستطيع معه أن يتفهم بصراحة دوافعه الأساسية، فإنه لا يستطيع أن يتحفظ ضد فرضها على الآخرين بطرق مستترة كثيرة. وعلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون المرشد يقظاً للسياق القيمي للمقابلة، ويُقَدّر نتيجة ما يتخذه من ردود أفعال بشأن العميل.

ويتضح من هذه الدراسات المختارة، أنه ليس بالضرورة أن يؤدي التعبير عن الأحكام القيمية، حتى ولو كانت أحكام المرشد ذاتها، إلى الاعتداء على حق الفرد المقدس في اتخاذ قراراته، ولا المناقشة الصريحة عن النطاق الممكن للقيم التي قد يختار منها العميل قيماً مغايرةً. فمن الأهمية بمكان أن يتذكر المرشد أنه حتى حينما يتكلم عن القيم كما تستقر نسبياً في حضارة المجتمع، فإنه يراها فى إطار معتقداته الشخصية.

يميز «وليامسون» بين أدوار المرشد المدرسي والمعالج النفسي. فبدلاً من الصراعات المتأصلة التي تتطلب علاجاً نفسياً تقليدياً، غالباً ما تتركز مشكلات المراهقين حول اختيار القيم لكي تستخدم كدوافع موجهة. في حالات كثيرة حيث يتطلب الأمر تقديم مساعدة خارجية قبل أن يتمكن المراهقون من حل المشكلات الصراعية ببصيرة واعية، يكفي توفر علاقة علاجية معدلة ومبسطة.

وقد يرغب القارئ في أن يجيب على بعض التساؤلات التي تثيرها الدراسة الحالية: كيف ترتبط مهمة المرشد المدرسي بالأهداف العامة للتربية؟ بأي معنى، إذا وجد، يكون المرشد معلماً؟ بأي الوسائل يستطيع المرشد أن يفرض قيمه على الطالب بدون أن يكون واعياً بأنه يفعل ذلك؟ هل ينبغي أن يكون المرشد محايداً إزاء ما يقرره الطالب؟ هل من المفروض دائماً أن يقوم المرشد المدرسي بتعليم القيم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأي نوع من القيم وتحت أي ظروف؟.

(٣٦)

التوجه القيمي في الإرشاد النفسي (*)

إدموند ج. وليامسون
(جامعة مينسوتا)

قد يعتقد بعض المرشدين النفسيين أنهم كمرشدين ينبغي ألا يكون لديهم أي توجه قيمي، وبأنهم ينبغي أن يحتفظوا في إجراء المقابلات مع العملاء بدور أشبه بوضع الحياد. وقد يؤكد نفس هؤلاء المرشدين أن التوجه القيمي للعميل ينبغي أن يكون المحدد الوحيد لوجهة وحركة وهدف العملية الإرشادية.

ويبرز في هذا الشأن جانبان يبعثان على الحيرة إزاء هذه الدعاوي من أجل الحيادية. فالموجهون الذين يأخذون بهذه الدعاوي يبدون ميلاً إلى الاعتقاد بأن الفرد يمتلك كل المصادر اللازمة لتحقيق مستوى أمثل من النمو يستطيع أن يصل إليه. وإذا كنت لا أسلم لأي أحد بثقة في الإمكانية الهائلة للأفراد على دفع نموهم إلى مستويات أفضل، فإن ذلك يتناقض مع اعتقادي في «الفردية المستقلة ذاتياً» (autonomous individualism). إلا أني أعتقد، ويوجد ما يؤيدني من دلائل تاريخية غنية في الحضارة الإنسانية، أن الفرد بحاجة إلى غيره من الأفراد لمساعدته على تحقيق النمو الأمثل. وفي الواقع، يشير تاريخ المجتمعات الإنسانية إلى تفسير مؤداة أن الحالة المتمدينة من التفاعل المتبادل تكون أكثر إنتاجية وملائمة للنمو الإنساني الأمثل مما يعرف بالحالة الطبيعية للاعتماد الذاتي الاجتماعي والنفسي.

وتتلمكني الحيرة أيضا بالنسبة للجانب الآخر الذي أطلق عليه دعوى الفردية المستقلة ذاتياً، وهذا هو دور المرشد النفسي ذاته في تلك العملية الإرشادية. فإذا كان المرشد يتبع هذا المفهوم حرفياً، عندئذ ينبغي أن يسعى إلى حالة من «إخفاء أو طمس الذات» (self-effacement)، وإلى حالة على الأقل من التأثير الهامشي في الإرشاد. هنا يمكن اعتبار مفهوم التقريب

(*) E. G. Williamson: Value orientation in counseling. Personnel Guid. j., 1958, 36, 520-529.

لهـذا الوضـع أو الموقـف، ولكـن قـد يتعـذر علـى الفهم أنـه يمكـن التوصل إلى هـذا الطمـس فـي شـخصية متكاملة، طالمـا أن الفرديـة تمثل جـزءاً أصيلاً من الشـخصية. لذا، يبـدو جلياً أن بعض الأبعاد المتعلقـة بالتوجه القيمي وبمعتقدات المرشـد، علـى الأقـل، ينبغي أن يدركهـا العميـل، وبالتالي يخضـع وظيفياً لبعض التأثيـر فـي العلاقة الإرشـادية. وقـد يكون صحيحاً مـن الناحيـة الإجرائية أن المرشـد يسـتطيع أن يعمـل بطريقة تقوم على طمـس أو إخفاء الـذات، ومع ذلك يحتفظ بفرديته فـي ظـروف أخرى. ولعلي افترض أن هـذا هو المقصود من هذه المشـكلة الجدليـة، رغـم أن دعـاة مبدأ إخفـاء الـذات يعترفون بالقليـل من تلك القيود الخارجيـة للحيادية.

نموذج الإرشاد Counseling Model:

ومهمـا يبـدو مـن صحة فـي هذين الجانبـين المحيريـن لدعـوى الحيادية، توجـد أسـس إضافيـة للتخلي عن ذلـك الوضع تفضيـلاً للتوجه القيمـي المفتوح والصريح فـي الإرشـاد النفسـي. وقبل أن استطرد فـي تفاصيل مناقشتي هذه، دعنـي أحـدد مفهومي عن الإرشـاد النفسـي حتـى أجعـل القضايا التـي تنطلق منهـا مناقشـي واضحة وصريحة. سـوف أحدد نموذجـاً للعملية الإرشـادية التي تأثرت فيها كثيراً بكتابات الآخرين وبخبراتي فـي مجال الإرشـاد. عندئذ سـوف أتكشـف بعض الطـرق التي بها يؤثر التوجه القيمي للمرشـد فـي تلـك العملية. يتحدد مفهومي، بطبيعة الحال، بسـياق خبرتي فـي الارشـاد الذي أمارسـه فـي الكلية مع الشـباب.

الإرشـاد النفسـي، مـن وجهة نظـري، ليـس مطابقاً للعـلاج النفسـي، وأن مضمونـه ليـس بعلم النفـس المرضي، وقـد تكون الأنمـاط الأخرى من الإرشـاد إكلينيكيـة أو علاجيـة، ولكنـي أود أن أتكشـف وأن أقـدم مفهومـاً آخـر يهـدف إلـى الجمـع والتكامـل بـين التوجيـه المهنـي والتربوي مـع ديناميات الشـخصية والعلاقـات البينشـخصية.

الإرشـاد النفسـي نمـط خاص لعلاقـات إنسـانية قصيرة الأجل نسـبياً بين «معلم مخلص» (mentor) ذي خبرة طيبة بمشـكلات النمو الإنسـاني وبأسـاليب

تيسير ذلك النمو، من ناحية، و«متعلم»، من ناحية أخرى، يواجه صعوبات معينة ملموسة أو غامضة إزاء جهوده ومساعيه نحو تحقيق نمو قائم على الضبط الذاتي والتوجيه الذاتي مما ييسر ويعزز مسار نموه وارتقائه عبر دورة الحياة. هذه الصعوبات تتراوح في مضمونها من اختيار هدف مهني أو تدريب مهني إلى العلاقات المتصدعة مع الوالدين أوالأصدقاء . تلك أبعاد متعددة للعلاقات الإنسانية التي تجري في المقابلة الشخصية بين المرشد والمسترشد، وهي أبعاد تتعلق بمناقشتنا.

ومن الاعتبارات الأكثر أهمية، أن مناخ العلاقة الإنسانية في الإرشاد النفسي ينطوي على نوعية خاصة. هذه العلاقات تكون شخصية بدرجة كبيرة، وهي بذلك تكون ذاتية أكثر منها موضوعية، أو أشبه بعلاقة العمل، أو رسمية من حيث الأسلوب والمشاعر. فالمرشد، حقيقة، «يعتني» بالعميل بطريقة شخصية، وإن كانت هذه الرعاية تختلف عما يباشره الوالدان من رعاية عميقة وحانية بالنمو الشخصي للطفل. ومع ذلك، فإن هذه الرعاية التي يحيط بها المرشد عميله تكون أكثر شخصية مما نخبره عادةً في علاقات الحياة اليومية. ويعد مناخ العلاقة هذا هو الشرط البيئي الأكثر حتمية لحل مشكلات النمو التي يواجهها العميل ويشعر بها ويدركها. وبدون ذلك المناخ، لن يتشجع العميل بفاعلية في سبيل البحث عن حل لمشكلاته، أو في سبيل فهم نفسه وصعوباته، أو في سبيل تقييم الأساليب المتاحة من واقع الصعوبة الحالية. وربما نصل إلى تعميم من خبرتنا مؤداه أن العلاقة في الإرشاد النفسي لا تستلزم أن تكون علاقة احتوائية وتوحدية كما قد نخبر في التحليل النفسي أو في أي نمط آخر من أنماط العلاقة العلاجية العميقة. ومع ذلك، ينبغي توفر المناخ المؤثر إذا كان للإرشاد أن يكون فعالاً.

وينشأ البعد الثاني في هذه العلاقة الشخصية من الحقيقة بأن الكثير من مشكلات النمو لدى العميل تنبع من اضطراباته أو صراعاته بشأن اختياره للقيم التي يتبناها كتوجهات دافعية مسيطرة لديه. قد يكون بعض هذه الاضطرابات عميقاً ومَرَضياً، وبالتالي قد يتطلب علاجاً نفسياً متعمقاً وطويلاً بدلا من الإرشاد النفسي. ولكن حتى في الأشكال الأبسط من الاضطرابات، فإن هذه المشاعر الصراعية قد تحد من دافعية الفرد في أن

يتخـذ ضبطـاً لنموه قائمـا على الثقة والعدوانيـة التوكيدية. وفـي تلك الحالات، وداخـل المناخ الـودي للمقابلة الإرشـادية، قد يحتـاج الفرد إلـى «علاقة علاجية معدلـة ومبسـطة» قبل أن يسـتطيع مواجهة مشـكلاته ببصيـرة واعية.

المعلم المرشد The Counselor teacher:

كل هـذه وغيرها أبعـاد ضرورية للعلاقات الإرشـادية. إن الإنسـان «فرد ذو مشـاعر وأحاسـيس» (feeling individual)، ويمثل وجدانه بعداً ضرورياً وسوياً لفرديتـه. ومـن ثـم، فـإن مسـاعدة العملاء على أن يشـعروا شـعوراً طيبـاً تمثل هدفا أساسـياً للإرشـاد النفسـي. ولكـن الخاصية الأساسـية المحددة للإرشـاد النفسـي هـي التعدد الخـاص بحل المشـكلات التـي تتعلق بصعوبـات موضوعية فـي العالم الخارجي وبما يصاحبها من اضطرابات انفعالية ذاتية.الإنسـان فـي ثقافتنا، لا يسـعى فحسـب إلى أن يشـعر شـعوراً طيباً، ولكن أيضا إلى أن يصبح كائنـاً حياً عاقلاً يسـتطيع حـل مشـكلاته وتوكيد ذاته.

وفـي الواقـع، عـادة ما يتداخـل وجدانه مـع محاولاته ليكون عاقـلاً، وربما يصيـر غيـر عاقـل إلى حـد أن عقلانيتـه تتطلـب إيضاحاً وإعـادة بنـاء قبل أن يسـتطيع اسـتعادة وضعه الرشـيد وعمليته العقلانية. وبالإضافـة إلى ذلك، عادة مـا يكـون وجدانه، خاصـة عندما يكون مـن النوع «السـوي»، هو المصـدر الأكبر الأساسـي للدافعية فـي سـلوكه كفرد يحل مشـكلاته بطريقة عقلانية. ومن ثم، **لا ينفصـل الوجـدان أبداً عـن العقلانية**، وأنهما يرتبطـان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، أحيانـاً بطريقة سـلبية، ولكن عـادة بطريقـة إيجابية منظمة متكاملـة، بحيث أن أحدهمـا يدعـم الآخر أو توجـد بينهما علاقـة تبادلية مـن نوع معين.

فـي الإرشـاد النفسي، يقوم المرشـد كمعلم بمسـاعدة الفرد على تعلم كيفية اسـتخدام اتجاهـات وطـرق حـل المشـكلات فـي ضبطه الممكـن لنمـوه. ويكون «منهج» الإرشـاد النفسـي (إذا اسـتخدمنا مصطلحـات رجال التعليـم) هو الفرد نفسه وأسلوبه فـي الحياة، أخطاؤه المربكة واستجاباته «الصحيحة» فـي علاقاته بالآخرين. فـي الإرشـاد النفسـي، نسعي إلى مسـاعدته ومسـاندته كي يعيد إلى نفسـه ذكاؤه أو عقلانيتـه محاولـةً منه فـي اسـتخدام قوانين معينـة للمنطق أو

بصيرة سيكولوجية معينة حتى يقترب من العقلانية في ضبط حياته، وهي عقلانية نادراً ما يحققها كلية. ومن ثم يسعى إلى الاقتراب من حقه وفرصته في تحقيق الحرية ليصبح «ذاته الواقعية» من خلال تحرره من إعاقة جهل الذات، ومن خلال التحرر من المعوقات الأخرى التي تقف في وجه نموه الكامل.

دور المرشد واضح إذن، وهو أن يعلم الفرد أن يساعده على أن يتعلم فهم نفسه وتقبلها على أساس مقدراته واستعدادته واهتماماته، وأن يحدد دوافعه وأساليبه في الحياة، وأن يُقَيِّمها في ضوء نتائجها أو مترتباتها؛ وأن يستعيض ذلك بسلوك أكثر ملائمة لتحقيق الاشباعات المرغوبة في الحياة التي قررها الفرد كهدف شخصي له. وبالتالي **يتحدد دور المسترشد باستخدام نفسه كمنهج لتعلم كيفية فهم نفسه ودافعياته المركبة وأساليبه المركبة في الحياة، ونتائج سلوكه، وكيفية تصحيح أساليبه التي تصل به إلى سلوك لا يرغب فيه.** وهو يسعى أيضا إلى تعلم أنماط سلوكية بديلة تصل به إلى نتائج ومترتبات في حياته يرغب فيها وتضيف أكثر إلى عمقه وثرائه في تحرير علاقاته مع غيره من الأفراد.

ومن الطبيعي ألا يكون العميل كلية أو مطلقاً متكامل ذاتياً أو متكافل ذاتياً في أهدافه، أو أسلوبه في الحياة، لأنه يحتاج أيضاً إلى نوع من الجبر والإلزام لتعديل حفزاته الداخلية بفضل عضويته في الجماعات والمجتمعات وعلاقاته المتبادلة مع الأفراد الآخرين في المدرسة والمنزل والمجتمع. وبفضل هذا التفاعل مع غيره من الأشخاص (وداخل نفسه، مع نفسه) يتعلم أن يحلل ويفهم ويصحح ويعدل في سياق المقابلة الإرشادية — وهي «عالم إنساني مُصَغَّر» (microcosm) يتكون على نحو يستطيع معه أن يري نفسه ويشعر بها بطريقة ودية وبدون تهديد لأمنه الذاتي. وعندما يتمكن المسترشد من أساليب الفهم والضبط التي يتعلمها في الموقف الإرشادي، يكون مهيأً للمهمة الحقيقية لنقل هذه المهارات وعوامل الثقة إلى عالم العلاقات البينشخصية الخارجي الذي يفرض عليه توافقا للمعاير الخارجية والمبادئ الموجهة للسلوك وتوحداً معها.

وهكذا يكون التفاعل بين المرشد والمسترشد أشبه بالتفاعل بين المعلم والمتعلم، وهو لا يخرج عن أنه «تدريس ذات صبغة شخصية» (persornalized teaching)، وعن كونه عملية تعلم يكون فيها الاتصال في بعض الأحيان ليس شفهياً فحسب ولكن أيضا موقفياً وبما ينطوي عليه الاتصال من معاني ومغازي. وفي بعض الحالات، قد تتصف العلاقة بالتدريس من خلال تقديم إيضاحات أو تفسيرات صريحة، واقتراحات لفروض محتملة، ومساعدة في البحث عن حقائق ذات دلالة (استعدادات، اهتمامات، دوافع، الخ) تكشف عن مشكلات المسترشد، وغير ذلك. وفي حالات أخرى، قد تكون طريقة التدريس هي حسن الإصغاء القائم على الود والتشجيع والتعزيز. وقد يقوم العميل في حالات غير قليلة باتخاذ وضع المعلم لنفسه. أي أن المسترشد قد يستخدم موقف المقابلة الموجهة بعناية لكي يتمرس على تعليم نفسه كيف يفهم نفسه كما هي عليه وكيف يحقق لنفسه نضجاً على أساس ما يمتلكه من رصيد القدرات والدوافع التي يكون قادراً على أن يدركها في ذاته. هذه الجلسات التدريبية تسمح له أن يتخذ لنفسه موقفا مع نفسه ويتبصر بها بطريقة موضوعية — هو موقف يصعب تحقيقه غالباً إلا في جو ودي وعاقل من العلاقات البينشصية مع المرشد. وقد يشعر المسترشد، بعد عدد من الجلسات التدريبية، بالثقة والاستعداد لأن يعتمد على نفسه ويمضي وحده، أي يُوَحّد ويكامل داخل نفسه الأدوار المتبادلة بين المرشد والمسترشد. وهنا يصبح المسترشد معلم نفسه في الإطار الذي تحدده إمكاناته وغيرها من الظروف الأخرى. وبالتالي يقترب إلى درجة من التكامل تحقق له مزيداً من النمو والرضا عما يتمخض عن سلوكه من نتائج.

القيم والأهداف في الإرشاد النفسي:

والآن، ارتباطا بهذا النموذج، سوف أحاول تكشف دور التوجه القيمي في الإرشاد النفسي. وهنا يبرز سؤال أكثر تعقيدا وإثارة للبلبلة والحيرة حينما نسعى إلى تقييم أو حتى إلى تحديد الأهداف أو الأغراض المنشودة من خلال الإرشاد النفسي. والسؤال هو: هل الأهداف الخاصة بنمو الطلاب وارتقائهم تتحدد سلفا، أم تنشأ «على غرارها» (sui-generis) في سياق العملية الإرشادية ذاتها؟ وهل تتحدد الأهداف بالعميل فحسب؟ دعنا نتفحص نموذج الارشاد

الــذي نقدمه فــي ضوء موضــوع الأهداف هذا – وهو الموضوع الأكثر أهمية فــي فهــم قيــم الإرشــاد. وهنا نواجه علــى التو بالأســئلة التابعة التاليــة: لأي أغراض ونتائــج نقــدم خدماتنــا كمرشــدين؟ هل هــي نتائج من نمط نســتطيع استســاغته وتقبلــه؟ هل هــي مفيدة اجتماعيــاً بالنســبة «للصالح العام»؟ وهل هــي «مجدية» بالنسبة للفرد؟

فــي طرح هذه الأسئلة ينبغي أن نُذكر أنفسنا بأننا لفترة طويلة فــي الإرشاد قــد تقبلنا بطريقــة جامدة التعميم الذي يقرر بأن المرشــدين ينبغي ألا يعبروا عن اتجــاه قيمي ســلبي أو عدم استحســان قيمــي، أي إدانة لأي شــيء يقوله أو يفعله العميــل، أو يكــون قد فعله أو ســوف يفعله. هذا الاتجاه الســائد يعكس الملاحظة العامــة بأننــا، المرشــدون، نقلل مــن فاعليتنا بدرجــة هائلة، خاصــة حينما نقدم خدماتنــا لعمــلاء مع الآخريــن، إذا كانت طريقتنــا تقوم على التوبيــخ أو الحث أو الأمر أو الوعظ أو التدخل عنوة فــي ســعي العميل لفهم مشــكلته ولحلها.

والآن، إذا كنــا قــد نتفــق جميعــاً علــى أن عبــارات الإدانــة أو التحريض أو الترغيــب هــذه ليس لهــا مكان فــي الموقف الإرشــادي، فإنه لا يترتــب على ذلك بالضــرورة أننــا بحاجــة إلــى تأييــد تمســك المرشــد بحياديــة القيــم مــن حيث علاقاتهــا بمفهــوم العميــل عن ذاتــه وبمثله وســلوكه، وبالعلاقات البينشــخصية. ويوضــع فــي الاعتبــار أن مبدأ حياديــة القيم هــذا قد يمتد فــي بعض الحالات إلــى النمــوذج النمائي الكلــي للعميل، على افتــراض أن الهدف المرغــوب – الذي يتمثــل فــي «نمــو كل شــخص بكل الطــرق إلى أقصى حــد يمكنه أن يصــل إليه» – يمكــن أن يتحقــق على أحســن مســتوى إذا كنا نحــد بدرجة هائلة مــن التأثير الخارجــي الباعــث على التفــكك والتصدع.

هــذا الهدف الخاص بالنمو الإنســاني يؤكــد عليه «لويد – جونــز» (Lloyd-Jones) و«ســميث» (Smith)، فهمــا يؤكــدان علــى التوجه القيمــي صراحة، وهو هــدف يبعث فــي معظم المربين والمرشــدين ســعادة حينمــا يرون أنــه قد تحقق. وهــو هــدف ذو قيمــة بالغــة لمــا يفرضه مــن مفاهيم ودوافــع وبرامج للعمل فــي الإرشــاد النفســي. ولكن مثل هؤلاء العلماء أنفســهم قد عمدوا إلى إعادة التحقق مــن بعض افتراضاتــه الضمنية.

وقد تتبعت محاولتهم في إعادة اختبار ما جرى من جدل بأن المرشدين بحاجة إلى أن يكونوا محايدين فيما يتعلق بنتائج العملية الإرشادية. فعلى سبيل المثال، إذا كان لنا أن نتقبل هذه الأهداف بدون تمحيص، يبدو علينا أن نأخذ بالمبدأ بأن كل نمو يكون مقبولاً إذا كان يحقق شرطين فقط: «بكل الطرق» و«الحد الأقصى الذي يمكن أن يصل الشخص إليه». ومبدأ كهذا ينطوي على قضية أخرى، وهي أن أي شكل من أشكال النمو تتضمن في ذاتها مقوماتها الكافية. ولكن قد تنشأ عندئذ بعض الأسئلة التي تثير الشك بشأن تقبل ذلك المبدأ العام: هل توصلنا إلى رؤية النمو الأمثل كما تأيد بدون ما اعتبار للمعايير والأشكال التي توجهه نحو هدف «سليم» بدلاً من توجيهه نحو «غاية رديئة»؟ هل نعتقد ، نحن المرشدون، أنه في الإرشاد قد «يجوز أي شيء» أو أن أي نوع من نمو السلوك قد يصلح شأنه في ذلك شأن أي نوع آخر؟ هل نعتقد أن النمو الأكمل لفرد واحد يؤدي حتماً إلى ترقية وتزكية النمو الأكمل لكل الأفراد الآخرين؟ هل لا توجد معايير ثابتة وصادقة للنمو من حيث الفردية؟ هل ينبغي لأي فرد أن يختار بين القطبين المتقابلين: الاستقلالية المطلقة للفرد، ومسايرة الفرد لمعايير مفروضة للنمو من شخص أو مجتمع — أليس هناك من جوانب أخرى يختارها الفرد في إنمائه لحياته؟

وهل نخلص إلى نتيجة، إذن، بأن استجلاء وتقبل المعايير والحدود كمبادئ موجهة للنمو هي بغير ذات دلالة وأهمية في الإرشاد، إن لم تكن معوقاً له؟ هل مثل هذا الهدف قد يقيدنا بعائق «الدوران المستمر» حول نقطة بداية محدودة من التوجيه الذاتي المطلق والمستقل، وهي نقطة قد تحددت منذ وقت طويل ووُجدت على أنها غير سليمة، على سبيل المثال، بواسطة «بوذا» فيما يتعلق بتربية لا ترتبط بفلسفة، أو على الأقل لا ترتبط بفلسفة صريحة؟

هذه التساؤلات قد تدفعنا إلى أن نضع في الاعتبار تطبيقات هامة سواء بالنسبة للطرق أو الأهداف التي نختارها في الإرشاد:: ما هو الجانب الذي ينبغي أن يبديه التعبير عن التوجه القيمي للمجتمع أو المرشد في الموقف الإرشادي؟ إن من شأن تقبل مبدأ الحيادية أن يدفع الكثيرن إلى الإجابة بالنفي. ومع ذلك، قد نتساءل عما إذا كان المرشدون، على الأقل أولئك الذين يعملون في المدارس والكليات، يستطيعون الوفاء بالتزاماتهم المهنية إذا ظلوا،

وفقا لعبارة «كارمايكل»، مجرد متفرجين أو مشاهدين محايدين في النظر إلى التربية أو دورها في المجتمع.

الحاجة إلى القيم:

في محاولتي الكشف عن مكانة التوجه القيمي في الإرشاد، لا أكون حكيماً بدرجة كافية إذا حاولت التوصل إلى إجابة نهائية، ولكني قد توصلت إلى وجهة نظر تؤكد ضرورة الاعتراف بالأهداف الأخلاقية – المعنوية والاجتماعية في الإرشاد. وقد كنت استرشد في دراستي الطويلة لهذا الجانب المهمل للإرشاد بما وصل إليه «بول ميل» من نتيجة تقرر: أن الاهتمام الصارم والزائف (السوفسطائي) بأخلاقيات التوجه العلاجي بواسطة أصحاب الإفتاء قد فات عهده، وغالباً ما ينحصر الفكر الراهن في هذا الموضوع كليةً في كلاشيهات[1].

في سعي الحالي إلى صياغة للتوجه القيمي الذي يتعلق بنواتج الإرشاد، سوف أضع في الاعتبار أولاً ما إذا كان ضرورياً أو مرغوباً فيه بالنسبة للمرشد أن يستبعد الأحكام القيمية من المقابلة الإرشادية لكي نعطي للعملاء الحرية اللازمة لدراسة مشكلاتهم ولحلها على أساس من المسئولية.

وقد تبدأ بالتساؤل عما إذا كان في استطاعتنا حقيقة أن نفصل سلوكنا عن قيمنا الخاصة وعن قيم المجتمع في أي موقف من المواقف. فكل اختيار أو عمل- وفقا لتعريف «تايلور» للقيمه على أنها «فكرة يسلك الناس بموجبها، أو مبدأ يحكمون به على كيفية تصرفهم وسلوكهم»[2]، ينبغي أن يستند إلى تقبل صريح أو ضمني للقيمة. وحتى أكثر العلماء صرامة وتزمتاً في نظامه، حيث يفترض فيه استبعاده لقيمه من عمله لكي يصل إلى الموضوعية، لا يستطيع أن ينهض بوظيفته مستقلاً عن قيمه. وفي ذلك يقرر «سميث»:

---

(1) Paul E. Meechl. Annual Review of Psychology. Stanford, California, 1955, Vol. 6. p. 373.

(2) Harold Taylor. On Education and Freedom, Abelard-Schuman Lty., New York, Lndon, Toronto, 1954, p. 208.

إن الزعم بوجود «علم متحرر من القيم» (Value-free Science) حينما يمضي إلى ما وراء الإصرار على الاهتمام المنظم بالحقائق سواء كانت تتفق مع رغباتنا أو تتعارض وإياها، من شأنه إعاقة العناصر القيمية في اختيار مشكلات البحث، وفي الإطار التصوري له، وفي اتخاذ القرار بشأن متى يمكن الاعتماد على نتائج سلبية، ومتى تكون النتائج قابلة للتقرير، وهكذا إلى مالا نهاية(1).

ويفترض «كونانت» أيضاً بأننا لا نعمل بدون أن نتكشف، صراحة أو ضمناً، القيم المختارة بطريقة ذاتية، والتي تستند على «الخبرة الشخصية وامتدادها عبر التاريخ». ويمضي إلى القول:

إني أشك في قدرة معظم الناس على التهرب أو التملص من بعض العناصر لخطة تصورية ترتبط بالسلوك الإنساني، أو بالمبادئ المعنوية أو القواعد الخلقية، أو بالأحكام القيمية(2).

القيم حتمية:

إذا كنا هكذا لنتفق على أن الأحكام القيمية متضمنة في كل عمل أو فعل نقوم به، علينا أن نتفق أيضاً على أن المرشدين لا يستطيعون التهرب أو التملص كليةً من تدخل نظمهم القيمية الخاصة في المقابلة الإرشادية. وبينما قد تكون معايير المرشد الأخلاقية والمعنوية غير واضحة للعملاء أو حتى للمرشد نفسه، فإنها تؤثر في استجاباته لعميله ولما يحكيه العميل عن تاريخ حياته وتطور حالته، وفيما يؤكد عليه المرشد في الموقف الإرشادي، واختياره للأهداف وللأسلوب الإرشادي، كما تؤثر في الطرق التي يستخدمها في تنفيذ الطريقة المختارة في عقد المقابلات مع الحالة.

ويكشف المزيد من التفكير على أنه بينما تعتمد الطرق التي يستخدمها المرشد جزئياً على افتراضاته الخاصة بمترتبات ونواتج الإرشاد، فإن هذه الافتراضات

(1) M. Brewster Smith: "Toward Scientific and Professional Responsibility". American Psychologist, 9, 515, 1954.

(2) James B. Conant: Modern Science and Modern Man. Double-day and Co., 1953, p. 181.

ليست هي المجموعة الوحيدة من القيم التي تساعد على تحديد طرقه وأهدافه. وفي الحقيقة، بالنسبة للمرشد المدرسي، أن المعتقدات السائدة داخل نظام الكلية أو المدرسة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية وأهداف التعليم، وبمكانة الإرشاد والغرض منه، قد تؤدي إلى حد ما إلى تحديد الأهداف التي يتوقع أن يوجه المرشد جهوده نحوها، والطرق التي يتوقع أن يستخدمها. وبينما يبدو الممارس الخاص في الإرشاد، لأول وهلة، متحرراً من تلك الموجهات في علاقاته بعملائه، فإني أعتقد أن المزيد من الاختبار والتمحيص سوف يعين بعض الحدود «الخارجية» لحريته ارتباطاً بمسئوليته في التأثير على العميل لاختيار معيار للسلوك بدلاً من آخر.

يبدو من الواضح هكذا أننا لا نستطيع أن نحاول، أو لا ينبغي حقيقة أن نحاول، استبعاد بعض الاهتمام بالقيم من الموقف الإرشادي. ومن الواضح أيضا أن معايير واتجاهات المجتمع والمعايير والاتجاهات السائدة في المؤسسة التربوية التي يعمل فيها المرشد، وكذلك معايير واتجاهات المرشد نفسه، سوف تنعكس في سلوك المرشد من خلال كل مقابلة. ومثل هذا الانعكاس ينبغي ألا ينطوي على تأثير غير ملائم أو على تأثير معوق يعترض جهود العميل في سبيل تحكمه في نموه ذاته.

إلا أنه لا يكفي أن نعترف أن التوجه القيمي للفرد يحدد السلوك. فالفعل أو العمل قد يقع بلا مسئولية رغم هذا الاعتراف، إلا إذا خضعت القيم والافتراضات والأهداف الكامنة وراء الفعل أو التصرف للاختبار والتمحيص وأصبحت مفهومة بوضوح قدر الإمكان.

وفي ذلك يقرر «سميث»: إن الشخص يتصرف بمسئولية إلى الحد الذي يتفق سلوكه على الأقل مع الشروط التالية:

أولاً — أن يكون واعياً بالسياق القيمي value context الذي يعمل في إطاره. وتخضع أهدافه للاستقصاء الواعي، كما يرتبط سلوكه صراحة بقيمة.

ثانياً — أن تتم اختياراته في ضوء فهم ملائم لنتائجها المحتملة كما يستطيع تحقيقها. وتخضع العلاقات التي يفترضها بين الوسائل والغايات للفحص الناقد، ولا تؤخذ كقضية مسلمة.

ثالثا – أن يكون مستعداً لإصدار الأحكام استناداً إلى اختياراته لكل من الغايات والوسائل، وأن تكون لديه المرونة لكي يعيد تقييم كلاهما. وباختصار، عليه أن يضطلع بالمسئولية إزاء قراراته وأفعاله[(١)].

هذا التعريف للمسئولية، كما ينطبق على المرشدين، ينطوي على عدة تضمينات ارتباطا بقضايا التوجه القيمي في الإرشاد النفسي. فهو يتضمن، ضمن أشياء أخرى، أن المرشدين بحاجة إلى أن يفهموا أهدافهم بصراحة ووضوح، وأن يختبروا الطرق والأساليب التي استغرقتهم وشغلتهم على أساس ملائمتها لهذه الأهداف. وهو يتضمن أيضا أن العملاء – الذين، شأنهم في ذلك شأن المرشدين، يسلكون ويعملون في ضوء قيم معترف أو غير معترف بها – بحاجة إلى أن يتعلموا تحديد وفهم مضامين مبادئهم الأخلاقية والمعنوية والاتجاهات القيمية الأخرى لكي يسلكوا ويعملوا بمسئولية. ويفترض هذان المضمونان السؤال التالي الذي أود هنا أن أضعه في الاعتبار: هل الوظيفة الملائمة للإرشاد هي مساعدة الطلاب على تعلم تحديد وتقبل الالتزام بتوجههم القيمي وتقبل المسئولية نحو السلوك المشتق من ذلك التوجه؟

بالنسبة للإرشاد الذي يتم في موقف تعليمي أو في مؤسسة تربوية، يقوم تحليلي لتحديد الأهداف الغائية المرغوبة على الافتراض بأن الإرشاد جانب أساسي، وليس فرعي، من التربية الديمقراطية. وفي رأيي، **أن أهداف الإرشاد في المؤسسات التربوية ترتبط بأهداف التربية عامة، وخاصة بالنسبة للمسئولية الاجتماعية للتربية في التأثير على نموذج النمو الذي يصل إليه تقدم الطلاب.** عندئذ يبرز السؤال عما إذا كانت التربية عامة ينبغي أن تهتم بنمو قيم الطلاب والتزامهم بها. ويبدو لي أن التربية مطالبة بذلك، إذا كان لها أن تساعد الطلاب للإعداد للحياة وللرشد مما سوف يكون مُشبعًا ومجزياً بالنسبة لهم ولرفقائهم في الأسرة والمجتمع. وكما يقرر «فييجل» جدلاً: «تفترض أهداف التربية قبلاً بعض المثل الخاصة بالطبيعة البشرية.. ومن شأن تلك المثل أن تَلْقَى سنداً بواسطة الأحكام القيمية [(٢)]».

(1) Op. cit., p. 513.

(2) Herbert Feigl. Fifty Fourth Yearbook of the National Society for the Study of Education: Part 1, Modern Philosophies and Education. Chicago, 1955, pp. 324-336.

تنـوع القـيم:

يجـري الكثير من الإرشـاد فـي سـياق تربـوي، ويكـون موجهـاً نحو هدف تيسـير النمـو والتغيـر الارتقائـي لدى الحالات مـن الطلاب. وهنا أؤكـد على أن المرشـدين، كالمربـين، ينبغـي أن يعدلوا من المفهـوم غير المحدد عـن النمو المحدد بذاتيـة مسـتقلة عـن طريق إدخـال مجموعة مـن الأبعـاد الملائمـة (أي لا تكون جامـدة ولا مفروضـة)، فـي مفهومنا الخاص بالأهـداف المرغوبة للإرشـاد، بما يوسـع مـن الخبـرات التي قـد تكون مرغوبة فـي نمـط مجتمعنـا الديمقراطي. ومـن شـأن سـعي العميل لمجموعـة متنوعة من النمـاذج الاختياريـة والمرغوبة أن يُعطـي ثـراءاً جديداً لفائدتنا التربوية كمرشـدين. ولعله بسـبب التعددية الثقافية والقيميـة cultural and value pluralism قد نكون فـي خطر ضئيل أو لا نكون فـي خطـر، بشـأن بناء نظـام صارم وعام يلتزم به كل مرشـد نفسـي.

ونعنـي ، ضمـن أشـياء أخـرى، باسـتخدام عبـارة «مجموعـة متنوعـة من الأهـداف الملائمـة» loose-fitting goals (أي ليسـت بالجامـدة ولا المفروضـة)، تلـك المعاييـر القيميـة مثـل التـي يقترحها «تايلـور» و«فييجل» فـي مناقشـتهما الخاصـة بضـرورة إدمـاج التربيـة مع قيـم أخلاقيـة – معنويـة صريحة.

توجـد فـي خبـرة الطلاب قيـم أخلاقيـة – معنويـة لا يسـتطيع أن يتجنب تقبلهـا – قيمة العقل، قيمة السـلوك الشـريف، قيمـة التعـاون. وإذا كان يرفض تقبلهـا، فإنه لا يسـتطيع أن يظل طالبـاً. وهناك قيم معنوية أخرى – الشـجاعة، الاسـتقلال، الاحسـان، الكرم، الحساسـية – قد لا يجدها فـي خبرتـه كطالب، ولكنـه ينبغـي أن يوجدهـا فيها إذا كان لـه أن يكون متعلمـاً حقاً [(١)].

ويقترح« فييجل» أبعاداً أخرى على التربية أن تعمل على تنميتها لدى الفرد:

وبالإضافة إلى هذه الآراء الخاصة بالتفكير والسلوك الرشيدين، ينبغي أن تسعى التربية إلى تدعيم نمو «الاتجاهات البنَّاءة والخَّيـرة» (constructive and benevolent attitudes). والتربيـة مطالبـة بـأن تسـاعد كل فرد علـى الوصول بدرجـة كافية إلى مسـتوى عال من الطموح الرامـي إلى كمال الـذات Self-perfection [(٢)].

(1) Harold Taylor, op. cit., p. 35.

(2) M. Brewster Smith, op. cit., 336.

وأكـرر، أننـا لسـنا بحاجة إلـى أن نقيـد أنفسـنا بالنتائج التـي يدافع عنها هـذان الباحثـان فـي التربية. ولسـنا بحاجـة إلى تأييـد أن المرشـدين ينبغي أن يقنعـوا الحـالات من الطلاب لكي يلتزمـوا بهذه أو تلك من القيم الخاصة. وفـي الحقيقة، لقد استشـهدت بهما كأدلة نسـتند إليها فـي هذه المناقشـة العامة بأن كل طالـب فـي التعليم ينبغـي أن يلقي عوناً يُمكِّنه من التبصر بالمسـارات الموجهة لنمـوه والمحركـة لسـلوكه الفعـال، ومن اختيـار تلك المسـارات التي تصـل بنموه إلـى المسـتوى الأمثـل وكذلـك بنمو رفاقـه ومجتمعه. وفـي هذا الالتـزام الأخير يقـرر «ديـوي»: ولكـن إذا كان للديمقراطيـة معنـى معنـوي ومثالي، فهـو المردود الاجتماعـي الذي يكـون مطلوباً مـن الجميع [1].

وهكـذا يبـدو اعتبـار الارشـاد النفسـي علـى أنـه غيـر مرتبـط بالقيم هو قضية متناقضة طالما أن المرشـدين يعملون على تيسـير نمـو الفرد داخل الحدود التـي يفرضها موقفه الاجتماعي. فمهمتنا تتمثل، على الأصح، فـي مسـاعدة كل عميـل علـى أن يختـار (اختيـاره الخـاص) «أن يصبح هو نفسـه» شـخصاً معينا وليـس شـخصاً آخـر، وأن يتوصل إلـى مفهوم متكامـل عن وجود يرتبـط بحياته ويعطـي لهـا معنى، كمـا يرتبط بحيـاة الآخريـن وبإغنائها بالمعانـي - وهو وجود يـزوده بمبـادئ أو قيم موجهة تؤثر فـي سـلوكه اليومي.

التحديد الذاتي للقيم:

والآن، ربمـا نتفـق علـى أن توفيـر التوجيه والتعليم فـي القيـم يمثل وظيفة هامة للإرشـاد النفسـي. فـي هذه الحالة يبقي تسـاؤل آخر: كيف يتناول المرشد القيم فـي المقابلة الإرشـادية. وهنا نعـرض لبعض النقاط:

أولاً – من الطبيعي أن يقدم المرشد نفسه في المقابلة بطريقة يكشف فيها سلوكه ذاتـه عن تمسـكه بقيم شـخصية ومهنية معينـة – على سـبيل المثال: احتـرام تكامل الطالـب، وضـوح الإدراك فـي تقييم الذات، حرية الفرد فـي اختيـار التوجه القيمي، وغيرها كثير. ومن ثم نعتبر المظاهر السـلوكية بطبيعة الحال طريقة «لتعليم» (للتأثير فـي) التلاميـذ أن يختاروا منها ما يمكن أن يتبنوه لأنفسـهم كتوجه قيمي.

(1) J. Dewey. Democracy and Education. MacMillan, New York, 1916.

ثانيـاً- إن الخـط الأساسـي المُوجِّه للمرشـدين فـي المدارس والكليات فـي سـعيهم إلى أدوار فعالة فـي التوجه القيمي، تحدده الحقيقـة بأن الآخرين الذين يعملـون مـع المراهقـين قـد يحققوا كفـاءة أكبـر ويصلون إلـى تقدم أعظم فـي هـذا المجـال من النمـو الإنسـاني والعلاقات الإنسـانية مما حققنـاه أو يمكن أن نحققـه. لـذا، ينبغي علينـا نحن المرشـدين أن نتجنب التدخل الهـدام والضاغط فـي تفردية وأوليـة علاقات الطلاب مع الأسـرة ودور العبادة. إننـا بحاجة، على وجـه المخصوص، إلى أن نتكشـف، فـي إطار الاستشـارة الودية مـع رجال الدين وغيرهـم مـن العاملين بفاعلية فـي هذا البعد مـن النمو الإنسـاني، الطرق التي يمكـن بهـا أن نقوم نحن المرشـدون بصهـر أدوارنـا الفريدة الخاصـة مع أقصى علاقـات العمـل بروح الفريق فـي بوتقة مهمتنـا العامة.

ثالثـا – يحتـاج المرشـدون إلـى التحفـظ فـي دورهـم إزاء التوجـه القيمي فيما يتعلق بالحساسـية لدى المتمسـكين ببعـض المعتقدات الدينيـة، وبميل بعض المرشـدين إلـى نقـد بعض الأنظمـة التي ترتبط بمعتقـدات وقيم لا يتمسـك بها المرشـد شـخصياً فـي حياته الخاصـة أو يدافع عنها. وفـي ذلك وغيـره، يكون المرشـد مطالباً باحترام حق العميل فـي «التحديد الذاتي» self-determination لتوجهـه القيمـي، كما هو الحـال بالنسـبة للتوجيـه المهني والاختيـارات الأخرى لـدى الفرد الحر فـي ثقافـة المجتمع.

ولنعـود إلـى الجوانب الإيجابية لدور المرشـد فـي المقابلة: هنـا يتضح عدد مـن الاتجاهـات، بعضهـا اتجاهات فعالـة والأخرى غيـر فعالة، فيها قـد يتناول المرشـد، كمربى، القيم فـي علاقاته بعميله فـي المقابلة الإرشـادية التي يسـعى إليهـا العميـل عـن إرادة. فقد يسـتخدم، على سـبيل المثال، طريقة الدعاية فـي إقنـاع عميلـه بمجموعـة مـن القيم محـددة قبـلاً لكي يفـرض هـذه القيم على الفـرد. وقـد يسـتخدم أيضـا الإقنـاع فـي التأثيـر على عميله لكي يسـير فـي الاتجـاه «الصحيـح». لكـن مـن المعـروف جيـداً مـن خبـرات المرشـدين أن هذه الأسـاليب مناقضة تماماً للطرق الملائمة التي ينبغي استخدامها. وفـي الحقيقة، أن الإرشـاد فـي المؤسسـات التربوية قد نشـأ، فـي الكثير من جوانبه، كاحتجاج ضـد الأسـاليب والطـرق الضاغطة الإملائيـة التي تسـعى إلى دفع الفـرد عنوة إلـى تبنـي وجهة قيمية معينـة. وبينما قد يكـون الفرض والإملاء ضروريين فـي

بعض المؤسسات والمواقف، إلا أنه ليس إطلاقاً بالطريقة الإرشادية المفضلة بالنسبة للتوجه القيمي في العلاقة الإرشادية العادية.

ومن ناحية أخرى، قد يبدي المرشدون في بعض الأحيان ميلاً إلى أن يدللوا بالمنطق على ما يعرف بالتوجه القيمي «الصحيح». والآن، بينما قد يكون للمناقشة وتقديم الأدلة ميزة تبصر الطالب عقلانياً بأساس نسقه القيمي لكي يستطيع أن يتقبله، إذا شاء، على الأقل عقلياً مع الاحتفاظ بدرجة معينة من الاستقلالية، إلا أن هذه الطريقة لا زالت غير مرغوبة في تزويد الطالب بخبرة تعلم عميق المعنى تظل محتفظة بتأثيرها الفعال إلى أمد طويل.

تقييم القيم:

وعلى العكس من ذلك، تهدف الطريقة الإرشادية الأكثر فعالية وقبولاً إلى مساعدة الطلاب على أن يطبقوا على مشكلة القيم تلك الأساليب الفنية، من تحليل واستيضاح وفهم، التي نأمل أن يعتادوا تطبيقها على حل مشكلات النمو الأخرى. ويعني ذلك، أن المرشد يساعد الفرد على استخدام عقله وعواطفه في تحليل موقفه النمائي (developmental situation)، وعلى تحديد نقطة الارتكاز في القضية — وهي، في هذه الحالة، القيم كمصادر لدافعية وتحديد السلوك. ثم يساعد المرشد، كمعلم، العميل على تحديد وتقييم الأنساق القيمية البديلة، وعلى اختيار نتائج ومترتبات الإجابات البديلة للأسئلة المعنوية والخلقية. وهكذا، يتأكد دور المرشد كمعلم، مثلما يتأكد دور الطالب كفرد يتكشف المشكلات، ويختار القيم ويعمل بموجبها، وبالتالي يَخْبُر نتائج اختياراته. وفي كثير من الحالات تتشابه أساليب المرشد وطرقه مع الأساليب والطرق المستخدمة في إرشاد الطلاب بشأن مشكلاتهم المهنية والتعليمية وغيرها من مشكلات النمو.

أضف إلى هذه النقطة وجهة نظري بأن المرشد، كما يفعل المعلم في بعض الأحيان، قد يوضح بطريقة موضوعية قدر الإمكان، نطاق الاختيارات القيمية الممكنة عن طريق تبين توجهه القيمي، أو توجه الآخرين، نحو المشكلات الحياتية. حقيقة، قد لا يكون هذا الإجراء مناسباً دائماً، طالما أن خبرة المرشد

قد لا تتعلق بالمشكلات التي يواجهها طالب معين، أو قد لا يبدي الطالب اهتماماً بوجهة نظر المرشد. لكن حينما يكون ذلك ملائماً، فإن المرشد لا يتردد في استجلاء موقفه بوضوح، طالما أنه يتجنب إقناع الطالب أو التأثير عليه لكي يحاكيه.

وثمة نقطة واحدة تتطلب مزيداً من التأكيد في استخدام أية طريقة من طرق الإرشاد بالنسبة للاختيار القيمي، وهي نقطة قد أكدها «تايلور» على النحو التالي:

تتضمن الحرية، كما تتحدد بالمعنى الشخصي، اتجاهاً نحو الذات ونحو السلطة. وهي تقوم على الاقتناع بأن لكل شخص الحق في إعمال عقله بشأن حقيقة أو صدق فكرة من الأفكار استناداً إلى أفضل البيانات التي يمكن أن يجدها، وبأنه ينبغي أن يحتفظ بحق اختيار طريقه في العمل داخل حدود إطار اجتماعي مقبول.

ويعني ذلك أننا، في الإرشاد المتعلق بالقيم كما هو في حالة الإرشاد المهني والتربوي، نقصر أنفسنا على مساعدة الطالب على فهم حرية الاختيارات المتاحة له، على أساس قدراته ومسئولياته ومغزاها بالنسبة له. عند هذه النقطة، وفي داخل إطار المسئوليات والحدود التي تفرضها المؤسسات والمجتمع، يكون الطالب حراً في اتخاذ اختياره الخاص من بين هذه أو تلك من البديلات.

وهنا يكون اختياره هو اختياره وحده (وهنا أيضا تكون مسئوليته بالنسبة لنتائج ذلك الاختيار)، ويمثل هذا في حد ذاته مبدأ معنوياً عزيزاً نتمسك به في ديمقراطيتنا متنوعة الاتجاهات. وأعتقد دائماً أنه ليس من الضروري أن ندلل على حق الطالب في اتخاذ قراره بشأن أي مشكلة، ولكني أصر على أن ممارسة ذلك الحق لا يحول دون المساعدة «المباشرة» من جانب المرشدين، أو من جانب أي شخص آخر، قبل اتخاذ الاختيارات أو بعدها.

خلاصة :

من الواضح أن الإرشاد لا يمكن أن يكون مستقلاً عن القيم، سواء شئنا أو لم نشأ جعله حراً. وبالأحرى يكون الإرشاد، وخاصة في مؤسسة تربوية، موجهاً قيمياً، كما لا يكون مطلقاً على السواء فيما يتعلق بالأهداف التي تبرز من خلال مطامح ومساعي كلا من المرشد والطالب داخل علاقتهما الإرشادية. وقد ذهبت في إثباتي إلى أبعد من ذلك لكي أستبين صراحة توجهاتنا القيمية الخاصة كأفراد مرشدين، لا لكي نتبنى توجهاً تقليدياً جامداً يسير عليه المرشد، ولكن لكي نحدد بمسئولية الوجهة الاجتماعية المعنوية لعملنا الفردي في ضوء الأهداف المرغوبة التي يختارها الطلاب صراحة. وقد اقترحت أننا نتقبل« تعليم» القيم كوظيفة للمرشدين، ولكن نظل على وعي بمخاطرة فرض مجموعة من القيم على الطالب وبحرمانه بالتالي من حقه في التحديد الذاتي وتقرير المصير ومسئوليته في ذلك. وفي مقابل ذلك، ينبغي أن نساعده على استخدام الوضوح العقلي والوجداني في مواجهة مشكلاته، حتى يستطيع أن يختار من بين مجموعة من موجهات العمل تلك التي تبدو ملائمة له في دفعه قدماً إلى مزيد من النمو فيه وفي علاقاته بالآخرين. قد يعني هذا، بالنسبة لفرد معين، تمسكاً بدستور للقيم (الرسمية، أو الدينية أو غيرها) أو تقبلاً له. وبالنسبة لعميل آخر، قد يعني اختياراً لنسق قيمي أقل رسمية في بنيته وشموله. وعلى أية حال، ينبغي أن يساعد المرشد العميل على تعلم كيفية فهمه بوضوح أكثر لتوجهه القيمي الخاص، وكيفية توجيه سلوكه بطريقة أكثر عقلانيةً ورشداً وبنائيةً في ضوء المعايير التي يختارها.

قد يضيف تناولنا لموضوع الدين مزيداً من الحيرة لدى المرشد النفسي الذي يهتم بالفعل بالفروق في الأنظمة القيمية. فمن النادر أن نتخيل فلسفة للحياة تكون أكثر أساسية وقيمة من الفلسفة التي تعطي معنى وغرضاً للوجود. وليس هناك من تنازع أو تخاصم بين علم النفس والدين: فهما يلعبان أدواراً تعزيزية في نمو الشخص الناضج. لذا ينبغي ألا يتجاهل المرشد الدين شأنه في ذلك شأن إمكانات الشخصية الأخرى التي يمكن استخدامها بطريقة بناءة. ومهمته هي أن يساعد العميل على أن يتكامل داخل نموذج حياته في سياق الاعتقادات الإيجابية في حياته.

(٣٧)

علم النفس والدين والقيم عند المرشد النفسي (*)

جلبرت فرين

(جامعة مينسوتا)

تقوم الدراسة الحالية على مبدأ أساسي مؤداة أن الدين وعلم النفس يكملان أحدهما الآخر. علم النفس يسهم في فهم «طبيعة» الذات وعلاقات الفرد بالآخرين، أما الدين فيسهم في فهم المعنى والغرض من الحياة، وفي إدراك «مغزى» هذه العلاقات ذاتها. وكلاهما قد يسهم في جعل الحياة أكثر فاعلية واستحقاقاً، وأهدافهما متناظرة، ومتعاضدة وليست متعارضة. ينظر عالم النفس إلى النضج الاجتماعى على أنه يتضمن وعياً بالآخرين، ونموا يتعدى «النرجسية الطفلية»- التعلق الطفلي بالذات (infantile Narcissism) إلى الانفتاح على المجتمع. ويتناول المرشد الديني اهتمام الفرد بالآخرين كامتداد لحب الله له. فأحدهما يهتم من حيث المعنى البراجماتي بالنمو الاجتماعي الذي يسهم في تكامل الشخصية، والآخر يركز على الاهتمام الهادف لأولئك الذين يكونون إخوة في العائلة الإنسانية. ويعني ذلك أن هدف تنمية الشخصية لدى الشخص ينطوي على الكثير من التشابه بينهما.

إن علم النفس (من حيث معناه العلاجي) يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا كان له أن يضع في الاعتبار مكانة القيم الدينية والعلاقات الدينية لدى العميل طالما أن هذه الاتجاهات والقيم حقيقة واقعة شأنها شأن القدرات والمهارات. فهي لا يمكن أن تكون موضعاً للإغفال والإهمال. لا شك أن علم النفس، بالإضافة إلى ذلك، يستطيع مواجهة بعض الحاجات الإنسانية التي لا يمكن مواجهتها بواسطة الدين. ففهم «الذات» يتضمن ربما نظاماً مختلفاً عن فهم «الحياة». ويستخدم المرشد [1] معارفه ومهاراته السيكولوجية والمهنية الخاصة

(*) C. G. Wrenn: Psychology, religion, and values for the counseler, (Symposium: The counselor and his religion, Part III). Personnel and Guid. J., 1958, 36, 331-334.

(١) الاخصائى في الإرشاد النفسي counseling psychologist هو عالم نفس تلقى في تعليمه المهني وفي تدريبه اهتمام خاص بالارشاد وتأكيد عليه. وهو يولى، كما يتميز عن غيره من علماء النفس، إهتماماً أولياً بالإرشاد النمائى developmental counseling، بتقدير الإمكانات والطاقات، وبفهم العميل لواقعه الاجتماعي وتكامله معه، وبالأدوار المختلفة التي يلعبها العميل في مجالات الحياة المختلفة، وبوعى العميل بديناميات الخاصة وبطبيعة دفاعاته النفسية. والمرشد بهذا هو شخص على الأقل ذو معرفة ودراية سيكولوجية متعمقة..

فـي مسـاعدة الشـخص علـى فهم نفسـه علـى نحو أفضـل، وعلى فهـم حقائق حياته، وسـلوكه اليومي، وإمكانات شـخصيته.

وفـي بعـض الحـالات حينما يتمـرس المرشـد بمهامـه المهنية عـن جدارة، يتنـاول المشـاعر والخبـرات المكبوتـة، ويحاول أن يسـتخلص تقبـلاً أفضل للذات مـن جانـب العميـل، ويتوصـل إلى بعض الحـل للصـراع والقلـق الداخليين. ذلك هـو ميـدان علم النفـس – أي تطبيـق ما هو معروف عن السـلوك علـى حاجات العميـل، واسـتخدام إجراءات العلاقـة والاتصال بطريقة تعكس الأسـلوب الفريد المميـز لمهنية المرشـد. وقـد يذهب المرشـد أو لا يذهب (وهذا القـرار على درجة كبيـرة مـن الأهميـة) إلى ما وراء هـذا، ويسـاعد العميل على فهم الأهداف فـي الحيـاة ومعنى الحيـاة، ويبصره بالأسـاليب الملائمة التي يربط بها نفسـه بما هو لا نهائي.

المرشد والدين:

قد يتقبل معظم المرشـدين ما أسـميه بالوظائف النفسـية للمرشد. ولكن هل يسـتطيع أن يقـوم بـأي وظائـف دينية؟ هذا السـؤال قد يبعث علـى الازعاج لدى أي مرشـد – وكذلك فـي نفسـي أنـا . فلا أعـرف بالضبط كنه هـذه الوظائف، لكنـي علـى يقـين بأن المرشـدين لا يسـتطيعوا بعـد أن يعملوا كما لـو أن الجانب الدينـي لا وجـود له لدى العميل والمرشـد. والحق، أن ثمة مخاوف تتملكنا بشـأن الاعتـراف بالدين فـي تفكيرنا المهني لأسـباب عدة، مثل: عدم التـوازن الانفعالي الموجـود فـي بعض الديانات، التصنع البادي فـي بعضها الآخـر، الاهتمام الفائق فـي الإعداد المهني للمرشـد بالجوانـب الإمبيريقية والعقلية مـع إغفال الجوانب الروحيـة والجماليـة، عـدم الاسـتقرار الديني لدى المرشـد وإخفاقه فـي تحويل العقيـدة والطقـوس الدينية إلى سـلوك واقعي.. هذه التهديـدات التي تنتقص من سـلام العقل لدى المرشـد لا تزال لا تنكر حقيقة المشـكلات الدينية بين العملاء، أو تبعـده عـن المزيـد من المخـاوف بأن يتجاهـل مصـدراً ينطبع فـي اهتمامات عميله .

يشـير «مـاورر» بوضـوح إلـى خطـورة تجاهل الديـن كمصدر لأننـا خضعنا

كثيراً لتأثير علم النفس الموضوعي والتحليلي في تطور علم النفس كميدان للدراسة. ولقد أخطأ كلا من علماء النفس الموضوعيين والتحليليين – كما يقول ماورر – في جعل العقل نتاجا للجسم أو خادماً له، على افتراض أنه ليس للعقل (أو الروح) وظيفة أو وجوداً مستقلين ذاتياً. وليس الحال بأفضل من ذلك بالنسبة للعلماء السلوكيين والمحللين النفسيين الذين يتعلقون بهذه الصخرة الجدباء حيث توجت دراستهم عن الدين إلى اختزاله إلى شكل من أشكال علم النفس المرضي. فبالأحرى ينبغي أن يولَى للدين اعتباراً وتقديراً كافيين كشيء له «**قيمة البقاء النفسي**» (psychological survival value). لهذا ينبغي دراسته كمصدر وكبقاء لأنه قد تطور وتعاظم كاستجابة لحاجات الشخصية الفريدة لدى الإنسان.

وإنه لمن الصعب على المرشد أن يُقصي جانبا أهمية هذا المصدر حينما يصغى بعمق إلى ما يصدر عن أطباء نفسيين جادين ومقتدرين «بالأكاديمية القومية للدين والصحة النفسية» [1] (National Academy of Religion and Mental Health) من تصريحات تقرر: «أن ما يعتقد فيه الإنسان يمثل عاملا في صحته الانفعالية. وتنطوي مشكلات المرض العقلي على اختلال تنظيم الفرد لفلسفته في الحياة. وينسحب ذلك على اتجاهات المريض نحو العالم، ونحو الأشخاص الآخرين.. لقد لعب الدين دائماً، في أوقات كثيرة وأماكن كثيرة، دوره في العلاج. فالقيم المطلقة أو الغائية (ultimate values) للإنسان هي «قيم روحية». ويتأكد ذلك في تقريرات أخرى كهذه: «إن الأكاديمية لا تؤيد العلاج الطبي النفسي بواسطة الكهنوت، أو التعليم الديني بواسطة الأطباء النفسيين. وهي تسعى، لصالح الناس والأخصائيين، إلى الكشف عن المصادر الطبية النفسية والدينية التي يمكن توفيرها واستخدامها في تنمية الاتجاهات الانفعالية السليمة، وفي الوقاية من المرض العقلي، وفي العلاج».

ولا يحتاج المرشد إلى معرفة اهتمام الطبيب النفسي بالدين أو إلى أن تخول له السلطة لإقناعه. فكل ما يحتاجه هو تأمل عاقل لمكانة الدين في أفكار ومشاعر الناس، وبإمكانيته الهائلة للصالح الاجتماعي، وبحاجة الشباب

(1) The National Academy of Religion and Mental Health. The National Academy. New York, Academy of Medicine Bld., 2E. 103rd St., N. Y. 29, 1956.

والصغار إلى نظام دائم ومتكامل من القيم، وبما تستدعيه ذاكرة العملاء والطلاب الذين تعرضوا لمتاعب بشأن مكانتهم في الحياة، وبأهميتهم ككائنات إنسانية. وكل ما يحتاج إليه المرشد أن يفعله هو أن يتأمل في متاعبه الخاصة حينما يواجه بمشكلات الدين مع عميله. فهذه المتاعب قد تنبع من عدم نضجه الديني أو من تشككه في صلاحية توصيل ما يعتبر بالنسبة له يقيناً شخصياً.

الكثير منا لا يعرف كيف نوجه «أنفسنا» في الإرشاد حينما يبدي العميل حاجة إلى الدين. هل نستطيع أن نستمر في التقبل، أو هل نعرض ونقدم عقيدتنا؟ هل يمكن أن نكون متعاطفين وأن نتحفظ في إصدار الأحكام ونظل محتفظين بالاعتقاد في عقيدتنا؟ يتناول «آربوكل [1]» هذه المشكلة برقة في مناقشته لأولئك الذين يعتبرون الإرشاد (المتمركز – على – العميل) (client-centered counseling) منافياً للإرشاد الديني الذي ينبغي أن يكون (متمركزا – على – الله) (God-centered). ويقرر أن (التمركز – على – العميل) ليس هو (التمركز – على – الذات) (Self – centered)، وبأنه إذا ما لاقى الفرد صعوبة بالنسبة للإرشاد الديني بهذا المعنى، فإن ذلك يتوقف على مفهومه عن الله وعلى مفهومه عن عملية الإرشاد.

والسؤال: ما الذي يمكن أن يفعله المرشد بشأن الدين – دينه ودين الآخرين؟ الإجابة على الأقل فيما يلي:

١- دراسة أهمية الدين، إيجابيا وسلبياً، في نمو الشخصية.

٢- أن يكون مستعداً، بالفكر مقدمًا، لتناول المشكلات الدينية بسماحة وببصيرة كأي خبرة أخرى لدى العميل مشحونة انفعالياً – مثل مشكلات العلاقات الزوجية، والعلاقات الوالدية، والخبرات والمخاوف الدينية، ومشاعر الذنب المكبوتة، والآمال والأحلام التي يتم التعبير عنها خجلاً.

٣- عند استيضاح خبرته الدينية لا يساعد على تدخل تأثير عدم النضج والاضطراب في العلاقة الإرشادية.

(1) D. Arbuckle. Student Personnel Services in Education. McGraw-Hill Book Co., Inc., New York, 1953, pp. 170-177.

القيم والأخلاق والدين :

لما كانت الحياة قد أصبحت أكثر تعقيداً وغدت علاقاتنا بالأجزاء الأخرى من العالم أكثر تبايناً، فإن الحاجة إلى المعاني والأغراض تصبح أكثر إلحاحاً، كما يصبح التمكن من نسق قيمي واع مطلباً أساسياً. ونجد في مقالة للسيكولوجي «كورنر» Korner مناقشة لعالم نفسي إكلينيكي عن علاقة القيم بالصحة النفسية، بما في ذلك ظاهرة «الفجوة القيمية» (value lag). وفيها يبرز كيف كان العالِم الاجتماعي في الماضي يبدي نفوراً وتبرما من قضية القيم، ويتكلم عن نسق القيم الذي في داخله تعمل آليات التوافق على حماية الأنا من الصراع القيمي ومن الفجوة القيمية – وهو في ذلك يتلمس الفروق بين «القيم قصيرة المدى» (short-term values) «والقيم الثابتة» (stable values).. وذلك ما يستحق الاهتمام، ولكن ما يعنيني في هذا المقام ما يقرره «كورنر» بشأن القيم الثابتة نسبيا وعلاقتها بالدين.

لقد حاولت أن أكشف عن الصراع الأخلاقي الأساسي الذي غالبا ما يواجه المرشدين، بين ولائه لتكامل العلاقة بين المرشد والعميل في مقابل الولاء للمجتمع وللمؤسسة الاجتماعية التي يعمل تبعا لها — بين تكامل الفرد أو تكامل الدولة؟ هل أظل محتفظاً بثقة عميلي، أو أخبر رئيسي عما يريد معرفته؟ وهنا تقوم المعايير الأخلاقية التي تتبناها «الجمعية الأمريكية لعلم النفس» (APA) والتي استمديت منها أخلاقيات المرشد النفسي، على النسق القيمي للثقافة الأمريكية.

لكن هذا الدستور الأخلاقي يحدد المشكلة فحسب، ولكنه لا يحلها. فحينما يواجَه شخص بصراع الولاء، فإنه يرتطم بقيمه الشخصية- تلك القناعات والمعتقدات فيما هو «أكثر صحة»، والتي هي جزئياً على الأقل نتاج خبرته الدينية. «فلكل إنسان نموذجه الخاص من القيم، ولكن يكمن وراء هذه القيم الشخصية، والتي قد تتعارض أحياناً مع قيم مجتمعه، مجموعة أخرى من القيم. تلك هي القيم التي تكون جزءاً من الإرشاد الإنساني العظيم، والمبادئ العظيمة الخاصة بالحق والرحمة والعدالة التي لا تزال غير مفهومة بعمق وبحق». فالتفكير الديني المنظم والمشرق هو المصدر للكثير من نسقنا

القيمي الناضج. وفي رأينا أن الإيمان الديني العميق هو أفضل المصادر التي يستمد منها المرشد عوناً وسنداً حينما تنشأ مشكلات خاصة بالأخلاق.

وفي الخاتمة، اسمحوا لي أن أبدي تعليقاً على ما يبدو لي على أنه الصلاحية النفسية للكثير من التقريرات القيمية: القيم هي ناتج الخبرة كما تُعَرَّض للاختبار والتمحيص، وكما أُثبتت فائدتها وجدواها، فهي بالضرورة انعكاسات للسلوك. لكن غالباً ما يتنكر علماء النفس للاعتبارات القيمية، بحيث أنه ليبدو من المرغوب أن نشير إلى أن القيم لا توجد بالضرورة في «عالم لا نفسي». يذهب منذ عدة سنوات كينيث براون، مدير مؤسسة دانفورث Danforth Foundation، إلى التأكيد على تنظيم هرمي للقيم ينطوي على معنى سيكولوجي عظيم، ولكن ثمة نقاط ثلاث تحتل قمة التنظيم الهرمي للقيم في ثقافتنا:

١. الإنسان مخلوق متميز عن كل المخلوقات الأخرى بطلبه اللانهائي للغايات القصوى، وبسعيه الدائم لما هو مطلق في الحق والخير والجمال.

٢. ينبغي أن يلقي كل كائن حي إنساني احتراماً من أجل ذاته.

٣. المعيشة عطاء، والحياة خدمة، والنمو يتأتي من خلال بذل الذات والإقبال والعطاء، لا بالمنع أو الصد.

ولا شك أن هذه تقريرات قيمية، ولكنها تنطوي كذلك على تكامل نفسي براجماتي.

ولقد حاولت في الفترة الأخيرة أن أقرر عن وعي بعض المبادئ الخاصة بالعلاقات الإنسانية، والتي استخدمها في الأعمال الاستشارية التربوية والصناعية، وهي مبادئ يمكن أن تتأيد من الناحية النفسية. وإذا ما قرأ شخص هذه المبادئ، فإنها تبدو أيضا كتقريرات قيمية. ومن ناحية أخرى، قد تكون ذات فائدة بالنسبة للمرشد في تعامله مع زملائه وأسرته وكذلك مع عملائه. وأهداف سلوكية مثل هذه تعتبر اختباراً قاسياً للتصور السيكولوجي للفرد وكذلك لنضجه الديني – وهذه المبادىء القيمية هي:

- **أن** أسعى لرؤية الجانب الإيجابي في الشخص الآخر وتقديره على الأقل بقدر ملاحظتي غالباً لما يمكن تصحيحه.

- **إذا** كان لي أن أصحح أو انتقد أفعال وتصرفات بعض الأشخاص ينبغي أن أتأكد بأن الآخر يراه على أنه نقد موجه لسلوك معين لا كنقد موجه لشخصه ذاته.

- **أن** أفترض أن كل شخص يستطيع أن يرى بعض المعقولية في سلوكه، وبأن سلوكه ينطوي على معني بالنسبة له إن لم يكن بالنسبة لي كذلك .

- **حينما** أسهم في احترام الذات لشخص آخر إنما أزيد من مشاعره الإيجابية نحوي واحترامه لي.

- **أن** أكون على الأقل بالنسبة لشخص معين، وربما لكثيرين، شخصاً ذات أهمية وتقدير، وهو يتأثر بعمق باعترافي به وتقديري له وبنواياي الطيبة نحوه.

الفصل الثاني عشر

إنســـان المستقبـــل

كيـف يتـلاءم الإنســان داخل نمـوذج لِكَـوّن منظم؟ هل هــو النتيجــة المُتَوَجه لعمليــة إبداعيــة مســتمرة، أم أنــه رميــة جامحــة جنحــت إلــى إحبــاط وجــوده ذاتــه؟ وإذا وضعنا فــي الاعتبار تاريخ الإخفاق الإنســاني و«لا إنســانية الإنســان للإنســان»، فمــا الــذي يخبئه القدر لــه لآلاف الســنين القادمة؟ قد يبــدو للوهلة الأولــى أنــه من الملائــم أكثر توجيه هذه الأســئلة لفرد معين يَدّعــي معرفة خارقة بأحداث المســتقبل أو بمجيئ يوم الدين. وهل للعلم أن يهتم إطلاقاً بتلك المشــكلة الغامضة؟ .

ورغــم أنــه مــن المســتحيل أن نتنبأ عــن يقين بمســار التقدم الإنســاني عبر القــرون القادمــة، فــإن الاتجاهات التطورية والســلوكية فــي المســتقبل قد تثبت أنهــا ذات قيمــة فــي التعرف على هذا المســار وتحديــده بطريقة علميــة. وليس هــذا بموضوع لشــغف خامــل. فالتخطيــط الذكي مــن أي نوع هو أشــبه بالتطلع داخــل كــرة بللوريــة. لقــد وصل الإنســان إلى مرحلة مــن التقدم فيهــا قد يتمكن مــن الاضطلاع بــدور فعال فــي تطــوره مســتقبلاً، وأدى اســتخدام الأدوات إلى جعــل المزيــد من التخصص فــي أيديه وأطرافــه غير ضروري، ونتــج عن الطعام المطبــوخ تجويفــاً للفك الأســفل. وقد تبشــر الاتصــالات الحديثــة ومنظمات مثل الأمم المتحــدة بعهــد مــن تأصيل الإنســان بعمــق لطبيعته الاجتماعيــة مصحوبة بتغيــرات هائلة ســوف تنعكس علــى اهتماماتــه العقلية وعلاقاته البينشــخصية.

وقــد تثبــت التنبــؤات قصيرة المدى أنهــا ذات نفع أكبر، خاصــة وأن ما توفر مــن معرفــة عــن ديناميــات المجتمــع يعتبر كافيــاً لكي يحقق الرجاء فــي شــيوع ثقافــة عالميــة أكثر ملاءمة لأذواق وحاجات الإنســانية . ولم تعــد مظاهر التخلف الثقافــي المؤلــم أكثــر حتميــة مما هــو متوقع مــن التدهــور الخلقــي. ويعبر عن ذلــك «جــون جاردنــر»[1] بقوله : «أننــا نفهم أفضل من أي وقت مضــى كيف ولماذا

(1) J. W. Gardner. Self-renewal: The indicidual and the innovative society. New York Harper and Row, 1964, p. XIV.

يفقد المجتمع الكهل قابليته على المواءمة والتكيف ويُخَمِّد الإبداع في كيانه. وإننا لفي سبيلنا إلى فهم الشروط والظروف التي بموجبها قد يجدد المجتمع نفسه».

ومن المحتمل أن يمضي تغير الشخص الفرد واضطراد نموه على نحو أسرع. ففي كل يوم يتجمع قدر هائل من البيانات العلمية عن الشروط المواتية للسلوك، لم تكن ميسورة للأجيال السابقة. وتم التوصل إلى إجابات لأسئلة هامة بشأن المناخ الذي يجري فيه تدريب الطفل على نحو يربي فيه التلقائية والموهبة والإبداع، ونوع صورة الذات القائمة على الثقة بالنفس والإحساس بالمسئولية، والتأثيرات السارة أو الحمقاء للتنافس، واستخدام السلطة في تعضيد ودفع النمو الداخلي بدلاً من قمعه، وغير ذلك من الجوانب المماثلة في نمو الشخصية. في أحد الدراسات التي يتضمنها الفصل الحالي يشير «روجرز» إلى مرغوبية استخدام معرفتنا بعلم النفس في مساعدة «... الأفراد على أن يصبحوا أكثر تحملاً للمسئولية الذاتية، وعلى أن يحرزوا تقدماً في تحقيق الذات، وعلى أن يصبحوا أكثر مرونة، وأكثر تفرداً وتميزاً، وأكثر تكيفاً مصحوباً بالإبداع».

إلى أين سوف يؤول التطور بالفرد في النهاية؟ إذا تتبعنا تاريخ الحضارة الإنسانية منذ بزوغ فجر المدنية حتى الوقت الحاضر، فلن يكون من الصعب كثيراً أن نمد منحنى نمو الإنسان لبعض الآلاف من السنين في المستقبل. وعلاوة على ذلك، يمكن أن نتأمل «تييلارد دي تشادين [1]» في أن «عالمنا الحديث» قد نشأ في أقل من ١٠٠٠ سنة وأنه في الـ ٢٠٠ سنة الماضية قد تغير لأكثر مما قد تحقق في كل آلاف السنين السابقة. هل فكرنا فيما يمكن أن يكون عليه كوكبنا، سيكولوجيا، في فترة مليون سنة ؟ !.

(1) P. Teilhard de Chardin. The future of man. New York: Harper and Row, 1964, p. 71.

إذا كان لنــا أن نســتخرج المقام العــام الأدنى للدافعية الإنســانية، فمن المحتمــل أن يكــون هــو وظيفــة التأثير فــي النــاس. وليس هناك من شــك كبيــر بشــأن الدافــع الإنســاني إلى القــوة. وقد نتعجــب قليــلاً أن التجارب الحديثــة التــي تفــرض غالبــاً ضغطــاً غيــر محدد علــى الناس قــد خلفت الكثيــر من عدم الارتياح. وتكشــف العقاقير واســتثارة مراكــز المخ والاقتران الشــرطي عــن إمكانيــة جعــل النــاس تأتــي تقريبا بمــا نرغبه بينمــا يظلوا راضــين بحالــة مــن العبوديــة. ومــا تذخر به كتــب الأطفال من شــخصيات خياليــة ذات قــوة خارقة تمثل خطــراً مهدداً قد يصبح حقيقــة واقعة. كيف يمكن أن نكشــف عن أســرار طبيعة الإنســان؟ هل يمكن أن نتناول الإنســان منــذ الميــلاد لجعله ســعيداً وفقا لخطة محددة ســلفاً؟ أو كيــف ندفع الفرد إلــى مســتويات عالية جديــدة من الحريــة والعزة؟.

يذهــب «كارل روجــرز» إلى إعــادة التأكيد علــى افتراضه بــأن «العلم» البارد اللاشــخصي لا يســتطيع أن يتوصل إلى قرار فــي هذا الشــأن، وإنما الناس، و«الناس فحســب».

(٣٨)

مكانة الشخص في عالم جديد للعلوم السلوكية

كارل روجرز

(معهد العلوم السلوكية، لاجولا، كاليفورنيا — وجامعة وسكونسن)

لقد حقق علم النفس، رغم نقص نضجه وصلابة عوده، تقدماً هائلاً على مدي تاريخه القصير. فلقد انتقل اهتمامه بصورة زائدة من الملاحظة والقياس إلى أن يصبح علّماً يسير على قاعدة «لو — إذن» (if – then). وأعني بذلك أنه قد أصبح أكثر اهتماماً بتبين وتكشف العلاقات القانونية: «لو» توفرت شروط أو ظروف معينة، «إذن» يمكن أن نتنبأ بوقوع سلوك معين. وقد أدى ذلك إلى زيادة هائلة في عدد المجالات أو المواقف التي يمكن أن يقال فيها أنه لو توفرت ظروف أو شروط معينة يمكن وصفها وقياسها، إذن فإن سلوكاً قابلاً للتحديد وللتنبؤ به يمكن تعلمه أو الإتيان به.

ويعي بذلك كل شخص متعلم بمعنى واحد. لكن يبدو أن قلة على وعي بسعة وعمق ومدى هذا التقدم في علم النفس والعلوم السلوكية. ولا يزال هناك فئة أقل تبدو واعية بالمشكلات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والفلسفية العميقة التي فرضها هذا التقدم. وأود في هذا الصدد أن أركز على بعض مضامين هذا التقدم.

دعني أغامر منذ البداية باستعراض أمثلة قليلة مختارة عما أعنيه بالقدرة المتزايدة لعلم النفس على السلوك والتنبؤ به وضبطه. ولقد اخترت هذه الأمثلة لكي أوضح النطاق الواسع من الأنماط السلوكية المتضمنة في هذه القدرة. وسوف أعرض بإيجاز وتبسيط لكل إيضاح من هذه الإيضاحات، مع إشارة لبعض البيانات عنها. وكقضية عامة يمكنني القول أن كل إيضاح سوف أعرض له هو مدعم ببحوث رصينة وملائمة، رغم أنه - مثل كل النتائج العلمية — عرضة للتعديل أو التصحيح بواسطة دراسات أخرى أكثر إتقاناً وتصورية.

ما هي إذن بعض الأنماط السلوكية أو «التعلمات» (Learnings) التي نعرف الآن كيف نوفر لها الشروط أو المقدمات السابقة؟ وأود أن أؤكد أننا نعرف كيف

نخلـق هـذه المؤثـرات بنفس الطريقـة، رغم أنه ليـس بنفس الدقة التـي يعرف بها عالـم الفيزيـاء كيـف يحدد الظروف التي بناءً عليها سـوف تدخل مواد معينة فـي عمليـة انقسـام أو انصهار ذريين. وهـي أمثلة عما نعرف كيف نحققـه أو ننجزه:

*** نحن نعرف كيف نهيئ الظروف أو الشروط التي بموجبها يقرر أفراد كثيرون أحكاماً حقيقية تكون مناقضة للبيانات التي تتوفر لهم من خلال إحساساتهم.** فقد يقررون، على سـبيل المثال، أن «الشـكل أ» يغطي مسـاحة أكبر من «الشـكل ب»، حينمـا توضـح بيانـات إحساسـاتهم بجـلاء أن العكـس هو الصحيـح. تبين تجـارب «آخ» Asch، كمـا عدلهـا وطورهـا «كرتشـفليد» Crutchfield، أنه حينما يسـاق شـخص إلى أن يعتقد أن كل شـخص آخر فـي المجموعة يرى «أ» أكبر من «ب»، فإنـه يكـون لديه ميل قـوي إلى الأخذ بهذا الحكم، وفـي حالات كثيرة يفعل هكذا عن اعتقاد حقيقي فـي تقريـره الزائف.

ولا نسـتطيع فحسـب أن نتنبـأ بـأن نسـبة معينة من الأفراد سـوف تسـلم بذلك ولا تعتقد فـي إحساسـاتها، ولكن «كرتشـفليد» قد حدد خصال شـخصية أولئك الذين سـوف يبدون استسـلاماً ومسايرة، وذلك بواسـطة انتقاء الإجراءات التـي بهـا يمكن اختيـار مجموعة من الأشـخاص تذعن للمسـايرة فـي ظل هذه الضغوط.

*** ونحـن نعـرف كيـف نغيـر آراء الفـرد فـي وجهـة معينـة نختارهـا، بـدون أن يصبـح واعيـاً أبـداً بالمثيـرات التـي غيـرت مـن وجهـة نظـره.** لقـد عرض «سـبنس» و«كلايـن» على شاشـة صورة ثابتة غير معبرة لإنسـان، وطلبا مـن المفحوصين أن يلاحظـوا كيـف تغيـر تعبير الصورة. ثم عرضـا كلمة «غاضب» على الشاشـة من وقـت لآخـر، ولفترات قصيـرة للغاية بحيث لم يكن المفحوصـين غير واعين تماما برؤيتهـم للكلمـة. ومـع ذلـك، فقد أبـدوا ميلاً إلـى رؤيـة الوجه على أنـه يصير أكثـر غضبـاً. وحينما عُرضت كلمة «سـعيد» على الشاشـة بنفـس الطريقة أبدوا ميـلا إلـى رؤيـة الوجه علـى أنه قد صـار أكثر سـعادةً. وهكـذا كان المفحوصون متأثريـن بوضوح بالمثيرات التي سـجلت على «مسـتوى دون الوعي» (subliminal level)، وهـي مثيـرات لـم يكن الفـرد، ولن يكـون، واعياً بها.

*** ونحن نستطيع أن نتنبأ، من الطريقة التي يدرك بها الأفراد حركة بقعة من الضوء في حجرة مظلمة، ما إذا كانوا متعصبين أو غير متعصبين.** لقد أجريت دراسات عديدة حول العنصرية والتعصب العنصري، وحول الميل إلى التمييز الجامد والمجحف بين «الجماعات المقيدة» (ingroups) و«الجماعات المفتوحة» (outgroups)، مصحوباً باتجاه عدائي نحو الجماعات المفتوحة، واتجاه تسامحي تفضيلي نحو الجماعات المقيدة واعتقاد في حقوقها وإنكارها على الأخرى. وتؤكد إحدى النظريات التي تطورت في هذا الصدد أنه بقدر ما يكون الشخص أكثر ميلاً إلى العنصرية والتعصبية، بقدر ما يبدي عجزاً على «تحمل الغموض» (ambiguity) أو«اللايقين» (uncertainty) في موقف من المواقف. وفي ضوء هذه النظرية طلب «بلوك وبلوك» من المفحوصين أن يقرروا درجة الحركة التي يدركونها في بقعة خافتة من الضوء في حجرة مظلمة تماماً. (وفي الحقيقة ليس هناك أية حركة تحدث، إلا أن كل الأفراد تقريباً يدركون الحركة في هذا الموقف). ثم طبقا أيضا على نفس هؤلاء المفحوصين اختباراً في قياس التعصبية والعنصرية.

ولقد وجدوا، كما توقعا، أن المفحوصين الذين — في محاولات متتابعة — وضعوا بسرعة معياراً لدرجة الحركة التي أدركوها، كانوا أكثر ميلاً إلى العنصرية والتعصبية من أولئك الذين استمرت تقديراتهم للحركة لكي تكشف عما فيها من تنوع وتغير.

ولقد تكررت هذه الدراسة، مع تغيير طفيف، في استراليا، ولقيت نتائجها تأييداً وتوسيعاً. فلقد وُجد أن الأفراد الأكثر عنصرية وتعصبية كانوا أقل قدرة على تحمل الغموض، وكانوا يرون الحركة أقل من غير المتعصبين. وقد كانوا أيضا أكثر اعتمادية على الآخرين، وأنهم حينما كانوا يأتون بتقديراتهم في صحبة شخص آخر، كانوا يميلون إلى مسايرة حكم ذلك الشخص.

ومن ثم ليس كثيراً أن نقول أنه بدراسة الطريقة التي يدرك بها الشخص حركة بقعة خافتة من الضوء في حجرة مظلمة، يمكننا أن نقرر الكثير عن الدرجة التي بها يكون شخصاً جامداً، متعصباً، عنصرياً.

*** نحن نعرف الاتجاهات التي، إذا قدمها مرشد أو معالج نفسي، سوف يعقبها على أساس من التنبؤ تغيرات معينة بناءة في شخصية وسلوك العميل.** هذه التغيرات تلقى تأييداً من الدراسات التي اضطلعنا بها في ميدان العلاج النفسي. ونستطيع أن نعرض بإيجاز لنتائجها على النحو التالي:

إذا كان المعالج يوفر علاقة يكون فيها (ا) صادقاً، ومتسقاً داخلياً، (ب) متقبلاً، ومقدراً للعميل على أنه شخص ذو جدارة، (ح) متفهماً ومدركاً بتعاطف لعالم العميل الخاص من المشاعر والاتجاهات، فإن ثمة تغيرات معينة في العميل لابد وأن تحدث. بعض هذه التغيرات: أن العميل يصبح (ا) أكثر واقعية في إدراكاته لذاته، (ب) أكثر ثقة في نفسه وتوجيهاً لذاته، (ح) أكثر تقييما لنفسه بطريقة إيجابية، (د) أقل ميلاً إلى كبت بعض خبراته، (ه) أكثر نضجاً اجتماعية وتوافقا في سلوكه، (و) أقل تأثراً بالضغوط وقلقاً بشأنها وأسرع استعادة لحالته الطبيعية، (ر) أكثر شبهاً بالشخص السوى، المتكامل، جيد التوظيف لشخصيته. هذه التغيرات لا تحدث في جماعة مقيدة ولكنها ترتبط تماماً بانضواء الشخص في سياق من العلاقات التي تدعم هذه التغيرات الإيجابية في بنائية ووظيفية الشخصية.

*** ونحن نعرف كيف نزود الحيوانات في تجاربنا بخبرة أكثر إرضاءاً تتألف كلية من استثارة كهربية.** لقد وجد «أولدز» أنه يستطيع إدخال أقطاب كهربية دقيقة في منطقة الحجاب الحاجز Septal area بالمخ لدى الفيران الخاضعة لتجارب معملية. فحينما يقوم أحد هذه الحيوانات بالضغط على رافعة موجودة في قفص، فإنها تحدث تياراً وقتياً يمر خلال هذه الأقطاب. ويبدو هذا كخبرة مُثيبة تجعل الحيوان يستمرئ اللهو بالضغط على الرافعة، إلى أن يتمكن منه التعب غالباً. وبصرف النظر عن الطبيعة الذاتية لهذه الخبرة، فإنها تبدو باعثة على الاعتبار بحيث أن الحيوان صار يستمرؤها ويفضلها على أي نشاط آخر. ولن نتأمل فيما إذا كان هذا الإجراء قد ينطبق على الكائنات الإنسانية، ولا في إمكانية الأخذ بنتائجه في هذه الحالة.

*** ونحن نعرف كيف نوفر الظروف النفسية التي تستدعي هلوسات واضحة وغيرها من ردود الأفعال المرضية لدى الشخص السوي في حالة اليقظة.** لقد

اتضحت هذه كنتيجة غير متوقعة من البحوث عن «الحرمان الحسي» بجامعة ماك جيل Mc Gill. لقد اكتشفوا أنه إذا تعرضت كل قنوات الاستثارة الحسية للتعطيل أو الإعاقة، فإنه ينتج عن ذلك ردود أفعال غير سوية. فإذا جعلنا المفحوصين الأصحاء نفسياً يرقدون بلا حركة حتى تختزل المثيرات الحركية إلى الحد الأدنى، مع حجب العين عن البصر بواسطة نظارات معينة لا تسمح بالإدراك، والأذن عن السمع بواسطة مخدات من المطاط الرخوي وبالوجود في مكان هادئ، فإنه يترتب على ذلك ظهور هلوسات وأوهام عليهم، ويبدون غريبي الأطوار بما يحمل بعض التشابه بتلك المظاهر والأعراض التي تتضح لدى الذهانيين، ويحدث هذا في غضون فترة قصيرة نسبياً لدى معظم هؤلاء المفحوصين. وما قد يترتب من نتائج إذا استمر هذا التعطيل الحسي ليس معروفاً لأن الخبرة البادية في هذه التجارب قد تنطوي على مخاطر ضارة بهم بحيث أن الباحثين قد عزفوا عن الاستمرار فيها.

من هذه الأمثلة الإيضاحية القليلة أرجو أن أكون قد كشفت عن بعض المعاني المحددة التي تنطوي عليها القضية بأن العلوم السلوكية قد أنجزت خطوات هائلة في فهم السلوك والتنبؤ به وضبطه. وفي ذلك نعرف كيف نختار الأفراد الذين سوف يبدون سلوكاً معيناً، وكيف نوفر شروطاً معينة في الجماعات تؤدي إلى أنماط سلوكية جماعية مختلفة يمكن التنبؤ بها، وكيف نوفر شروطاً تؤدي بالفرد إلى نتائج سلوكية معينة. وبالنسبة للحيوانات تزداد قدرتنا على الفهم والتنبؤ والضبط إلى ما هو أبعد من ذلك وبما يحتمل أن يُفضي إلى خطوات بالنسبة للإنسان.

وإذا كان رد فعل القارئ مماثلاً لرد فعلي، فإنه سوف يجد أن لهذه الصورة جوانبها الباعثة على الخوف وكذلك جوانبها الإيجابية بقوة. فمع كل نقص نضج هذا العلم اليافع، وقصوره الشديد، فإن حالته الراهنة من المعرفة تتضمن بعض الاحتمالات الباعثة على القلق. ولعل هذا يوضح السبب الذي جعل «روبرت أوبنهايمر»، أحد المبرزين في العلوم الطبيعية، ومن مجال تخصصه وخبراته في علم الفيزياء، يصدر صيحات الحيطة والحذر في هذا الصدد. فهو يذهب إلى القول بوجود بعض التشابه بين الفيزياء وعلم النفس، وأحد جوانب التشابه هذه «هو الحد الذي يخلق معه تقدمها مشكلات

عميقة. فلقد تملك علماء الفيزياء انزعاج شديد إزاء إسهاماتهم في القرون الماضية، وقد يأتي الوقت كلما اكتسب علم النفس نطاقاً موضوعياً سديداً من المعرفة بشأن السلوك الإنساني والمشاعر الإنسانية، الذي فيه تفرض قوى الضبط الميسورة عندئذ مشكلات أكثر حدة من أي مشكلة قد فرضها علماء الفيزياء(١).

ويشيع بين العلماء السلوكيين تصور يأخذونه كقضية مسلمة بأن نتائج العلوم السلوكية سوف تستخدم في التنبؤ بالسلوك الإنساني وضبطه. لكن قد أبدى معظم علماء النفس وغيرهم من العلماء تحفظاً ضئيلاً بما يعنيه ذلك.

وسوف أحاول أن أقدم، قدر استطاعتي، صورة مبسطة للنموذج الثقافي الذي ينشأ إذا سعينا إلى تشكيل الحياة الإنسانية في ضوء العلوم السلوكية. وهذا واحد من وجهتين محتملتين أود أن أنوه إليه.

يتبدى، أولا وقبل كل شيء، الاعتراف، أو إن شئنا في الغالب الافتراض، بأن المعرفة العلمية تتمثل في قوة التناول للظاهرات والأحداث وغيرها. يقرر سكنر»: «ينبغي لنا أن نتقبل الحقيقة بأنه لا مفر من توفر نوع ما من الضبط للأفعال الإنسانية. ولا نستطيع أن نستخدم الإحساس الجيد بالأفعال الإنسانية إلا إذا اشترك أحدنا في تصميم وبناء الشروط والظروف البيئية التي تؤثر في سلوك الناس(٢).

دعنا ننظر في بعض العناصر المتضمنة في مفهوم «ضبط السلوك الإنساني» كما تحدده العلوم السلوكية. ما هي الخطوات الواجب اعتبارها في العملية التي بها قد ينظم المجتمع نفسه لكي تصاغ الحياة الإنسانية في ضوء علم الإنسان؟.

أولاً – ينبغي أن يأتي اختيار الأهداف في مقدمة هذه الخطوات. في دراسة عن «الحرية وضبط الناس»، يقترح «سكنر» هدفاً لفن «تكنولوجيا

(1) R. Oppenheimer, “Analogy in Science:, American Psychologist, 11, 127-135, 1956.

(2) B. F. Skinner, “Freedom and the Control of Men”. American Scholar, 25, 47-65, 1955-1965.

السلوك» (behavior technologg)، هو : «ليكن الإنسان سعيداً، متعلماً، ماهراً، حسن السلوك، ومنتجاً». وفي كتابه (Walden Two)، حيث يستخدم أسلوب القصة الخيالية في التعبير عن وجهات نظره، يصبح أكثر توسعاً. في هذه القصة يقول؟ «حسناً، ماذا تقول عن تصميم الشخصيات؟ هل ذلك يهمك؟ ضبط المزاج؟ أعطني المواصفات، وسوف أعطيك الإنسان! ماذا تقول عن ضبط الدافعية، وعن بناء الاهتمامات التي سوف تجعل الناس أكثر إنتاجية وأكثر نجاحاً؟ هل يترائى لك ذلك على أنه خيالي؟ ومع ذلك، فإن بعض الطرق الفنية ميسور، إلا أن أكثرها يمكن إجراؤه تجريبياً. فكر في الاحتمالات والإمكانيات.. دعنا نضبط حياة أطفالنا ونرى ما الذي نستطيع أن نفعله بهم»[١].

ما يقوله «سكنر» أساساً هنا هو أن المعرفة الحالية في العلوم السلوكية، بالإضافة إلى ما سيأتي به المستقبل، سوف تمكننا، إلى درجة قد تبدو اليوم غير مصدقة، من تعيين نوع النتائج السلوكية والمتعلقة بالشخصية التي نرغب في تحقيقها.

ثانياً- العنصر الثاني في هذه العملية مألوف لأي عالم يعمل في ميدان العلم التطبيقي. بعد تحديد الغرض أو الهدف نمضي بواسطة الطريقة العلمية — بواسطة الخبرة المضبوطة — إلى اكتشاف الوسائل لتحقيق هذه الغايات. فطريقة العلم تقوم على التصحيح الذاتي بحيث تتوصل إلى أساليب متزايدة الفاعلية في تحقيق الهدف الذي اخترناه.

ثالثاً — يتضمن العنصر الثالث في ضبط السلوك الإنساني بواسطة العلوم السلوكية قضية القوة. فحينما تكتشف الشروط أو الطرق التي بها نحقق هدفنا، يحصل شخص أو جماعة على القوة التي بها يوفر هذه الشروط أو يستخدم تلك الطرق. ومع ذلك لا يوجد إلا اعتراف ضئيل للغاية بالمشكلة المتضمنة في هذا الصدد. فما ننشده من أن القوة التي توفرت بواسطة العلوم السلوكية سوف يمارسها العلماء أو جماعة معروفة، يبدو لي أملاً لن يلقى إلا تأييداً ضئيلاً في المستقبل.

(1) B. F. Skinner, Walden Two, The Macmillan Co., New York, 1948, (Walden Two).

ويبدو من المحتمل تماماً أن العلوم السلوكية، بتمسكها باتجاهاتها الحالية، سوف تكون في موقف علماء الصواريخ الألمان الذين تخصصوا في القذائف الموجهة، فقد تكرسوا أولاً للعمل من أجل «هتلر» على تدمير روسيا والولايات المتحدة. والآن، استناداً إلى من قام بأَسْرِهم، يتكرسون للعمل من أجل روسيا بهدف تدمير الولايات المتحدة، أو من أجل الولايات المتحدة بهدف تدمير روسيا. ويبدو من المحتمل أكثر، إذا توفر العلماء السلوكيون على الاهتمام فقط بتقدم علمهم، أنهم سوف يعملون لخدمة أغراض من تكون في يده القوة فرداً أم جماعة.

لكن هذا ينطوي على انحراف وزيغ هائلين. النقطة الأساسية في هذه النظرة هو أن شخص أو جماعة ما سوف تكون له القوة ويستخدمها لكي يهيء الطرق التي اكتشفت لتحقيق الهدف المنشود موضع التنفيذ.

رابعا – الخطوة الرابعة في هذه العملية التي بها ينبغي أن يسعى المجتمع إلى تشكيل حياته في ضوء العلوم السلوكية، هي تعريض الأفراد للطرق والشروط المذكورة. وبتعريض الأفراد لهذه الشروط ، فإن هذا يؤدي، بدرجة كبيرة من الاحتمالية، إلى السلوك المرغوب. وبالتالي يصبح الناس منتجين إذا كان هذا هو الهدف، أو خانعين مستسلمين، أو غير ذلك من الخصائص التي تقرر تشكيلهم وفقا لها.

ولكي نتدبر هذا الجانب من العملية كما رآها أحد دعاتها، دعني مرة أخرى أسوق بعض الاشتقاقات عن بطل قصة (Walden Two)، فهو يقول تعليقاً على الطريقة التي يدعو إليها: «والآن فإن ما نعرفه عن كيف يعمل التعزيز الإيجابي، ولماذا لا يعمل التعزيز السلبي، فإننا يمكن أن نكون أكثر تبصراً وإرادية وبالتالي أكثر نجاحاً، في نموذجنا الثقافي الذي نصممه. إننا نستطيع أن نحقق نوعاً من الضبط يشعر معه الأفراد المضبوط سلوكهم مع ذلك، بالحرية، رغم الأخذ بنظام أكثر مدعاة للشك مما كان في حالة النظام القديم. إن العلماء يفعلون ما يبتغون فعله، وليس ما هم مجبرون عليه ومساقون إليه. ذلك هو مصدر القوة الهائلة للتعزيز الإيجابي – فليس هناك من قيد أو منع، ولا من تمرد أو عصيان. فبواسطة نموذج ثقافي مصمم بعناية، فإننا لا

نتمكن من ضبط السلوك النهائي فحسب، ولكن أيضا من ضبط «النزعة» إلى السلوك — الدوافع، الرغبات، الآمال. والشيء الذي يدعو للغرابة هو أنه في تلك الحالة لن تثار أبداً قضية الحرية»[1] .

الصورة ومضامينها:

دعني أرى إذا كنت أستطيع أن ألخص بإيجاز صورة تأثير العلوم السلوكية على الفرد والمجتمع، كما أرتآها «سكنر» صراحة وكما هي متضمنة في اتجاهات وأعمال الكثير من العلماء السلوكيين، إن لم يكن معظمهم. علم السلوك يمضي بوضوح قدماً إلى الأمام، فما يعطيه من قوة متزايدة للضبط تلقى تأييداً من الفرد والجماعة، وكلاهما سوف يختار ولا شك الأغراض أو الأهداف التي يحققها. والكثير منا سوف ينضبط بصورة متزايدة بواسطة وسائل متقنة بدقة بحيث أننا لن نعي بها كضوابط. ومن ثم، فمهما يكن هناك من قوة لمجلس يتألف من علماء نفس حكماء (إذا لم يكن هذا تناقضا في المصطلحات) أو لـ «ستالين» أو «الأخ الكبير»، ومهما كان الهدف هو السعادة أو الإنتاجية أو حل عقدة أوديب أو التسامح أو حب «الأخ الكبير»، فإننا مع ذلك سوف نجد أنفسنا ولا شك متحركين نحو الهدف المختار. وقد نعتقد أننا أنفسنا ننشده ونسعى إليه. ومن ثم إذا كان هذا الخط من التفكير صحيحاً، فإنه يبدو أن ثمة شكلاً معيناً لمجتمع مضبوط كلية — مثل شكل Walden Two - قريب المنال. والحقيقة التي تقرر بأن مجتمعاً مثل هذا سوف نتوصل إليه ولا شك بالتدريج وليس كليةً طفرةً واحدةً، لا تغير كثيراً من القضايا الأساسية. فالإنسان وسلوكه سيصبحان نتاجاً مخططاً لمجتمع علمي.

وقد نتساءل: «ولكن ماذا عن الحرية الفردية؟ ماذا عن المفاهيم الديمقراطية لحقوق الفرد؟ هنا أيضا يبدو «سكنر» محدداً تماماً. فهو يقرر بقوة أن «الفرض الذي يذهب إلى أن الإنسان ليس حراً ضروري بالنسبة لتطبيق الطريقة العلمية على دراسة السلوك الإنساني. أما الإنسان الحر من الداخل «inner free man» الذي يكون مسئولاً عن سلوكه، فهو فحسب بديل

(1) B. F. Skinner, Walden Two, p. 218.

ســابق للعلــم ممــا يعزى إلــى أنواع الأســباب التي تكتشــف فــي ســياق التحليل العلمــي. كل هــذه الأســباب البدائلية تقــع خارج الفــرد»[1].

لقد ســعيت، حتى هــذه النقطة، إلــى أن أعطي صــورة موضوعية عن بعض مظاهــر التطور فــي العلوم الســلوكية، وصــورة موضوعية عن نــوع المجتمع الذي ينبغــي أن ينبثــق مــن تلــك التطورات. وفــي ذلــك أحمــل ردود أفعال شــخصية قويــة بشــأن نــوع العالم الــذي أعرض لــه بالوصف، وهــو عالم يتوقعه «ســكنر» ويرنــو إليــه صراحــة فــي المســتقبل. هــذا النــوع مــن العالم، بالنســبة لــي، من شــأنه أن يدمــر الإنســان كما أعرفه فــي أعمق لحظات العلاج النفســي. ففــي تلــك اللحظــات أنخــرط فــي علاقة مع شــخص يكــون تلقائيــاً، يكون حــراً عن مســئولية، أي واعيــاً بحريتــه فــي اختيــار من ســيكون هو عليــه، وواعيــاً أيضا بنتائــج اختياراتــه. ولكــن أن نعتقــد، كما يذهب ســكنر، بــأن كل هذا وَهْــمٌ وبأن التلقائيــة والحريــة والمســئولية والاختيار ليــس لها وجود حقيقي، فــإن ذلك يبدو مســتحيلاً بالنســبة لي.

وأشــعر أنه فــي حدود قدرتي أني قــد اضطلعت بنصيبــي وأوفيت بالتزامي فــي تقــدم العلوم الســلوكية، ولكن إذا كانــت نتيجة جهودي وجهــود الآخرين هي أن الإنســان يغــدو كائنــاً آليــا (Robot)، يُخْلَق ويُضْبَط بواســطة علــم من صنعه، فأنا فــي الحقيقة غير ســعيد للغاية. وإذا كانت الحياة الطيبة للمســتقبل قوامها «أفــراد مشــروطون» (conditioning individuals) بواســطة ضبــط بيئتهــم، وبواســطة ضبــط مــا يتلقونه مــن إثابــات، بحيث أنهم ســيكونون منتجــين، ذوي ســلوك حســن، ســعداء أو غير ذلك، عندئــذ لا أريد شــيئاً منها.. فهذا بالنســبة لــي شــكل كاذب للحيــاة الطيبــة التي تتضمن كل شــيء عــدا ذلك الشــيء الذي يجعلها طيبة ومُسْــتحَقّة.

وهكذا أســأل نفســي، هل يوجد أي خلل فــي منطق هذا التطور؟ هل توجد أيــة وجهــة نظــر بديلة لمــا قد تعنيــه العلوم الســلوكية بالنســبة للفــرد والمجتمع؟ ويبــد لــي أني أدرك ذلك الخلــل، وأني أســتطيع إدراك النظرة البديلــة. وهذا ما أود أن أعرضه.

(1) B. F. Skinner: Science and Human Behavior. The Macmillan Co.

الغايات والقيم في علاقتها بالعلم:

يبدو لي أن وجهة النظر التي أقدمها تقوم على إدراك خاطئ للأهداف والقيم في علاقتها بالعلم. وأعتقد أن أهمية «الغرض» من التناول العلمي قد لقيت تقديراً أقل مما تستحقه بكثير. وأود أن أقرر فكرة ذات شقين تستحق الاعتبار في تقديري. ثم سأحاول تكشف معنى هاتين النقطتين:

١- في أي نشاط علمي - سواء كان علماً «بحتا» أو تطبيقياً - يوجد اختيار ذاتي شخصي قبلي للغرض أو القيمة، على أساسهما يُدْرَك العمل العلمي على أنه يخدمهما.

٢- هذا «الاختيار القيمي الذاتي» (subjective value choice) الذي يُخْرِج النشاط العلمي إلى حيز الوجود، ينبغي دائماً أن يبقى خارج ذلك النشاط، ولا يستطيع أبداً أن يصير جزءاً من العلم المتضمن في ذلك النشاط.

دعني أوضح النقطة الأولى من كتابات «سكنر». فحينما يفترض أن مهمة العلوم السلوكية هي جعل الإنسان» منتجاً»، «حسن السلوك» الخ، فمن الواضح أنه يقوم باختيار ما. فقد يختار أن يجعل الناس، مثلاً، خانعين، معتمدين، قطيعيين (أي كأعضاء في قطيع). إلا أنه يقرر في موضع آخر أن «مقدرة الإنسان على الاختيار»، وأن حريته في اختيار طريقه وفي دفع عمله - هذه القوى لا توجد في الصورة العلمية للإنسان. هنا، كما أعتقد، التناقض المبين أو المفارقة الهائلة. دعني اتكشفها بوضوح قدر استطاعتي.

لا شك أن العلم يقوم على الافتراض بأن السلوك غَرضَي، مُتسبب - أي أن حدثاً معيناً يتبعه حدث ناتج. وبالتالي يكون كل شيء محتوماً، وليس هناك من شيء حر، فالاختيار مستحيل. لكن ينبغي أن نتذكر أن العلم ذاته وكل نشاط علمي نوعي، وكل تغير في مجرى البحث العلمي، وكل تفسير لمعنى النتيجة العلمية، وكل قرار بشأن كيفية تطبيق النتيجة العلمية - كل ذلك يقوم على اختيار شخصي ذاتي، ومن ثم يوجد العلم بصفة عامة في نفس الموقف المتناقض الذي يوجد فيه الدكتور سكنر. فالاختيار الشخصي الذاتي الذي يقوم به الإنسان يدفع ويحرك عمليات العلم، الذي قد يدعي في وقت من

الأوقات أنه لا يمكن أن يوجد شيء كالاختيار الشخصي الذاتي. وسوف أقوم ببعض التعليقات بشأن هذه المفارقة المستمرة في نقطة لاحقة.

لقد أكدت على الحقيقة بأن كل اختيار من هذه الاختيارات، الذي يدفع أو يحرك المغامرة العلمية، هو اختيار قيمي. فالعالم يبحث في هذه بدلاً من تلك، لأنه يشعر أن للبحث الأول قيمة أكبر بالنسبة له. وهو يختار طريقة معينة لدراسته بدلاً من طريقة أخرى لأنه يُقَدّرها على أنها ذات قيمة كبيرة. وهو يفسر نتائجه بطريقة معينة بدلاً من طريقة أخرى لأنه يعتقد أن الطريقة الأولى أقرب إلى الحق، أو أكثر صدقاً – بقول آخر لأنها أقرب إلى معيار قيمي يقدره. هذه الاختيارات القيمية الآن ليست على الإطلاق جزءاً من المغامرة العلمية ذاتها. فالاختيارات القيمية المرتبطة بمشروع علمي معين تقع دائماً وبالضرورة خارج هذا المشروع.

وأود أن أوضح بأني لا أقول بأن القيم لا يمكن تضمينها كموضوع للعلم. وليس صحيحاً أن العلم يتناول فحسب فئات معينة من «الحقائق»، وأن هذه الفئات لا تتضمن قيماً. وتلك قضية أعقد من ذلك، وهذا ما نحاول إيضاحه.

فإذا كنت أقدر قيمة معرفة القراءة والكتابة والحساب (3R's) كهدف للتربية، فإن طرق العلم تستطيع أن تعطيني معلومات دقيقة بصورة متزايدة عن الكيفية التي يمكن بها تحقيق هذا الهدف. وإذا كنت أقدر قيمة القدرة على حل المشكلات كهدف للتربية، فإن الطريقة العلمية تستطيع أن تقدم لي نفس النوع من المساعدة.

والآن إذا كنت أود أن أحدد ما إذا كانت القدرة على حل المشكلات «أفضل» من المعرفة بالقراءة والكتابة والحساب، عندئذ تستطيع الطريقة العلمية أيضا دراسة هاتين القيمتين، ولكن فحسب – وهذا مهم للغاية – في ضوء قيمة أخرى اخترتها على نحو ذاتي. وربما أقوم بتقدير قيمة النجاح في الكلية، عندئذ أستطيع أن أحدد ما إذا كانت القدرة على حل المشكلات أو المعرفة العلمية أكثر ارتباطاً بذلك المعيار. وربما أقوم بتقدير قيمة التكامل الشخصي أو النجاح المهني أو المواطنة المسئولة، عندئذ أستطيع أن أحدد ما إذا كانت

القـدرة على حل المشـكلات أو اسـتيعاب المعرفة العلمية «أفضـل» من تحقيق أية قيمـة مـن هذه القيم. ولكـن القيمة أو الغـرض الذي يعطي معنى لنشـاط علمي معـين، ينبغي دائمـاً أن تقع خارج ذلك النشـاط.

وعلـى الرغـم مـن أن اهتمامنـا هنا هـو بالعلـم التطبيقي، فإن مـا أعرض لـه يصـدق أيضا على ما يعـرف بالعلم البحت. فـي العلم البحت يكـون الاختيار القيمـي الذاتي السـابق عادة هو اكتشـاف الحقيقـة. لكن هذا اختيـار ذاتي، ولا يسـتطيع العلم أبداً أن يقرر ما إذا كان هو الاختيار الأفضل، إلا إذا كان ذلك فـي ضوء قيمة معينة أخرى. فعلماء الوراثة فـي روسـيا، مثـلا، كان عليهم أن يتخذوا اختيـارا ذاتياً بشـأن مـا إذا كان من الأفضل البحث عن الحقيقة، أو الكشـف عن عـن الحقائق التي تناصـر أيديولوجيا الدولة. أي اختيار «أفضل»؟ وقد نسـتطيع القيـام ببحـث علمـي عـن هذين البديلين، ولكن فحسـب فـي ضوء قيمـة معينة أخـرى مختـارة ذاتيـاً. وإذا كان لنا، مثلاً، أن نقيّم بقاء ثقافـة ما، عندئذ علينا أن نبدأ ببحث المشـكلة واسـتناداً إلى طـرق العلم عما إذا كان الكشـف عن الحقيقة أو تأييـد عقيـدة الدولة هو الأكثر ارتباطاً بالبقاء الثقافـي.

وجهـة نظـري إذن هـي أن أي نشـاط علمي، بحـث أو تطبيقـي، يتم لصالح غـرض أو قيمـة يختارها أشـخاص بطريقـة ذاتية. ومن الأهمية بمـكان أن يكون هـذا الاختيـار صريحـاً وواضحـاً، طالما أن القيمـة الخاصة التي نسـعى إليها لا يمكـن أبـداً أن تخضع للاختبار أو التقويم، للتأييد أو الرفض، بواسـطة النشـاط العلمـي الذي يسـتمد منها تطـوره ومعناه. فالغايـة الأولية أو القيمـة الأولية تقع دائمـاً وبالضـرورة خارج نطـاق الجهد العلمي الذي يسـتهلمها دفعـاً وحركةً.

وفـي رأينـا، أن الجهـد العلمـي المسـتمر سـوف يـؤدي إلـى خلـق أهدافه وتطورهـا، وأن النتائـج الأوليـة سـوف تغيـر مـن الوجهـات التي ينحوهـا العلم، والنتائـج اللاحقـة سـوف تغيرها إلـى ما هو أبعـد وبحيث يطور العلـم على نحو مـا من الغاية المنشـودة منه. ويبـدو هذا وجهة نظر يؤيدها ضمنـاً علماء كثيرون. وهـذا ولا شـك وصـف معقـول، ولكنـه يغفـل عنصـراً واحداً فـي هـذا التطور المسـتمر، وهـو أن الاختيـار الشـخصي الذاتـي يدخل فيه فـي كل نقطـة تتغير عندهـا الوجهـة التي ينحوهـا العلم. ولا تسـتطيع نتائج علم مـا، أو نتائج تجربة

ما، أن تخبرنا على الإطلاق بالغاية العلمية التالية التي ينبغي أن نسعى إليها، وحتى في العلم البحت الخالص، ينبغي أن يقرر العالم ما الذي تعنيه النتائج، وأن يختار بطريقة ذاتية ما هي الخطوة التالية التي سوف تكون أكثر فائدة في سبيل تحقيق غايته المنشودة. وإذا كنا نتكلم عن تطبيق المعرفة العلمية المتزايدة عن تركيب الذرة، فإنه لا يحمل معها اختياراً ضرورياً بالنسبة للغاية التي توضع لهذه المعرفة. وهذا يكون اختياراً شخصياً ذاتياً ينبغي أن يقوم به أفراد كثيرون.

ومن ثم أعود إلى الافتراض الذي بدأت به هذا الجزء من ملاحظاتي – والذي أكرره الآن بكلمات أخرى. العلم له معناه، فهو السعي الموضوعي لتحقيق غرض يختاره شخص أو أشخاص بطريقة ذاتية. هذا الغرض أو القيمة لا يمكن أبداً أن يخضع للبحث بواسطة التجربة العلمية الخاصة أو البحث فيما أدى إليه الغرض أو القيمة من خلق التجربة أو إعطاء معنى لها. ومن ثم، فإن أي مناقشة بشأن ضبط الكائنات الحية الإنسانية بواسطة العلوم السلوكية، ينبغي أن تهتم أولاً وبعمق أكبر بالأغراض أو الغايات المختارة ذاتياً التي ينشد تحقيقها من تطبيق العلم.

مجموعة بديلة من القيم:

إذا كان الخط الفكري الذي أقدمه صادقاً، فإنه عندئذ يفتح لنا أبواباً جديدة. وإذا كان لنا أن نواجه بصراحة الحقيقة بأن العلم ينطلق من مجموعة من القيم مختارة ذاتياً، عندئذ نكون أحراراً في اختيار القيم التي نسعى إلى تحقيقها. ولسنا محدودين بأهداف حمقاء مثل خلق حالة مضبوطة من السعادة والإنتاجية، وما شابه ذلك، وأود أن أقترح بديلاً مختلفاً تماماً.

ولنفترض أننا نبدأ بمجموعة من الغايات والقيم والأغراض، تختلف تماماً عن نمط الأهداف التي نضعها في الاعتبار. ولنفترض أننا نفعل هذا بصراحة تامة، علينا أن نضعها أمامنا على أنها اختيار قيمي ممكن أن نقبله أو نرفضه. ولنفترض أننا نختار مجموعة من القيم تركز على عناصر جارية للعملية العلمية، أكثر مما تركز على خصائص ثابتة. عندئذ ينبغي أن نقدر:

- قيمة الإنسان كعملية صيرورة، في حالة من السعي إلى تحقيق جدارته وكرامته من خلال نمو إمكاناته.

- قيمة الكائن الحي الإنساني الفرد كعملية تحقيق للذات، متحركة نحو خبرات أكثر تحدياً وإثراءاً.

- قيمة العملية التي بها يتوافق الفرد بطريقة إبداعية مع عالم جديد ومتغير باستمرار.

- قيمة العملية التي بها ترقى المعرفة ذاتها، مثلما أدت نظرية النسبية إلى ترقية الفيزياء النيوتينية، وهذه المعرفة ذاتها قد ترقى مستقبلاً بواسطة إدراك جديد.

وإذا انتقينا قيماً مثل هذه، فإننا ننتقل إلى علم وتكنولوجيا السلوك بمجموعة مختلفة تماماً من الأسئلة، وسوف نبتغي معرفة أشياء، مثل:

.. هل يستطيع العلم أن يساعدنا على اكتشاف أساليب جديدة لحياة مجزية بثراء؟ أساليب أكثر إشباعاً وأكثر غنى بالمعاني للعلاقات المتبادلة بين الأفراد؟.

.. هل يستطيع العلم أن يبصرنا كيف يمكن أن يصير الجنس البشري مُسْهماً أكثر ذكاءً في تطوره ذاته — تطوره الجسمي، والنفسي، والاجتماعي؟.

.. هل يستطيع العلم أن يعرفنا بطرق تحرير وإطلاق القوي الإبداعية للأفراد، التي تبدو هكذا ضرورية إذا كان لنا أن نبقى في هذا العصر الذري والإلكتروني المتسع بطريقة خيالية؟ يشير «أو بنهايمر» إلى أن المعرفة، التي تضاعفت في قرون أو في ملايين السنين، تتضاعف الآن في غضون جيل أو عقد. ويبدو أننا سوف نحتاج إلى اكتشاف أقصى ما يمكن تحريره للإبداعية إذا كان لنا أن نتمكن من التوافق بفاعلية.

.. وباختصار، هل يستطيع العلم أن يكتشف الطرق التي بها يستطيع الإنسان أن يصير بالفعل عملية مستمرة في نموها، ومتسامية بذاتها، في

سلوكه، وتفكيره، ومعرفته؟ هل يستطيع العلم أن يتنبأ بحرية «لا يمكن التنبؤ بها» أساساً، ويطلقها ويحررها؟.

ذلك واحد من فضائل العلم كطريقة يتمكن بها من العمل على تقدم وتحقيق الأهداف. وغاية من هذا النوع تفيد قيماً ثابتةً مثل الحالات التي يكون فيها الإنسان جيد التعليم، سعيداً، مبدعاً. وفي الحقيقة لدينا بعض الأدلة على هذا.

مثال :

ربما استأذن القارىء في أن أحاول توثيق بعض الاحتمالات على طول هذا الخط بالانتقال إلى العلاج النفسي، وهو الميدان الذي أعرفه على نحو أفضل.

العلاج النفسي، كما أشار «ميرلو» Meerlo وآخرون، يمكن أن يكون واحداً من أكثر الأدوات دقة وفراهة في ضبط سلوك شخص بواسطة شخص آخر. فالمعالج يستطيع بحذق ومهارة تعديل أو تغيير الأفراد في محاكاتهم له ذاته. وهو يستطيع أن يدفع الفرد إلى أن يصبح كائناً مستسلماً ومسايراً. وحينما تستخدم مبادئ علاجية معينة على نحو متطرف، نطلق على ذلك مصطلح غسيل المخ، وهو مثال عن عدم تكامل الشخصية وإعادة صياغة الشخص وفقا لخطوط موجهة يتحكم فيها الفرد الذي يضبط هذه العملية.إذن يمكن أن تستخدم مبادئ العلاج كوسيلة أكثر فاعلية للضبط الخارجي للشخصية الإنسانية والسلوك الإنساني. ألا يمكن للعلاج النفسي أن يكون أي شيء آخر غير ذلك؟

هنا أجد أن مظاهر النمو التي تتحقق في «العلاج النفسي المتمركز على العميل» (client-centered psychotherapy) مؤشراً حقيقياً لما تستطيع العلوم السلوكية أن تفعله في تحقيق أنواع القيم التي ذكرتها. ولهذا التطور، بجانب كونه منحى جديداً في العلاج النفسي، مضامين هامة بشأن علاقة العلم السلوكي بضبط السلوك الإنساني. وسوف أحاول وصف خبرتي كما تتعلق بالقضايا المثارة في هذه المناقشات.

في العلاج المتمركز على العميل، ننخرط بعمق في التنبؤ بالسلوك وفي التأثير عليه، ونضع، كمعالجين، شروطاً اتجاهية معينة attitudinal conditions، ويكون للعميل صوت ضئيل نسبياً في إقرار هذه الشروط. وباختصار تام، وكما أوضحت من قبل، قد وجدت أن المعالج يكون أكثر فاعلية إذا كان: (ا) صادقاً، متكاملاً، جاداً في العلاقة، (ب) متقبلاً للعمل كشخص مستقل ومختلف، ومتقبلاً لكل جانب متقلب يعبر عنه العميل، (ج) متعاطفاً بحساسية في فهمه ورؤيته للعالم من خلال أعين العميل. وتسمح بحوثنا لنا بأن تتنبأ بأنه إذا كانت هذه الشروط الاتجاهية قد وضعت وتقررت، فسوف يترتب على ذلك نتائج سلوكية معينة. ووضعها بهذه الطريقة يبدو وكأننا نعود من جديد إلى المسار المألوف الذي به نتمكن من التنبؤ بالسلوك، وبالتالي نتمكن من ضبطه. ولكن هنا على وجه الدقة يوجد خلاف حاد.

فالشروط التي اخترنا إقرارها تتنبأ بنواتج سلوكية، مثل: أن العميل سوف يصير أكثر توجيهاً لذاته، وأقل جموداً، وأكثر انفتاحاً على ما تقدمه حواسه من بيانات ودلائل، وأفضلها تنظيماً وتكاملاً، وأكثرها تشابهاً مع النموذج الذي اختاره لنفسه. بقول آخر، لقد وضعنا، عن طريق الضبط الخارجي، الشروط التي بها نتنبأ أنها سوف تتمخض عن ضبط داخلي لدى الفرد، سعياً إلى تحقيق أهداف مختارة داخلياً. لقد أقررنا الشروط التي بها نتنبأ بأنواع مختلفة من السلوك — السلوك ذاتي التوجيه، الحساسية للحقائق الموجودة داخل الفرد وخارجه، التكيف المرن — وغير ذلك مما لا يمكن وفقا لطبيعتها التنبؤ بها من حيث نوعياتها. فالشروط التي أقررناها تتنبأ بالسلوك الذي يكون في أساسه «حراً» . وتوضح بحوثنا أن تنبؤاتنا قد لقيت تأييداً إلى درجة كبيرة، وأن اعتمادنا على الطريقة العلمية قد أدى بنا إلى أن نعتقد أنه يمكن التوصل إلى أكثر الطرق فاعلية في تحقيق هذه الأهداف.

وتذخر مجالات أخرى — كالصناعة، والتعليم، وديناميات الجماعة- ببحوث تبدو أنها تدعم نتائجنا. وأعتقد أنه من الممكن أن نقرر بتحفظ أن التقدم العلمي قد بدى في تحديده في إطار علاقة بينشخصية لتلك الشروط التي إذا توفرت في «ب»، فإنها تتبع في «أ» بنضج أكبر في السلوك، باعتماد أقل على الآخرين، بزيادة في تعبيريته عن نفسه كشخص، وبزيادة في المغايرة

والمرونة وفاعلية التوافق، وبزيادة في تحمل المسئولية الذاتية والتوجيه الذاتي.

ومن ثم نجد أنفسنا في اتفاق أساسي مع ما يقرره «جون ديوي» بأن «العلم قد اتخذ طريقه بواسطة إطلاق وتحرير، وليس بواسطة قمع ومنع، عناصر التغير والتباين، وعناصر الاختراع والتجديد، وعناصر الخلق الجديد في الأفراد [1]». ونعتقد أن التقدم في حياة الفرد وحياة الجماعة قد تم بنفس الطريقة، بواسطة إطلاق وتحرير المغايرة والحرية والإبداعية.

نحو مفهوم ممكن عن ضبط السلوك الإنساني:

من الواضح أن وجهة النظر التي أعبر عنها تتناقض تماماً مع التطور المألوف عن علاقة العلوم السلوكية بضبط السلوك الإنساني، كما ذكرت من قبل. ولكي نجعل هذا التناقض أقل حدة، سوف أقرر هذه الإمكانية في شكل يتوازى مع الخطوات التي وضعتها من قبل:

١- من الممكن بالنسبة لنا أن نختار تقدير قيمة الإنسان كعملية صيرورة لتحقيق الذات، وأن نختار تقدير قيمة الإبداعية، والعملية التي بها تصير المعرفة هادفة إلى التسامي بالذات.

٢- نستطيع، بواسطة طرق العلم، أن نكتشف الشروط التي تسبق بالضرورة هذه العمليات، وأن نكتشف، من خلال استمرار التجريب، الوسائل الأفضل لتحقيق هذه الغايات.

٣- من الممكن بالنسبة للأفراد أو الجماعات وضع وإقرار هذه الشروط، بأقل قدر ممكن من القسر أو الضبط، وتكون السلطة الوحيدة اللازمة، وفقا للمعرفة الحالية، هي سلطة إقرار خصائص نوعية معينة للعلاقات البينشخصية.

٤- تفترض المعرفة الحالية، بتبنيها لهذه الشروط، أن الأفراد يصبحون أكثر تحملاً للمسئولية الذاتية، ويحققون تقدماً في تحقيق الذات، ويصبحون أكثر مرونة، وأكثر تفرداً وتنوعاً، وأكثر توافقا على نحو إبداعي.

---

(1) J. Ratner (Ed.), Intelligence in the Modern World: John Dewey's Philosophy. Modern Library, New York.

٥- ومن شأن هذا الاختيار الأولي إذن أن يهيئ بدايات لنظام اجتماعي أو لنظام فرعي تكون فيه القيم والمعرفة ومهارات التوافق وحتى مفهوم العلم متغيرة باستمرار ومؤدية بذاتها إلى الارتقاء المضطرد. هنا يكون التأكيد على الإنسان كعملية صيرورة.

وأعتقد أنه من الواضح أن هذا التصور، كما أصفه، لا يؤول إلى أية «يوتوبيا» يمكن وصفها وتحديدها. وقد يبدو من المستحيل التنبؤ بناتجه النهائي، وهو يتضمن نمواً خطوة بخطوة، يقوم على اختيار ذاتي مستمر للغايات التي تقررها العلوم السلوكية. ويتفق هذا مع وجهة «المجتمع المفتوح»، كما حدد «بوبر» Popper هذا المصطلح، حيث يتحمل الأفراد المسئولية بشأن قراراتهم الشخصية. ويتعارض هذا تماماً مع مفهوم»المجتمع المغلق»، الذي تعتبر قصة (Walden Two) مثالاً له.

وأعتقد، عن ثقة، أنه من الواضح أيضا أن التأكيد الكلي يكون على «العملية» (process)، وليس على «الحالات النهائية للوجود» (end states of being). واقترح أنه باختيارنا لتقدير قيمة عناصر كيفية معينة لعملية الصيرورة، يكون في مقدورنا أن نجد طريقاً نسلكه إلى المجتمع المفتوح.

الاختيار:

ورجائي أن أكون قد ساعدت على إيضاح مدى الاختيار الذي سوف يُطرح أمامنا وأمام أطفالنا فيما يتعلق بالعلوم السلوكية. فقد يمكننا أن نختار استخدام معارفنا المتطورة بهدف استعباد الناس بطرق لم نتخيلها على الإطلاق من قبل، أو بهدف الإخلال بشخصياتهم، أو بهدف ضبطهم بواسطة طرق منتقاة بعناية بحيث لا يكونوا على وعي إطلاقاً بفقدانهم لهويتهم. ويمكننا أن نختار استخدام معرفتنا العلمية لجعل الناس سعداء أساساً جيدي السلوك، ومنتجين كما يفترض «سكنر». ويمكننا، إذا أردنا، أن نختار أن نجعل الناس خانعة، مسايرة، مطيعة، أو على الطرف الآخر من مدى الاختيار، يمكننا أن نختار استخدام العلوم السلوكية بطرق تؤدي إلى إطلاق الحرية، لا الضبط والتقييد؛ طرق تؤدي إلى المغايرة البنائية، لا المسايرة؛ طرق تؤدي إلى

نمو الإبداعية، لا القناعة والرضا؛ طرق تؤدي إلى دعم وتمكين كل شخص في عملية الصيرورة وتنامي تقدمه، وهي عملية موجهة ذاتياً- طرق تساعد الأفراد والجماعات وحتى مفهوم العلم أن يصبحوا في حالة من التسامي بالذات بأساليب توافقية بجدة لمواجهة الحياة ومشكلاتها.

وإذا اخترنا استخدام معرفتنا العلمية لتحرير الناس، عندئذ سوف تتطلب أن نعيش بانفتاح وصراحة مع المفارقة الهائلة للعلوم السلوكية. وسوف ندرك أن السلوك حينما يُخْتَبر علمياً، نفهمه على نحو أفضل ولا شك، إذا تحدد على أساس علِّيه قبلية. تلك هي الحقيقة الكبرى للعلم. لكن الاختيار الشخصي المسئول الذي هو العنصر الأكثر أساسية في إنسانيتنا، والذي هو «الخبرة المحورية» (core experience) في العلاج النفسي، والذي يوجد قبل أي جهد علمي، هو الحقيقة البارزة أيضا في حياتنا. وما قد يبدو به هذان العنصران المهمان لخبرتنا من تناقض ربما يكون له نفس دلالة التناقض بين النظرية الموجية wave theory والنظرية الجسيمية corpuscular theory للضوء، وكلاهما يمكن إثبات صدقه، رغم تناقضهما. وإذا كنا لا نستطيع أن ننكر الحرية التي توجد في حياتنا الذاتية، فإننا لا نستطيع أكثر إنكار الحتمية التي تتجلى في الوصف الموضوعي لتلك الحياة. وعلينا أن نعيش مع تلك المفارقة.

لا تتجلى تفاؤلية «بيير تييلارد دي تشــاردين» فــي أي موضع أكثر مما تتجلــى حينمــا يتكلم عن مســتقبل الإنســانية. وتبــدأ القصة بنشــأة الكون، ويعتقــد أن كل ذرة مــن المــادة كما لــو أنها مرتبطة بعمليــة الصيرورة — ذلك التطــور الحتمــي، الذي يركز علــى الوعي أكثر مما يركز على بنية الجســم، ويمضي أبداً فــي اتجاه تحقيق مســتويات أفضل. والإنســان على قمة هرم الحيــاة، هــو المفتــاح إلــى فهم كل مــا كان يجري فــي العصــور الجيولوجية الســابقة، وهــو المفتــاح إلى التنبؤ بوجهة التقدم فــي المســتقبل. فالإنســان يتربــع قمــة قصة هذا العالم، وهــو موجود على قاعدتها وفــي مركزها. ولا يعتقــد «دي تشــاردين» أن العملية قد اســتكملت: «.... فبــين عالمنا الحديث والعالــم المطلــق تمتــد فترة فســيحة، تتميــز لا بالتباطــؤ الإنتكاســي ولكن بالإســراع الإرتقائــي، وبالازدهــار المحــدد لقوى التطور علــى خط الإنطلاق الإنساني».

ومــن الأســئلة التي تغامر الدراســة الحاليــة بإثارتها: لماذا يبــدو النوع الإنســاني علــى أنه لا يزال فــي مرحلــة طفولتــه الأولى؟ كيف تغير مســار التطــور منــذ ظهر الإنســان علــى الأرض؟ ما هــي مظاهر النمــو الإرتقائية التــي يمكــن توقعها فــي الإنســان فــي العصــور المقبلــة؟ كيف ســتغير من الإحســاس بوحدة الجنس الإنســاني؟ وماذا ســيكون صدى ذلك على العلم؟ وبامتــداد أعمــال التحليــل، وبتركيــز العلم أكثــر وبقصد علــى البنائية، فما الــذي ســوف نحتاجه أكثــر للوصول إلى نظــرة شــمولية للكون؟ .

(٣٩)

العالَم الغائي (*)

بيير تييلارد دي تشاردين

الوجهات:

يمكننا القول، بدون أن نتخطى حدود الاحتمالية العلمية، أن الحياة لا يزال أمامها فترات طويلة من الزمان الجيولوجي الذي نتقدم فيه. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها في شكلها الفكري، لا تزال تظهر كل الأدلة على وجود طاقة في كامل إنطلاقها. فمن ناحية، ومقارنة بالطبقات الحيوانية التي سبقتها والتي يقدر متوسط فترتها على الأقل بحوالي ٨٠ مليون سنة، تعتبر البشرية في مراحلها العمرية الأولى بحيث يمكننا غالباً أن نعتبرها طفلاً حديث الولادة. ومن ناحية أخرى، إذا حكمنا على أساس التطور السريع للفكر في الفترة القصيرة التي تصل إلى عشرات قليلة من القرون، فإن هذه الحداثة تحمل في داخلها مؤشرات وبشائر عن دورة بيولوجية جديدة تماماً. وهكذا، ومع كل الاحتمالات، تمتد بين عالمنا الجديد والعالم المطلق أو الغائي فترة فسيحة، تتميز لا بالتباطؤ التقهقري ولكن بالإسراع الارتقائي- «الازدهار» القائم على إمكانات التطور على خط الإنطلاق الإنساني.

وإذا افترضنا النجاح – الذي هو الافتراض المقبول الوحيد – فبأي شكل، ووفقا لآية خطوط يمكننا تخيل التقدم المتسارع خلال هذه الفترة؟

أولا وبالدرجة الأولى، **يكون النجاح والتقدم في الشكل الجمعي والروحي.** لقد لاحظنا أنه، منذ قدوم الإنسان، كان هناك تباطؤ تقهقري معين في التحولات السلبية والجسمية للكائن الحي (الأورجانزم) في صالح التغيرات التحولية metamorphoses الواعية والنشطة للفرد التي تتمثل في المجتمع، وحيث يتواصل الاستمرار في تطور الأساليب التي بها يعمل الإنسان مع الطبيعة، والتحول إلى ثقافة شفهية أو مكتوبة بعد أن كانت أشكالاً سلالية

(*) The Ultimate Earth: P. Teilhard de Chardin: The Phenomenon of Man. Harper and Row, Pub., Inc., New York, 1959, pp. 276-285.

للوراثة (الكروموزومات). وبدون أن ننكر إمكانية أو حتى احتمالية حدوث امتداد معين في أطرافنا، ولا يزال يحدث الأكثر في جهازنا العصبي، ارتباطاً بالعمليات التطورية العميقة orthogenetic processes، فإني أميل إلى الاعتقاد بأن تأثيرها يميل إلى التضاؤل أكثر من ذلك.

تبدو طاقات الحياة، كما لو كانت تخضع لنظام وفقا لنوع من قوانين الكم غير قادرة على الانتشار في منطقة واحدة أو تأخذ شكلاً جديداً فيما عدا على حساب التضاؤل في مناطق أخرى. ومنذ وصول الإنسان، يبدو الضغط التطوري كما لو كان قد هبط في كل الفروع غير البشرية من شجرة الحياة. والآن، وبعد أن أصبح الإنسان راشداً، وبعد أن فتح لنفسه مجال التحولات العقلية والاجتماعية، لم تعد الأجسام تتغير بصورة ملحوظة، ولم تعد تحتاج إليها في الكائن الإنساني؛ أو إذا كانت لا تزال تتغير، فسوف تكون فحسب خاضعة لضبطنا الواعي. وربما يكون قد تخطى الدماغ الإنساني من حيث إمكاناته وفراهته، حدوده العضوية. ولكن الحركة لا تتوقف هنا. فمن الغرب إلى الشرق، يحتل التطور من الآن فصاعداً كل مكان، في مجال أكثر غنىً وتعقيداً وبنائيةً، ومع ارتباط كل العقول ببعضها — ونعني بذلك **تطور العقل**. فلقد بدأ بالفعل، خارج كل الأمم والأجناس، التكامل الكلي الحتمي بين البشرية.

ومن هنا، علينا الآن أن نتساءل: وفقا لأية خطوط للتقدم، من بين غيرها، يكون مقدراً لنا أن نتقدم من المستوى التطوري النفسي الذي تحقق لنا؟ .

أستطيع أن أميز ثلاثة خطوط رئيسية تتضح فيها التنبؤات التي توصلنا إليها بالفعل وفقا لتحليلنا للآراء المتعلقة بالعلم والإنسانية، وهي: تنظيم البحث العلمي، تركيز البحث العلمي على موضوع الإنسان، وارتباط العلم بالدين. **تلك ثلاث مقاربات طبيعية تتعلق بحقيقة التقدم:**

١- تنظيم البحث العلمي:

لنا أن نفخر بعصرنا على أنه عصر العلم. ويتضح ذلك إذا ما وضعنا في ذهننا فجر العلم مقارنة بالظلام الذي ساد قبله. لقد ولد ثمة شئ هائل في

الكون مع اكتشافاتنا وأساليبنا في البحث العلمي. بدأ شئ ولن يتوقف أبداً. فقد نبجل البحث ونستخلص منه فوائد جمة، ومع ذلك نسعى إلى الحقيقة في عالم اليوم بضحالة في الروح وبفقر في الوسائل وبالمصادفات العامة! هل لدينا فكر جاد عن الحالة التي نحن عليها الآن؟ .

لقد ولد العلم كالفن – أو كالفكر ذاته – بكل ما يدل على الفيض والخيال. لقد ولد من خصوبة النشاط الداخلي الذي تعدى الحاجات المادية للحياة: لقد ولد من شغف وفضول الحالمين والكسالى. وصار بالتدريج نشاطاً هاماً؛ فأدت فاعليته إلى حرية الحياة المدنية. لقد اكتسب مكانة اجتماعية في عالم يعيش في ثورة، وهي مكانة تلقى تقديساً في بعض الحالات. ومع ذلك لا زلنا نتركه ينمو كأفضل ما يستطيع، ومن الصعب الاقتراب منه، مثل تلك النباتات البرية التي يلجأ الناس البدائيون لقطف ثمارها في غاباتهم. لقد أصبح كل شيئ يخضع للزيادة في الإنتاج الصناعي وللتسليح. فالعلماء وما وراءهم من علم ووسائل وأدوات، الذين يضاعفون من قوانا، ما زالوا لا يتلقون شيئاً تقريباً، ونسلك كما لو أننا نتوقع أن الاكتشافات تهبط إلينا جاهزة من السماء، كالمطر أو أشعة الشمس، بينما يركز الناس على مهام خطيرة تهدف إلى قتل بعضهم الآخر.

ويمكن أن نتوقف لنفكر لحظة في نسبة الطاقة الإنسانية المتكرسة للبحث عن الحقيقة، أو بعبارة أخرى، دعنا نلقى نظرة على النسبة المخصصة من الدخل القومي لأغراض البحث العلمي لمشكلات ملحة يؤدي حلها إلى نتائج حيوية بالنسبة للعالم. إذا فعلنا فسوف نُصدم بحقيقة مؤلمة. فكل ما ينفق سنوياً على البحث العلمي في كل العالم أقل من ثمن سفينة فاخرة. ولا شك أن أحفادنا سوف لا يكونوا مخطئين إذا اعتبرونا همجيين؟.

والحقيقة أننا، مثل الأطفال في مرحلة انتقالية، لا نكون واعين تماماً ولا متحكمين كلية في القوى الجديدة التي قد انطلقت وتحررت. ولا زلنا بتعلقنا بعادات بالية، نرى في العلم وسيلة جديدة فحسب نتناول بها نفس الأشياء القديمة ولكن بسهولة أكبر. لكن سوف يأتي الوقت عندما يضطر الإنسان وفقا لتباين مهامه أن يعترف بأن العلم ليس مهنة ثانوية ولكن نشاطاً أساسياً،

مظهراً طبيعياً لتحرير الطاقة الإنسانية الهائلة بواسطة طرائقه وأدواته وعملياته ونواتجه.

ونستطيع أن نتصور عالماً فيه يتزايد الفراغ والاهتمام الشديدان باستمرار، ليجد أن مهمته الحيوية تتمثل في استقصاء كل شيء ومحاولة كل شيء وتوسيع كل شئ، وهو عالم تمتص فيه التليسكوبات العملاقة والتكنولوجيات المتقدمة والتجارب الذرية مزيداً من الأموال وتثير مزيداً من الإعجاب والدهشة أكثر مما تثيره جميع القنابل والأسلحة مجتمعة. ذلك تقدير القوى الجارية، وهو ما يجري من حولنا.

في بعض الكائنات الدنيا تنتشر «شبكية العين» على كل سطح الجسم. وبنفس الطريقة تقريباً لا زالت الرؤية الإنسانية مشتتة في عملها، مختلطة بالنشاط الصناعي وبالحرب، وبالإشعاع والتلوث. وتحتاج، من الناحية البيولوجية، إلى تفريد نفسها بطريقة مستقلة، بأعضائها المحددة. ولن يطول الوقت قبل أن يجد العالم الجديد عيونه.

ب- اكتشاف الموضوع الإنساني:

حينما تحقق الإنسان من أن وظيفته الأولى هي إدراك الطاقات المحيطة به، وتوحيدها ذهنياً، والتحكم فيها، بهدف المزيد من فهمها والسيطرة عليها، لم تعد هناك خطورة في الوصول إلى الحد الأعلى من ازدهارها. قد تصل السوق التجارية إلى حد التشبع يوماً ما، وقد نستهلك كل مناجمنا وآبار النفط، رغم أنه قد توجد بدائل لذلك. ومع ذلك، لن يكون هناك شيء على الأرض يشبع رغبتنا من أجل المعرفة أو يبدد قوتنا من أجل الإبداع والاختراع.

ولا يعني ذلك أن العلم ينبغي أن ينشر نفسه بلا مبالاة في كل مكان وفي أي اتجاه في نفس الوقت. فبقدر ما ينظر الإنسان، بقدر ما تزداد رؤيته. وبقدر ما يرى الإنسان، بقدر ما يعرف أن ينظر على نحو أفضل. وإذا كان للحياة أن تتقدم، فإن هذا بسبب أنها، بواسطة البحث الدائب، قد توصلت بنجاح إلى النقاط التي تتضاءل فيها المقاومة، وبالتالي توصلت إلى الحقيقة. وعلى هذا النحو، إذا كان للبحث العلمي أن يتقدم، فإن هذا يكون متمركزاً

علـى المجالات الرئيسـية، المجالات الحساسـة (الحية)، التي يـؤدي ارتيادها إلى السـيطرة على المجـالات الباقية.

ومـن وجهـة النظـر هذه، إذا كنـا نمضي نحو «حقبة إنسـانية للعلـم»، فإنها سـوف تكـون حقبـة العلـم الإنسـاني. وعلـى الأقـل، سـوف يـدرك الإنسـان – الشـخص العـارف، أن الإنسـان – موضـوع المعرفة- هـو المفتاح إلـى العلم الكلي عـن الطبيعة.

وإذا كان «كاريـل» Carrel قـد أشـار إلى الإنسـان على أنه ذلـك «المجهول»، فـإن الإنسـان هو الحل لكل شـيء يمكـن أن نعرفه.

وحتـى وقتنـا الحالي يبدي العلم، سـواء بسـبب التعصب أو الخـوف، تبرماً وإحجاماً عن النظر إلى الإنسـان فـي وجهه، إلى حقيقته؛ وإنما يلجأ باسـتمرار إلـى أن يحـوم من حوله بـدون أن يتجرأ على مواجهته. فأجسـامنا، مـن الناحية الماديـة، تبـدو غير مهمة، عَرَضية، وقتية، وهشـة- فلماذا نقلق بشـأنها؟ أرواحنا، مـن الناحيـة النفسـية، تنطـوي على الدهـاء والخبـث، ومركبة بطريقـة معقدة، فكيف نسـتطيع مواءمتها فـي عالم من القوانـين والمعادلات؟.

ومـع ذلك، بقـدر ما نحاول تجنب الإنسـان فـي نظرياتنا، بقدر مـا يعن لنا فهمـه، كما لـو أننا مقيدين بدوامته. علـم الفيزياء، مثلا، لم يعـد متأكداً مما إذا كان مـا تبقى فـي يديـه هو طاقـة خالصة، أو علـى العكس فكراً خالصـاً. ولقد وجـدت البيولوجيا فـي خاتمة المطاف نفسـها مضطرة إلى أن تعتـرف بالكائنات الإنسـانية المفكـرة على أنها الشـكل النهائي الحالي للتطور. ونحن نجد الإنسـان عنـد القاعـدة، والإنسـان عنـد القمـة، والأكثر مـن ذلك، الإنسـان عنـد المركز – الإنسـان الـذي يعيـش ويسـعى ويجتهد بلا أمـل فينا ومـن حولنـا.. علينا أن نتشـبث به إن آجـلاً أو عاجلاً.

الإنسان هو موضوع دراسة ذات قيمة فريدة للعلم لسببين:

١. يمثل الإنسـان، فرديـاً واجتماعياً، أعظـم حالة مركبة بها تتيسـر لنا عناصر الكون المختلفة.

٢. وهو أعظم نقطة متحركة من هذه العناصر في سياق التحول والتطور الحضاري.

بهذين السببين الحقيقيين، ولكي نحل لغز الإنسان، علينا أن نحاول بالضرورة أن نكتشف كيف تطور العالم وكيف ينبغي أن يمضي قدماً. علم الإنسان هو العلم العملي والنظري لدراسة حقيقة الإنسان. ويعني ذلك دراسة عميقة للماضي ولأصوله، ولكن يعني أيضاً دراسة للتجربة البناءة التي تهدف إلى موضوع متجدد وآفاق متفتحة باستمرار، ويكون البرنامج في هذا المسار هكذا هائلاً وغايته هي المستقبل.

نحن بحاجة، ومنساقين بطريقة لا تقاوم، إلى خلق «**علم الطاقات الإنسانية**» (science of human energetics)، وذلك بواسطة، وما وراء، كل الفيزياء، وكل البيولوجيا، وكل علم النفس.

في سياق ذلك الإبداع، سوف يجد العالم، بتركيزه على الإنسان، نفسه وجهاً لوجه مع الدين وبصورة متزايدة.

الارتباط بين العلم والدين:

لقد ولد العالم الحديث، من حيث المظهر الخارجي، من حركة مضادة للدين: الإنسان يصير مكتفياً ذاتياً، والعقل يحل مكان العقيدة. لقد سمع جيلنا وأجيال سابقة قليلاً عن العلم والإيمان، ولكن تكلموا عن الصراع بين العلم والإيمان. وفي الحقيقة أن ذلك قد تراءى في لحظة كنتيجة مقدرة بأن العلم سوف يأخذ مكان الدين.

ولكن، بقدر ما استمر التوتر، بدى الصراع بوضوح على أنه بحاجة إلى حل في إطار مختلف تماماً من التوازن — ليس بالإقصاء والإلغاء، وليس بالثنائية، ولكن بالتركيب والتآلف. فبعد قرنين من النزاع الدائب، لم ينجح العلم ولا الإيمان في أن يجب أحدهما الآخر. وعلى العكس، لقد صار من الواضح أن كلاهما لا يستطيع أن ينمو نمواً سوياً بدون الآخر. وسبب ذلك بسيط، أن الحياة ذاتها تُحيي كلاهما وتزدهر بهما. ولا يستطيع العلم بقوته

الدافعة ولا بمنجزاته الإبداعية أن يصل إلى مداه بدون أن يصبح مصطبغاً بالباطنية ومشحونا بالعقيدة:

أولا: من حيث القوة الدافعة للعلم، فإننا نستطيع أن نطرق هذه النقطة إذا تناولنا مشكلة العمل والأداء. فالإنسان سوف يستمر فقط في العمل والبحث طالما ظل مدفوعاً باهتمام شديد. هذا الاهتمام الآن يعتمد كلية على الاعتقاد بأن للكون وجهة وبأنها لابد وأن تؤدي – إذا كنا مؤمنين – إلى نوع من الكمال المستمر. ومن هنا يأتي الاعتقاد في التقدم.

ثانياً: من حيث بنية العلم، يمكن أن نتخيل علمياً تحسناً هائلاً في الكائن الحي الإنساني وفي المجتمع الإنساني. ولكن حالما نحاول وضع أحلامنا موضع العمل، نتحقق من أن المشكلة تظل غير محددة أو حتى بلا حل إذا لم نعترف بالخصائص المتقاربة للعالم الذي ينتمي إليه. ومن هنا يأتي الاعتقاد في الوحدة- وحدة العلم والدين.

وأكثر من ذلك، إذا اتخذنا قراراً، تحت ضغط الحقائق، لصالح التفاؤل بالوحدة بين العلم والدين، فإننا نسير تبعاً لما تقتضيه الضرورة الفنية لاكتشاف – بالإضافة إلى القوة الدافعة اللازمة لدفعنا إلى الإمام وبالإضافة إلى الهدف الخاص الذي يحدد طريقنا - الرابطة الخاصة التي تربط حياتنا معاً، وبحيوية، بدون ما تقليل منها أو تشويه لها. ومن هنا يأتي الاعتقاد في مركز جذب هائل، وهو «**الشخصية**».

وباختصار ، حالما يتجاوز العلم البحوث التحليلية التي تؤلف مراحله الأولية، وينتقل إلى التركيب والتآلف – ذلك التركيب (synthesis) الذي يبلغ الذروة بطبيعة الحال **في تحقيق حالة سامية من الإنسانية – يؤدي به هذا على الفور إلى بصيرة ثاقبة، ويرنو إلى «المستقبل»، وإلى «الكل» .. وهو بهذا يتقدم العلم وينطلق في ضوء الاختيار والعبادة.**

لذا لم يخطئ «رينان» ومفكرو القرن التاسع عشر حينما تكلموا عن «ديانة العلم» Religion of science، وكان خطؤهم أنهم لم يروا أن إيمانهم بالإنسانية يتضمن إعادة تكامل، في شكل متجدد، لتلك القوي الروحية التي كانوا يزعمون أنهم قد تخلصوا منها.

العلـم والديـن، همـا الوجهـان المجتمعـان للمعرفـة الكاملـة — تلـك المعرفـة التـي تسـتطيع أن تحيـط بماضـي وبمسـتقبل التطور من أجـل التأمل فيه وقياسـه وتحقيقـه، وتقدمـه وازدهـاره دومـاً.

ففـي التعزيـز المتبـادل لهاتـين القوتـين اللتين لا تـزالا متعارضتين، وفـي ارتبـاط العقـل بالباطنيـة، تكون الـروح الإنسـانية موجهة، بحكـم طبيعة نموها، إلـى أن تجد الدرجـة القصوى لتغلغلها بأقصى قوتها الحيوية فـي كافة أنشـطة حياتنا. وإذ تمضي الإنسـانية فـي هذه المسـارات الثلاثة (تنظيم البحث العلمي، اكتشـاف الموضـوع الإنسـاني، الارتبـاط بـين العلم والديـن)، وتفيد منهـا، تتفتح أمامهـا إمكانـات هائلة بلا حـدود أو قيود.

قــراءات مقترحــة

Ainslie, G. (2001). **Breakdown of will**. Combridge, England: Combridge Univ. Press.

Aspinwall, L. G., & Staudinger, U. M. (Eds.). (2003). **A psychology of human strengths: Fundamental questions and future directions for a positive psychology.** Washington, DC: American Psychological Association.

Brandt, A., & Rozin, P. (Eds.). (1997). **Morality and health**. New York: Routledge.

Bandura, A. (1997). **Salf- efficacy: The exercise of control.** New York: Freeman.

Bruner, J. (1990). **Acts of meaning**. Cambridge, MA: Harverd University Press.

Baumeister. R. F., & Exline, J. J. (2000). Self- control, morality, and human strength. **Journal of Social and Clinical Psychology,** 19, 29-42.

Bok, S. (1995). **Common values.** Columbia: University of Missouri Press.

Branden, N. (1994). **The six pillars of self- esteem**. New York: Bantam Books.

Brandsford, J. D., Brown, A. L., & Cocking, R. R. (1999). **How people learn: Brain, mind, experience, and school.** Washington, DC: National Academy Press.

Bronfenbrenner, U. (1986). **Ecology of Human development: Experiments by nature and design.** Combridge, MA: Harvard University Press.

Bryk, A. S., & Schneider, B. (2002). **Trust in schools: A core source of improvement.** New York: Sage.

Buckingham, M., & Clifton, D. O. (2001). **Now, discover your strengths.** New York: Free Press.

Burrell, B. (1997). **The words we live by**. New York: Free Press.

Cawley, M. J., Martin, J. E., & Johnson, J. A. (2000). A virtues approach to personality. **Personality and Individual differences,** 28, 997-2103.

Chordon, P. (1991). **The wisdom of no escape and path of loving - kindness.** Boston: Shambhala.

Chordon, P. (2001). **The places that scare us.** Boston: Shambhala.

Collins, J. (1996). Level five leadership: The triumph of humility and fierce resolve. **Harvard Business Review,** 79, 66-76.

Convington, M. V. (1999). Caring about learning. **Educational Psychologist,** 34, 127-136.

Csikszentmihalyi, M. (1990). **Flow: The psychology of optimal experience.** New York: Harper & Row.

Deci, E. L., & Ryan, R. M. (1985). **Intrinsic motivation and self-determination in human behavior.** New York: Plenum Press.

Chang, E. C., & Sanna, L. J. (eds.). (2003). **virtue, vice, and personality: The complexity of behavior.** Washington, D C: American Psychological Association.

Di Paula, A., & Campbell, J. D. (2002). Self- esteem and persistence in the face of failure. **Journal of Personality and Social Psychology,** 83, 711-724.

Donnelly, D. (2017). **Relentless optimism**. New York: Shamrock New Media, Inc.

Eisenberg, N. (1986). **Altriustic emotion, cognition, and behavior.** Hills dale, N J: Erlbaum.

Emmons, R. A., & Crumpler, C. A. (2000). Gratitude as human

strength: Appraising the evidence. **Journal of Social and Clinical Psychology**, 19, 56-69.

Enright, R. D., Gassin, L. A., & Wu, C. (1992). Forgiveness: A developmental view. **Journal of Moral Education**, 21m 99-114.

Ferrari, M. (Ed.). (2002). **The pursuit of excellence through education.** Mahwah, N J: Erlbaum.

Gardner, H. (1983, 1993). **Frames of mind: The theory of multiple intelligences.** New York: Basic Books.

Gardner, H. (2000). **The disciplined mind**. New York: Penguin Books.

Gardner, H., Csihszentmihalyi, M., & Damon, W. (2001). **Good work: When excellence and ethics meet**. New York: Basic Books.

George, L. K., Larson, D. B., Koenig, H. G., & Mc Cullough, M. E. (2000). Spirituality and health: What we know, what we need to know. **Journal of Social and Clinial Psychology,** 19, 102-116.

Gergen, K. (1991). **The saturated self: Dilemmas of identity in contemporary life**. New York: Basic Books.

Gillham, J. E. (Ed.). (2000). **The science of optimism and hope: Research essays in honor of Martin E. P. Seligman.** Randor, PA: Templeton Foundation Press.

Glantz, M. D., & J. L. Johnson (Eds.). (1999). **Resilience and development: Positive life adaptations**. New York: Kluwer Plenum.

Goldberg, C., & Simon, J. (1982). Toward a psychology of courage: Implications of the change (healing) process. **Journal of Contemporary Psychotherapy**, 13, 107-128.

Goleman, D. (1995). **Emotional intelligence**. New York: Bantam Books.

Goleman, D. (2006). **Social intelligence**. New York: Bantam Books.

Harter, S. (1999). **The construction of the self: A developmental perspective.** New York: Guilford Press.

Kendall, P. C. (1992). Healthy thinking. **Cognition and Emotion**, 17, 297-314.

Keyes, C. L., & Haidt, J. (Eds.). (2003). **Flourishing: Positive psychology and the life well-lived.** Washington, DC: American Psychological Association.

Klee, M. B. (2000). **Core virtues: A literature- based program in character education**. Redwood City, CA: Link Institute.

Klen, S. (2006). **The science of happiness**. Philadelphia, PA: De Capo Press.

Kramer, D. A. (2000). Wisdom as a classical source of human strength: Conceptualization and empirical inquiry. **Jowrnal of Social and Clinical Psychology**, 19, 83-103.

Larson, R. W. (2000). Toward a psychology of positive youth development. **American Psychologist,** 55, 150-183.

Leahy, R. (1986). Educating for authenticity. **Counseling and Values,** 30, 175-182.

Maslow, A. H. (1964). **Religions, values, and peak experiences.** New York: Penguin.

Maslow, A. H. (1970). **Motivation and personality**. New York: Harper & Row.

Markus, H. R., & Nurius, P. (1986). Possible selves. **American Psychologist,** 4, 954-969.

May, R. (1983). **The discovery of being**. New York: Norton.

Mayer, J. D., & Salovey, P. (1993). The intelligence of emotional intelligence. **Intelligence**, 17, 433-442.

Mayer, J. D., Salovey, P., & Caruso, D. R. (2000) Models of emo-

tional intelligence. In R. J. Sternberg (Ed.), **Handbook of intelligence**. Cambridge, England:Cambridge Univesity Press.

Mc Callum, M., & Piper, W. T. (Eds.). (1997). **Psychological mindedness: A contemporary understanding.** Mahway, N J: Erlbaum.

Mc Combs, B. L. (1991). Motivation and lifelong learning. **Educational Psychologist**, 26, 117-127.

Miller, M.E., & Cook- Greuter, S. R. (Eds.). (2000). **Creativity, spirituality, and transcendence: Paths to integrity and wisdom in the mature self.** Stamford, C T: Ablex.

Miller, W. I. (2000). **The mystery of courage**. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Myers, D. G. (1993). **The pursuit of happiness**. New York: Avon Books.

Paulus, P.B., & Nistad, B. A. (Eds.) . (2003). **Group Creativity.** New York: Oxford University Press.

Peterson, C., & Seligman, M. E. (2004). **Charactor strengths and virtues.** Washington, D C: American Psychological Association.

Putman, D. (1997). Psychological courage. **Philosophy, Psychiatry and Psychology**, 4, 1-11.

Raskin, V. (1985). **Semantic mechanisms of humor**. Dordrecht, Netherlands: D. Reidel.

Richards, N. (1992). **Humility**. Philadelphia: Temple University Press.

Ruch, W. (Ed.). (1998). **The sense of humor: Explorations of a personality characteristic**. Berlin, Germany: Mouton de Gruyter.

Runco, M. A., & Pritzker, S. (Eds.). (1999). **Encyclopedia of creativity.** San Diego, C A: Academic Press.

Rutter, M. (1999). Resilience concepts and findings: Inplications

for family therapy. **Journal of Family Therapy**, 21, 119-144.

Ryan, R. M., & Deci, E.L. (2000). Self- determination theory and the facilitation of intrinsic motivation, social development, and well - being. **American Psychologist**, 55, 68-78.

Ryff, C.D. (1989). Happiness is everything, or is it? Explorations of the meaning of psychosocial well- being. **Journal of Personality and Social Psychology,** 57, 1069-1081.

- Ryff, C.D., & Singer, B. (1998). The contours of positive mental health. **Psychological Inquiry**, 9, 1-28.

Saarani, C. (1999). **The development of emotional competence**. New York: Guilford Press.

Sansone, C., & Harackiewiewicz, J.M. (Eds.). **Intrinsic and extrinsic motivation: The search for optimal motivation and performance**. New York: Academic Press.

Schaps, E. (2001). Community in school: The Key to violence prevention and more. **Safe Learning**, 1, 20-21.

Schwartz, B. (2000). Self - determination: The tyranny of freedom. **American Psychologist** , 55, 79-88.

Seligman, M. E. P. (1990). **Learned optimism**. New York: Knopf.

Seligman, M. E. P. (2002). **Authentic happiness**. New York: Free Press.

Seligman, M. E. P., & Csikszentmihali, M. (2000). Positive psychology: An introduction. **American Psychologist**, 55, 5-14.

Shelton, C. M. (2000). **Achieving moral health**. New York: Crossroad.

Snyder, C. R. (Ed.). (2000). **Handbook of hope: Theory, measures, and applications.** San Diego, CA: Academic Press.

Snyder, C. R., & Lopez, S. J. (Eds.). (2002). **Handbook of positive**

psychology. New York: Oxford University Press.

Steen, T. A., Kachorek, L. V., & Peterson, C. (2003). Character strengths among youth. **Journal of Youth and Adolescence,** 32, 5-16.

Sternberg, R. J. (Ed.). (1990). **Wisdom: Its nature, origins, and development.** New York: Cambridge University Press.

Templar, R. (2015). **The rules of life**. New York: Pearson.

Unell, B., & Wyckoff, J. (1995). **20 teacheable virtues: Practical ways to pass on lessons of virtue and character to your children**. New York: Penguin Books.

Uslaner, E. M. (2002). **The moral foundations of trust**. Cambridge, England: Cambridge University Press.

Vaillant, G. E. (1993). **The wisdom of the ego**. Cambridge, M A: Harvard University Press.

Vaillant, G. E. (2000). **Aging well**. Boston: Little, Brown.

Zagzebski, L. (1996). **Virtues of the mind: An inquiry into the nature of virtue and the ethical foundations of knowledge**. New York: Cambridge University Press.

الفصل الأول :

Bugental, J. F. (1963). Humanistic psychology: A new break-through. **Amer. Psychologist**, 18, 563-567.

Cantril, H. (1995). **Toward a humanistic psychology**, Etc, 12, 278-298.

Chein , I. (1962). The image of man. **J. Soc. Issues,** 13(4), 1-35.

Harlow , H.F. (1953). Mice, monkeys, men and motives. **Psychol. Rev.,** 60. 23-32.

الفصل الثاني :

Boring E. G. (1957). When is human behavior preder-mined? **Sci Monthly**, 84, 189-196.

May. R. (1961). Will, decision and responsibility: Summary re-markms. **Rev. Existent . Psychol . psyciat**., 249 – 259.

Muller, H. J. (1960) **Issues of freedom**. (World perspectives series. VOl. 23). New York : Harper and Row, part I.

Zavalloni, R. (1962). **Self-determination: The psychology of personal freedom**. Chicago: Forum Books.

الفصل الثالث :

Allport, G. W. (1940). The psycologist's frame of reference. **Psy-chol Bull**, 37-1-28.

Katz, D. (1937). **Animals and men :Studies in comparative psy-chology.** London: Longmans.

Kellogg, W. N., & Kellogg. L. A. (1933). **The ape and the child.** New York: McGraw-Hill.

Matson, F. W. (1964). **The broken image: Man, Science, and so-ciety.** New York: Braziller, 53-81.

Moore. T. V. (1941). Human and animal intelligence In H. S. Jen-

nings, et at. (Eds.), **Scientific aspects of the race problem**. London: Longmans, 93-158.

الفصل الرابع :

Burt, C. (1961).The structure of the mind : A reply. **Brit J. statist. Psychol.**, 1961, 14, 145-170.

Buytendijk. F. (1961). The body in existential psychology. **Rev. Existent Psychol Psychiat**. 1, 149-172.

Feigl, H. (1958).The «mental» and the «physical». In H. Feigel, et al (Eds), Minnesota studies in the philosophy of science. Vol 2. **Concepts, theories and the mind-body problem**. Minneapolis: University of Minnesota Press, 370-397.

Luijpen, W. A. (1960). Duquesne Studies, Philosophical series. Vol. 12. **Existential Phenomenology**. Pittsburgh: Duquesne University Press, 181-192.

Olds, J. (1956). Pleasure centers in the brain. **Scient. American.**, 19, 105-116.

Penfiel, W. (1961). The physiological basis of the mind. In S. M. Farber and R. H. L. Wilson (Eds.), **Control of the mind: Man and civilization**. New York: McGraw-Hill.

Sinnott, E. W. (1957). Matter, mind, and man: The contribution of biology toward a solution of mind-body relationships. **Main Curr. Mod. Thought.**, 13, 75-80.

Von Holst, E., & U. von Saint Paul. (1962). Electrically controlled behavior. **Scient. American**, 206, 50-59.

الفصل الخامس :

Murray, H. A., et al., (1961). **Cultural evolution reviewod by psychologists.** Daedalus, 1961, 90, 570-586.

Oppenheimer, R. (1960). **Some reflections on science and culture**. Chapel Hill, N C : University of North Caroline Press.

Rogers, C. R. (1963). Toward a science of the person. **J. Humanist. Psychol.,** 3 (2) 72-92.

Toulin, S. (1961). **Foresight and understanding: An inquiry into the aims of science**. London : Hutchison, . 99-115.

Waters, R. H. (1958). Behavior : Datum or abstraction ? **Amer. Psychologist**., 13, 278-282.

الفصل السادس:

Burt C. (1960). Logical positivisn and the concept of consciousness. **Brit J. Statist. Psychol**., 13, 55-70.

Caldin, E. F. (1949). **The power and limits of science**. London: Chapman and Hall.

Heisenberg, W, & E. Schrodinger . et al. (1961). **On modern physics**. New York: Collier, 1-66.

Matson, F. W. (1964). **The broken image**. New York : Braziller, 31- 45.

Tamm, T.W. (Ed) (1964). **Behaviorism and phenomenology: Contrasting bases for modern psychology**. Chicago: University of Chicago Press.

Weaver, W. (1964). Scientific explanation. **Science**, 143 (3612), 1297-1300.

الفصل السابع :

Ginsberg, A.(1955). Operational definitions and theories. **J. Gen. Psychol.,** 52, 223-245.

Scheerer, M. (1958). On the relationship between experimental and non- experimental methods in psychology **. psychol Res.,** 8, 109-116.

Valois, A. J. (1960). **Study of operationism and its implications for educational psyhchology**. Washington, D C: Catholic University Press.

الفصل الثامن :

Holt, R. R. (1964). Imagery: The return of the ostracized. **Amer. Psychologist**., 19, 254-264.

Johnson, E. P. (1956). On readmitting the mind. **Amer. Psychologist.,** 11, 712-714.

Koch, S. (1961). Psychologiclal science versus the science-humanism antinomy: Intimations of a significant science of man. **Amer. Psychologist**, 16, 629-639.

Kuenzli, A. E. (Ed). (1959). **The phenomenological problem**. New York: Harper and Row, Chaps. 1, 2, 5,12.

Morris, C. (1956). **Varieties of human values**. Chicago: University of Chicago Press.

الفصل التاسع :

Dukes, W. F. (1955). Psychological studies in values. **Psychol bull.,** 52, 24-50.

Maslow, A. H. (1963). Fusion of facts and values. **Amer J. Psychoanal**., 23, 117-131.

Watson, G. (1958). Moral issues in psychotherapy. **Amer. Psychologist**, 13, 574-576.

الفصل العاشر :

Allport, G. W. (1961). **Pattern and growth in personality**. New York: Molt, 275-307.

Frankl, V. E. (1962). Existential humanics and neurotic escapism. **Universitas**, 273-286.

Kimball, W. L. (1962). Mental health and selective detachment from culture. **J. Humanist . Psychol**., 2 (1), 80-88.

Szasz. T. S. (1960).The myth of mental illness. **Amer. Psychologist,** 15, 113-118.

الفصل الحادي عشر:

Allport, G. W. (1962). Models for guidance. Harv. Educ. Rev., 32, 373- 381.

Curran, C. A. (1963). Counseling, psychotherapy and the unified person. **J. Relig. Hlth.,** 2, 95-111.

Frankl, V.E. (1961). Dynamics, existence and values. **J. existent. Psychiat.,** 2, 5-16.

Mowrer, O. H. (1964). Science, sex and values. **Personnel Guid. J.,** 42, 746-753.

Murphy, G. (1955). The cultural content of counseling. **Personnel Guid. J.,** 34, 4-9.

Rychlak, J. F (1964). Control and prediction and the clinician. **Amer. Psychologist**, 19, 186-190.

Schneider, A. A. (1961). Religion and psychological health – A new approach. **J. Existent . Psychiat.,** 5, 93-104.

Williamson, E. G. (1961). Value commitment and counseling. **Teachers Coll. Res**., 62, 602-608.

الفصل الثاني عشر :

Gardner, J. W. (1963). **Self-renewal: The individual and the innovative society.** New York: Harper and Row.

Huxley, A. (1932, 1946). **Brave new world**. New York: Harper and Row.

Luijpen, W. A. (1960). **Duquesne studies, philosophical series,** Vol. 12 Pittsburgh: Duquesne University Press, 260-355.

Maslow, A. H. (1961). Existential Psychology – What's in it for us? In Rollo May (ed), **Existential psychology**. New. York: Random House, 52-60.

Teilhard de Chardin, P. (1964). **The future of man**. New York: Harper and Row.